وزارة التعليـــم العالـي والبحـث العلمـي

جامعة الجزائر

معهد الآثار

تطورالعمران الإسلامي
مدينتا القيروان وسجلماسة نموذجا

(دراسة تاريخية عمرانية)

***

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه الدولة
في الآثار الإسلامية

إعداد الطالب :
مبارك بوطارن

إشراص‍ف
أ.د الح بن قربة

السنة الجامعية
2005 - 2006

شكــر و تقديـر

يشرفني أن أتوجه بخالص عبارات الشكر والتقدير إلى أستاذي الفاضل الدكتور صالح بن قربة الذي أتاح لي بسعة علمه ومعرفته الدخول إلى العمران الإسلامي من أوسع أبوابه، ومكنني بخبرته الطويلة من اجتياز عقبات هذا العمل الشاق مانحا إياي جزءا هاما من وقته الثمين طيلة بضع سنوات سبقت ولادة هذه الأطروحة، فشكرا جزيلا له على ما ذكرته وما لم أذكره من فضله عليّ. كما أتقدم بجزيل الشكر إلى أعضاء لجنة المناقشة على تقبلهم قراءة هذه الرسالة رغم كثرة مشاغلهم، فلهم جزيل الشكر مرة ثانية، والشكر موصول أيضا إلى كل من قدم لي يد المساعدة من قريب أو من بعيد، فلكل هؤلاء أقول شكرا لكم على ما أسديتموه لي من نصائح أو ما قدمتموه لي من مساعدات.

***

إهداء

- إلى **روح أبي**
- إلى أمي أطال الله في عمرها.
- إلى زوجتي وأولادي أهدي ثمرة جهدي.

المقدمـــــــــــــــــة

المقدمـــة:

ساهمت المدن الإسلامية مساهمة كبيرة في نشر الإسلام وتركيـــزه فـــي المناطق المفتوحة، وقد جاء إنشاء المدن من طرف الخلفاء الراشدين فـــي الأيـــام الأولى لظهور الإسلام ليخدم الأهداف الإستراتيجية التي رسمها هؤلاء القادة، ذلك أن ظهور هذه الرسالة السماوية في مكة لم تكتسب قوتها إلا بعد هجرة المســـلمين إلى يثرب وإنشائهم لمجتمع إسلامي بها. ولم يعرف الإسلام انتشارا واسعا وثابتـــا في البلاد المفتوحة إلا بعد تأسيس معسكرات، – تحولت مع مرور الزمن إلى مدن كبيرة – فقد توجت فتوحات العراق بإنشاء مـــدينتي البصـــرة والكوفـــة لتكونـــا معسكرين للجند العرب الفاتحين لتأكيد الفتح، ولـــم تســـتقر الأوضـــاع لصـــالح المسلمين في مصر إلا بعد تأسيس مدينة الفسطاط التي أصبحت قاعدة ينطلق منها المسلمون لمواصلة الفتح نحو بلاد المغرب. كما أن المسلمين لم يتمكنوا أيضا من السيطرة على بلاد المغرب إلا بعد أن أسسوا بها مدينة القيـــروان لتكـــون لهـــم معسكرا يستقرون فيه وينطلقون منه لمواصلة الفتوحات.

إن هذه الإستراتيجية التي اعتمدها الخلفاء الراشدون في عملية الفتح، هـــي التي كانت السبب في نشوء عمران عربي إسلامي، استمد قواعـــده مـــن الـــدين الإسلامي الحنيف الذي جاء من أجل خدمة الإنسان وترقيته اجتماعيا .

لقد حاولت بعض الدراسات الغربية حول العمران الإسلامي، التقليل مـــن شأن المسلمين في فهم المدينة ونظرتهم في تأسيس المدن، وحاولت إظهار المدينة الإسلامية بمظهر الفوضى وعدم التناسق، ولم تقف عند هذا الحد، بل وصل بهـــا الأمر إلى اعتبارها حدثا عفويا واعتباطيا جاء عن طريـــق المصـــادفة، وهـــيكلا فوضويا لم ينشأ على قواعد عمرانية واضحة، ولا يخضع لإستراتيجية عمرانيـــة محددة ، فهو في نظرهم يفتقر إلى كل مقومات العمارة والعمران.

والحقيقة أن النظام العمراني للمدينة الإسلامية لم يأت هكذا اعتباطا كما وصفته الدراسات السابقة، وإنما جاء لكي يخدم الأهداف السامية التي من أجلها ظهرت رسالة الإسلام، وليستجيب للمتطلبات الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع المسلم.

ورغم هذه المكانة السامية التي حازها العمران الإسلامي بين عمران الحضارات القديمة، إلا أنه لم يحظ بالقدر الكافي من الدراسات، خاصة من طرف الباحثين العرب، وأن ما وجد حاليا من دراسات حوله، إنما قام بإنجازها الباحثون المستشرقون، الذين وإن حاولوا الإساءة له عن قصد أو عن غير قصد ، إلا أننا لا ننكر فضلهم في إبراز بعض معالم العمران الإسلامي.

وبالإضافة إلى هذا فإن هذه الدراسات لم تتناول العمران الإسلامي كوحدة متكاملة، من جميع جوانبه ولم تضعه في إطاره المكاني والزماني، ولم تحاول ربطه ببيئته وغيره من المدن الإسلامية الأخرى، بل تركزت حول مدن معينة دون غيرها، كما تناولتها بصفة مستقلة عن بعضها البعض، حيث قل ما نجد ــ حسب ما أمكننا الإطلاع عليه من الكتب ــ دراسة متكاملة تتناول العمران الإسلامي من جوانبه الجغرافية والتاريخية في منطقة انتشار الإسلام، وعقد مقارنات بين مختلف هذه المدن لإبراز التأثيرات المتبادلة بينها. ذلك هو حال العمران الإسلامي بين بلادي المشرق والمغرب، فكلاهما مرتبط بالآخر كما تبينه المصادر التاريخية في أكثر من موضع، ومع ذلك فإن أغلب الدراسات التي تناولت العمران المشرقي أو المغربي تناولته بمعزل عن الآخر، فأظهرت كلا النوعين وكأنه مستقل عن الآخر.

لقد حاولت هذه الدراسات أن تظهر العمران المشرقي بخصائص تميزه عن العمران المغربي، وكأن النوع العمراني الثاني لا علاقة له بالأول، رغم أن مؤسسيه أغلبهم عربا قدموا في القرن الأول من بلاد المشرق مع الفتوحات الإسلامية.

استرعت انتباهنا هذه الأوصاف التي نعت بها العمران الإسلامي عامة، ومحاولة التمييز بينه، وإظهار عمران كل منطقة جغرافية من البلاد الإسلامية بنموذج خاص به، ومحاولات المستشرقين طمس كل معالم هذا العمران، وتشويه هويته العربية الإسلامية. فدفعتنا إلى البحث في الأصول الأولى للعمران الإسلامي، وفي قواعده، وفي علاقته بعمران الحضارات القديمة، فوقع عليه اختيارنا كموضوع لهذه الدراسة.

يتناول هذا الموضوع بالدراسة تطور العمران الإسلامي منذ نشأته، ونظرا إلى العدد الهائل من المدن الإسلامية التي أنشئت، والتي لا يتسع الوقت لدراستها

كلها نظرا لشساعة الموضوع، ونظرا أيضا إلى أن عمران بلاد المغرب لم يحظ باهتمام الدارسين، فقد اقتصرنا في هذه الدراسة على بعض النماذج من المدن العربية الإسلامية المشرقية والمغربية مع التركيز على عمران بلاد المغرب ، ومعتمدين في دراستنا على ما احتوته المصادر التاريخية وكتب الجغرافيين و" البلدانيين" العرب من معلومات وإشارات تكون أساسا لدراستنا، كما حاولنا قدر الإمكان الوقوف على معالم هذه المدن في عين المكان للإطلاع عن قرب على عمرانها ومقارنته بما ورد ذكره في المصادر القديمة، ولاستكمال بعض النقائص التي لم يرد ذكرها.

لقد قمنا بمجهودات كبيرة للوصول إلى أهم هذه المصادر، كما قمنا بزيارات ميدانية قادتنا إلى كل من مصر للإطلاع عل الفسطاط، وسوريا للاطلاع أيضا على مدنها الإسلامية، كما جلنا ببلاد المغرب للوصول إلى المدن التي قمنا بدراستها، وقد عمدنا في عملنا هذا إلى دراسة العمران القديم للأمم التي دخلت إلى الإسلام وكوّنت أرض الخلافة، فتطرقنا إلى عمران بلاد ما بين النهرين، وقدمنا النماذج العمرانية التي عرفتها هذه الدول والتي ستكون لا محالة الإطار الذي سينشأ فيه العمران العربي الإسلامي.

لقد اهتمت الدول بالعمران في أرض الإسلام في الوقت الحاضر، فنظمت حوله الكثير من الندوات والملتقيات العلمية حيث تناولت بالدراسة هذا العمران قديما وفي المرحلة الإسلامية، وطرحت أثناءها إشكاليات مختلفة وفرضيات عديدة. ويظهر أن الحديث عن العمران الإسلامي وخاصة في المرحلة المبكرة يبقى صعبا لقلة الحفريات التي عادة ما تؤكد ما جاءت به المصادر على اختلاف مصنفاتها أو تضيف إليها أشياء جديدة. ورغم هذا كله فإن الدراسات المعاصرة بدأت تعطي ثمارها في العديد من المواضيع التي تتناول التطور العمراني في البلاد الإسلامية.

واعتمادا على ما سبق حاولنا ربط العمران الإسلامي بما سبقه من العمران من خلال عقد مقارنات بينه وبين عمران الحضارات السابقة التي يزعم الدارسون الغربيون أن العرب اقتبسوا منها الكثير في مجال العمران، كما قارنا بين عمران مختلف البيئات الإسلامية التي نشأت بها هذه المدن إدراكا منا بحقيقة أن العمران الإسلامي قد امتدت إليه تأثيرات العصر الجاهلي بحكم أن الإسلام ظهر بهذه

المنطقة الجغرافية.

وقد قسمت الموضوع إلى خمسة فصول مهدت لكل منها بمقدمة عرفت فيها بموضوع الدراسة وأنهيت كل فصل بملخص موجز تعرضت فيه لأهم النتائج التي توصلت إليها.

وقد تناولنا في الفصل الأول التراث العمراني لبلادي المشرق والمغرب القديمين، فالواقع أن دراسة العمران الإسلامي موضوع حيوي وفعال، وأن البحث في نشأته وتطوره لا يكتمل دون العودة إلى التراث الحضاري العربي القديم بصفة خاصة، وتراث الحضارات القديمة الأخرى لقربها من المجال الجغرافي الذي نشأ فيه بصفة عامة.

ومن هذا الباب، بدا لنا أنه لا مناص من التعريف بعمران الحضارات القديمة (عمران بلاد النهرين، ومصر، وبلاد اليونان، وشمال إفريقيا) القريبة من منطقة نشوء العمران الإسلامي أو التي نشأ على أراضيها لنرى مدى تأثيرات هذا العمران على العمران الإسلامي من عدمها.

أما الفصل الثاني فقد خصصناه لعمران شبه الجزيرة العربية بحكم أن العمران الإسلامي نشأ وسط هذا العمران، بل أكثر من هذا فقد صقل العمران الجاهلي بالعمران الإسلامي، فكانت هذه الفترة بمثابة المرحلة التي نقلت عمران شبه الجزيرة العربية ممثلا في مدينتي مكة والمدينة المنورة، من عمران سابق للإسلام إلى عمران إسلامي. وعملنا من خلاله على إظهار قوة تأثير العوامل المناخية والتضاريسية في توجيه نسيجه العمراني وفي تحديد نموه وتطوره، وقد حاولنا قدر الإمكان ومن خلال النموذجين السابقين، العمل على إبراز الظروف التي ساهمت في ظهور هذا العمران أو وقفت ضده.

تعد مدينتا مكة ومجمع قرى يثرب من أهم مدن بلاد الحجاز ، فهاتان المدينتان بالإضافة إلى أنهما ستلعبان دورا هاما في الإسلام، فإنهما ستصبحان مدينتين مقدستين يزورهما كل مسلم إذا أراد الحج، الأمر الذي سيمكن الباحث فيما بعد من الاطلاع على أدب جغرافي وتاريخ عظيم حول هاتين الحاضرتين.

لقد بينا في بحثنا هذا مدى التصاق عامل التجارة والحج بعمران مكة في الجاهلية والإسلام، حيث جاء مخططها يحمل وظائف المدينة المختلفة مبرزا وظيفة الحج حيث ظهرت مكة أي البيت الحرام وأحوازها، فجاء مخطط المدينة

موحدا ونسيجها العمراني مركزا، بينما جاءت يثرب على عكس ذلك لاعتمادها على الزراعة في اقتصادها أكثر من التجارة.

أما المدينة المنورة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد وصفها الجغرافيون والمؤرخون على أنها مجموعة من الآطام المتباعدة ، فكل حصن له سوقه وعناصره العمرانية المختلفة، وقد يرجع ذلك إلى كون الأراضي الزراعية المسقية قد وظفت لإنتاج ما يحتاجه أهل المدينة من غذاء، بينما استغلت الأراضي الموات العالية لأغراض أخرى وللبناء والإنشاء. ثم إن عدم وجود حكم مركزي بيثرب، وتناحر قبائلها الأساسية المكونة لمجتمعها من أوس وخزرج ويهود، قد دفع بالنسيج العمراني للمدينة لينشأ على شكل أرخبيل متفجر.

وقد تحدثنا في الفصل الثالث عن نشوء العمران الإسلامي أو ما يعرف بمدن الهجرة، كالبصرة والكوفة بالعراق، والفسطاط بمصر، ذلك أن هذه المدن تمثل أول نموذج لنشوء العمران الإسلامي على أرض بكر. والهدف من دراسة هذه المدن هو تحديد المعايير الأساسية التي يقوم عليها العمران الإسلامي، وهل كانت تمثل بذاتها نموذجا لعمران إسلامي جديد، أم أنها جاءت كتقليد لعمران المدينة المنورة، مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم . ذلك أنه لا يجوز لأي كان أن يقفز على هذه المرحلة الهامة من تاريخ نشوء العمران الإسلامي دون الرجوع إليها للاعتبارات السابقة.

إن ميلاد المدن الإسلامية الأولى، والتغييرات التي أدخلها المسلمون على عمران المدن المفتوحة يبقى من الأمور الصعبة التحديد بالنسبة للباحث، علما أن أسلمة الأراضي المفتوحة وتأكيد فتحها تم عن طريق بناء المدن والحواضر.

لقد لعبت العديد من المدن التي أنشئت في مرحلة ما قبل الإسلام دورا مهما في تسيير أقاليمها وإدارتها، وكانت مراكز مهمة لتطوير العمران وإعطائه صفته الإسلامية، كيف لا ؟ ودمشق عاصمة الدولة الأموية هي من أقدم مدن الشرق الإسلامي، وكيف لا ؟ ويثرب مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، والمخبر الأول الذي سيظهر فيه ما يسمى بالعمران الإسلامي، هي من المراكز العمرانية القديمة. لكن رغم هذا كله فإن الدولة الإسلامية ما إن تمكنت من توسيع دائرة الفتح حتى بادرت إلى إنشاء المدن منذ الوهلة الأولى، وما البصرة والكوفة والفسطاط إلا نتاج لتجربة الرسول صلى الله عليه وسلم العمرانية في المدينة المنورة، ومثالا

للفكر العمراني الإسلامي، فهي مثال صادق عن العمران الإسلامي الأصيل لأنه جاء على أرض عذراء، فظهر كما أريد له أن يكون.

وقد تأثرت هذه المدن الأولى تأثرا كبيرا بالنشاط السياسي الذي ميز المرحلة التاريخية الإسلامية الأولى(مرحلة الفتح) ، وبما كان ينتظر منها أن تقوم به من وظيفة عسكرية وإستراتيجية.

وبعد ذلك انتقلنا بالحديث في الفصل الرابع إلى نشوء العمران الإسلامي وتطوره في بلاد المغرب، وقد اعتمدنا في دراستنا على مدينة القيروان كونها أول مدينة إسلامية أنشئت في بلاد المغرب، فهي تعتبر أساس كل دراسة لعمران هذه الرقعة الجغرافية من بلاد الإسلام، باعتبارها أول تجربة عمرانية إسلامية في بلاد المغرب. فهي تعد أم قرى بلاد المغرب، ومدينة عقبة بن نافع الفهري الصحابي بالمولد، ومدينة الهجرة الوحيدة التي أسست ببلاد المغرب الإسلامي.

إن مدينة القيروان أسست قبل كل شيء لتقوم بوظيفة أساسية في عهد سيدنا عقبة بن نافع، أي لدعم عملية الفتح ولتكون معسكرا تنطلق منه القوة الفاتحة، ومركزا يجد فيه المجاهدون وعوائلهم أسباب الراحة والتداوي ومخزنا للميرة والسلاح، ومكانا يجد فيه الفاتحون مجالا للراحة واستعادة قواهم.

وعلى الرغم من أن هذه المدينة قد أسست في زمن معاوية بن أبي سفيان، فقد روعي في تأسيسها الشروط التي حددها سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما أمر بتأسيس مدينتي البصرة والكوفة، فمصرت على حافة الصحراء، لأن سيدنا عقبة رضي الله عنه لم يكن قد افتتح بعد المناطق الشمالية لتونس التي كانت آنذاك ما تزال تحت السيطرة البيزنطية، ولأن بلاد المغرب الأوسط لم تكن في هذه الأثناء قد دخلت في إطار الفتح الإسلامي، فهي أرض البربر ، ولم يتمكن العرب من فتحها إلا بعد عناء كبير في عهد حسان بن نعمان وموسى بن نصير.

لقد جاء عمران مدينة القيروان الأولى مشابها في كثير من أوجهه لعمران مدينتي البصرة والكوفة، فالمدينة المعسكر قد أسست في موضع مفتوح لا يحده سور ولا حاجز طبيعي، الأمر الذي مكن مؤسسيها من إعطائها الشكل الذي يريدونه، ثم إن المصادر عندما تتحدث عن عمران البصرة والكوفة، فإنها تولى

اهتمامها لوصف الموضع الذي ظهر فيه هذا العمران الأصيل، والذي كان في بدايته بسيطا من حيث الشكل ومادة البناء. ففي الكوفة والبصرة استعملت مادة القصب في إنشاء المدينة، بينما اختلطت في القيروان الأولى مباني الطوب بخيام الشعر والصوف.

تمكنت مدينة القيروان من التطور والنمو رغم أن ظروف موقعها الجغرافية صعبة للغاية، ذلك أن المدينة قد أنشئت في موقع شحيح من حيث الموارد المائية، وتعرف أرضه جفافا مستمرا. وعلى الرغم من هذا فقد تمكن سكان القيروان من إنشاء عمران متميز، وعملوا على تزويد مدينتهم بما تحتاجه من ماء وميرة بتقنيات أظهرت حذقهم الكبير في عمارة المنشآت المائية.

عرفت المدينة تطورا كبيرا في عهد حسان بن نعمان وموسى بن نصير، وما أن جاءت الفترة الأغلبية إلا وقد تبوأت هذه المدينة مكانة أم قرى المغرب وأهم مدنه، حيث تذكر المصادر المختلفة أن عمران القيروان كان يضاهي عمران البصرة والكوفة والفسطاط في العهدين الأموي والعباسي.

لقد بلغت القيروان أوج اتساعها وقمة نموها في العهد الزيري، حيث أصبحت حاضرة تضم أكثر من مليون فرد على حسب بعض الدراسات الحديثة.

شهدت مدينة القيروان ظهور العديد من المدن الأميرية حولها جاءت لتؤدي أدوارا مختلفة، تحالفت بعضها مع القيروان، وساهمت مساهمة فعالة في نموها مثل مدينتي القصر القديم ورقادة، بينما جاءت صبرة المنصورية كضرة للمدينة، عملت على إخماد إشعاعها الثقافي، وعلى إضعافها من الناحية التجارية والاقتصادية حيث عمد الفاطميون إلى إنشاء سور حول المدينة بحيث أصبح لا يمكن إدخال أي شيء إليها دون المرور على مدينة صبرة المنصورية التي كانت مسيطرة على زمام الأمور، بينما أمست القيروان خاضعة لها. وقد ظهرت سيطرة مدينة صبرة المنصورية السياسية والاقتصادية على مدينة عقبة بن نافع حيث حوصر أهلها بسورين متوازيين يربطان بين القيروان وصبرة.

لقد جاءت مدينة المهدية أيضا، وهي من المدن التي أسست في العهد الفاطمي لتكون قاعدة بحرية عظمى، ومدينة ملكية تقطنها السلطة. فأنشئت في موضع استراتيجي، في شبه جزيرة يحيط بها البحر من الجهات الثلاث، ويسهل

الدفاع عنها من الجهة البرية. فكانت نموذجا متطورا للعمران الأميري، والمثال الذي سيقتدى به في إنشاء مدينة القاهرة.

ساهمت القيروان مساهمة كبيرة في نشر العمران الإسلامي ببلاد المغرب، فهي المنارة التي أشاعت حضارة الإسلام ببلاد المغرب وطورت عمرانه. ولكن دوام الحال من المحال، حيث جاء الغزو الهلالي ليطفئ نور هذه المدينة، وليخنق اقتصادها ويعيث فسادا في ريفها، فاضطرت السلطة إلى الانتقال منها، وهجر أهل العلم والحرف هذه الحاضرة، وانتشروا في مختلف مدن المغرب ، حاملين معهم علومهم إليها، فساهموا بقسط كبير في تطورها.

راحت أم القرى منذ ذلك الحين تمر بمراحل من الاضمحلال والتدهور أفقدتها مكانتها، فأصبحت مدينة مغربية متوسطة بعد أن كانت حاضرة كبيرة. ولم تصمد السلطات المختلفة الزيرية في افريقية، والحمادية بالنسبة للمغرب الأوسط أمام هذا الزحف، فهجرت هي الأخرى مدنها لتقيم مدنا جديدة على الساحل، أو لتستقر بمدن كانت موجودة من قبل، وهكذا أصبحت تونس عاصمة أفريقية، وبجاية عاصمة للدولة الحمادية.

أما الفصل الخامس فقد عالجنا فيه عمران مدينة سجلماسة، وهي نموذج آخر من العمران الإسلامي في بلاد المغرب، تمثل في العمران الخارجي الصفري والذي وإن كان لا يخرج عن الإطار العام للعمران الإسلامي، إلا أنه نظرا لخصوصية الموقع الذي أنشئت فيه المدينة، ونظرا إلى البيئة التي أسست فيها هذه المدينة، فهي جديرة بالدراسة لما لها من مميزات عمرانية بدءا من الفكرة الأولى لإنشائها إلى أن أصبحت حاضرة إسلامية كبيرة استطاعت فيها أن تخرج من دائرة المدن الجهوية الصغيرة إلى مدينة كبيرة بفضل النظرة البعيدة لمؤسسيها.

والجدير بالذكر فإن مثال مدينة سجلماسة، وتجمعات سكانية أخرى كأغمات، يعطينا نموذجا حيا لمدى الحذق الذي وصل إليه بنو مدرار وغيرهم من قبائل المنطقة في إنشاء عمران يحترم البيئة ويعطي للإنسان حرية كبيرة، وفي تصور الوعاء الذي سيستقر به.

لقد تمكن بنو مدرار من إنشاء عمران متميز على حافة الصحراء في منطقة اشتهرت بجفافها الكبير وبحرها وبقرها.

عمد بنو مدرار عند إنشاء مدينتهم إلى توفير شروط تطورها ونموها فجاءت سجلماسة الأولى حسب الجغرافيون العرب مكونة من مجموعة من القصور نشأت ونمت في محيط واحة سجلماسة الواسعة.

نشأ عمران سجلماسة على شكل أرخبيل توزعت فيه التجمعات السكانية على مساحة كبيرة في الواحة، وجاء النسيج العمراني لسجلماسة محترما لتخطيط قبلي حيث أن كل قبيلة أو فخذ من العناصر المشكلة للمجتمع كان يقطن قصرا من قصور واحة سجلماسة، علما أن مناطق واسعة من الواحة تركت كأماكن لاستقبال القوافل ولتخزين سلعها.

استفادت المدينة استفادة كبيرة من وادي زيز الذي كان ينقل مياه الأطلس الكبير فيسقي بها هذه المنطقة دون غيرها من المناطق الصحراوية، ويلبي حاجة المدينة اليومية.

امتد عمران المدينة الواحة على شكل شريط طولي مع مجرى وادي زيز ونمت في هذا الاتجاه. ذلك أن المدينة الأولى قد أنشئت عند تفرع وادي زيز إلى فرعين فانتفعت من مجراه لتحصينها من البدو والأعداء.

لقد أنشأ بنو مدرار مدينة سجلماسة عندما تكونت الهيئة الاجتماعية والسياسية القابلة لتحمل العمران، أي عندما اتفقت القبائل الزناتية على تكوين دولة تتبنى المذهب الخارجي الصفري أساسا لعبادتها ولحياتها الإجتماعية.

وعندما توحدت هذه الهيئة تحت هذه السلطة ظهرت المدينة في مكان كان في القديم سوقا جهوية موسمية تلتقي فيه القبائل الصحراوية بقبائل الجبال والهضاب لتبادل السلع.

وفّر موقع سجلماسة لمؤسسيها ظروفا قلما تجتمع في موقع آخر، فهذا وادي زيز يأتيها بمياه محملة بالطمي تزيد من خصوبة أرضها. وقد ذكر الجغرافيون هذا الأمر وأكثروا من الثناء على خصوبة أراضيها، ثم إن الوادي وفر للزراعة كميات هائلة من الماء جعلت اقتصاد المدينة ينتفع من هذا المورد أيما انتفاع. ثم أن موقع المدينة كان في قلب منطقة رعوية تكثر فيها الحيوانات الداجنة المختلفة، ولعل أحسن دليل على ما قلناه أن المرابطين حينما وصلوا إلى منطقة سجلماسة اندهشوا لكثرة إبل أميرها. ثم إن المدينة جاءت في نقطة التقاء

الطرق الجهوية والدولية، فهي أهم ميناء صحراوي على قول الجغرافيين ما بين المغرب وأفريقيا جنوب الصحراء، علما أن منطقتها كانت منطقة منجمية تكثر فيها المعادن الثمينة والمعادن الأخرى.

لقد استفادت المدينة من نهر زيز دفاعيا حيث أنشئت أول الأمر بين فرعيه، فكان مجراه يكون خندقا حول أغلب جهات المدينة، ثم إن المدينة لما انتشرت على شكل قصور داخل الواحة أفردت للواحة كلها سورا حصينا يدافع عنها. وقد ورد صدى هذا السور في كتاب الحسن الوزان عند حديثه على سجلماسة.

إن عمران سجلماسة يختلف اختلافا كبيرا عن عمران القيروان ذلك أن عمران القيروان كانت فيه المدينة موحدة مركزة حول مركز واحد هو المسجد الجامع ودار الإمارة.

أما عمران سجلماسة فقد امتاز بحرية كبيرة، طغى عليها الجانب القبلي وطريقة الحكم التي كانت أقل مركزية من طريقة الحكومات التي عرفتها القيروان. إن عمران سجلماسة يعد بحق أروع أمثلة للعمران الذي تمكن من التناغم مع البيئة. وجاء هذا العمران بالنسبة لسكان المدينة أكثر ليونة. فكونوا به مدينة امتازت بلطف جوها وجودة هوائها وخضرة أطرافها، فهي بذلك تمثل المدينة الواحة، ذلك الطراز من المدن الذي ظهرت في الولايات المتحدة في القرن العشرين.

وقد انهينا هذه الفصول بخاتمة جمعنا فيها نتائج البحث.

وقد صادفتنا ونحن نقوم بإنجاز هذا البحث، بعض الصعوبات في الحصول على المادة العلمية ، فعلى الرغم من ندرتها في بعض جوانب البحث، إلا أن المتوفر منها في المصادر التاريخية الموجودة في مختلف المكتبات، أخذ منا وقتا طويلا للبحث عنها ولدراستها واستخراج منها ما يخدم موضوع بحثنا. ولهذا فإننا لم ندخر جهدا في سبيل إخراج هذه الرسالة على هذا الوجه، وأتمنى لما قدمته في هذه الدراسة من عمل فائدة عامة وخدمة للحضارة الإسلامية. وإن كنا ندرك أن بها الكثير من النقائص، كما أرجو أن أكون قد أحسنت في عرض الأفكار وتناولها وتحليلها، وبالرغم من إحساسي أني قد بذلت جهدا في هذه الدراسة، إلا إني على يقين أنه جهد لم يصل إلى الكمال ، لأن الكمال لله وحده، والله المستعان.

الفصل الأول

التراث العمراني لبلاد الشرق القديم وشمال أفريقيا

تمهيد

أولا : عمران بلاد ما بين النهرين.

ثانيا : عمران مصر القديمة.

ثالثا : عمران بلاد اليونان.

رابعا : العمران الفينيقي القرطاجي.

خامسا : العمران الروماني.

تمهـــيد:

كثيرا ما يستعمل مصطلح العمران في كتابات المختصين، وفي الأحاديث اليومية. فماذا يقصد بالعمران ؟ إن هذا المصطلح رغم أنه يعتبر قديما قدم الإنسان على هذه الأرض، إلا أن أول من أستعمله بصفة واضحة وحاول إعطاءه مفهوما محددا فأصبح بعد ذلك متداولا في الأوساط العلمية هو المؤرخ بن خلدون حيث جاء في مقدمته أن العمران أساسه البداوة والخشونة ثم يمر بمرحلة الانتقال من البداوة إلى الحضارة وصولا إلى مرحلة ينسى فيها أهل الدولة عهد البداوة، وقد جاء في كلامه عن العمران:" اعلم أنه قد تقدم لنا في غير موضع أن الاجتماع للبشر ضروري وهو معنى العمران الذي نتكلم فيه."([1]) ويقول في موضع آخر: " تنتقل الحضارة من الدول السالفة إلى الدول الخالفة فانتقلت حضارة الفرس للعرب بني أمية وبني العباس وانتقلت حضارة بني أمية بالأندلس إلى ملوك المغرب من الموحدين وزناتة." ([2])

يفهم من كلام ابن خلدون أن الأمم تؤثر حضاريا في بعضها البعض، وإذا كان الأمر كذلك فإن الغاية من هذا التمهيد الذي خصصته لهذا الفصل إنما أهدف من ورائه إلى توضيح المغزى من اهتمامي بالعمران القديم. فعملا بفكرة انتقال التأثيرات الحضارية من مجتمع إلى آخر رأيت من الأجدر بي التقديم لهذه الدراسة بموضوع التراث العمراني الذي سبق الفترة التاريخية للمنطقة الجغرافية التي أنا بصدد دراستها.

أولا _ عمران بلاد ما بين النهرين:

تؤكد الدراسات العمرانية المعاصرة أن أولى التجمعات البشرية ظهرت في المنطقة العربية بالشرق الأوسط (أي في ما كان يسمى آنذاك ببلاد ما بين النهرين

---

[1] – ابن خلدون، المقدمة، دار الجيل، بيروت، د. ت، ص 335

[2] – المصدر نفسه، ص 192

ومصر وآسيا الصغرى)، ثم انتشرت الحضارة على شواطئ البحر الأبيض المتوسط، وآسيا الصغرى وبلاد الصين ([1]). في حقبة زمنية طويلة امتدت من الألف السابعة قبل الميلاد إلى الألف الأولى قبل الميلاد. وقد كانت هذه الجماعات تتجه نحو إقامة تجمعات بشرية تدور حياتها اليومية حول قلعة، أو قصر، أو معبد، ينشئ حولها بمرور الزمن سور وتحصينات تدفع عنها أخطار المغيرين.([2])

ظهرت المدن العراقية الأولى كمدينة أور، ولكاش، ونيبور، في أول أمرها كمراكز إدارية ودينية تتوسط مناطق ريفية خصبة وشاسعة، ([3]) ثم تحولت تحولات كبيرة مع ظهور بوادر تقسيم العمل في بلاد العراق القديمة، ([4]) حيث نشأت بها طبقة واسـعة مـــن الحرفيين والصناع، عملوا على تلبية متطلبات القصر الملكي، والكنهة، والطبقات الأرستقراطية من المجتمع ([5]) ، كما ساهموا مساهمة كبيرة في تنشيط التجارة بين مدنهم، وباقي مدن بلاد ما بـين النهرين خصوصا، والعالم الخارجي عموما.

والملاحظ أن أغلبية مدن الشرق القديم تميزت بتعدد وظائفها حيث أنها كانت مراكز هامة للإنتاج الحرفي ونقاط تجارية من الدرجة الأولى، مـع كونها تدير أقاليم زراعية شاسعة يمتلك أغلب أراضيها سكان المدن، وهي فوق كل ذلك عواصم سياسية وإدارية ودينية وثقافية لمناطق جغرافية شاسعة.

إن الباحث في عمران الشرق القديم بوجه عـام، وبلاد ما بين النهرين على وجه الخصوص، يجد في مخططي مدينتي نيبور، وأور، وهما من أقدم مدن المنطقة ـــ حيث أسستا على التوالي في القرنين 22 و21 ق م ـــ نموذجا لعمران

---

1 – سلوى سقال، نظريات تخطيط المدن، جامعة حلب، 1993، ص17

2 – نقولا زيادة، المدينة الكلاسيكية في المغرب والمشرق، مجلة الفكر العربي، عدد 29، 1982، ص 64

3 – نكيتا أليسيف، التخطيط المادي، ترجمة أحمد محمد تعلب، أعمال ندوة المدينة الإسلامية، اليونسكو، باريس، 1983، ص 95

.4- H.Fisher, l'aube de la civilisation en Egypte et en Mésopotamie, Paris, 1964, p 99.

5 - Ibid. p.102.

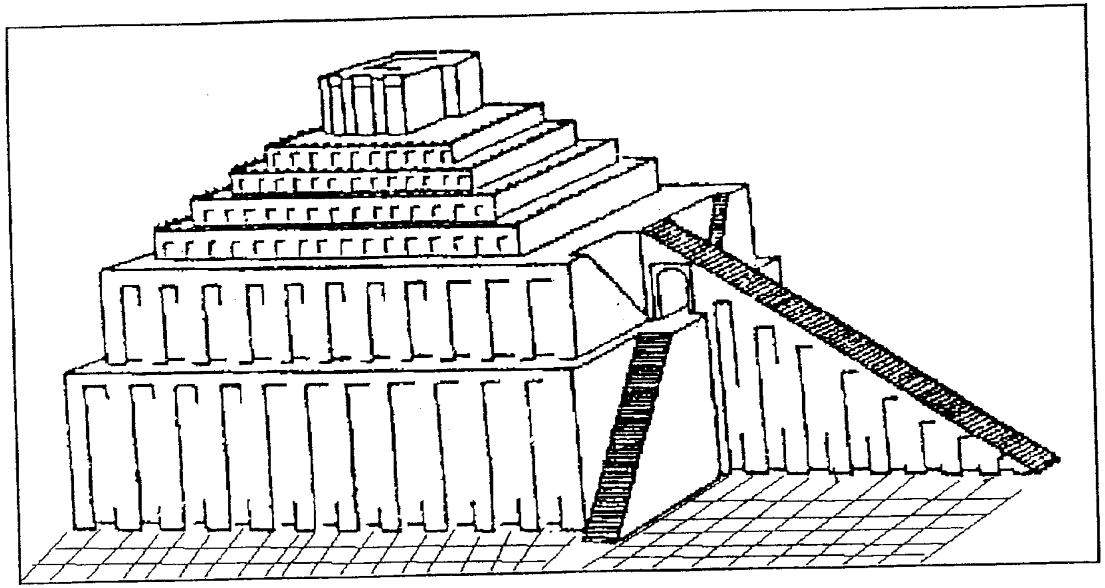
المدن المحصنة لتلك الحقبة ([1]) التي تميزت بمواقعها الإستراتيجية، ذلك أن أغلبها شيد على المرتفعات والتلال وأحيطت بها الأسوار والخنادق. فلمدينة أور سورا وخندقا يحميان مساحة من الأرض استعمل مركزها لبناء القلعة التي يتوسطها هرم مدرج (الزيقورة) (شكل رقم 1) والذي شيد عليه أيضا المعبد وقصر الملك، أما المدينة الأرستقراطية فأنشئت حول القلعة لتكون تحت رقابتها وتسكنها الطبقات الأرستقراطية من المجتمع المسيطرة على المدينة، وبعض من الأغنياء من طبقة الحرفيين الأحرار، كما تنتشر خارج السور والخندق تجمعات عمرانية بسيطة مخصصة للرقيق الذين كانوا يشتغلون بالزراعة.

أما مخططات هذه المدن فهي عموما شبه منتظمة تمتاز بفارق شاسع في المستوى الحضاري، فالأحياء الغنية امتازت بشدة تطورها وتعقيد عمرانها حيث جاءت عمارتها متلاصقة ومتناسقة ذات جمالية أصيلة بينما تميزت الأحياء الشعبية (أحياء العبيد) بمنتهى البساطة وبنوع من الفوضوية علما أن مدن هذه الحقبة كانت دائما وأبدا تبحث عن المواقع الإستراتيجية (التلال والأماكن المرتفعة) كمواضع لتأسيسها، ذلك أن الطبيعة الجغرافية لبلاد الرافدين هي أرض سهلية يكثر فيها الفيضان، ثم إن المواضع العالية سهلة التحصين.

وقد عمد العراقيون القدماء إلى استعمال تقنيات تحصينية معقدة من خنادق، وأســوار، وأبراج بنيت أغلبها بمادة هشة، هي اللبن والآجر لافتقار

---

[1]- J.Cl. Margueron, L.Pfirch,Le proche Orient et l'Egypte antique, Hachette, paris, 1996, p.11



شكل رقم: 1 مبنى الزيقورة

المنطــقة للحجارة. وعلى الرغم من كون الحياة العمرانية قد ظهرت مبكرة في بلاد ما بين النهرين وفي مصر القديمة، إلا أن المدن العراقية القديمة تميزت بخصائص عديدة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: ضيق المساحات المحصنة بالأسوار والخنادق، المخصصة للبناء، مما جعل المدينة (المسورة) تتصف بالتزاحم والتراص في البنيان والضيق، وجعل الأرباض تحيط بها من كل جهة.

كانت غالبية مدن بلاد ما بين النهرين ذات مخططات عفوية، تتحكم فيها المواقع المرتفعة التي تنشأ عليها. لقد أثر المناخ الجاف والحار والرياح الخماسية واتجاهاتها في مخططات مدن بلاد ما بين النهرين، فعمل مؤسسوها على توجيه مسار شوارعها الرئيسية بطريقة تخفف من قوة الرياح الحارة صيفا وتقلل من مضارها. وهذا لا يعني أن شوارع المدينة كانت ملتوية، بل الحقيقة أن هذه المدن حوت شارعا رئيسيا يوصل إلى منطقة القلعة والمعبد والزيقورة. كان هذا الشارع متعامدا مع مجموعة من الشوارع الثانوية التي كانت تربطه بمختلف أنحاء المدينة.([1]) (**مخطط رقم 1**).

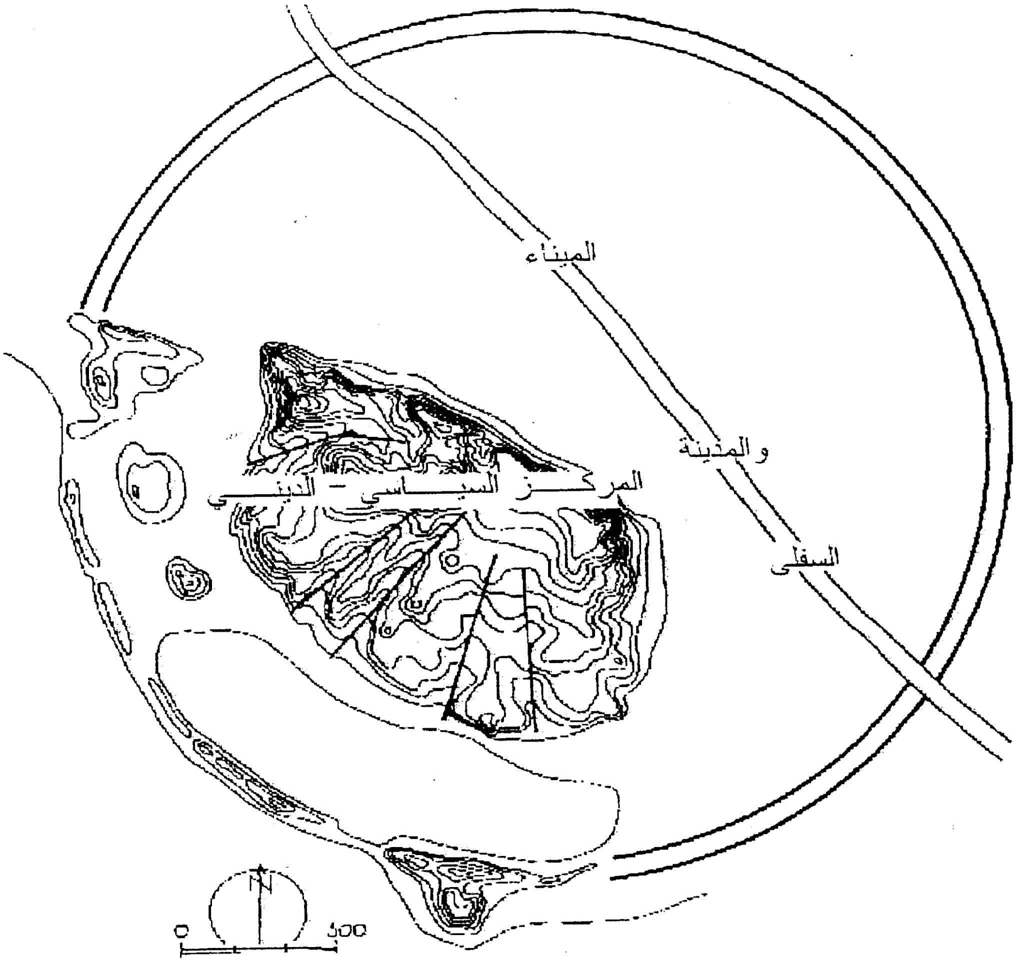
لكل هذه الأسباب، ولأسباب أخرى، كانت الحواضر العراقية القديمة أقل انتظاما من حيث المخطط عن مثيلاتها المصرية، أضف إلى ذلك أنها كانت لا تحتوي على مساحات خضراء ولا على ساحات واسعة، وربما يعود ذلك إلى كونها مبنية من مادة هشة سريعة التأثر بالعوامل الطبيعية من مياه ورطوبة ورياح ونار ([2]). أما بالنسبة لعدم وجود الساحات، فإن ذلك يعود بدون شك، لضيق مساحات الأراضي المخصصة للبناء.

ولتسهيل حياة السكان داخل هذه المدن فقد جهزت بشبكة من القنوات لإيصال مياه الشرب إلى منازلها ومعالمها، كما ربطت كل وحداتها السكنية

---

[1] – نكيتا أليسيف: المرجع السابق، ص 99

[2] – وهذا هو الحال بالنسبة لمدينة بغداد عاصمة الدولة العباسية التي لم تخصص فيها أماكن للمساحات الخضراء، نظرا للضرر الذي تلحقه الرطوبة بالبنيان الطوبي، وكذلك أخليت بغداد من أسواقها بعد أن اشتعلت بها النار ووضعت هذه الأسواق في ضاحية الكرخ خارج أسوار المدينة المدورة.



مخطط رقم1: يبين موقع مدينة ماري

عن: (مشيل بود)

بذاتها (أي أنها لم تتم بطريقة عفوية من قرية إلى مدينة) ([1]). لقد أسست هذه التجمعات العمرانية، من طرف الإنسان المحارب الصياد الذي أصبح مع مرور الزمن ملكا، ثم انتهى به المطاف، كما هو معروف في آخر الأمر إلى الألوهية.

مثلت هذه التجمعات السكانية الأولى في تاريخ البشرية، منذ أول وهلة في عمارتها وعمرانها، وبتنظيماتها الاجتماعية والسياسية عالما جديدا، فهي تجسيد للكون، وترى أنها تصغير له، فكل مدينة منها ترى نفسها مركز العالم وقلبه النابض([2])، ذلك أن هذه المدن سرعان ما دخلت في مرحلة من التنافس الشديد والحروب الطويلة، وعملت كل واحدة منها على السيطرة الكاملة على المدن الأخرى خاصة وأن كل مدينة كانت تمثل إلها، وكان عبدة كل إله يطمحون إلى إخضاع آلهة المدن الأخرى لإلههم.

تعد مدينة أور أقدم مدن المنطقة وكانت هذه المدينة خاضعة للإلهة أنانة (Annanna) ملكة السماء، والإله آن (An) إله السماء وفيها يوجد معبده.

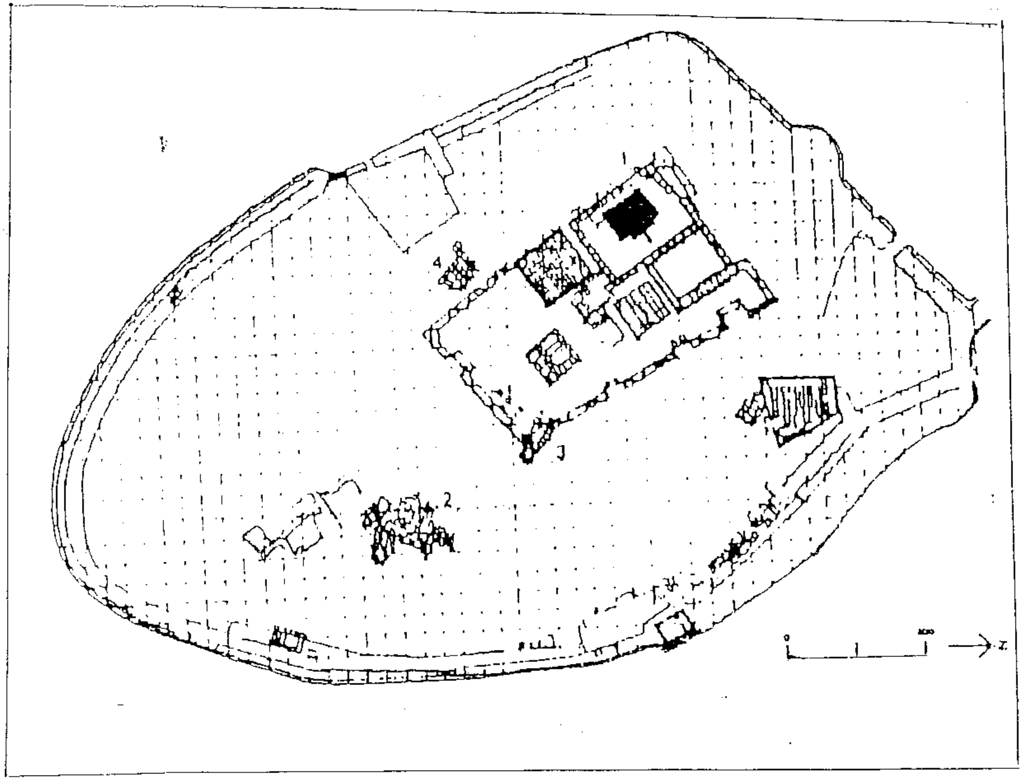
تربعت هذه المدينة على مساحة شاسعة بلغت حوالي خمسمائة هكتار، كما احتوت مراعي وأراضي زراعية كانت محاطة بسور سميك عرضه خمسة أمتار وطوله أكثر من تسعة ونصف كيلومتر، ولما كانت الأبواب عادة ما تمثل نقاط الضعف في السور فقد حددت أبواب هذه المدينة باثنين، أما أبراج المدينة فبلغت أكثر من ثمانمائة برجا. (**مخطط رقم 2**)

---

[1]- Edment Pauty, villes spontanées et villes crées en Islam, communication faite àl'Institut des Hautes Etudes Marocaine,1947, p.p 52-75.

[2] – وهذا ما كان يراه المنصور لمدينة السلام بغداد، حيث كان يعتقد أنها مركز العراق والعراق مركز الخلافة العباسية، والخلافة العباسية مركز العالم. وبما أن قصره كان في قلب بغداد في مركزها الهندسي، بدل الجامع فهو يرى نفسه قلب العالم. أنظر سليم عادل عبد الحق،" تشييد بغداد وأثره في فن العمارة والعمران العربي والعالمي"، الحوليات الأثرية السورية، المجلد13، 1963، ص 4

- George Salmon, Introduction topographique à l'histoire de bagdad, Paris, 1904, p. 22.



مخطط رقم 2: يبين مدينة أور   عن: (سلوى سقال)

يحدد العهد الذهبي لعمران بلاد ما بين النهرين، في الفترة الممتدة ما بين 2800 سنة ق م، و2400 سنة ق م([1])، في حقبة المدن الدول المتخاصمة، (حقبة أوليغارش ماري) حيث بلغت هذه المدن سن الرشد، وظهرت بها مكوناتها الأساسية ([2])، فقد اشتملت المدن السومرية على نفس الملامح العمرانية التي تتميز بها مدننا الحالية من مجموعات سكنية تحدها شوارع ومسالك، ويتخلل هذا النسيج العمراني، معابد، وأسواق، ومدارس، وبناءات إدارية، ومعامل ذات اختصاصات مختلفة...الخ).

وقد استغل ريف هذه المدن للإنتاج الفلاحي،([3]) فاستعمل فيه لأول مرة المحراث، وزرعت به مختلف المحاصيل. وكانت الحبوب تخزن في مخازن يسهر على حمايتها حرس مسلح. وكانت السفن الشراعية تمخر مياه القنوات الرابطة بين هذه المدن محملة بالسلع. وقد تميزت هذه المدن عن القرى بعلاقتها مع ريفها، فبينما عاشت القرى على الأعمال الريفية التي يغلب عليها الطابع الفلاحي، فإن المدينة قد تميزت بتطور اقتصادها المبني على نشاط الخدمات والحرف، ([4]) زيادة على النشاط الزراعي الــذي كــان يأتيها من الريف، فكان هذا سببا في نموها.

---

[1]– Hugo Fisher, op. cit. p 139 et s .

[2] – لم تعرف المدن منذ ذلك العهد تطورا كبيرا من حيث العمارة أوالعمران .

- Ibid. p 146 et s.

[3]- Arnold Toynbee, L'histoire, les grands moments de l histoire à travers le temps, les Civilisations, les religions. Paris/ Bruxelles.1975. p.49.

[4]- J. Ch. Margueron, L. Pfirch, op cit. p. 9

لقد ظهر تقسيم العمل([1]) أول وهلة في مدن هذه الفترة، فزخرت بالاختصاصات المختلفة. فمثلا نجد بمدينة سومر معظم شرائح العمال من الكتاب، والمحاميين، والمهندسين، والمعلمين... إلخ، وهم كثر، ويقدم لنا علم الآثار اليوم من خلال دراسة الألواح الطينية المكتوبة بالخط المسماري، والتي اكتشفت في بلاد ما بين النهرين، معلومات كثيرة ([2]) عن تلك الحقبة، تعرفنا بالأوجه المختلفة للحياة الاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية، والعسكرية لهذه المجتمعات.

كان العراقيون القدماء ([3]) يعتقدون بتعدد الآلهة([4])، وأن الإنسان خلق لخدمتها فهوعبد لها، لا يمكنه أن يتحرر منها، فالعراقي القديم كان يعتقد اعتقادا كليا بألوهية الملك ([5])، فكان لا يعصى له أمرا ولوكلفه ذلك حياته.

بني المجتمع العراقي على أساس نظام معين، وكان الملك الإله حاميا له حيث حددت في إطار هذا النظام العلاقات المختلفة التي تربط بين طبقات المجتمع المكونة لسكان المدينة بما فيها الملك الإله نفسه، كما كانت طائفة الكهنة تستحوذ على كل ثروة وسلطان.

إن هذه المعتقدات ستؤثر تأثيرا بليغا في مخطط المدينة، وفي تـوزيع مكـوناتها العـمرانية والمعمارية المختلفة ([6])، حيث حاول العراقيون القدماء وضع زقوراتهم في أماكن مرتفعة قدر المستطاع، وكأنهم أرادوا بذلك تقريبها من

---

[1] – عن فكرة التقسيم الثابت للعمل أنظر: لويس ممفورد، المدينة على مر العصور، ترجمة إبراهيم نصحي، الجزء الأول، ص 183 وما بعدها.

[2] – اكتشفت لوحات طينية تمثل عقود ملكية، عقود شراء، عقود بيع، ونصوص دينية.

[3] – السومريون والبابليون والأشوريون.

[4] – دي بورج، تراث العالم القديم، ترجمة زكي سوس، الجزء الأول، دار الكرنك، القـاهرة، ص 138 ومابعدها.

[5] – سامي سعيد الأحمد: السومريون وتراثهم الحضاري، بغداد، 1975، ص101 وما بعدها.

– طه باقر، فاضل عبد الواحد علي، عامر سليمان، تاريخ العراق القديم، بغداد، ج 2، 1980، ص 5 وما بعدها.

[6] – إرنست آر ألكسندر، المدخل إلى التخطيط، مدخل إلى نظريات التخطيط المتداولة، ترجمة فيصل عبد العزيز مبارك، جامعة الملك سعود، الرياض، 2001، ص 24.

السماء موطن الآلهة حسب اعتقادهم، وقاموا بمجهودات مضنية للتمكن من هذا الأمر، فسخروا في سبيل ذلك إمكانيات بشرية ومادية كبيرة ([1]) واستحدثوا تكنولوجية متقدمة لبناء مصطبات متراكبة على شكل هرمي يبنى أعلاها المعبد الذي يحوي فراشا وأغذية في انتظار نزول الإله حسب اعتقادهم دائما.

ساهمت شبكات مياه السقي والصرف، ([2]) المنتشرة في أرجاء العراق القديم، مساهمة واسعة في ازدهار العراق اقتصاديا، كونها استخدمت كطرق مائية لنقل السلع. فجعلت منه بلدا متفتحا على الخارج يسهل فيه التنقل. وإذا كانت هذه الطرق المائية قد فتحت العراق على العالم الخارجي، فإنها أيضا كانت في نفس الوقت تسهل عملية غزوه من كل جهة وصوب.

لقد أضعفت الحروب المتوالية التي نشبت بين المدن الدول وأنهكتها ([3])، الأمر الذي سهل احتلالها من طرف الغزاة الساميين، وعلى رأسهم "سرجون" حوالي 2500 سنة ق م. فبعد تمكن هذا الأخير من منطقة واسعة، أسّس مدينة أكاد عاصمة الدولة الأكادية الجديدة. فكان سرجون الأكادي مؤسس أول مملكة سامية قد عمد إلى توحيد البلاد وتنظيمها تنظيما جديدا، اتسم بالمركزية في الحكم، فأصبحت مدينة أكاد عاصمـــة البلاد الأولى، وكان نتيجة هذا التنظيم المركزي ظهور عمارة وعمران جديدين أثر فيهما تأثيرا كبيرا.

فظهرت بالمدينة شوارع تميزت بعرضها الكبير، وبوظيفتها الدينية المحددة، حيث كانت تمر بها الاستعراضات، ([4]) وتقام بها الطقوس الدينية، وأنشئت على جوانبها قصور ضخمة، وفخمة، مزخرفة بالنقوش، ومزينة بأجمل الأشياء والتحف، هدفها تمجيد قوة الملك الإله وسلطته، وكانت موضوعات هذه النقوش تمثل حيوانات مختلفة كالنسر، والأسد، والثور.

---

[1] – Arnold Toynbée, op.cit. P. 49.

[2] – طه باقر وآخرون، المرجع السابق، ص 28.

[3] – هنري فرانكفورد، فجر الحضارة في الشرق الأدنى، ترجمة ميخائيل حوري، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1965، ص 65.

[4] – طه باقر وآخرون، المرجع السابق، ص 41

لقد ولد الفن الأكادي في مناخ خاص، سيطر فيه على خيال فنانيه وحرفييه، سلطة الملك الإله، ([1]) الذي لم يترك الحرية الكافية لهؤلاء للتعبير عن ما كان يختلج في صدورهم، بل جاءت أعمالهم الفنية كنتيجة لطلبات محددة ومقننة.

إن المرور من الإطار العمراني الذي كانت فيه دول المدن مستقلة، لكل مدينة إلهها ([2]) إلى إطار الدولة المركزية الواحدة كان صعبا. حيث أنه كان من الصعوبة بمكان قبول سيطرة إله العاصمة على آلهة المدن الأخرى، بدون إغضاب أهلها، الأمر الذي جعل الكهنة يجتمعون لإيجاد حل لهذا المشكل، فاتفقوا على إخراج مردوق وهوإله قديم قليل الشهرة من الظل، وجعله إله الآلهة كلها. كما احتل معبد هذا الإله والقصر الملكي مركز مدينة بابل ([3])، وقد حفظت لنا قصص الإغريق، والعرب الذين زاروا المدينة أو سمعوا عنها أمورا عجيبة لفتت انتباههم منها جسرا كبيرا كان يربط بين عدوتي المدينة وطوله 900 مترا، وكان مبنيا بالآجر(**مخطط رقم 3**).

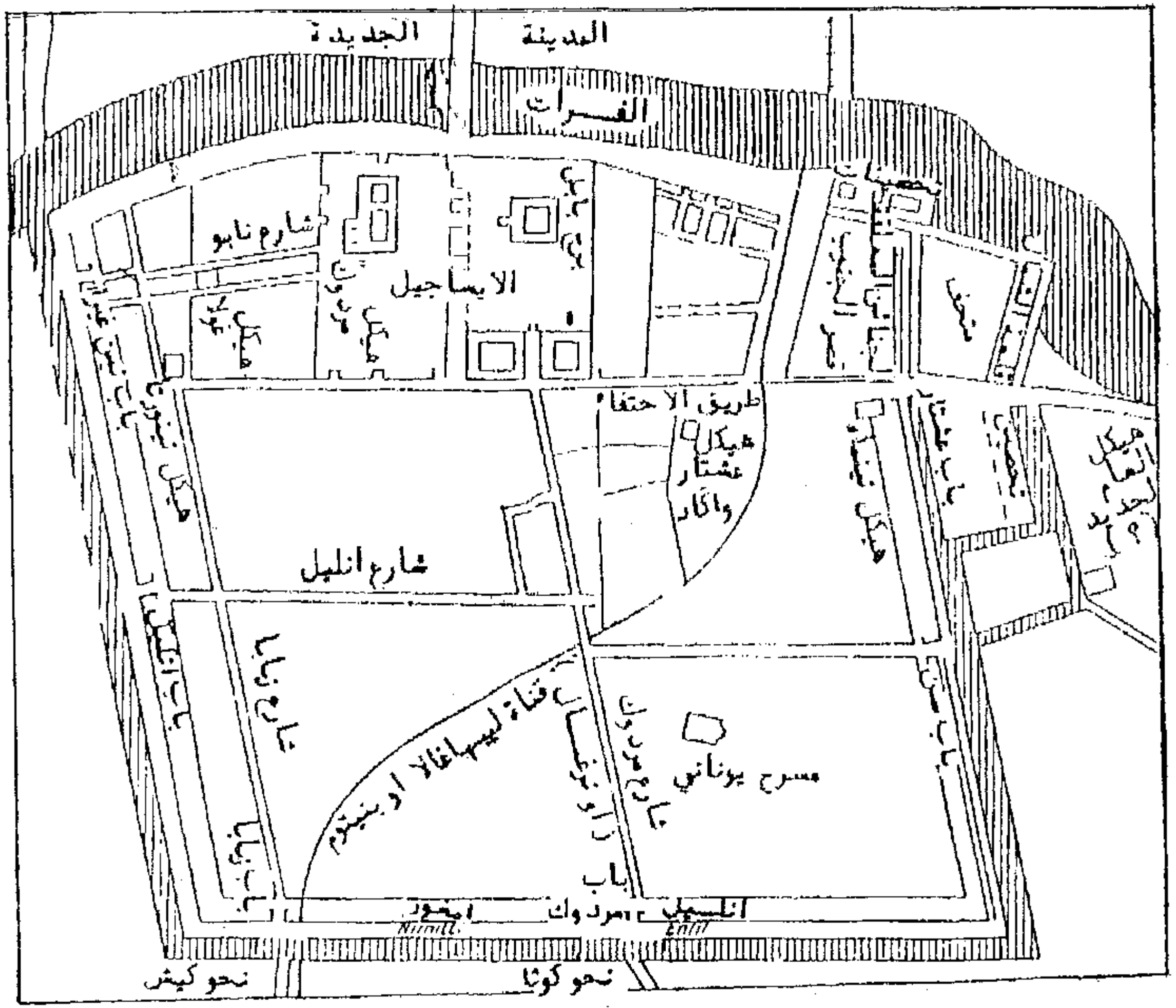
وبما أن عمران المدينة كان عمرانا إمبراطوريا، بالإضافة إلى هذا، كانت تمثل العاصمة الدينية، لاحتوائها على معبد إله الآلهة مردوق، ولما كانت أيضا عاصمة الإمبراطورية البابلية التي تمثل قمة السلطة في العراق. فقد حاكت في عمارتها، وعمرانها، هذا الواقع، فتميزت المدينة بضخامة

---

[1] – سامي سعيد الأحمد، المرجع السابق، ص 126، وما بعدها.

[2] – طه باقر، المرجع السابق، ص 41

2 - La ville neuve une idée de l'antiquité. Les cahiers du groupe scientifique, terrains et théories en archéologie C.N.R.S,Université de Paris, Edition Errance, Paris,1988, p. 12 et 13



مخطط رقم 3: يبين أهم معالم مدينة بابل عن : (سلوى سقال)

معالمها وبشساعة شوارعها. فمعبد الإله كان يتربع على مساحة واســعة، حيــث يتكون من مستطيل أطواله 450 على 550 مترا، أما زقورته المسماة ببرج بابــل **(شكل رقم 2)** فهي مكونة من سبعة طوابق مستطيلة ارتفاعها 90 متــرا، وقــد أحاطت بالمدينة خمسة أسوار تخللتها ست قنوات. كما حوت المدينة على مخزون هائل من المياه على شكل بحيرة اصطناعية. وقد خص الإله مردوق وحده في هذه المدينة ب 55 معبدا، في حين خصت الآلهةالمهمة ب 53 معبدا، كــما بني أكثر من 300 معبد للإلهة الأرضيةالصغيرة، و600 معبد للإلهة السماوية الصغيرة.

لقد وصف لنا هيرودوت ([1]) مدينة بابل بقوله:" بعد أن عبرت من إحدى أبواب المائة، السور التي تحيط بها الخنادق المملوءة بالمياه، بدت لي شوارع مستقيمة تحاذيها بيوت مكونة من ثلاثة إلى أربعة طوابق، كما شيدت المعابد المستطيلة الشكل بمادة اللبن". لقد زينت بابل بمظاهر زخرفية غنية هدفها هوإدخال البهجة على النفوس، والشعور بالخشية في آن واحد.([2])

فالمدخل الرئيسي باب عشتارت كان مزخرفا، يليه الشارع الرئيسي ذوالعشرة أمتار عرضا، الذي كان مخصصا للطقوس الدينية، فهوأيضا كان مبلطا بالحجارة يربط بينها الزفت، وقد وضعت على طرفيه تماثيل لأكثر من 120 حيوانا خرافيا، وهي أنواع من الثيران مصنوعة بالآجر المملط.

لقد اتسمت المدينة بشدة تحصيناتها، فحولها أسوار عديدة يضاف إليها أسوار أخرى تحمي المسلك المقدس والقصر الملكي، مما جعل هذا القصر

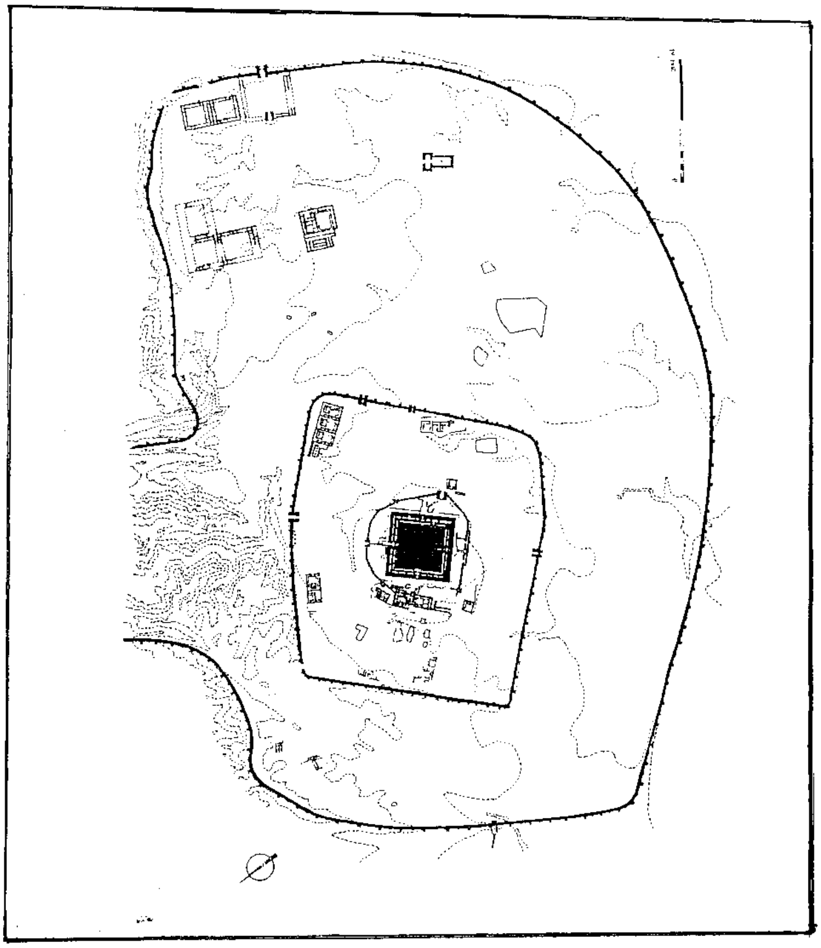
1- مارغريت روتن: تاريخ بــابل، ترجمة، زينة عازار وميشال أبي فضل، بيروت، ص 14 وما بعدها.

_ محمد حماد: تخطيط المدن وتاريخه، مطبعة المعرفة، القاهرة، 1965، ص،ص 98 – 101.

_ طه باقر وآخرون، المرجع السابق، ص 228.

- Michel Ragon, L’homme et les villes, Albin Michel, 1975, p 38.

[2] – حول فكرة تحصين المدن القديمة. أنظر: أرسطو، السياسات، ترجمة الأب أوغسطين بربارة البولسي، اللجنة الدولية لترجمة الروائع الإنسانية، بيروت، 1957، ص 386 وما بعدها.



شكل رقم: 2 وتظهر فيه الزيقورة تتوسط المعبد (عن جون لويس هيو)

يبدو وكأنه داخل المدينة. وأن المدينة ما هي إلاّ عبارة عن ملكية خاصة للملك، وما سكانها إلاّ عبيد للملك الإله، الذي يقرر كل أمورها كبيرها وصغيرها ([1]). فهوالذي يعلن الحرب، وهوالذي يتفق على السلم. والحرب عادة ما تكون وسيلة تستفيد المدينة منها في زيادة عدد العبيد، الذين يستعملون كيد عاملة رخيصة في جميع أنواع الأعمال الشاقة، التي عادة ما يعزف عنها سكان المدينة الأحرار، مما يمكن هؤلاء من ربح الوقت الكافي للقيام بالنشاطات الفكرية والأعمال الترفيهية.

وبجوار قصر الملك الموجود في القلعة. أنشئت الحدائق المعلقة المبنية بطريقة المصاطب، والتي تسقى بنظام دقيق مكون من العديد من السلاسل والأجهزة التي استعملت لرفع الماء إلى أعلى المبنى. لقد كان ملوك بابل من هواة الحدائق، فعندهم ظهرت أول حديقة نباتية، وأول حديقة للحيوانات. أما مخططات بيوت المدينة فكانت مربعة تحتوي فناء داخليا مبلطا، عادة ما يكون بمركزه بئر، كما كانت تستعمل سطوحها للنوم في أيام القيظ، والجلوس فيها في أوقات معينة. ويصعد إلى الطابق الأول منها بواسطة سُلّم خارجي، وكان يحتوي كل منزل من منازل المدينة مرحاضا مبلطا ذا ثقب وسطي.

ثانيا _ عمران مصر القديمة:

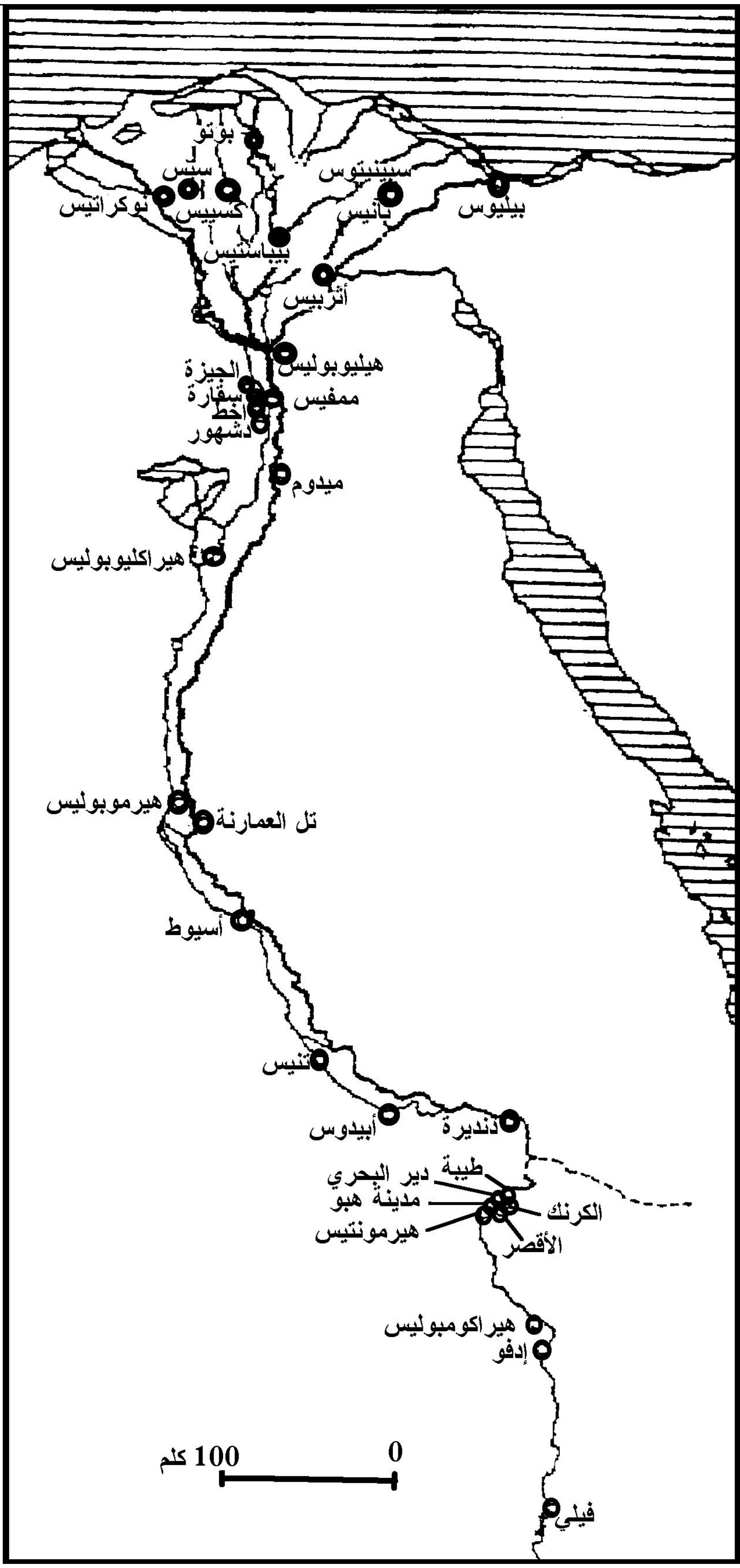
لقد ظهرت بمصر القديمة مدن عديدة في حقبة زمنية مبكرة (**خريطة رقم1**) توزعت على ضفتي نهر النيل، يعود تاريخها إلى الألف الثالثة والثانية قبل الميلاد.([2]) وقد أنشئت في مرحلة بدأ فيها نظام المشايعة، ([3]) يصل إلى مرحلة الأفول في زمن الأسرة الوسطى على وجه العموم. وفي عهد الأسرة الحديثة على وجه الخصوص. وتزامن هذاالأفول، مع

---

[1]– لقد وضعت شرائع كثيرة لتنظيم المجتمع العراقي القديم. أنظر حول هذا الموضوع: فوزي رشـيد، الشرائع العراقية القديمة، بغداد، 1987، ص 16 وما بعدها.

[2] – إرنست أر الكسـندر، المرجع السابق ص، 24.

[3] – يقصد بالمشايعة، المرحلة التي لم تظهر فيها الملكية الخاصة.



خريطة رقم 1: عمران مصر القديمة عن(Vercoutter, J

ظهور طبقة واسعة من الحرفيين والتجار الأحرار الذين عملوا على تلبية الحاجيات المتنوعة والكبيرة، لورشات بناء قصور ومعابد الطبقات العليا من المجتمع المصري([1]).

كما امتاز العمران المصري القديم بالتباين الشديد بين عمارة أحياء الطبقات المختلفة من المجتمع القاطنة بالمدينة، فبينما احتلت مباني المعابد والقصور الفخمة الأماكن المركزية في المدينة، وشغلت مساحات شاسعة.([2]) تزاحمت المباني المخصصة للطبقات الدنيا من المجتمع في أماكن ضيقة على الأطراف، يفصلها عن الأحياء الراقية أسوار عالية.

وقد كان هذا حال مدينة كاهون، ([3]) الأمر الذي جعل سكان هذه الأحياء يشعرون بالضيم الذي دفع بهم إلى الثورة على النظام.

لقد انفردت مدن وادي النيل بتخطيط خاص بها، جعل شوارعها مستقيمة ([4]) وواسعة، حيث تراوح عرض الرئيسية منها مابين 45 إلى 60 مترا، وقد اتخذت هذه الصفة لوظيفتها الدينية التي تعتبر أساسية، فمنها تمر المواكب الكبيرة التي تتزاحم فيها الأعداد الكبيرة من البشر، الأمر الذي تطلب مثل هذا الشكل. وعلى عكس المدن العراقية القديمة فقد سمح المخطط الشطرنجي المنتظم للمدن المصرية من تخصيص مساحات واسعة لإنشاء الحدائق والمساحات العامة، كما كانت الحدائق متواجدة بكثرة في القصور.

---

[1] - J CL Margueron, L Pfirch, leProche Orient et l’Egypte antique, p. 119 et s.

[2] - François Daumas, la civilisation de l’Egypte pharaonique, Arthaut, Paris, 1987, p.394 et s.
- J. CL. Margueron, L. Pfirch, op. cit. p 121.

[3] – لقد أثرت الطقوس الدينية في مدن مصر القديمة على توجيه الطرق، وعلى شكلها واتساعها، أكثر مما كانت عليه في مدن بلاد ما بين النهرين رغم تشابه المناخ في المنطقتين.

[4] - A. Moret, le Nil et la civilisation Egyptienne, Paris, 1926, p. 478 et s.

ويبدو مما سبق أن المعتقدات الدينية كان لها أثر بالغ في مخططات مدن مصر القديمة أكثر منها في مدن العراق القديم، حيث أن المواكب الضخمة المخصصة للاحتفالات الدينيـــة في عهد الفراعنة فرضت على المدن أن يحتوي مخططها شارعا رئيسيا واسعا يكون اتجاهه من الشمال إلى الجنوب، تنطلق على جوانبه العديد من الشوارع الثانوية تتعامد معه وتربطه، في نفس الوقت، بباقي أنحاء المدينة صانعة بذلك مخططا شطرنجيا.

كما أثرت هذه المعتقدات أيضا على مواقع تواجد المقابر، حيث حددت المناطق الشرقية لنهر النيل لتأسيس مدن الأحياء، وخصصت المناطق الغربية من الوادي لعالم الأموات، عالم الخلود.

أثرت الديانة المصرية تأثيرا كبيرا في المجتمع المصري القديم منذ نشأته، فالمصريون القدماء كانوا يؤمنون بالحياة الأخرى، وعملوا كل شيء من أجل تجميد الوقت، وتحدي الموت فأوجدوا إلها خالدا لا يموت، ذلك أن فرعون في معتقدهم إله خالد لا يموت.

لقد عمل المصريون القدماء على تحضير كل شيء لما بعد الموت، فحنطوا جثث موتاهم بشرائط من الشاش، واعتقدوا أن مقابرهم، وتوابيتهم، هي بيوت خلود.

وكما هو الحال في بلاد ما بين النهرين التي يكثر فيها الطمي، فقد بنيت مدن مصر القديمة وقراها أيضا، بمادة اللبن الهشة لوجود الطمي بكثرة في الوادي ولقلة الحجارة به([1]). ومع ذلك فإن المصريين على عكس العراقيين جلبوا الحجارة من المناطق النائية لتشييد قصورهم، ومعابدهم، وأهرامهم ومسلاتهم ([2]).

إن المدن المصرية القديمة عادة ما تؤسس حول رفاة الملك الإله الذي ينام في أحد الأهرامات المحاطة بعدد كبير من المصاطب المخصصة للطبقة الأرستقراطية. وكانت تبني في وديان الموت هذه أحياء للعمال الذين يشيدون

---

1 - J.Cl. Margueron, L. Pfirch, op. cit. p 34.
A. Moret, Op. cit. p. 478.

2 - J. Margueron,Op.Cit.. p. 35.

الأهرامات ثم تبنى معابد وأحياء راقية بها قصور للذين يقومون بالخدمات الدينية، علما أن الفراعنة كانوا يقدمون تسهيلات، وتحفيزات كبيرة، لمن يسرع في البناء في هذه المواقع فتظهر بذلك المدن بسرعة. ([1])

وامتثالا لطقوسهم الدينية واحتراما لروح من سبقهم في الحكم، أنشأ الفراعنة أحياءهم أومدنهم. ففي مدينة ممفيس مثلا زاد كل فرعــون حكم المدينة حيا جديدا إليها في اتجاه الجنوب حتى امتدت المدينة على مسافة خمسة كيلومترات من الجيزة إلى سقارة **(مخطط رقم 4)**. أما مدينة طيبة فتمتد على مسافة خمسة عشرة كيلومترا. وهي في حقيقة الأمر مكونة من عدد من المدن المتجاورة، منها الكرنك والأقصر ووادي الملوك.

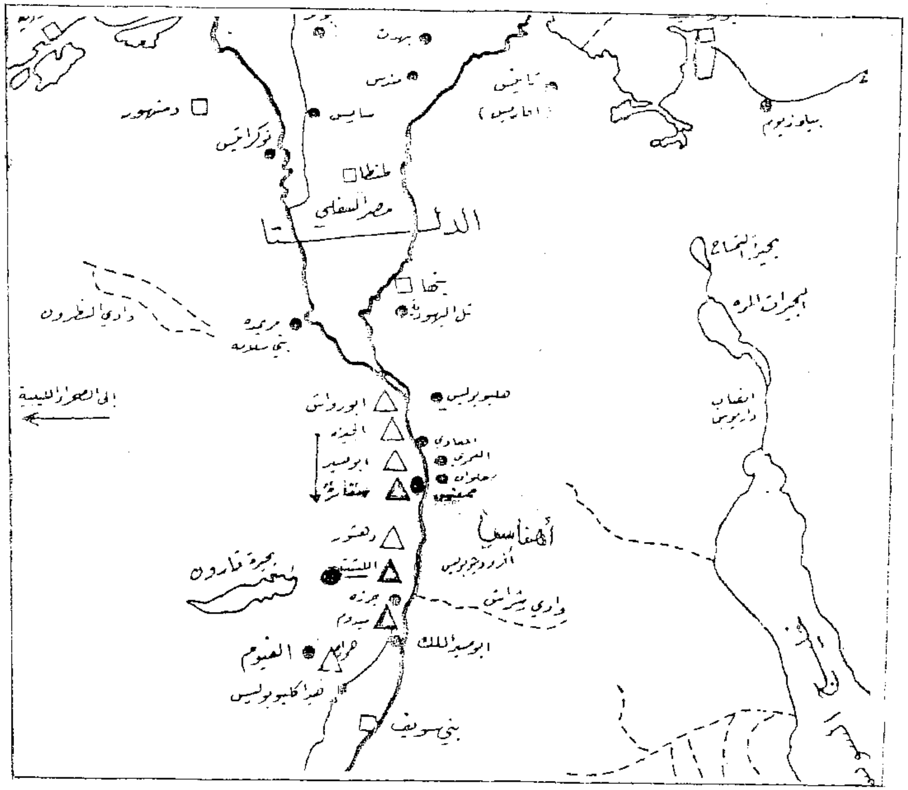
لقد ابتكر المصريون قواعد تتجلى فيها المهارة والحذق في قياس الحقول والأبنية، وكان يهمهم من الهندسة مساحة الأرض، وقد كان للكاهن الكبير لمدينة هليوبوليس والطبيب المنجم إم حتب الفضل الكبير في ابتكار الهندسة المعمارية المصرية، فهو اللذي جعلها تنتقل من عصر الطوب إلى عصر الحجارة بكل ما يعني ذلك من تطورات تكنولوجية في العمارة والعمران ([2]).

إن اكتشاف الفرن في بلاد ما بين النهرين، واستعماله في حرق الآجر، جعل سكانها ينشئون مدنهم الكبيرة، وزقوراتهم الثقيلة، وقصورهم الفخمة، في منطقة قليلة الحجارة، نادرة الغابات إلاّ أن هذه المادة، رغم صلابتها، لم تكن قادرة على مقاومة عوامل الزمن والدليل على ذلك أنه لم يبق لنا من الآثار العراقية القديمة إلاّ الشيء النادر، فالطوب تحلل، وأصبح ترابا والآجر المحروق تفتت، وعلى العكس من ذلك، فإن بقاء الكثير من الآثار المصرية إلى يومنا هذا شاهدة على الدرجة العظيمة التي بلغتها الحضارة المصرية،

---

[1] – François Daumas,,Op. cit. p. 394 et s.

[2] - Paul Petit, André Laronde, Précis d' histoire ancienne, P.U.F, Paris, 1991, p17.



مخطط رقم 4 يبين امتداد عمران مدينة ممفيس عن Vercoutter, J

راجعة أساسا إلى استعمال مادة الحجر المكشوط التي صمدت أمام تقلبات الزمن، كما أن المادة سمحت باستعمالات معمارية، وجمالية، وزخرفية جديدة، وفريدة من نوعها.

لقد كانت طيبة ــ المدينة التي سماها هوميروس مدينة المائة باب ــ سيدة المدن كلها([1]) (**خريطة رقم 2**) ، وكان إله المدينة آمون ([2]) قد عبد بها لمدة ثلاثة آلاف سنة. تقع مدينة طيبة في أعالي النيل ولها قيمة كبيرة في تاريخ مصر القديمة. لقد عمد رمسيس الثاني لتخليد ذكراه في هذه المدينة إلى إنشاء العديد من المعالم المعمارية التي امتازت بفخامتها وضخامتها ([3])، فأحاط معبد طيبة الكبير بأربعة أسوار مقدسة، وكان المعبد يحوي قاعة كبيرة أبعادها 100 في 50 متر، يحمل سقفها أربعة وثلاثون عمودا، ارتفاع الواحد منها 23 مترا، ويوجد بقلب المعبد العديد من القاعات المزخرفة بالفرسك والكتابة الهيروغليفية.

إن العمارة المصرية القديمة غلب عليها الطابع الجنائزي، فكانت القبور تبنى بالحجارة وتغطى بطبقة سميكة من التراب، وكانت الأهرام تتكون من العديد من القاعات والمداخل الوهمية للحيلولة دون وصول اللصوص إلى محتويات القبر. ولتوفير اليد العاملة التي تتولى بناء هذه القبور والأهرامات لجأ الفراعنة إلى إنشاء أحياء سكنية لهؤلاء العمال حول هذه القبور سرعان ما أصبحت مدنا كبيرة.

ثالثا ــ عمــران اليونان:

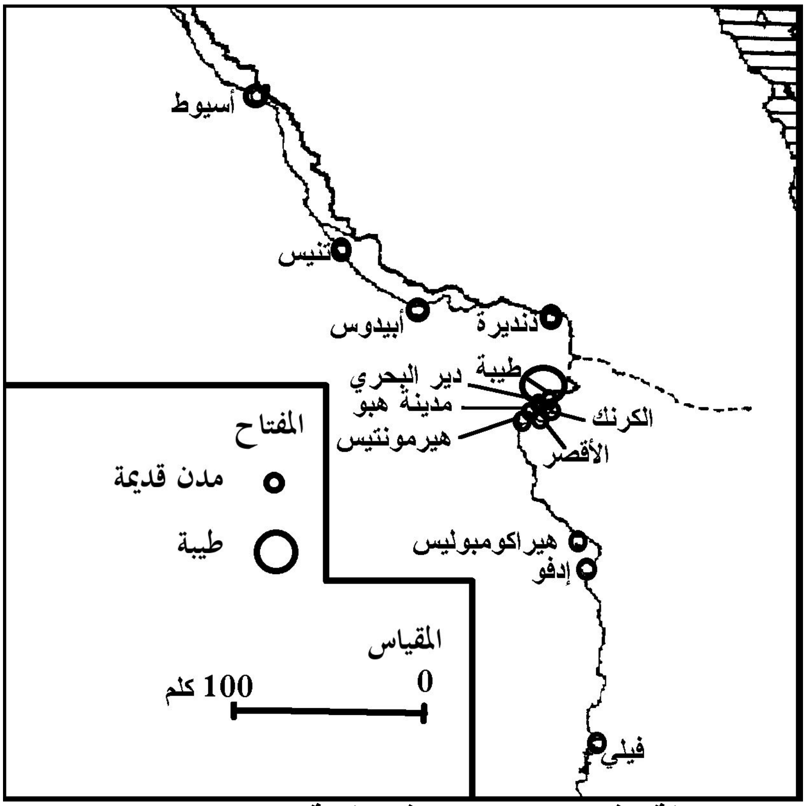
رأينا فيما سبق أن العمارة والعمران نشئا في بلاد الشرق القديم، في جزء ساده حكم الملوك الطغاة حيث أن الملك كان يعتقد فيه أنه هو الإله،

---

[1] - Cyril Aldred, Les Egyptiens, et l’empire des pharaons, Armand Colin, 1985, p.41 et s.

[2] – حسين الشيخ، العصر الهلنيستي (مصر)، دراسات في تاريخ الحضارات القديمة، دار المعرفة الجامعية، الأسكندرية، 1999، ص 143

[3] - Cyril Aldred., op. cit. p 60 et s.



خريطة رقم 2: تحديد موقع طيبة

من إعداد الطالب

وكانت المجتمعات تسيرها طبقة الكهنوت التي تتدخل في دقائق الأمور لتمكن الأمة من السير إلى الهدف المنشود ألا وهو خدمة الملك الإله.

هذه هي الظروف التي نشأ فيها العمران في بلاد العراق ومصر القديمة، وهي مخالفة، كما سنرى للأهواء التي ستظهر بها المدينة في بلاد اليونان([1])حيث ظهر العمران في هذه المنطقة في جو تملأه الحرية والديمقراطية التي تستثني العبيد.

إن المدينة اليونانية مدينة ابتكرها الفرد اليوناني، الذي كانت تربطه بالآلهة التي يعبدها علاقة خاصة ([2]). فلم تظهر هذه المدينة الديمقراطية فجأة (مرة واحدة)، بل تدرجت في النمو والرقي، ومرت هي الأخرى بمراحل عديدة أهمها:

1- مرحلة المدينة الملكية التي انتهت في القرن الثامن قبل الميلاد. وكان فيها الملك يجسد القدرة الإلهية، أي أن قوته مستمدة من الإله.

2- مرحلة المدينة (الأوليقارشية)([3]) التي تحكمها الأقلية ودخلت هذه المدينة مرحلة الأفول مع توسع الطبقة العامة على مر الزمن.

3 - مرحلة المدينة الديمقراطية، وكانت هذه المرحلة نتيجة حتمية لصراع طويل بين طبقات المجتمع المختلفة، أدى إلى اعتراف مختلف أطرافه بحقوقهم وكذا الواجبات التي لا بد أن يؤديها كل مواطن في مجتمع المدينة الجديدة. وهذا ماجعل الأثينيون يفخرون بكونهم سكانا أصليين، فهم مواطنون متساوون وأحرار في مدينتهم،

---

[1] - François Daumas, Op. cit. p. 136 et s.

[2] - حول موضوع المدينة اليونانية الإغريقية، أنظر:
G. Coltz, La cité grècque, Paris, 1928, p. 2 et s.

[3]- أدى ضعف وانهيار الملكية في المدن اليونانية القديمة، إلى بروز زعماء القبائل الأغنياء منهم والأقوياء في أمور الحرب كأسياد للمدن وهوما عرف بالحكم الأوليقارشي، وفي هذا النظام الأقلية هي التي تحكم الأغلبية لتفوقها في الغنى، وقد كانت إسبرطة أحسن نموذج له.
دولت خنافر: "المدينة الإغريقية بين الواقع والمثال"، مجلة الفكر العربي،عدد 29، 1982، ص 36.

وليس هناك مجال عندهم لعرق متسلط وآخر مستعبد. وقد تميزت أثينا عن غيرها من المدن بحكم الأكثرية.

لقد اختفت مدن الطغاة في جزيرة كريت تحت ضربات المسينيين، ([1]) في القرن الخامس عشر قبل الميلاد، تاركة المجال للحضارة المسينية التي بلغت أوجها في القرن الثامن قبل الميلاد. لقد أنشأ أقامنون وأخومينيلاس مدينتين كانتا عاصمتي ميسان وإسبرطة، وقد تصارعت هاتان المدينتان لمدة طويلة من الزمن.

أنشئت مدينة ميسان على كتلة صخرية وكانت تحتوي على قلعة محصنة تحصينا جيدا، (**مخطط رقم 5**) وقد أشار هوميروس في وصفه لها إلى شوارعها الواسعة. هدمت المدينة في أواخر القرن الثامن قبل الميلاد من طرف الدوريين ([2]). والمؤكد أن بلاد اليونان لم تعرف عمرانا بأتم معنى الكلمة إلاّ بعد القرن الثامن قبل الميلاد، حيث لم يتم تأسيس حتى ذلك العهد إلاّ بعض المدن الملاجئ ([3]) (Villes Refuges) ، التي كانت تتميز بأسوار ضخمة مبنية من قطع كبيرة من الصخر يصل وزن الواحدة منها في بعض الأحيان إلى عشرين طنا، وتعتبر هذه الصخور المستعملة في بناء أسوار هذه المدن بداية لظهور تقنيات جديدة في استخدام الصخر.

لقد كانت الحياة في هذه المدن، تشبه بوجه عام حياة الحواضر في العالم القديم قبل ظهور الديمقراطية، فسكان منطقة لاتيك(L'Attique) كانوا منقسمين إلى حوالي مائة ([4]) بلدة دولة، على رأس كل منها ملك، وبعد

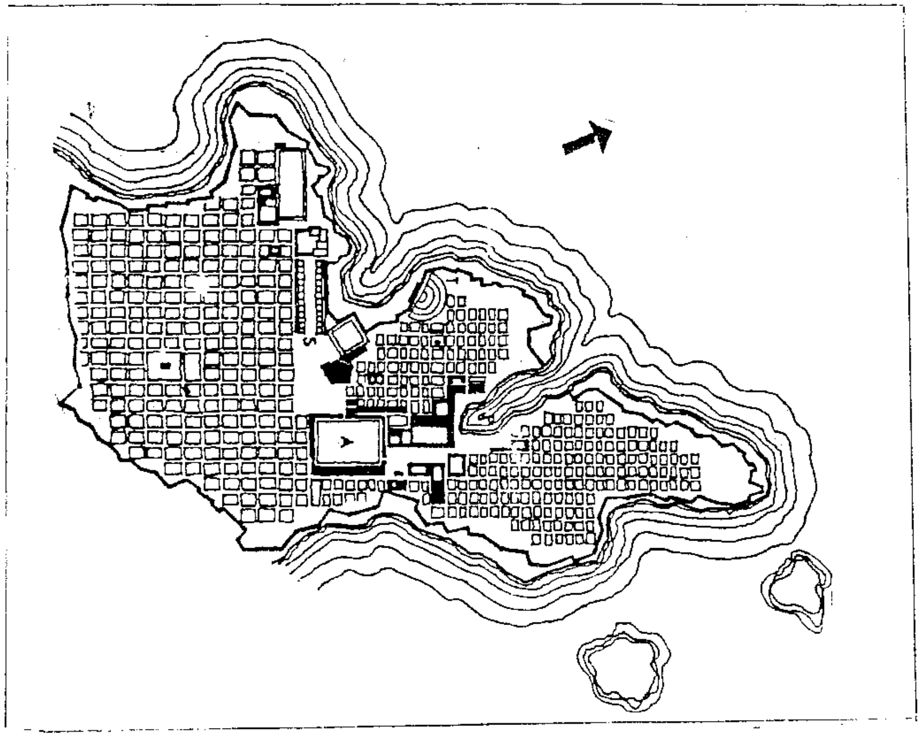
---

[1] - Michel De Grece, Grèce, Ferdinand Nathan, Espagne, s. d, p. 16 et s.
- Keith Bran gan, Michael Vichers, La Grèce antique, Paris, s.d, p 8

[2] – مازلنا نجهل الكثير عن الخريطة العمرانية لبلاد اليونان في المرحلة المبكرة، رغم مجهودات الأثريين في هذه المنطقة.

[3] – هي مدينة محصنة يلجأ إليها سكان المنطقة عند شعورهم بالخطر.

[4] – لقد كان لجغرافية البلاد المكونة من عدد كبير من الجزر، أثرها على المجتمع اليوناني حيث أدت إلى نوع من التفكك السياسي. حول هذا الموضوع. أنظر: G. Coltz, op. cit. p. 3 et s



مخطط رقم 5: يبين التقسيم الشطرنجي لمدينة ميليت وتبدو فيه المدينة مقسمة إلى ثلاث مناطق: تجارية، مدنية، دينية وتبرز بينها الأغورة.(عن سلوى سقال)

صراع طويل ومرير، تكونت من هذه البلدات اثني عشرة كونفدرالية (اتحادية) كونت مدنا.

والجدير بالتنويه إليه أن الإغريق في تلك الحقبة كانوا يفرقون بين المدينة (Cité) في جانبها المعنوي كتنظيمات اجتماعية، وبين المدينة(ville) في جانبها المادي، أي بمعنى العمارة والعمران.

فعند الإغريق تتكون المدينة بمعناها الاجتماعي، عندما يشترك عدد من الأسر والقبائل في المعتقد الواحد. أما المدينة بمعناها المادي، فيقصد بها المكان الذي يبنى فيه معبد إله ذلك المعتقد. وقبل أن تنشأ المدينة بمعناها المادي لابد أن تمر بمرحلة البناء الاجتماعي، ولما كانت المدينة في نظرهم هي مكان للعبادة، فإن تأسيسها يعتبر عملا دينيا باعتبار أن المدينة تتكون من مجموعة من الأسر لها معتقد واحد بينما يكون إنشاؤها في الواقع عملا سياسيا. ([1])

والملاحظ أن كل مدينة من هذه المدن تعرف تاريخ تأسيسها ومؤسسها، وتقيم لهذا الغرض في كل سنة حفلا مقدسا للاحتفال بهذه المناسبة، وفي الكثير من الأحيان ما يعتبر فاتح المدينة الجديد مؤسسا لها بعدما يقيم لهذا الغرض مراسيم خيالية للتأسيس ([2]) تتمثل في بعض الطقوس الدينية كتقديم القرابين، ومثال ذلك أن الدوريين، وإن زعموا أنهم أسسوا إسبرطة، فهم لم يؤسسوها في واقع الأمر. وكذلك الأمر بالنسبة للأيونيين الذين لم يؤسسوا مدينة ميلي أيضا، لكنهم كانوا يحتفلون كل سنة بالعيد الوهمي لتأسيس هاتين المدينتين، والذي ما هو في الحقيقة إلا تخليدا لذكرى تمكنهم من السيطرة على هاتين المدينتين، وفي نفس الوقت فإن هذه الطقوس التأسيسية إنما تعبّر عن طريقة قديمة للامتلاك.

---

[1]- G. Coltz, Op. cit. Pp. 24 -25

[2] -L. Cerfraux et J. Tondriau, du concurrent du christianisme, le culte des souverains dans la civilisation Greco_ romaine, Desclée et lu éditeurs, New york. Rome, 1956, pp 106 et s.

إن المدينة عند الإغريق كانت لها علاقة وطيدة بالدين، فهي تتكون من سور مقدس ومعصوم على الأقل في اعتقادهم، أما مركزها فيوجد به معبد تقطن فيه الآلهة ([1]) ، كما أن كل مدينة عندما تؤسس، فإنها تؤسس بغرض الخلود، فخلودها إنما يعبر عن خلود الآلهة، وخلود المواطنين، وبما أن الآلهة هي جذور سكان المدينة وضامنيها، فإن كل ساكن من سكان المدينة سيصبح في يوم من الأيام جدا لهذه المدينة التي تقدس روحه.

دفن اليونان موتاهم في مدنهم، أو على الأراضي التابعة لها اعتقادا منهم أن أرواحـــها المردومة في هذه المواقع ستحميهم من مخاطر الدهر، وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على أن الديانة اليونانية كانت ديانة تقدس المـــوتى([2]) حيث ارتبطت ارتباطا وثيقا بالمادة (Terrienne charnelle) (التراب، أجساد الموتى)، ذلك أنهم يرون أن أديم الأرض في مدنهم مكون من بقايا أشلاء الموتى، وقد بلغ بهم الأمر في تقديس أرواح السلف إلى نقلها معهم لسكنى المدينة الجديدة فعادة ما كانوا يلجئون إلى سرقة رفاة الموتى إذا استعصى عليهم نقلها لتدفن في مقابر هذه المدينة اعتقادا منهم أن هذه البقايا العظمية ستجلب معـــها أرواح أجدادهم المقدسة. فالإسبرطيون على سبيل المثال سرقوا رفاة أوراست

---

[1] – حول الديانة الإغريقية. أنظر:

- Louise Brint Zaidman, Pouline Schmitt Pantel, La religion grecque dans la cité classique, Armantcolin, Paris, 1991.

وانظر أيضا:

- Jean Rudhort, du mythe de la religion grecque et de la comphrennon d autrui, Revue européenne des sciences sociales, t 19,Geneve, 1981.
- A. J. Festugiere, de l essence de la tragédie grecque, Aubier Montaigne, Paris, 1967, pp 81-99.

– لقد أفرد صاحب هذا الكتاب فصلا كاملا خصصه للديانة الإغريقية.

[2]– إن السكان القدامى لإيطاليا واليونان هم فرع من الجنس الهندي الأوروبي، ومن عقائدهم أن الموت لا يضع حدا لهذه الحياة القصيرة، فكان الموتى في اعتقادهم كائنات مقدسة، وكانوا يطلقون عليهم تسمية " آلهة تحت الأرض" ويعتبرون القبور معابد لهم، وما عبادة الموتى في حقيقة الأمر إلا عبادة لأرواح السلف. ألبير نصري نادر، المدينة الكلاسيكية (مدن اليونان والرومان)، مجلة عالم الفكر، عدد29، 1982، ص45.

- Yves Perrin, Thomas Bauzou, La cité à l’empire: histoire de Rome, ellipses, édition marketing s.a, 1977, p 17 – 18.

(Oreste) ، ولما انتصروا بعد ذلك في معركتهم على أهل المدينة. أرجعوا هذا النصر إلى تأييد روح هذا الشخص لهم.

لقد كان الإغريق يحملون تماثيل آلهتهم في المعارك، وكانوا يعتقدون أنها كانت تشاركهم في القتال، أما اليونان فكانوا يعتقدون أن الآلهة ما دامت تحمي المدينة فإنه لن يلحقها ضرر، ولن يدخلها عدو، ولن ينهزم أهلها، وإن حدث عكس ذلك، فمعناه أن آلهة المدينة قد تخلت عنها.

وقد ورد في كتب بعض المؤرخين، أن هذا الاعتقاد جعل المنتصرين من اليونان يدعون آلهة المدينة المنهزمة للتخلي عنها والالتحاق بالمعابد الجديدة التي هيئت لهم في المدن المنتصرة، وعادة ما كانت تؤخذ هذه الآلهة ـ كما سبق وأن أشرنا ـ قهرا بأن تسرق تماثيلها وتؤخذ لتوضع في المدن المنتصرة. فإليس (Ulysse) مثلا سرق تمثال بلاس من سكان طروادة. وبالمقابل فقد عملت المدن المعرضة للاحتلال على التمسك بآلهتها فأحكمت رباطها وعملت على إخفائها وقرأت لها تعاويذ تمنعها من الفرار.

نستخلص مما سبق، أن الصراع في حقيقة الأمر لم يكن في نظر الرومان ([1]) بين الجيـــشين في ميدان المعركة فحسب، إنما كان بين إلهين ممثلين لمدينتين مختلفتين، وإن المجازر التي كثيرا ما كانت تتبع الانتصارات والتي يلقى فيها غالبية سكان المدينة حتفهم، ما هي إلاّ نتيجة حتمية لتخلي الآلهة وإهمالها لسكان المدينة حسب اعتقادهم دائما.

أما في بلاد اليونان، فقد امتاز التنظيم الاجتماعي في المراحل الأولى من تاريخ هذه المنطقة العريقة، بكون العائلة هي التي كانت تمثل الخلية الأساسية

---

[1] – كان تكوين المدينة الرومانية، وتأسيسها، وتطورها في المرحلة الأولى، مشابها في خطه العام للمدينة اليونانية ويرى بعض المؤرخين أن الرومان تأثروا بجيرانهم الإغريق والتروسكيين، وابتداء من القرن الخامس (ق م) أصبح للمدينة الرومانية نموذجها الخاص الذي فرضته المنطقة التي كانت تتحكم فيها. نقولا زيادة، المرجع السابق،ص ص 64-69.

- R.H.Barrow, Les Romains, Payot , Paris, 1962, pp.34 - 48.

للمجتمع ([1]). وكــان لكل عائلة آلهة يعتبرون في الأصل أجدادها. بعد هذه المرحلة تطور المجتمع اليوناني وتجمعت العائلات التي ظهر بينها الانسجام العقدي لتكون في النهاية جماعات عــرفت عند اليونان بالأخوية (Phratries)، كما ظهرت الفكرة العقدية نفسها عند الرومان تحت مصطلح آخر هو الأسرات (Les curies). وكانت هذه الجماعات عادة ما تتجمع حول مائدة طعام مقدس كان يحضر ليقدم كقربان للآلهة (Sacrificiel) ([2]). أي أن الجماعة تتكون من عدة أسر، والقبيلة من عدة مجموعات، والمدينة بمعناها الاجتماعي من عدة قبائل، ورغم هذا الاندماج في إطار المدينة الاجتماعية، فإن القبيلة لم تذب ذوبانا كاملا كتنظيم اجتماعي بل بقيت الكثير من ملامحها ظاهرة. وكان الناس في المدن اليونانية والرومانية، يمارسون حقهم الانتخابي في إطار الأخويات (Phratries) والأسر(Curies)([3])، وإن دل هذا الأمر على شيء، فإنما يدل على أن المدينة اليونانية بمفهومها الاجتماعي لم تظهر نتيجة تجمع أفراد، بل جاءت نتيجة كونفدرالية جماعات.

لقد عرفت المدن اليونانية (**خريطة رقم 3**) مرحلة تطور طويلة، نتجت عنها أمور عديدة في الميدان العقائدي والاجتماعي، حيث أصبــحت الإلهة أثينا إلهة للمدينة كلها بعدما كان لكل عائلة إلهها الخاص ([4]). فأصبحت مثلا الإلهة إلهة لكل سكان مدينة أثينا، كما تطور النظام الاجتماعي مع مرور الزمن، من نظام كانت تلعب فيه الأسرة دورا مركزيا إلى نظام

---

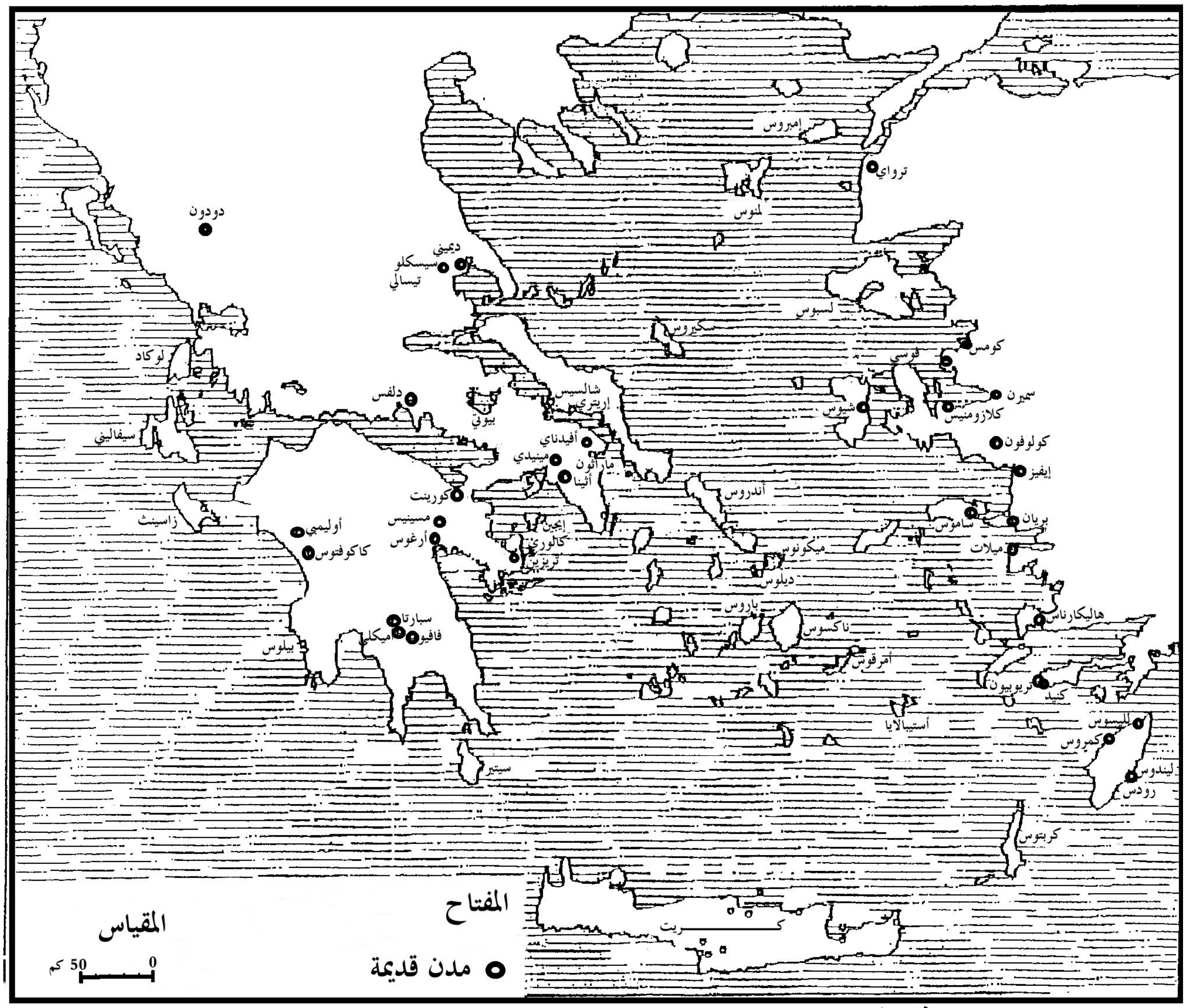
[1] - G. Coltz, Op. cit. P. 121 et s.

[2] - Louis Brint Zaidman, Pouline Schmitt Pantel, op. cit. p 20 et s.

[3] – هي عند الرومان أسرة كبيرة لها ملكها ومعبدها الخاص بها. أنظر:

- Albert Malet , Histoire de l' antiquité l'Orient - la Grèce- Rome, Hachette, Paris,1929, p. 28
.

[4]- Albert Malet, Op. cit. p. 126 et s
Paul Petit, André Laronde, op. cit. p. 111 et s.



خريطة رقم 3: عمران اليونان القديم من إعداد الطالب

طبقي، تحالف فيه أصحاب المصالح (الأرستقراطيون والكهنة)، وتوحدت فيه الطبقات الشعبية الفقيرة.

وبعد صراع طويل، تمكنت الطبقات الشعبية أن تتوحد، وأن تصل إلى استبدال نظام الحكم الأرستقراطي الجمهوري الذي كان يعتمد على الملوك والكهنة إلى نظام يحكم فيه طاغية يميل إلى السياسة أكثر من الدين ([1]). لقد ظهرت هذه الطريقة في الحكم نتيجة لصراع طويل عرفه المجتمع المدني اليوناني، ونتيجة لغنى الطبقات الفقيرة، الأمر الذي جعلها تطمح في لعب دور أكبر في تسيير شئون المدينة، حيث تمكن بعضهم من بناء القصور الضخمة، والديار الفخمة، وشيدوا المعابد، وتمكنوا مثلا من تسيير المدن، حيث عمدوا أحيـــانا إلى طرد الطبقة الأرستقراطية منها، والاستحواذ على أملاكها كما حدث ذلك في مدينتي مـــيلي وسيراكيس.

ويظهر أن أعدادا كبيرة من عامة الشعب تمكنت من الحصول على المواطنة في المدن الإغريقية بالتراضي مع الطبقة الأرستقراطية، وبهذه الطريقة عمدت أثينا إلى رفع عدد مواطنيها اليونان. أما الرومان فكانوا يكرهون العمل ويحتقرونه لأنه مرتبط في أعينهم بالعبودية، ذلك أن طبقة العبيد لم تترك للدهماء وظائف تذكر، فأثرياء أثينا كانوا يمتلكون في منازلهم الكثير من العبيد المهرة يشتغلون في كل الحرف.([2])

1 ــ مدينة أثينـــــا:

كانت أثينا في القرن الخامس قبل الميلاد أهم مدينة تجارية وسياسية في العالم الهليني ومجمعا للأدب والفنون والمعارف. ورغم أن أثينا تطورت إلى مدينة تجارية كبيرة، فإن أساس حياتها كان زراعيا.

---

[1]- J. Delorme, La Grèce primitive et archaïque, Armand Colin, Paris, 1969, p. 54 et 55.

[2] – حسين الشيخ، الرومان، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، د.ت، ص 218

إن الموضع الذي أسست فيه مدينة أثينا المعروف بجبل الأكربول([1])، كان مأهولا منذ 3000 سنة قبل الميلاد، ثم أنشئ عليه الأكربول([2])، **(مخطط رقم 6)** حتى حل تيزي Thésée استقلال البلديات الريفية في منطقة أثينا، وأسس بدلها مجلس مدينة أثينا، لقد شهدت المعتقدات بالمدينة تطورا سريعا، وأصبحت للمدينة طقوس دينية تحتفل بها، كما ترك ملوك أثينا الإقامة بالأكربول التي كانت تحوي القصر الملكي، والمعبد، والتي بنيت في موضع حصين يلتجئ إليه سكان الناحية عند الحاجة، وأقاموا قرب النار المقدسة في معبد المؤسسة العسكرية التعليمية (Prytané).

لقد قدس سكان أثينا مدينتهم، وتركوا تقديس الملك أو الأجداد، ونتج عن ذلك إخراج المقابر من داخل المدينة إلى خارج المدينة، واتخذوا لها مواقع على قارعتي الطريق، فتحرروا بذلك من معتقداتهم الأولى التي كانت تقدس أرواح الموتى.

ظهر في أثينا بعد نهاية عهد الطغاة، عهد حكمت فيه الأقلية الأغلبية. تلاه عهد حكمت فيه الأغلبية الأقلية (العهد الديمقراطي)، هذا العهد الذي لم يتمتع فيه كل مواطني المدينة بالمساواة فحسب، بل ساهموا أيضا في تسيير أمور مدينتهم، وعلى عكس ما جرى في المدن الأخرى فإن الصراع بين الأغنياء والفقراء، وأن كان موجودا في أثينا، إلاّ أنه لم يؤد إلى فوضى كبيرة بالمدينة. ([3])

إن الحرية عند سكان أثينا لا تعني الكسل كما كان الحال في روما، ثم إن الأغنياء في هذه المدن الإغريقية لم ينقم عليهم المجتمع، ولم تمتد إليهم يد

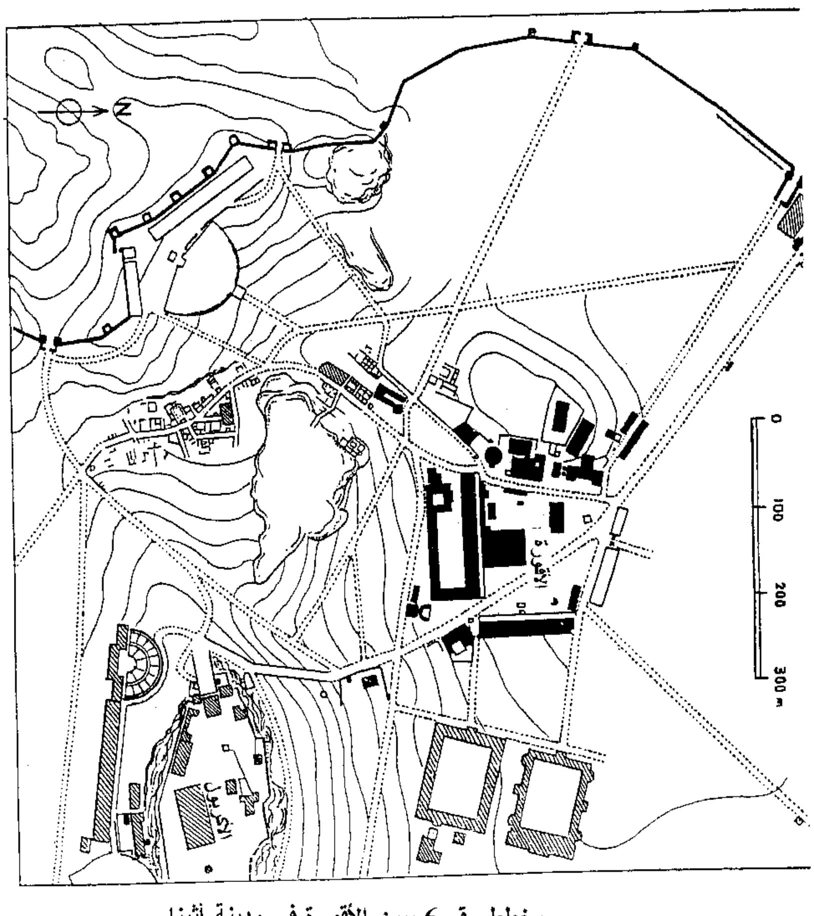
---

[1] – الأكروبوليس (Acropolis) هو مرتفع صخري يتوسط السهل الذي أنشئت عليه مدينة أثينا، وعلى قمة هذا المرتفع بني معبد أثينا وبيوت ملوك اليونان الأوائل. أنظر:

- Albert Malet, op.cit.p. 179.

[2] – Michel De Grèce, op. cit. P. 50 et s.

[3] – G. Coltz, op. cit. P. 125 et s.



مخطط رقم 6 يبين الأقورة في مدينة أثينا

(عن لويز زيدمان – بولين شميت)

القتل، ولم ينظر إليهم بنظرة عدم الرضا، بل إن المدينة استغلت هذه الفرصة وعملت على أخذ كميات كبيرة من الضرائب عنهم. وتشير بعض المصادر التاريخية إلى أن سكان أثينا هم الأوائل الذين وضعوا السلاح لتبني سلوك أكثر لطفا، وطريقة حياة بعيدة عن كل خشونة، حيث ظهرت لأول مرة بالمنطقة مدينة لا تبحث عن التباهي بقوة أميرها، ولا تعمل من أجل تخويف جيرانها، بل تعمل من أجل إدخال السعادة عليهم، ونشر الأمن والاستقرار ([1]).

وهكذا فقد جاء بعد ظهور المدن الشرقية التي طغى عليها النظام الاستبدادي (بلاد ما بين النهريـــن، ووادي النيل) مدينة المواطنة في بلاد اليونان التي عرفت مشاركة كل شرائح المجتمع في تنظيمها وتعميرها التي اعتمد فيها النظام الديمقراطي.([2])

إن مدينة المواطنة تتباين مع جميع مـــدن الحضـــارات القديمـــة ببســـاطة عمارتها وبتواضعها، فالعمارة المعلمية لم توجد بها إلاّ في الأكربول الذي لم يبق حصنا بل أصبح مكانا يجتمع فيه المثقفون، ذلك أن سكان أثينا أصبحوا يفضـــلون الاجتماع في الهواء الطلق لطرح قضاياهم الهامة ومناقشتها، كالقضـــاء أوســـن بعض القوانين، تماشيا مع الديمقراطـــية الأثينية التي تمتـــاز بـــالتفتح والشـــفافية الكبيرة، فالاحتفالات والنشاطات الترفيهيـــة، كالمســـرح، والمســـابقات بمختلـــف أنواعها، كانت تقام في الهواء الطلق. لقد أثرت هذه الطريقة المتبعة فـــي تنظـــيم النشاطات المختلفة، في استغلال أماكن العراء في المدينة، وفي عمارتها، فجاءت أكثر انفتاحا على الخارج، وأكثر اندماجا مع الموضع (L'emplacement)، كما أن ديمقراطيـــة أثينا كانت نشيطة تحث المواطن وتدفعه إلى المشاركة فـــي كـــل النشاطات التي كانت تجـــري في المدينة سواء كانت سياسية أو ثقافية أو رياضية.

---

[1] – G, Coltz, op. cit. p. 125 et s.

[2] – ممدوح درويش، إبراهيم السايح، مقدمة في تاريخ الحضارة الرومانية واليونانية، ج1، تاريخ اليونان، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، 1998/ 1999، ص ص 20– 49 – 50

وتروي المصادر التاريخية أن أكثر من $\frac{1}{7}$ من أهل أثينا ساهموا في النشاطات الثقافية المختلفة من غناء ومسرح وألعاب رياضية.

كما نمت المدينة على شكل دوائر مختلفة حول الأكبرول، وكان هذا الأخير يمثل قلب المدينة اليونانية، ومركز معظم أعمالها وهو فوق كل ذلك كان موئل آلهة المدينة. كما بنيت بها العديد من المرافق العامة كعيون الماء، والقنوات لتسهيل حياة المواطن بها. وتميزت منازلها بتواضعها وبساطتها وبعدها عن الفخامة. لقد استحوذ القصر على مركز المدينة بطبيعة الحال في المدينة الطاغية، وأخذت الأجورة بدورها هذا المكان في المدينة اليونانية، والأجورة هي مساحة عمومية مفتوحة للجميع ولم تكن في الأصل سوقا بل كانت مكان الاجتماعات السياسية والدينية والاقتصادية وكانت مكانا مفتوحا للمواطنين يجتمعون فيه عند الحاجة يتجاذبون أطراف الحديث، ويبحثون فيه مشاكل المدينة ويطلعون فيه على أخبار العالم ([1])، لكنها أصبحت منذ القرن السابع الميلادي مكانا تجاريا، الأمر الذي جعل بعض وجهاء المدينة ومثقفيها مثل أفلاطون وأرسطو يثورون على هذه الوضعية التي آلت إليها الأجورة، ومنعوا التجار والحرفيين والفلاحين عنها، وطالبوا أيضا بأن تقام الأسواق في أماكن أخرى. وعادة ما كانت الأجورة تبنى في مركز المدينة ما عدا الموانئ التي كانت توجد بها قرب الأرصفة البحرية حيث تصلها حركة المرور من جميع الجهات.

أنشئ بمدينة أثينا ساحتين هما أجورة تيزي (Thésée) وأجورة صولون. كانت هاتان الأجورتان بمثابة أماكن خضراء غرست فيها أشجار البلاتان. ذلك أن الأشجار والحدائق العامة كانت قليلة بأثينا، ويرجع ذلك إلى ندرة المياه بها. ورغم أن الإغريق استثمروا أموالا كثيرة، وقاموا بمجهودات عظيمة لإنشاء الصهاريج والخزانات، لتخزين مياه الأمطار، وحفروا الآبار الكثيرة في أفنية منازلهم، إلا أنهم كانوا كثيرا ما يقضون فصل صيف قليل المياه.

---

[1] – نقولا زيادة: المرجع السابق، ص 64.

لقد تميزت المدن اليونانية بانتشارها وامتدادها على مساحات واسعة، فهي تجمع خليطا من السكان يتكون من المدنيين والريفيين، فأغلب أرض إسبرطة كان يسكنها أقنان (العبيد العاملين بالأرض) مزارعين يدفعون ضرائب هامة لأرستقراطية المدينة مما جعل هذه الأخيرة تتفرغ للأعمال العسكرية ([1]).

أما مدينة سيراكيس، فكان إقليمها الواسع أرضا زراعية اعتمد في خدمتها على اليد العاملة المكونة من العبيد الأجانب. وخلاصة القول، أن المدينة الإغريقية كانت مكونة من سوق هو في حقيقة الأمر يمثل المدينة وإقليمها الزراعي الواسع. حيث تتداخل فيهما الحياة المدنية والحياة الريفية. فمدينة أثينا مثلا كانت واسعة ومنتشرة. تبدأ من الأكربول، هذه النقطة المركزية، وتتوزع مساحاتها وسط غابات الزيتون والكروم. وعلى الرغم من هذا فهناك أحياء محدودة العدد تمثل تركيزا عمرانيا ذا مساكن يغلب عليها الطراز المدني، نذكر منها على سبيل المثال أحياء السيراميك وميليت وكولتيوس، وكانت المنازل بها متلاصقة متكونة من طابق أرضي عادة ما يحتوي غرفتين أو ثلاث غرف بنيت بالحجارة والخشب. وأبواب هذه المنازل كانت تفتح إلى الخارج، وكان سكانها يعلنون عن خروجهم بدقات قوية عليها من الداخل لإشعار المارة، تجنبا للاصطدام بهم نظرا لازدحام الشوارع بالمارة ذلك أن شوارع هذه الأحياء كانت محفوفة بالحوانيت.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه بسبب ضيق منازل سكان بعض أحياء أثينا، فإنهم يضطرون لقضاء أوقات طويلة فوق سطوحها. أما مطابخ هذه المنازل فكانت في أغلب الأحيان تقام على قارعة الطريق. وعموما فإن مدينة أثينا لم تكن مدينة جميلة متناسقة، ولم يسهر أهلها على أن تكون كذلك، ذلك أن فكرة البحث عن الجمالية والتوازن ببلاد اليونان لم تظهر إلا ابتداء من القرن الثالث قبل الميلاد. ويقول ممفورد ([2]) في هذا السياق أنه منذ بداية القرن الرابع قبل

---

[1] – نقولا زيادة، المرجع السابق، ص65.

[2] – لويس ممفورد، المرجع السابق، ص 183

الميلاد حلت المعالم الفخمة مكان الرجال العظماء. بمعنى آخر أن الفكر اليوناني انتقل من الاهتمام بالشخصيات الهامة في المجتمع التي رسخت قواعد الديمقراطية إلى الاهتمام بالمنشآت العمرانية الضخمة.

لقد انتقد كتاب العصور القديمة([1]) عمران مدينة أثينا ووصفوها بكونها مدينة قديمة سيئة البناء، والحقيقة أن أثينا كانت كثيرة الأوساخ ذات طرق ضيقة غير مبلطة بالحجارة، فهي من حيث التنظيم والنظافة لا ترقى إلى مستوى المدن العراقية القديمة لكنها أكثر شبها بالمدن التي ستظهر في العصور الوسطى بأوروبا، فأوسع شوارع أثينا على الإطلاق كان شارع بنتينيوس Panathénées الذي كان عرضه أثنى عشرة مترا، بينما كان عرض بقية الشوارع لا يتعدى الخمسة أمتار.

كما أن قنوات الصرف الصحي، التي كانت موجودة منذ ألفين سنة قبل الميلاد في مدينة أور، لم تكن معروفة في أثينا. ورغم وجود جهاز مكلف بإزالة القذرات المختلفة من فضلات الإنسان وروث الحيوان والزبـــالة، فقد اتصفت المدينة بكونها قذرة، كثرت بها الأوبئة وخاصة وباء الطاعون الفتاك، الذي لم يكتف بالقضاء على أعداد كبيرة من سكانها فحسب بل توسع ليمس عددا هائلا من سكان إقليمها.

لقد حاول سكان أثينا ســـن قوانين للمحافظة على جمال مدينتهم وعلى راحتهم فخلقوا وظائف للمعماريين البلديين وحددوا مجال تدخلهم فكان هؤلاء يسهرون على ترميم المعالم العمومية في المدينة ويعملون على إزالة الأبنية غير المرخص لها، والتي تضر بالطريق العام أو التي هي على وشك الانهيار، ويمنعون النساء من الغسيل أمام الأسبلة العمومية، والحيوانات من الشرب من الصهاريج ويسهرون على أن لا توضع القمامة على قارعة الطريق ويمنعون حرق الآجر فـــيه كل ذلك من أجل الحفاظ على نظافة مدينتهم.

---

[1] - M. Ragon, op. cit. P. 77.

إن مدن المواطنة الأولى التي أعطيت فيها حرية واسعة للسكان في تنظيم أمورهم، لم تكن أحوالها تسير على أحسن ما يرام، الأمر الذي جعل أبوقراط يسن أول ميثاق (Traité) خاص بالعمران والنظافة سماه " المياه والهواء والموقع" فأصبحت توصيات هذا العالم الكبير تؤخذ بعين الاعتبار عند تأسيس المدن الجديدة، حيث اعتمد عليه في وقت لاحق فيتروف Vitruve عند كتابته لكتبه العشرة في العمارة. ([1])

ومن الأمور التي ميزت المدن اليونانية عن مثيلاتها من مدن بلاد ما بين النهرين ومصر، ابتعادها عن كل مظاهر التحصين كالأسوار، فهي مدن مفتوحة على الطبيعة لا تحيط بها أسوار تمنع توسعها الأفقي، علما أن هذه الأسوار إن وجدت قد تفصلها عن بعض أحيائها المنتشرة في الريف، فالمدينة الإغريقية لم يتم تحصينها إلا بعد مرور فترة من الزمن، تردد فيها اليونانيون بين الأخذ بالتحصينات أم الإبقاء على صورتها الأولى.

فإسبرطة لم تعرف السور إلا في سنة 295 قبل الميلاد، حيث كان سكانها يرون أن سورها الآمن، هو الوسيلة الكفيلة بالدفاع عنها في ظل الهجمات التي قد تستهدفها.

وبعد احتلال أثينا من طرف الفرس، بنى تيمسكول سورا حول هذه الأخيرة، بحيث أصبحت المساحة التي يحيط بها السور واسعة تزيد عن ألف وخمسمائة هكتار.

لقد انتشر النموذج العمراني الإغريقي انتشارا واسعا خارج بلاد اليونان ([2]) خاصة في المرحلة الممتدة ما بين القرن الثامن والقرن الخامس قبل الميلاد في مناطق واسعة من العالم القديم، حيث ظهرت مدن كبيرة كالإسكندرية([3])، التي امتدت مساحتها على بقعة جغرافية تتراوح ما بين ألفين والفين وخمسمائة

---

[1] - M. Ragon, op. cit. p. 82 – 83.

[2] - J. Delorme, op. cit. P. 42 et s.

- Serge Bancel, Carthage, Librairie Foyard, 1992, p. 95 et s.

[3] – حسن الشيخ، المرجع السابق، ص 155 – 156

هكتار، وكان عدد سكانها يزيد عن سبعمائة ألف نسمة موزعين بالشكل التالي: ثلاثمائة ألف مواطنا يونانيا، وألفي عبدا، وألفي يهوديا، أي أن العدد الإجمالي، إذا ما أحصينا الأجانب (الميتاك) كان يفوق المليون ساكن، علما أن أغلبية مدن اليونان قبل فترة الإسكندر المقدوني كـــان لا يتعدى عدد سكانها العشرة آلاف نسمة، فأثينا حسب زينوفون Xénophon كانت تحوي عشرة آلاف مسكنا ؛ أي أن عدد سكانها كان يفوق الأربعين ألف مواطنا. ففي سنة 31 قبل الميلاد بلغ تعداد سكان أثينا الأصليين واحدا وعشرين ألف مواطنا، يضاف إليه عشرة آلاف مقيما أجنبيا، وعدد لا حصر له من العبيد، حيث وصل إجمالي سكان المدينة مائة وخمسين ألف ساكنا، ويظهر من هذا التعداد أنه من أصل سبعة أفراد من سكان المدينة لا يوجد إلا مواطن واحد.

لقد اعتمد اقتصاد بلاد الإغريق على الأموال الهائلة التي كان يمتلكها الأجانب، واليد العاملة الرخيصة المتمثلة في الأعداد الكبيرة من العبيد، ونجد في كتاب زينوفون الحديث عن مالك منجم يشغل ألف عامل، وعن آخر يشغل ستمائة عبد، ويظهر أنه من الصعب تحديد العدد الحقيقي لسكان مدينة أثينا، أي المدينة المسورة، ذلك أن عددا هائلا من المنتسبين إليـــها كانوا يقطنون خارج أسوارها.

ويشير ديودور Diodore على أن مدينة أجريجنت كان يسكنها مائتي ألف ساكن، كما يرى سان جون Saint-Jean أن عدد سكان أونتيوش يفوق المائتي ألف، ويرى بعض كتاب المرحلة القديمة أن تعداد سكانها قد يفوق الثمانمائة ألف.

والملاحظ أن المدن الإغريقية الكبيرة لم تكن موجودة بطبيعة الحال في بلاد الإغريق، بل جاءت كنتيجة للاستعمار، والتعمير الإغريقي خارج هذا المجال. لقد اتصف هذا الاستعمار بذاتية مفرطة، وميل شديد إلى حضارته. الأمر الذي جعل المدن الإغريقية المؤسسة خارج بلاد اليونان جاءت مماثلة لأمهاتها الإغريقية من حـــيث العمران، والعمارة، والحضارة، وطريقة الحياة ([1])، بل وحتى من حيث الطقوس التي عادة ما كانت تتبع عند التأسيس. فمحيط مدينة

[1] - J. Delorme, op. cit. P. 42 et 43

الإسكندرية قد حدد بحبات الشعير، ونفس الفعل قام به مؤسسو مدينة أونتيوش حيث ورد في كتب المؤرخين أنه حدد بحبات القمح أيضا.

لقد أسس سوليكيس الأول Seleucus خمسا وسبعين مدينة، أما الإسكندر المقدوني فأسس سبعين مدينة، ويرى المؤرخ بلاين أن حكام مدينة ميلي قد أسسوا تسعين مدينة في منطقة البحر الأسود بصفة خاصة.

انتشر النموذج العمراني لبلاد اليونان في مجال شاسع. يبدأ من جنوب شبه جزيرة إيبيريا، ويمتد إلى مصر وليبيا ماعدا الجزء الغربي من شمال إفريقيا، مرورا ببلاد الغال ومنطقة روسيا الحالية حتى البحر الأسود. أي أن المدن الإغريقية تواجدت في شكل حزام حول حوض البحر الأبيض المتوسط كله.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن شبه جزيرة إيطاليا وصقلية كانتا المجال الجغرافي الأول الذي انتشرت فيه المدينة الإغريقية. فمدينة ساليمونت Selement أسست في القرن السابع قبل الميلاد وخربت في سنة 240 قبل الميلاد، وكانت تتربع على مساحة إجمالية تقدر بثمانين هكتارا، أما أجريجنت فأسست سنة 580 قبل الميلاد، وبقيت مأهولة بالسكان حتى القرن التاسع بعد الميلاد.

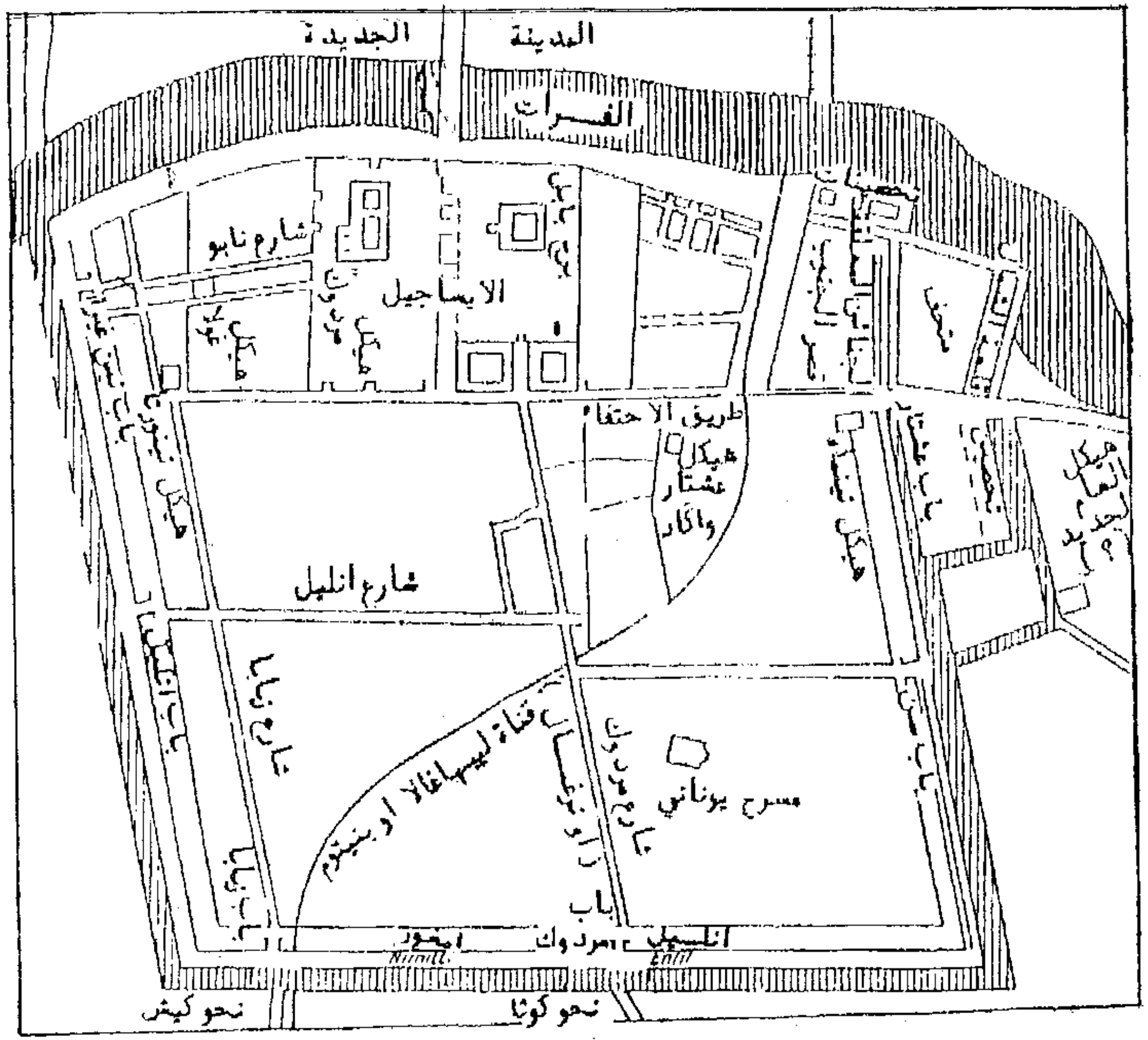
لقد أسس الإغريق مدنا كثيرة نذكر منها على سبيل المثال باستيوم Paestum ونابولي في إيطاليا، أما في فرنسا فأسسوا مرسيليا، وموناكو، ونيس، وأنتيب، كما أسسوا في إسبانيا أليكانت، وبرشلونة، وفلانسيا، أما في ليبيا فأسسوا سيران، وفي مصر نوكراتيس، التي كانت عند تأسيسها سنة 650 قبل الميلاد تمثل الإقامة الجبرية للإغريق، ثم أسست عقبها مــدينة الإسكندرية حوالي سنة 330 قبل الميلاد.

يبدو مما سبق، أن أجمل نماذج المدن الإغريقية لا توجد في بلاد الإغريق، بل كانت عواصم لمستعمراتهم العديدة، فأحسن الأمثلة عن رونق هذه المدن وسطوعها ليست كما يعتقد الكثير مدينة أثينا الخشنة، بل المدن الملكية الجديدة كالإسكندرية، وإفــاز، (**مخطط رقم 7**) فــقد كان معبد ديان بهذه الأخيرة

ضخما، تعدت مساحته مساحة البونتيون Pontéon بأربع مرات وعلى عكس عمران مدينة أثينا الذي يغلب عليه طابع عدم الانتظام، فإن عمران مدن المستعمرات كان منظما تميزت مدنه بنظافتها وباحترام قواعد جمالية العمران. لقد اتبـــع في إنشاء هذه المدن المخطط الشطرنجي الموجه نحومشرق الشمس، كما فتحت نوافذ منـــازلها وأبوابها في اتجاه الشمس ([1]) أيضا، وذلك مرده ربما لدوافع صحية، ومع هذا كله فإن المتجول فيها كان يتحرك في أنحائها تحت الظلال التي تمنحها له الأروقة المسقفة، لقد حاول مؤسسو هذه المدن وضعها في أماكن تسمح لسكانها برؤية شاملة ممتعة على خليج البحر، وقاموا بتشييد العديد من البناءات العمومية، كالحمامات، والمكتبات، والمتاحف، خدمة للمواطن، فمكتبة الإسكندرية الشهيرة مثلا كانت تحتوي على سبعمائة ألف كتاب في

---

[1] – نيكيتا أليسيف، المرجع السابق، ص 98



مخطط رقم 3: يبين أهم معالم مدينة بابل   عن : (سلوى سقال)

شتى مجالات العلوم. وأما المتاحف فهي كثيرة أيضا، ففي أثينا كانت تجمع فيها اللوحات الفنية.

لقد كانت المدن اليونانية ذات طابع عالمي التقت فيها المؤثرات الثقافية المختلفة، من يونانية ومشرقية. ولم يقتصر التأثير فيها على الحضارات السابقة لها والمعاصرة فحسب، بل امتدت التأثيرات لتأخذ من الحضارة الرومانية في المراحل المتأخرة.

رابعا ــ العمران الفنيقي القرطاجي:

اتفق المؤرخون على أن الفينيقيين هم الذين أدخلوا منطقة المغرب القديم إلى التـــاريخ، حيث يرجع إليهم الفضل في تعليم أهل المنطقة الكتابة ([1]) ، كما أنشؤوا أيضا على طول الساحل المغربي عددا هاما من المحطات التجارية ــ التي تحولت تدريجيا إلى مدن ومستعمرات فنيقية ــ مكنتهم من تنظيم علاقات تجارية نشيطة مع السكان الأصليين، مما سمح لهؤلاء السكان من المشاركة الفعالة في اقتصاد العالم القديم.

أسست مدينة أوتيكا(Utique) ([2])، حسب ماذهب إليه بلين Pline سنة 1110 قبل الميلاد على الجهة الغربية من خليج تونس، كما أنشئت في تلك الفترة عدة مدن كحضرموت (Hadrumète) سوسة الحالية([3]) وهيبو(Hypo) التي أخذت فيما بعد اسم دياريتوس(Diarrytos)، وهي مدينة بنزرت الحالية، ومدينة لبدة على الساحل الغربي لليبيا.

أما على السواحل الجزائرية فقد أسس الفينيقيون مدينة هيبوريجيو (Hypo Regius) ، وهي التي أصبحت تدعى فيما بعد مدينة بونة. والظاهر أن أغلبية هذه المدن التي أسست في المرحلة الأولى من وصول الفينيقيين، قد أدت دورا

---

[1] - C.H.A. Julien, Histoire de l'Afrique du nord, Tunisie, Algérie, Maroc, Tome1, des origines à la conquête arabe, IIe édition, revue et mise à jour par CH. Courtois, Paris,P 10.

[2]- R.Brunschvig , M. Cavet et autres, initiation à la Tunisie,Tunis, 1950, p. 36.

[3] - C. Hannezo, Notes historiques de Sousse, nécropole, anciens cimetières, suites etfin de la deuxième partie, Bulletin de la société archéologique de Sousse, 1903.1913, P. 154.

استراتيجيا في السيطرة على الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، دون أن تغفل مراقبة منافذه الشرقية، زيادة على دورها التجاري الحيوي. وإحكاما للسيطرة على جميع منافذه فقد أسس الفينيقيون مدينتي ليكسوس (Lixus) وقادس (Gades) ([1]) بالقرب من سواحل المحيط الأطلسي الإسبانية والمغربية لمراقبة المنفذ الغربي للبحر الأبيض المتوسط الذي يربطه بالمحيط الأطلسي. (**خريطة رقم 4**)

لقد سمحت هذه المجموعة من المدن الفينيقية التي أنشئت على سواحل البحر الأبيض المتوسط من السيطرة الفعلية عليه سواء تعلق الأمر بالناحية التجارية التي يقوم عليها اقتصاد الفينيقيين أو بالجانب العسكري، وأصبح هذا الجزء من البحر الأبيض المتوسط حوضا فينيقيا وبقي كذلك لمدة زمنية طويلة.

تعد مدن المرحلة الأولى التي أنشئت ــ كما سبق أن أشرنا ــ وسيلة لتأمين الفضاء الفينيقي الجديد، ولتنظيم النشاط التجاري خصوصا، والاقتصادي على وجه العموم. ولتنشيطها أنشئ عدد كبير من المحطات التجارية التي ربطت المدن الكبيرة فيما بينها من جهة، وربطت مدن ومحطات العالم الفينيقي بالمدينة الأم قرطاج من جهة ثانية، وقد حرص الفينيقيون على أن تؤسس هذه المحطات في مواقع لا يزيد بُعْد الواحد عن الآخر عن ثلاثين كيلومتر،([2]) ذلك أن متوسط ما تقطعه السفن الشراعية بتقنيات ذلك الزمن في اليوم الواحد كان نفس هذه المسافة ([3])، وكانت تلك

---

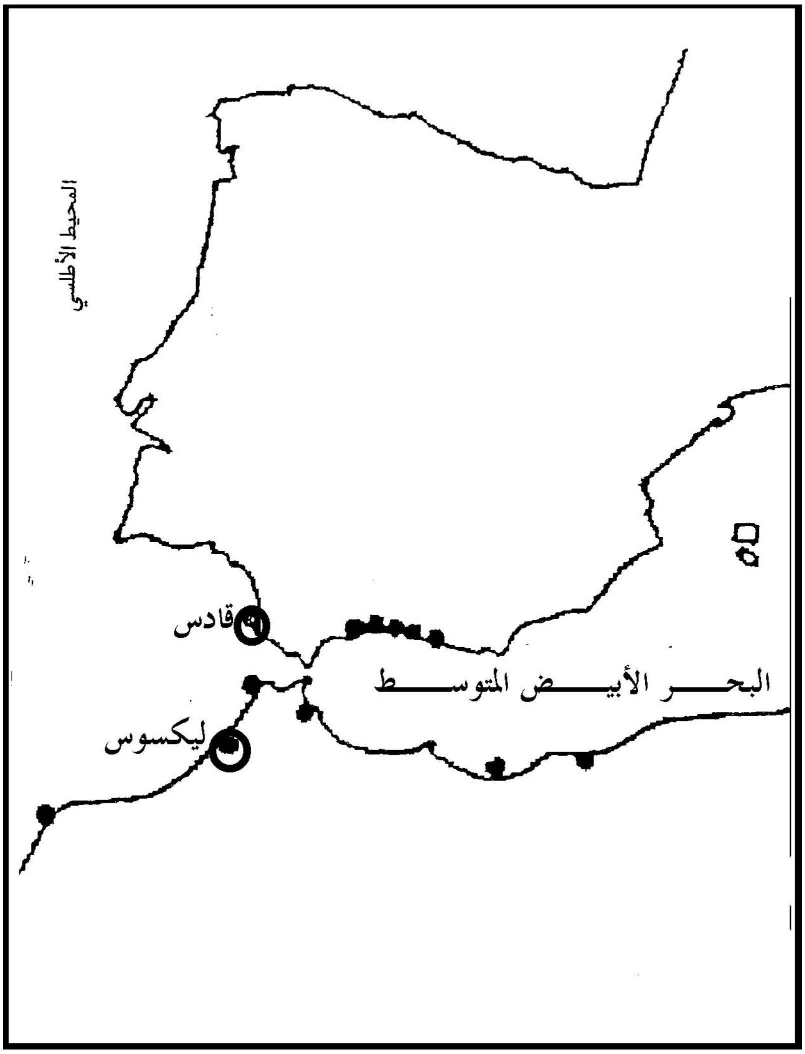
[1] – حول المحطات الفينيقية بالمغرب الأقصى أنظر:

- P. Cintas, Contribution à l'étude de l'expansion Carthaginoise au Maroc, Publication de L'Institut des Hautes Etudes Marocaines, Paris, 1954.

[2] – جان مازيل: تاريخ الحضارة الفنيقية الكنعانية، ترجمة ربا بخش، دار الحوار، اللاذقية، 1998، ص18

[3] - S.Tlatli, la Carthage punique, étude urbaine: la ville, ses fonctions, son rayonnement, Paris, 1978, p. 241.

أنظر أيضا: محمد الصغير غانم. التوسع الفينيقي في البحر الأبيض المتوسط، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1992، ص 56



خريطة رقم 4: الموقع الاستراتيجي لقادس وليكسوس من إعداد الطالب

السفن ترسو في مكان مؤمن طبيعيا لحمايتها من الرياح، والأعاصير، والتيارات البحرية الغربية، كأن يكون هذا المأوى ميناء طبيعيا في خليج، أو وراء رأس، بل إن السفن كانت تسحب إلى الشواطئ في حالة انعدام ما يحميها من الظروف الطبيعية.

والجدير بالذكر أن التقنيات المستعملة في الملاحة البحرية في العهد الفينيقي لتحديد الطرق البحرية كانت بدائية، فلا خرائط جغرافية تبين الطرق والتضاريس الأرضية، ولا بوصلة يمكن بواسطتها تحديد الاتجاه، ولا معرفة متقدمة بهم في علم النجوم، الأمر الذي جعل الفينيقيين لا يقطعون البحار عرضيا، بل يكتفون بالسير بمحاذاة الشواطئ، وعلى مسافات غير بعيدة عن البر، حيث أنهم كانوا يعتمدون على طبوغرافية السواحل لتحديد مسارهم.

اختار الفينيقيون لإنشاء العديد من محطاتهم مواقع يسهل الرسو فيها، فجاءت أغلبها إما تطل على خليج أو تقع وراء رأس ممتد في عمق البحر، أو متخذة لها مصب نهر أو واد موقعا لها، بل والأكثر من هذا فقد عمد الفينيقيون إلى حفر بعض الموانئ في الشواطئ الحجرية الصلبة إذا توفرت في الموضع الظروف الطبيعية السابقة([1]).

إن اتخاذ هذه المحطات القرطاجية للمواقع الساحلية على طول الشاطئ الجنوبي الغربي للبحر الأبيض المتوسط، كان له الأثر البالغ في توجيه النسيج العمراني لها على وجـــه العموم، وعلى وجهة شبكة الطرق على وجه الخصوص ([2])، حيث جعلت العــديد مــن الطرق تتخذ الوجهة الجنوبية الشمالية في منطقة المغرب الأوسط، كما تتخذ الوجهتين الجنوبية الشمالية والغربية الشرقية في

---

[1] - C.Maitrot, les fortifications nord africaines, les archives berbères, publications du comité d'études ber bères de Rabat, Fac , N° 3, 1915-1916, P. 16.
ك. ماتغيف، ا. سازنوف: فنيقيا بلد الأرجوان، ترجمة، يوسف الجهماني، دار الحوار، اللاذقية، 2001، ص 79

[2] - CH.A. Julien, op.cit, t1, P. 62 et s.

المغرب الأدنى، بينما الشرقية الغربية في المغرب الأقصى، أي أنها ربطت المناطق الداخلية للبلاد بسواحل البحر الأبيض المتوسط.

إن التوسع الفينيقي في بلاد المغرب امتاز ببطئه وطول نفسه وباستعماله نوعا من المرحلية ([1]). فقد كانت أول نقطة انطلاق له بالسواحل الشرقية للمغرب، وأخذ هذا التوسع يتجه تدريجيا نحوالغرب. كما أن سيطرة الفينيقيين على بلاد المغرب بدأت من المناطق الساحلية ليتمكنوا فيما بعد من التحكـــم في بعض المناطق الداخلية مع مرور الزمن([2]).

وهنا يتبادر إلى ذهننا بعض التساؤلات التي لها صلة وطيدة بموضوع بحثنا، ولعل من أهما جميعا: ما هي التأثيرات القرطاجية التي بقي لها مفعول قوي حتى الفترة الإسلامية إن وجدت ؟ وهل هناك بقايا آثار حضارية وعمرانية تركت بصماتها على الفترة الإسلامية ؟.

على الرغم من أن الإجابة عن هذين السؤالين تبقى صعبة في يومنا هذا، نظرا لقلة الدراسات العلمية حول انتقال التــأثيرات العمرانية بين الحقبات التاريخية المتوالية ([3]) ، إلاّ أنه يمكن القول أن غالبية المدن الساحلية المغربية ترجع أصولها إلى الحقبة الفينيقية القرطاجية ، ذلك أن الفينيقيين تمكنوا من تأسيس فضاء عمراني على المناطق الساحلية الغربية لحوض البحر البيض المتوسط تطلب وقتا طويلا لإنجازه. وقد تأسس هذا الفــضاء تدريجيا انطلاقا مــن الساحل الشرقي وانتهاء بالساحل االغربي كما سبقت الإشارة إلى ذلك، حيث تربعت غالبية مدنه على مواضع ضيقة، ومحمية طبيعيا كلما كان ذلك ممكنا.

---

[1] - P.Huboc, Carthage, Paris, 1952, P. 169.

[2]- G. Walter,op. cit. P.19.

[3]- C. Camps, Réflexions sur la pénétration de la civilisation punique en Numidie, extrait des travaux de l'A.P.E.M.O, 1975, p.1 et s.

لقد سيطر الفينيقيون على حوض البحر الأبيض المتوسط الذي كان يعتبر بحق فضاءهم الطبيعي ([1])، فكانت مدنهم ومحطاتهم عبارة عن موانئ مكنتهم من الاتصال بعالم البربر.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن المدن الفينيقية كانت مفتوحة على عالم البحر الأبيض المتوسط ([2]) ، فمنه تأتيها النجدة عند الإحساس بالخطر، وهوالذي يمثل وسيلة الربط بينها. كما كانت هذه المدن تمثل نقطة تماس بين حضارتين مختلفتين هما الحضارة الفينيقية وحضارة السكان الأصليين للمنطقة، كما كانت تمثل في الوقت نفسه نقاط التقاء بين شعوب مختلفة الأصول، تمكنت من جمعهم رغم اختلاف آرائهم، وتباعد أوجههم أحيانا في تصور العالم المحيط بهم، وكذلك في تضارب المصالح بينهم ([3]).

إن هذه المدن والمحطات زيادة على كونها تمثل نقاط تبادل تجاري نشيطة، فهي في الوقت نفسه كانت أيضا مراكز إشعاع نقلت التأثيرات الفينيقية الشرقية ([4]) إلى المغرب، ونشرتها حيث وجدت، فالفينيقيون كما هو معروف استقروا ببلاد المغرب، واستوطنوا في بعض مناطقها بصورة سلمية، مما سهل عليهم إقامة علاقات متميزة مع سكانها الأصليين.

مدينـــة قرطـــــاج :

لقد لعبت هذه المدينة دورا مهما في تاريخ العمران المغربي ([5]) كونها أول مدينـــة فينيقية أسست على شواطئ الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، وسرعان ما أصبحت عاصمة الفضاء الفينيقي كله بالمغرب، حـــيث سهل الموقع

---

1 - G. Walter, op cit, P 19.

2 R. Brunschvig, et M. Cavet et autres, op. cit. p.54.

3 - J.Despois, la Tunisie orientale Sahel et basse steppe, étude géographique, Paris, 1955, P. 104.

4 - G. Camps, les Numides et la civilisation punique , in berbères, P. 148.

5 - Picad, carthage, 1951. P 10 et 11.
Decret. F, Fontar. M, L'Afrique du Nord dans l'antiquité, des origines au 7éme siècle, 1981, P. 63 et s.

الجغرافي الجيد لهذه الأخيرة ([1]) التوغل الفينيقي داخل بلاد المغرب، كما ساعدت على قيام شبكة عمرانية كانت هي أعظم مدنها على الإطلاق. استطاعت أن تؤثر فيها بشدة، وأن تؤثر من خلالها على الفضاء العمراني البربري، مما أدى إلى بروز هذا التأثير في عدة جوانب بصورة كبيرة، حيث مست هذه التأثيرات نموشبكة المدن القرطاجية وتوجيهها، ولم تقف عند هذا الحد فحسب بل تعدته إلى المدن البربرية.

كانت الطرق الرابطة بين المدن القرطاجية عموما بحرية، وكانت الطرق البريـــة تربط العالم البربري بالفضاء القرطاجي، حيث كانت تكثر فيها القوافل المحملة بالمنتـــجات البربرية من جهة، ومنتجات أفريقيا جنوب الصحراء من جهة ثانية.

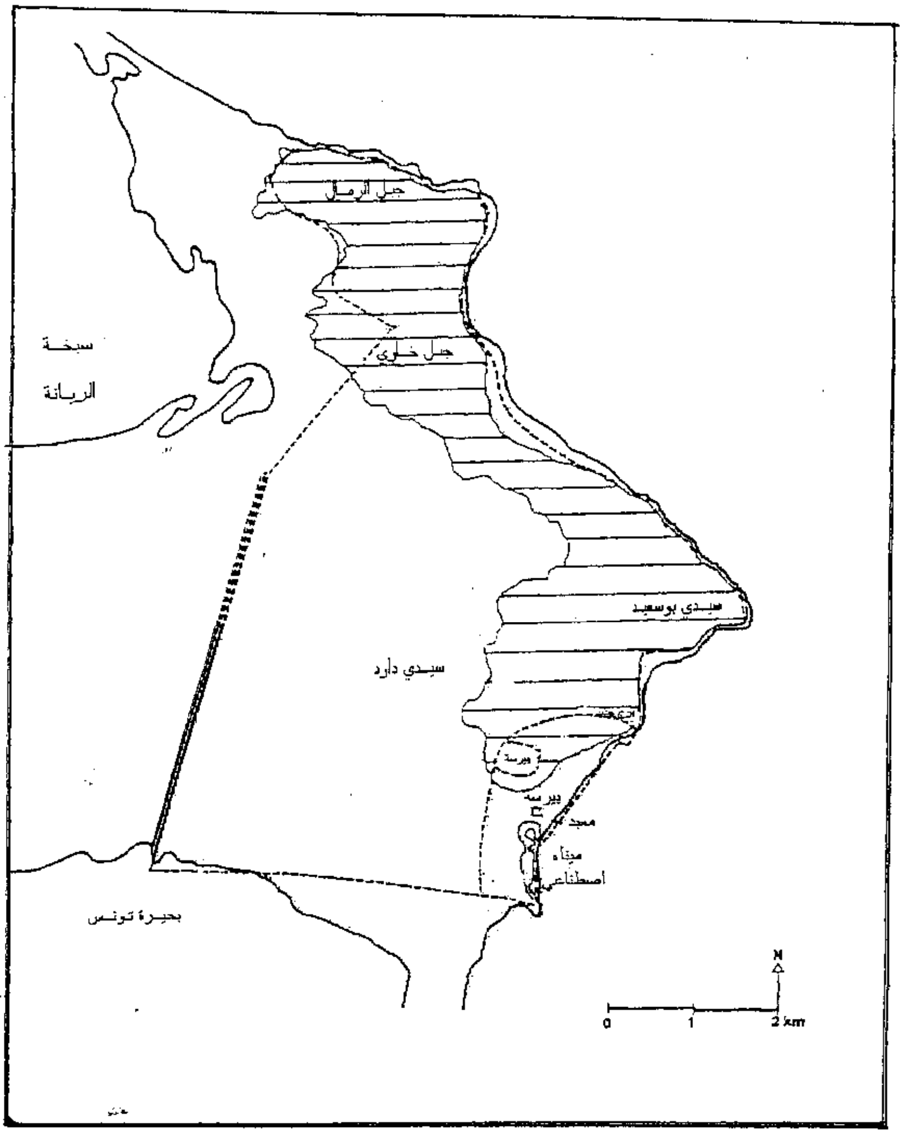
إن ندرة المعلومات حول مدينة قرطاج في المصادر القديمة، وحتى في المراجع والأبحاث المعاصرة، يجعل من الصعب تحديد موقعها تحديدا دقيقا، وحتى أن هذا القليل الذي كتب حولها لا يمكن أن يسلم به هكذا دون تمحيص، ومع ذلك فالمتعارف عليه أن الجزء القديم من المدينة كان يشغل موضعا قريبا من الساحل، يمتد أسفل تل بيسره (Bysra) ([2])، ومع مرور الزمن توسعت المدينة لتشمل أجزاء من هذا التل. **(مخطط رقم 8)** فهذا سترابون (Strabon)، يقول فيما نقله عنه شارل اندريه جوليان أن عدد سكان المدينة قد بلغ سبعمائة ألف نسمة ([3])، ونحن نرى أن في هذا العدد نوعا من المبالغـــة، إذ كيف يعقل لمدينة صغيرة مثل قرطاج التي لا تتعدى أبعاد مساحة شبه الجزيرة التي بنيت عليها بعشرة كيلومترات طولا، على

---

[1] _ للمزيد أنظر: - Picard, op. cit, p 17.

[2] - M. Sartre, A.Tranoy, la méditerranée antique_IVè siècle Av. J – c / IIIè siècle ap , J – c, Armand Colin, Paris, 1991, p. 22

[3] - CH. André Julien, op. cit. P. 9.



مخطط رقم 8: مدينة قرطاج من إعداد الطالب

عشرة كيلومترات عرضا([1])، أن تجمع مثـــل هذا العدد الهائل من البشر، وإن كان بعض المؤرخين يشيرون إلى أن مساكنها كان يبلغ عدد طوابقها الستة، ومع ذلك فإن المجال لا يتسع لهذا العدد.

إن موقع مدينة قرطاج كان في موضع استراتيجي يسهل الدفاع عنه، فالمدينة أسست على رأس ممتد في عمق البحر تحميه المياه من الجهات الثلاث، ويتصل هذا الرأس باليابسة عن طريق لسان أرضي يربطه بالوطن التونسي. إن هذه المدينة، وكما هو الحال بالنسبة لمدينة المهدية فيما بعد، كان بإمكانها الصمود في وجه الحصار لمدة زمنية طويلة ([2])، فالمدينة يحميها سور طوله أربعة وثلاثون كيلومترا، وارتفاعه يتراوح ما بين 9 متر و24 مترا تلتصق به أبراج كثيرة، بعد الواحد منها عـــن الآخر يقدر بـــ 59 مترا([3]).

أما المدينة من الداخل فنجد بها الأجورة التي كانت تتمركز ما بين الميناء وحي بيسرة ([4]). لقد لعب الميناء دورا هاما، فهو قلب المدينة وشريان اقتصادها، كيف لا والمدينة كانت محفوفة بالمساكن يصل عدد طوابقها أحيانا إلى الستة، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على الكثافة السكانية التي كانت تقطن المدينة.

أما فيما يتعلق بالنشاط الزراعي، فقد كان للمدينة أراضي زراعية واسعة ومحمية، كان بإمكانها تزويد المدينة بما تحتاجه من غذاء وماء إذا ما تعرضت هذه الأخيرة إلى حصار من الجهتين البحرية والبرية في الوقت نفسه([5]).

إن موقع شبه جزيرة قرطاج كان محميا طبيعيا من جهة اليابسة بجبل النخل الذي كان يكون الحاجز الأول للدفاع عن المدينة. وتدعيما لهذا الحاجز الطبيعي حفر القرطاجيون خندقا واسعا عرضه 30 مترا، يبدأ من الشاطئ في

---

[1]- جان مازيل: المرجع السابق، ص 154.

[2] - Picard , op. cit. P. 20.

[3] - CH. A. Julien , op. cit, p. 79.

[4] - S.Tlatli, op. cit, P. 61.

[5] - G.Walter, op.cit, p. 457.

S. Tlatli, op.cit, p. 115.

الجهة الغربية، وينتهي بالشاطئ الشرقي، وكان هذا الخندق قد دعم بعدد من الحصون الصغيرة المجهزة بالمرايا التي استغلت في إرسال الإشارات الضوئية إلى البواخر قصد تسهيل الملاحة.

- **تأثيــر المدينـــة:**

لقد تميز الفينيقيون بروح المبادرة، ونظرا إلى ما سبق، فإنهم تمكنوا من التأثير بقوة في العالم المحيط بهم، فقد سيطرت مدينة قرطاج سيطرة كلية على العالم الفينيقي بإفريقيا الشمالية، هذا العالم الذي كان مكونا من عدد كبير من المحطات التجارية، والمدن الصغيرة والمتوسطة، ولعل أصدق دليل على ذلك اكتشاف علماء الآثار للكثير من بقايا آثار مدن فينيقية، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر، أطلال حضرموت (Hadrumète)، وقليبية (Clupiae) ، أوتيكا (Utique)، وقومي (Gummi)، والمهدية (Mahdyya)، ولمطه (LeptisMinor)، ونابل (Neapolis)، وكبيرة (Elupea)، وكركوان (Kerkouane)، أما بالجزائر فيمكن أن نذكر بالإضافة إلى مدينة هيبوريجيو (Ammedra) التي سبق ذكرها، مدينة روسيكادي (Skikda)، وشولو(Collo)، وروسيكيرو(Russccurru) دلس، وإيكوزيوم Icosium الجزائر. أما بالمغرب الأقصى فيمكن ذكر كالتي، مليكه، وتمودا. ([1])

كانت المهمة الأولى لهذا الجهاز التجاري المكون من العشرات من المحطات، تسهيل العلاقات التجارية ما بين العالم الفينيقي وسكان المناطق المحاذية له، الذين كانوا يمارسون التجارة مع القرطاجيين عن طريق المقايضة، فيمدونهم بكميات هامة من إنتاجهم من المواد الخام مقابل المواد المصنعة ([2]) التي يتاجر بها الفينيقيون، علما أن الفينيقيين كانوا مولعين بتجارة المعادن الثمينة من

---

[1] - F. Mercier, Histoire de l'Afrique septentrionale (Berbérie depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête française), Paris, 1888, P.2.
C.Nicolet: Rome et la conquête du monde méditerranéen, genèse d'un empire, sous la direction de C.Nicolet, P.U.F. Paris, 1978, P. 597

[2]- S. Tlatli, op. cit. P. 137

ذهب، وفضة، وغيرهما من المعادن الاستراتيجية المستخدمة في الصناعة من نحاس، وحديد، وقصدير. ([1])

لقد أدت المحطات التجارية الفينيقية المنتشرة على السواحل المغربية دورا مزدوجا، فبالإضافة إلى كونها مراكز لتجارة جهوية نشيطة، ومناطق تبادل فيما بينها من جهة، فإنها من جهة ثانية تعد نقاط تبادل مع المناطق المجاورة لها، زيادة على أنها تعتبر نقاط تخزين في الوقت نفسه لمنتجات هذه المناطق، وموانئ لتصديرها إلى مدينة قرطاج، التي كانت بدورها تعيد تصديرها إلى بقية العالم، أي بمعنى آخر هي التي كانت تحتكر التجارة مع الخارج.

وإذا كانت بعض المدن الفينيقية قد تمكنت من العيش في نـــوع من الاستقلالية الشبـــه كاملة عن مدينة قرطاج، فإن الغالبية العظمى من هذه" المدن المحطات" كانت تحت السيطرة المباشرة للمدينة الكبرى قرطاج ([2])، التي كانت تتحكم في تجارتها وتوجه اقتصادها،بحكم أنها كانت تحتكر تجارة البحر الأبيض المتوسط، التي كانت تمثل إحدى العوامل المهمة في تنشيط الاقتصاد القرطاجي، بالإضافة إلى الصناعة النشيطة، وكثافة مردود المحاصيل الزراعية.

إن الفترة الفينيقية تتشابه مع الفترة الزيرية الحمادية في كثير من جوانب حياتهم. فبعد دخول قبائل بني هلال بلاد المغرب الأوسط، واستحواذهم على المناطق الداخلية، انحصرت السلطة الزيرية الحمادية في المناطق الساحلية للبحر الأبيض المتوسط. وهكذا كان الحال أيضا في الفترة القرطاجية، حيث أن الدولة القرطاجية، وهي في أوج عزّها لم تتعد سيطرتها عن بعض المناطق الساحلية، الأمر الذي جعلها تقوم باستصلاح واسع للأراضي الواقعة حول مدينة قرطاج.

والجدير بالذكر، أن مواقع أغلبية المدن الفينيقية القرطاجية مازالت تدب فيها الحياة إلى يومنا هذا كما تدل عليه بعض آثار هذه المدن، وأن الكثير منها

---

[1] - G. Marçais, les villes de la côte Algérienne, et la piraterie au moyen age, A. I. E. O, fac de lettres Alger, tXIII, 1955, P.29 et s.

[2] - محمد أبو المحاسن عصفور، المدن الفينيقية، دار النهضة العربية، بيروت، 1981، ص 66.

ساهم مساهمة فعالة في تكوين النسيج العمراني ببلاد المغرب في العصر الوسيط، كما لعبت كذلك دورا أساسيا في التجارة البرية، والبحرية، في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط في العصر الوسيط. ([1]) وقد عمد المسلمون بعد أن تـــم لهم الفتح لبلاد المغرب إلى اتخاذ هذه المواقع لإقامة عدد كبير من الحصون والأربطة للدفاع عن أراضي الإسلام بالمغرب، فأنشئ عدد لا بأس به من هذه الأربطة، إما في مواضع محطات، أو مدن فينيقية مندثرة، وإما داخل بعض المدن ذات الأصل الفينيقي، والتي عرفت نشاطا بالغ الأهمية في العهد الإسلامي، أو بالقرب منها.

إن تزايد عدد المدن والمحطات التجارية الفينيقية على طول شواطئ بلاد المغرب، وما تحمله هذه الأخيرة من تيارات فكرية، وحضارية، ستكون لا محالة إضافة جديدة ساهمت حتـــما في إضفاء نوع من التمدن عـــلى المواطن البربرية المحاذية لها فأكسبتها لمسة حضارية قرطاجيـــة ([2])، وذلك بانتقال التأثيرات الفينيقية إليها عن طريق الاحتكاك المتواصل مع الحضارة الفينيقية، فهذه العملية كانت فرصة سانحة أمام السكان البربر في الاستزادة في تعلم تقنيات زراعية جديدة، واكتساب أساليب حديثة في تربية الحيوانات، وسيتمكنون بفضلها من مختلف طرائق، وكيفيات استخراج بعض المعادن من باطن الأرض التي تزخر بها بلادهم، وتصنيعها. ([3])

إن انفتاح الفضاء العمراني الفينيقي القرطاجي على البحر الأبيض المتوسط، كان الميزة التي دفعت مدينة قرطاج إلى أن تصبح القوة العسكرية الأولى التي سيطرت على الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط لفترة زمنية

---

1 - G. Marçais, Les villes de la côte Algérienne, p. 129 et s.

2 - G. Marçais, L'art en Algérie, imprimerie Algérienne, Alger, 1906, P. 6 et 7.

3- يرى المؤرخ كامب أن البربر اكتشفوا بأنفسهم كيفية استخراج المعـــادن ومعالجتهـــا واســـتعمالها (ويبقى هذا الموضوع محل نقاش). وللمزيد حول هذا الموضوع أنظر:

-G. Camps, et p.r. Geot, un poignard chalcolithique au cap Chenoua,in libyca, 1960 , P. 263.

– عاطف عيد، قصة تاريخ الحضارات العربية بين الأمس واليوم، الجزائر تونس، مجلد 21–22، بيروت، 1988–1999، ص 17 وما بعدها.

طويلة، وقد زاد من قوة سيطرتها هذه، انتشار المدن والمحطات التجارية الفينيقية القرطاجية على طول الشريط الساحلي للبحر الأبيض المتوسط، من أقصى نقطة في شرقه إلى أبعدها في غربه، وإن كان تركيزها في المناطق الشرقية أكثر منه في المناطق الغربية.

لقد استعمرت قرطاجة في أوج قوتها مناطق شاسعة من التل التونسي، ومنطقة طرابلس، وكان السكان المحليون آنذاك يعيشون في إطار مماليك وطنية، تقوم على أساس تحالفات قبلية واسعة. ([1]) وإذا كانت بعض أجزاء المغرب الإسلامي قد خضعت لمدة زمنية طويلة إلى سيطرة الدولة القرطاجية بصفة مباشرة، فإن بعضها الآخر قد احتك بحضارتها الشرقية عن طريق التبادل التجاري، وأن هذه العملية تكون قد أثرت لا محالة في سكان إفريقية على وجه الخصوص، وسكان بقية مناطق المغرب على وجه العـموم، وذلك على جميع الأصعدة ([2])، الأمر الذي جعل بعض المؤرخين الفرنسيين مثل قوتيي ([3])، واستيفان قزال، وهنري باسي ([4])، ينظرون إلى هذا الموضوع بنوع من الخصوصية مؤكدين أن تأثيرات الحضارة القرطاجية استمرت في الوجود حتى الفترة الأغلبية، حيث بقيت معالمها بارزة وقوية. وهنا يتبادر إلى ذهننا بعض الأسئلة التي نراها مهمة في إثراء هذا الموضوع:

هل سهل انتشار اللغة القرطاجية السامية انتشار اللغة العربية لغة القرآن الكريم، كما يراه وليم موشي وعدد آخر من المستشرقين ؟.

وهل أن إدماج العالم المغربي الأمازيغي القديم في إطار اقتصاديات العالم القديم سيسهل بروز فضاء مغربيا مستقلا ؟

---

[1] - G.Camps, Maghreb et Sahara, études géographiques, offertes à Jean Despois, une frontière inexpliquée, la limite de la Berbérie orientale,, de la protohistoire au moyen Age, P 64 et 65.

[2] - S.Tlatli: op cit, P 167.

[3] - E.F. Gauthier, le passé de l'Afrique du nord, les siècles obscurs, Paris, 1964, P 130 - 148.

[4] - H. Basset ,Influences puniques chez les berbères,in revue africaine,1921,p. 340 - 374.

لقد تمكن الحلف الروماني البربري من إلحاق الهزيمة النكراء بالدولة القرطاجية ([1]) والحد من سيطرتها، بل الأكثر من ذلك أن الرومان احتلوا الفضاء القرطاجي، وأحرقوا المدينة وخربوها تخريبا كاملا، ولم يتوقفوا عند هذا الحد، بل أدت بهم القسوة والغطرسة إلى حرث موضعها معتقدين بأن إزالة آثار المدينة نهائيا سوف يؤدي إلى زوال الدولة ([2]).

خامسا- العمران الروماني:

بالرغم من أن قرطاج تعرضت إلى هذه النهاية المأسوية، إلاّ أن هذا لا يعني أن الحضارة القرطاجية انتهت بتخريب مدينة قرطاج، بل بالعكس فإن العديد من المدن القرطاجية عرفت نموا وتطورا أثناء الفترة الرومانية ([3]). ومما لا شك فيه أن خراب قرطاج قد أثر على تطور الفضاء العمراني، وتوجيهه في بداية الحقبة الرومانية، كما أن النظام الهرمي العمراني عرف نوعا من الخلل، وقد أثر هذا على منظومة الطرق، التي عرفت هي الأخرى إعادة الهيكلة لشبكتها من جديد حيث غيّرت وجهتها صوب مدن جديدة ورثت دور قرطاج في النواحي الاقتصادية والإدارية والعسكرية.

لقد توسعت هذه الطرق وأصبحت تربط المناطق الداخلية التي سيطر عليها الاستعمار الروماني مع المدن الساحلية، التي أصبحت تشكل موانئ لتصدير خيرات المغرب القديم باتجاه روما. اعتمد الرومان عند احتلالهم لبلاد المغرب عامة، ولقرطاج ومنطقتها خاصة، سياسة توسعية على حساب المناطق البربرية لم يسبق أن عرفها العهد الفينيقي القرطاجي. الأمر الذي جعل السكان المحليين يواجهون الاستعمار الجديد بمقاومة عنيفة ([4]) تمثلت في ثورات متتالية ضد

---

[1] - CH.A Julien , op. cit. T I, P. 106 et 107.
C. Monet, Rome et la conquête du monde méditerranéen, t II, genèse d'un Empire , P.V.P, 1978, P. 626 – 662.

[2] - G. Walter, op.cit. P. 500.
– وأنظر أيضا رشيد الناضوري: المغرب الكبير، العصور القديمة،الجزء الأول، دار النهضة العربية، بيروت، 1981، ص282.

[3] - CH.Courtois," de Rome à L'Islam", in revue africaine, 1942, P. 28.

[4] - C.H.A Julien , op. cit. t II, P. 110.

الرومان، مما دفع بالسلطة الرومانية إلى العمل بكل ما أوتيت من وسائل مادية لإخمادها، وإن كان ذلك قد كلفها حماما من الدماء. ([1])

اضطر بعد ذلك السكان المحليون في إطار هذه السياسة الاستعمارية إلى اتباع أحد الخيارات الثلاثة:

1- إما إلى العمل كعمال أجراء في المزارع الكبيرة التي أسسها الرومان على أراضيهم.

2- أو الهجرة إلى الأراضي السهبية والجبلية الفقيرة.

3- أم الرحيل إلى الغرب ([2])، والاستقرار في المناطق الخارجة عن السيطرة الرومانية.

وقد مثل السكان المحليون الخاضعون للسيطرة الرومانية خزانا كبيرا لليد العاملة الرخيصة، التي كانت تمثل العمود الأساسي، والركيزة الرئيسية للسياسة الاستعمارية الرومانية.

وأمام هذه المقاومة البربرية الشديدة عدل الرومان عن سياستهم الاستعمارية التوسعية، واكتفوا بالسيطرة على المناطق الخصبة ([3])، وعملوا على الاستحواذ على الأماكن الإستراتيجية التي يمكنهم الدفاع عنها، وتركوا أكثرية المناطق الجبلية، والسهبية، والصحراوية، وأغلبية مناطق المغربين الأوسط والأقصى في أيدي السكان المحليين([4]).

ولتأكيد سيطرتهم على هذا المجال الاقتصادي الهام، عمد الرومان إلى تدعيمه بسياسة أمنية دفاعية وهجومية في آن واحد، مثلها على أرض الواقع

---

[1] - A. Berthier, la Numidie, op. cit. P. 94.

[2] - R.Brunschvig, M. Calvet et autres, op. cit. P. 54.

[3] - يرى الأستاذ " لوفو" أن الحضارة الرومانية قد تمكنت من التأثير على بعض المناطق الجبلية، وأن الأوراس لم يكن حصنا بربريا وقف في وجه الرومنة، بل إنهم تمكنوا من التأثير فيه. عن هذا الموضوع أنظر:

- L'opposition de la montagne, P. 201.

[4] - C.H. Courtois, les vandales en Afrique, P. 65.

نـــظـــام الليمس ([1]) الكبير الذي يرى فيه بعض المختصين أنه سور منيع، ووصفوه بسور الصين المغربي تشبيها له بسور الصين العظيم.

شيد هذا السور، بين الفضاء الروماني والوسع البربري المحيط به، والمتربص به في الوقت نفسه. لقد أحاط نظام الليمس ([2]) بكل ما هو مفيد اقتصاديا في بلاد إفريقية، فحوى الأراضي الزراعية الخصبة، والمدن والقرى المأهولة، والنشاطات الاقتصادية المهمة، والطرق المبلطة، والموانئ الكبيرة. وكانت المناطق الممتدة خارج هذا النظام الدفاعي يغلب عليها كل مظاهر الفقر والثورات، وكان سكانها متربصين بالحضارة الرومانية، وناقمين على نظام حكمها، ويتحينون الفرصة للانقضاض عليه لتخليص بلادهم من هذا المستعمر الجائر.

لقد لعب نظام الليمس ([3]) دورا محوريا في التطور العمراني للمناطق المحاذية للجبال([4])، وأثر تأثيرا بالـــغا في العمران المغربي عموما. أما بعد الفتح الإسلامـــي لبلاد المـــغرب، فقـــد أعيد النـــظر في السيـــاسة الأمنيـــة، وفي مهام هذا النظام الدفاعي الضخم، فقد أهملت أغلبية مدنه وحصونه، ذلك أن المسلمين تمكنوا أول الأمر من السيطرة على أراضي المغربين الأوسط والأقصى. ولكن بعد المقاومة البربرية للفتح، والثورات الخارجية التي شهدتها المنطقة، وظهور الدويلات المستقلة. عمل الأغالبة منذ تأسيس إمارتهم على إعادة تشغيل هذا النظام الدفاعي([5]) القديم مع إدخال بعض التعديلات عليه من حيث التوجيه، ذلك أن مدينة القيروان التي أصبحت العاصمة الجديدة للبلاد، كانت تقع في الجهة الجنوبية الشرقية للبلاد، على عكس مدينة قرطاج التي كانت تقع في الجهة

1 - C.H.Courtois de Rome à l'Islam. P. 34.
2 - A.Berthier, op cit, P. 5.
3 - CH. Courtois, les vandales en Afrique, P. 65-70.
4 - Ibid. P. 65 - 70.
5 - M. Vonderheyden, La Berbérie orientale sous la dynastie des banou'l-Arlab 800- 909, Paris, 1927 P. 50 - 56.

الشمالية الشرقية. مما استـــدعى إعادة النظر في هذه الوسيلة الدفاعية من طرف الأغالبة.

لقد أدى نظام الليمس في العهد الأغلبي، دورا مهما في الدفاع عن المناطق الإستراتيجية من إفريقية، وقد نتج عن هذا الحاجز المادي في واقع الأمر تقسيم بلاد المغرب إلى قسمين متباينين في شتى مجالات الحياة. فمن جهة، نجد عالما متحضرا بحضارة الرومان، ينتج فنونهم، ويشيد عمارتهم وعمرانهم، ويتخذ من المناطق المنخفضة السهلية الواقعة بالجهة الشرقية ([1]) للمغرب موطنـــا له. ومن جهة أخرى، نجد عالم البربر الخارجين عن النفوذ الروماني، الذي أنتج حضارة وعمرانا خاصين به. وقد تمركز بصفة عامة في المناطق الواقعة خارج إطار الليمس، وفي المرتفعات الجبلية التي تشغل حيزا كبيرا في المنطقة الشرقية من المغرب، والأراضي الغربية منه، وبهذا يكون نظام الليمس قد قسم بلاد المغرب إلى مناطق غنية قابلة للاستعمار ([2])، ومناطق فقيرة طاردة، أصبحت تستقطب إما السكان البربر المطرودين من المناطق التي يحميها الليمس، أو ملجئ للقبائل الثائرة ([3]).

لقد اتخذ الرومان من نظام الليمس، وسيلة دفاعية لحماية المناطق المأهولة بالسكان، وقد سمحت الظروف الأمنية التي وفرها نظام الليمس بنمو نسيج عمراني مكثف، كما سهل ظهور عدد كبير من الطرق المبلطة ([4]) التي كانت تربط بينه، وبين مراكز تموينه، حيث وفرت المناطق السهلية من بلاد المغرب بفضل اليد العاملة الكثيرة والرخيصة في آن واحد، إنتاج زراعي وفير وجه على العموم للتصدير، وهكذا فإن نظام الليمس دافع عن المناطق الغنية، فكان دائم

---

1 - CH. Courtois, les vandales en Afrique, P. 67.

2 - CH. Courtois, de Rome à L'Islam, P. 30.

3 - Ibid, P. 30.

4 - J. Baradez, Fossatum Africae, vue aérienne de l'organisation romaine dans le sud Algérien, Gouvernement général de l'Algérie , 1949, P. 359.

النشاط في المناطق الشرقية، ومؤقتا في المناطق الغربية لبلاد المغرب كالجزائر الغربية والمغرب الأقصى. ([1])

لقد تأثرت بلاد المغرب بالحضارة الرومانية تأثرا عميقا، والشاهد على ذلك الآثار الرومانية المنتشرة في شتى أنحاء هذه البلاد الشاسعة، إلاّ أن في هذه الآثار المادية الباقية إلى أيامنا هذه شواهد كثيرة على أن المواطن الخاضعة للسيطرة الرومانية، كانت محمية ومحصنة، لتكون على أتم الاستعداد للوقوف أمام عدو متربص بها، سريع الهجمات، يمكن أن يباغتها في أي لحظة ممكنة ([2])، هذا العدو الذي استعمل تكتيك حـــرب العصابات في حربه التحريرية ضد روما، متواجد في كل مكان، إلاّ أن مواطن تحركه وتواجده بقوة كانت خارج النطاق المحمي بخط الليمس.

استطاعت القبائل البربرية صد الهجمات المتتالية للجيوش الأجنبية المدججة بالسلاح، وتمكنت رغم قلة إمكانياتها التسليحية من إلحاق الهزيمة تلوى الأخرى بها، فكانت للبربر مواقع شهيرة مع الرومان والبيزنطيين، كما قاوموا أول الأمر الجيوش الإسلامية الفاتحة مقاومة مستميتة ([3])، إلاّ أنهم بعد دخولهم في الإسلام ساهموا مساهمة أساسية في فتح بلاد الأندلس، وجنوبي فرنسا، وإيطاليا، وجزر الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط.

كان الفضاء البربري الممتد خارج نطاق خط الليمس، فضاء مليئا بالحيوية والنشاط ([4])، ورغم قلة ما كتب عنه سواء في المرحلة القديمة أوفي المرحلة الوسيطية ، إلاّ أن الآثار الباقية به إلى يومنا هذا ـــ على ما هي عليه من قلة الاعتناء بها، وقلة الدراسات العلمية التي تناولتها ـــ تشهد على صرح حضاري غني ترعرع في أرجائه، وتميز بعمارته، وعمرانه، وفنونه الفريدة والأصيلة.

---

[1] - CH. A Julien, op. cit. P. 193.

[2] - Khalef Mohamed Nadjib, L'Evolution de la ville Maghrébine de la conquête Islamique à la fin des Almohades, doctorat d'état en archéologie islamique, université d'Alger, 2001/2002.p. 29 .

[3] - M. Vonderheyden, op. cit. P. 3.

[4] - KH. Belkodja, op. cit. P. 56.
CH. Courtois, de Rome à l'Islam, P. 35.

لقد حاصر عالم البربر المستقلين، والأحرار، مواطن الاستعمار الروماني التي كانت تمثل شريطا ساحليا ضيقا في منطقة طرابلس الليبية ([1])، وتمركزت بقوة في منطقة إفريقية، (تونس الحالية والجزائر الشرقية) ([2])، وكانت في المغربيين الأوسط والأقصى ممثلة في شريط ضيق يمتد حتى مدينة مليلة ([3]). (**خريطة رقم 5**).

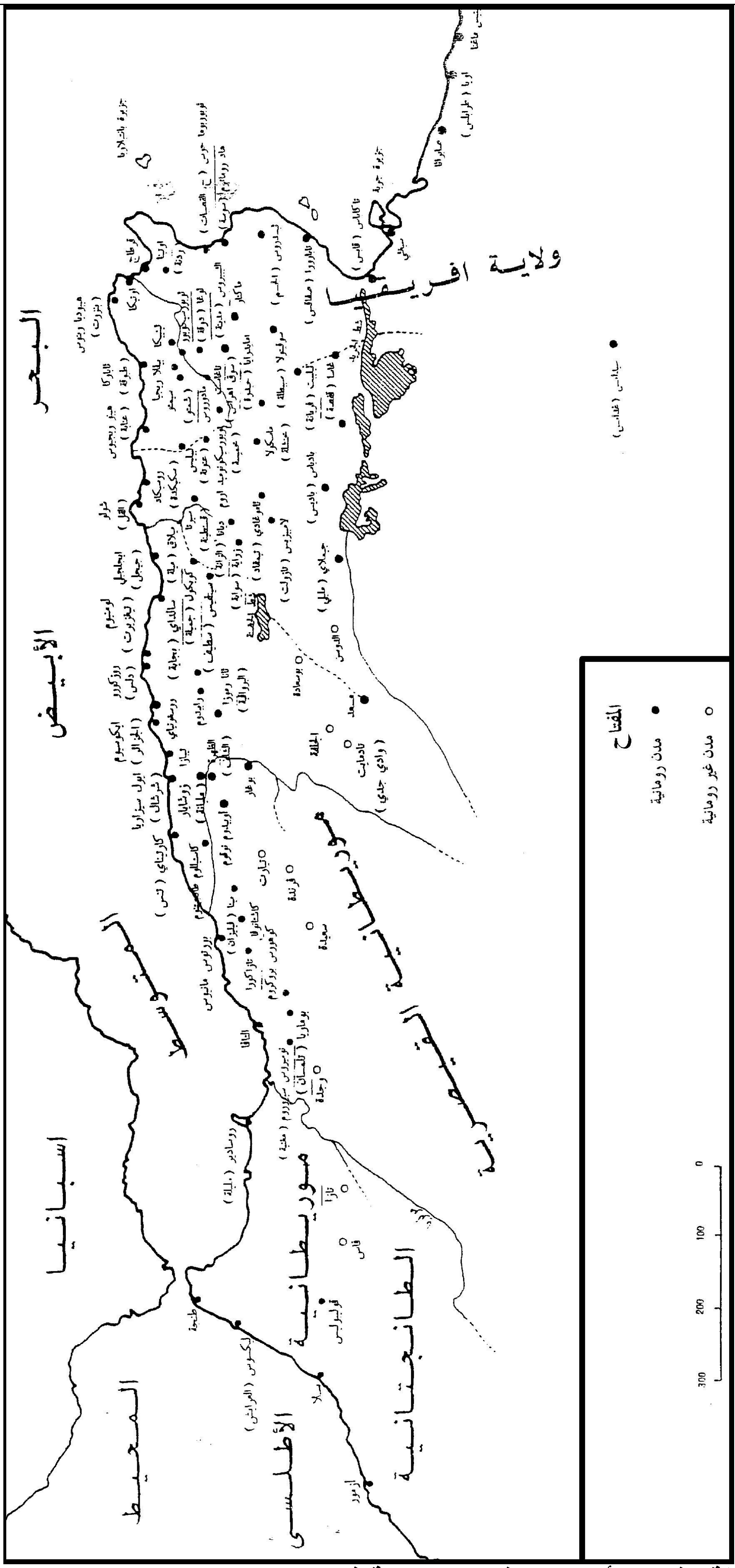
وأمام هذا الحصار الذي فرضه البربر على الرومان، جعل روما تحدد الدور المهم الذي سيلعبه الليمس، والوظيفة الأساسية التي سيقوم بها، وتحسبا لهذا الدور فقد وضعت لإنشائه إمكانيات بشرية ومادية هامة، كما تميزت عملية بناء هذا الخط الدفاعـــي العملاق بالمرحلية كلما تطلبت الحاجة إلى ذلك، كيف لا وهو الحارس الأمين للأراضي التي استولى عليها الرومان عبر العصور، فيمتد كلما امتدت هذه الأراضي نحوالغرب، وقد ينكمش مع

---

[1] - CH. A. Julien op. cit. P. 135.

[2] - M.Gaid , Aguelleds et Romains an Berbères, Alger , 1972 , P.p 103 -106.

[3] - من الصعب اليوم تحديد الكثير من الأمور في تاريخ المغرب الأقصى القديم لقلـــة المصـــادر التـــي تحدثت عنه،ولندرة الدراسات التاريخية الأثرية حول هذه الحقبة الهامة من تاريخه.أنظر:
"Initiation au Maroc" ,institut des hautes études marocaines,op.cit. p. 51.



خريطة رقم 5: أهم المواقع الرومانية في الجزائر عن( )

تراجع هذه السيطرة، فهودائم في مناطق جغرافية معينة، وظرفي في مناطق أخرى، وذلك تبعا للسياسة التي انتهجها الرومان في بلاد المغرب.

شرع في عملية بناء الليمس في عهد الإمبراطور تيبر Tibère، الذي كما هو معروف، مهد طريقا مهمة بين تاكابي Tacapé وحيدرة ([1]) كانت وظيفتها تسهيل وصول المدد إليه، للوقوف أمام هجمات الموزيلان البدو، كما فتحت بعد ذلك طرق أخرى ربطت بينه وبين أهم المدن الرومانية الموجودة بالمنطقة. فمدت في هذا الإطار الطريق الرابطة بين تكابي Tacapé ولبدة، وبين تبسة Thevesteوهيبوريجيو (HypoRegius) (بونه) ([2])، كما عمد الرومان إلى إنجار حصون كبيرة في عمق البلاد لمراقبة البربر. فأنشئ مثلا حصن لومباز (Lambèse)([3]) تازولت حاليا في منطقة الأوراس.

لقد اتبع في إنشاء خط الليمس مسار التوسع الروماني، أي من الشرق إلى الغرب، فجاء ليوفر الحصانة والأمن للمناطق التي سيطرت عليها روما.

إن هذا التوسع يذكرنا بتوسع يشبهه شهدته بلاد المغربين الأدنى والأوسط أيام الفاطميين ودولة الزيريين ([4])، الذين قاموا بإنشاء عدد من المدن المحصنة للدفاع عن الفضاء الإفريقي ([5]) عموما، والوقوف في وجه المد الزناتي خصوصا، حلفاء بني أمية في الأندلس. كالمحمدية (المسيلة) ([6]) وأشير، ومليانة، والمدية، والجزائر.

امتد نظام الليمس في العهد الروماني بالمغرب الأقصى حتى بلغ مدينة سلا الواقعة بالسهول الأطلسية حيث عثر علماء الآثار على جزء منه بلغ طوله حوالي

---

[1] - J.Baradez, op. cit. P. 151.

[2] - A.Berthier, op. cit. P. 130.

[3] - Ibid., P. 130.
G. Marçais, l'art en Algérie, p. 11 et 14.

[4] - L.Golvin, le Maghreb central à l'époque des Zirides, recherches d'archéologie, Paris, 1957, p. 62 et s.

[5] - CH. Courtois, de Rome à l'Islam, p.79.

[6] - P. Moessara, " M'sila du Xeme au XVeme siècle", in bulletin de la société historique de la région de Sétif, t2 , 1941,p. 183 - 215.

20 كيلومترا. ويرى بعض المؤرخين أنه وصل إلى مناطق تحاذي مدينتي فاس ومكناس. ([1])

لقد ازدهرت الزراعة في هذه المنطقة نظرا لخصوبة الأرض، وخصوصية مناخ المــغرب، أضف إلى هذا الأمــن الذي وفره هذا الاستحكام الدفاعي الضخم ([2]) ، كما نشطت التجارة وتعددت الحرف، الأمر الذي جعل المقاطعات الرومانية تؤدي دورا أساسيا في اقتصاديات العالم القديم. ولكي تتضح الرؤية حول الدور الهام الذي لعبه هذا التنظيم الدفاعي الضخم، سواء كان ذلك في العهد الروماني أو العهود التي تلته بما فيها الحقبة الإسلامية، وجب علينا عقد مقارنة بين الفضاء الأرضي الذي سيطر عليه الرومان والبيزنطيون، وما جاء بعدهم من دويلات إسلامية عديدة كالأغالبة، والفاطميين، والزيريين ([3])، أي فضاء إفريقية الإسلامية التي امتدت أراضيها في أغلب أنحائها داخل المجال الجغرافي الذي كان يحده نظام الليمس الروماني. ([4])

لقد كان الحيز الجغرافي لإفريقية مكانا تشغله عواصم هذه الدول التي كانت تمثل رمز سيطرتها الدائمة ([5]). فيها أنشئت المدن والحواضر، وبها فتحت الطرق الطرق والمسالك، وبها أيضا شيدت الاستحكامات العسكرية لحراستها، وبها استصلحت الأراضي، وبنيت المنشآت المائية على اختلاف أنواعها. أما المناطق الأخرى من المغرب الأوسط، فكانت بلاد سيبة لا يتحكم فيها إلاّ بقــوة السيف وحضور الجيوش الجرارة.

---

[1] - Initiation au Maroc, op. cit. P. 51.

[2] - KH. Belkodja, op. cit. P. 61.

[3] - CH. Picard , la civilisation de l'Afrique romaine, 1952, P. 3 et s.

[4] - J.P. Laporte, Ropidum, op cit. P. 20.

[5] - تميزت المناطق الشرقية من المغرب بكثافتها العمرانية، حيث يرى بعض المؤرخين أن عدد المدن بها كان يفوق بعض المئات أثناء القرن الرابع أنظر حول هذا الموضوع:

- CH. Courtois , De Rome à l'islam , P. 8.

لقد تميز المغرب القديم بقلة عدد ساكنيه من الرومان ([1]) وكذا البيزنطيين، إلاّ أنهم كانوا فيه هم أصحاب القرار والسلطة السياسية والاقتصادية، فمنهم الأمراء والقادة وأعضاء الجيش وملاك الأراضي، فاستــغل الرومان البربر الخــاضعين لهــم أيمــا استــغلال فبالإضافة إلى اليد العاملة الوفيرة التي وجدوها فيهم، أصبحت بلاد المغرب بفضل سواعد هؤلاء توفر المحاصيل الزراعية الكبيرة التي كانت تصدر إلى روما.

مما سبق يظهر جليا أن المنطقة التي ستدخل في حيز الدولة الإسلامية، كانت من أقدم جهات العالم عمرنا، ففيها ظهر عمران بلاد مابين النهرين، وعليها نما عمران الفراعنة، وفوقها ازدهر عمران الفينيقيين والرومان والبيزنطيين. ومن المفروغ منه والمتفق عليه عند جمهور العلماء أن فجر الحضارة الإنسانية ظهر في بلاد الشرق الأوسط، تلك المنطقة التي شهدت مهبط الرسالات السماوية وموطن الأنبياء، ومولد الإمبراطوريات الكبرى، ففيها ظهرت الزراعة، وطورت الحرف، وعرف الإنسان الكتابة.

لقد تميز عمران بلاد مابين النهرين بنظامه الصارم وبطغيان العمارة الدينية والعسكرية على العمارة المدنية، فجاء عمرانه منتظما ملبيا كل متطلبات الحياة الاجتماعية والدينية التي ما هي في الحقيقة إلا مظهرا من مظاهر عبادة الملك الإلـــه.

لقد طغى المعتقد الديني على مخططات المدن العراقية القديمة، حيث أنشئت الزيقورات في مراكزها الهندسية وفي المواقع العليا منها، كما برزت العمارة العسكرية من أسوار وحصون وخنادق في المدينة الملكية كلها، ذلك أنها سخرت والأعداد الهائلة من الجنود للدفاع عن هذا الملك الإله.

---

[1] - محمد البشير شنيتي، " نظرة على الوضع الديمغرافي والاجتماعي في المغرب أثناء الاحتلال الروماني. " مجلة الدراسات التاريخية. رقم 1، 1966، ص 13 وما بعدها.

أما الأحياء الشعبية، فقد تميزت في مجملها ببساطة عمارتها وتعميرها، وتواجدها إما حول المباني الدينية، أو حول أحياء الطبقة السائدة في المجتمع فكانت إما داخل السور المحيط بالمدينة أو خارجه.

أما مصر بلاد الكنانة فقد تميز عمرانها الإجمالي بكونه جاء على شكل شريطي امتد طوليا على ضفتي نهر النيل، ذلك أن مصر هبة النيل، وأن الحضارة والحياة ارتبطتا به، هذا دون أن نغفل أن العمران المصري ارتبط ارتباطا وثيقا بالمعبد وبالكهنوت خدمة الملك الإله، حيث امتازت مدن وادي النيل بمخططات منتظمة تميزت بشوارعها المستقيمة الواسعة، وقد اتخذت هذه الصفة تلبية لوظيفة دينية بالدرجة الأولى، فهي تعتبر ممرا مخططا للمواكب الدينية قبل كل شي.

وعلى خلاف مدن بلاد مابين النهرين، فقد جاء عمران الفراعنة شديد الانتظام ومتسع، على هيأة شطرنج،، كثرت فيه الحدائق والمنتزهات. كما طغى على مخطط التعمير العام في بلاد مصر، الاعتقاد بوجود عالم للأحياء وآخر للأموات، حيث خصصت المناطق الشرقية للنيل لبناء عمران الأحياء والغربية منه لاستقبال عمران الأموات.

أما عمران اليونان فقد ظهر في جو مفعم بالحرية والديمقراطية، فجاء أكثر متطابقا مع متطلبات المواطن اليوناني، ومسايرا لنمو المجتمع اليوناني. ذلك أن مدن بلاد اليونان مرت بمراحل عمرانية تدرجت فيها نحو النمو والرقي، بدءا بمرحلة المدينة الملكية ومرورا بمرحلة المدينة الأوليقارشية وانتهاء بمرحلة المدينة الديمقراطية. كما امتاز عمران اليونان باتخاذه مواقع إستراتجية لمدنه، وخصصت على هذه المواقع الأراضي الأكثر علوا لإنشاء القلاع المحصنة، وعمل اليونانيون على تحصين مدنهم بأسوار متقنة البناء شيدت بالحجارة الصلدة الكبيرة الحجم.

لقد ربطت هذه المدينة بالآلهة، صلات دينية عديدة، فسورها في نظرهم مقدس ومعصوم، يتواجد بمركزه معبد للآلهة. كما أن عملية إنشاء المدينة ترتبط باسم مؤسسها، والذي يهدف من وراء هذا العمل الخلود، ذلك أن سكان المدينة

يقدسون أرواح السلف، وما دام الأمر كذلك فإن روح مؤسس المدينة تبقى خالدة عند سكان مدينته.

امتازت المدينة اليونانية الديمقراطية، مدينة المواطنة، ببساطة عمرانها، وبتواضعها، فالمباني الكبيرة والفخمة لم تنشأ إلا في الأكربول الذي أصبح مكانا يتجمع فيه المثقفون بعدما كان حصنا، وللعلم فإن المدينة الديمقراطية على عكس المدينة الملكية، كانت مفتوحة ولم تحصن بأسوار.

أما بلاد المغرب، فقد عرفت انتشار عمران شرقي في مناطق واسعة منها حمله إليها الفنيقيون. انعكست عليه تأثيرات مجتمع اعتمد على التجارة البحرية الدولية كوسيلة لقيامه، وجعل منها أساس اقتصاده، لقد جاءت المدينة الفينقية القرطاجية مفتوحة على البحر، كما امتاز عمرانهم بكونه لم ينتشر إلا على الشريط الساحلي للبحر الأبيض المتوسط، فقد تميزت أم مدن هذا العمران (مدينة قرطاج) باتساعها وبعل وأسوارها واتساع خندقها.كما أن المدينة أسست على رأس ممتد في عمق البحر يسهل الدفاع عنه من الجهات الثلاث، حيث تمركز المعبد فيها بين حيي بيسرة والميناء.

إن اختلاف طرق التعمير التي سادت الأراضي التي ستصبح في المستقبل بلادا إسلامية، وقدمها وتميزها عن بعضها البعض، ستكون الأرضية الخصبة التي سينشأ عليها العمران الإسلامي الذي سوف يأخذ منها الأشياء التي تتماشى وتعاليم الدين الإسلامي وسيتغاضى عن الأشياء الأخرى.

الفصل الثاني

عمران شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام

أولا : مكة.

ثانيا : المدينة المنورة.

تمهــيد:

لقد اختط العرب في الجاهلية مئات المدن، في منطقة شبه الجزيرة العربية، حيث لا تكاد تخلو منطقة من المناطق الجغرافية قبل الإسلام إلا وشهدت إما قيام مدينة أو قلعة أو قرية صغيرة.

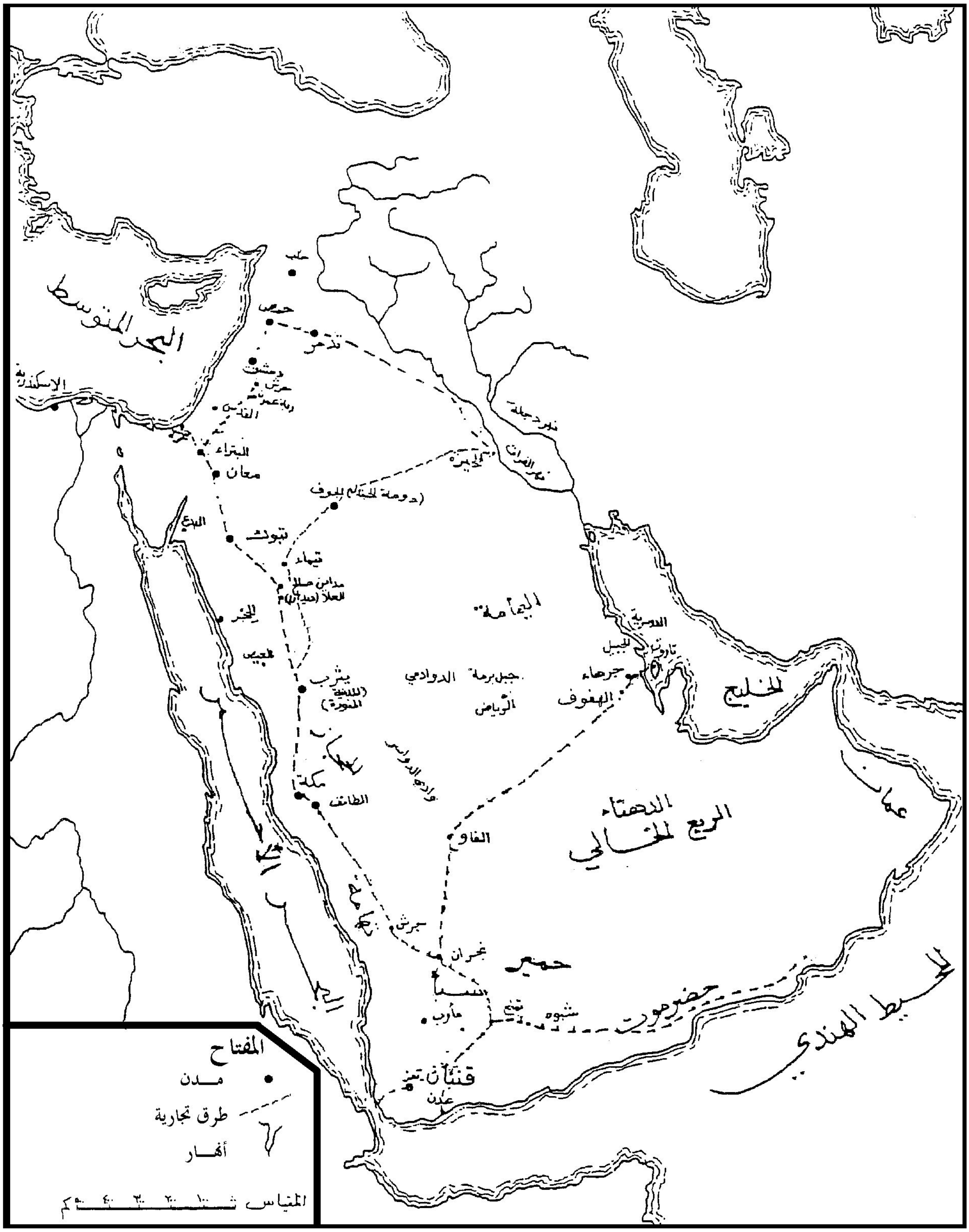
وإذا كان بعض المستشرقين في الوقت الحاضر يجرد العرب خلال هذه المرحلة من حضارة بناء المدن ويصفونهم بساكني الخيم وأن العربي لم يع كلمة قصر، فإن آثار المدن التي مازالت قائمة إلى يومنا هذا في الحجاز، ونجد، وحضرموت، وعمان، واليمامة، تشهد على أن العرب كانوا من بناة المدن ومن المجتمعات التي استقرت في المدن، (**خريطة رقم 6**) وأن تخطيط هذه المدن وإنشاءها كان من تلقاء أنفسهم لم يشاركهم فيه أحد، ولم يقتبسوا أو يقلدوا المجتمعات القريبة منهم من روم وفرس، وما مدن مكة، ويثرب، والمدينة المنورة، والطائف، واليمامة، وصنعاء، وعدن، ومأرب، وغيرها كثير، إلا دليل قاطع على أن العرب كانوا قوم حضر، ولم يكونوا أقوام من البدو الرحل الذين لم يعرفوا أي نشاط عمراني وفني كما وصفهم بعض المستشرقين، وعملوا على إثباته بدافع الولاء لحضارتهم الغربية([1]).

وإذا كنا قد مهدنا لموضوع بحثنا هذا بالعمران القديم في بلاد المشرق عامة وعمران شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام بشكل خاص، فلأننا ندرك أن لهذا الإرث أهمية كبيرة في تحديد جذور الحضارة العربية قبل الإسلام وبعده.

وإذا كنا أيضا قد اهتممنا بدراسة العمران العربي في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، فلأننا نشعر يقينا بأن العرب مهدوا بعمرانهم هذا للعمران الإسلامي الناشئ الذي انتشر في شبه الجزيرة العربية، وازدهر بعد الفتوحات الإسلامية التي شملت جميع المناطق الجغرافية المتصلة ببلاد شبه الجزيرة العربية، حيث تفاعل مع حضارات البلاد المفتوحة وساهم مساهمة كبيرة في ازدهار شعوب الشرق والغرب.

---

[1]– محمد حسين جودي، العمارة العربية الإسلامية، خصوصيتها، ابتكاراتها، جماليتها، دار المسيرة، عمان، 1988، ص 47



خريطة رقم 6: المواقع الأثرية والطرق التجارية وأهم المناطق الجغرافية

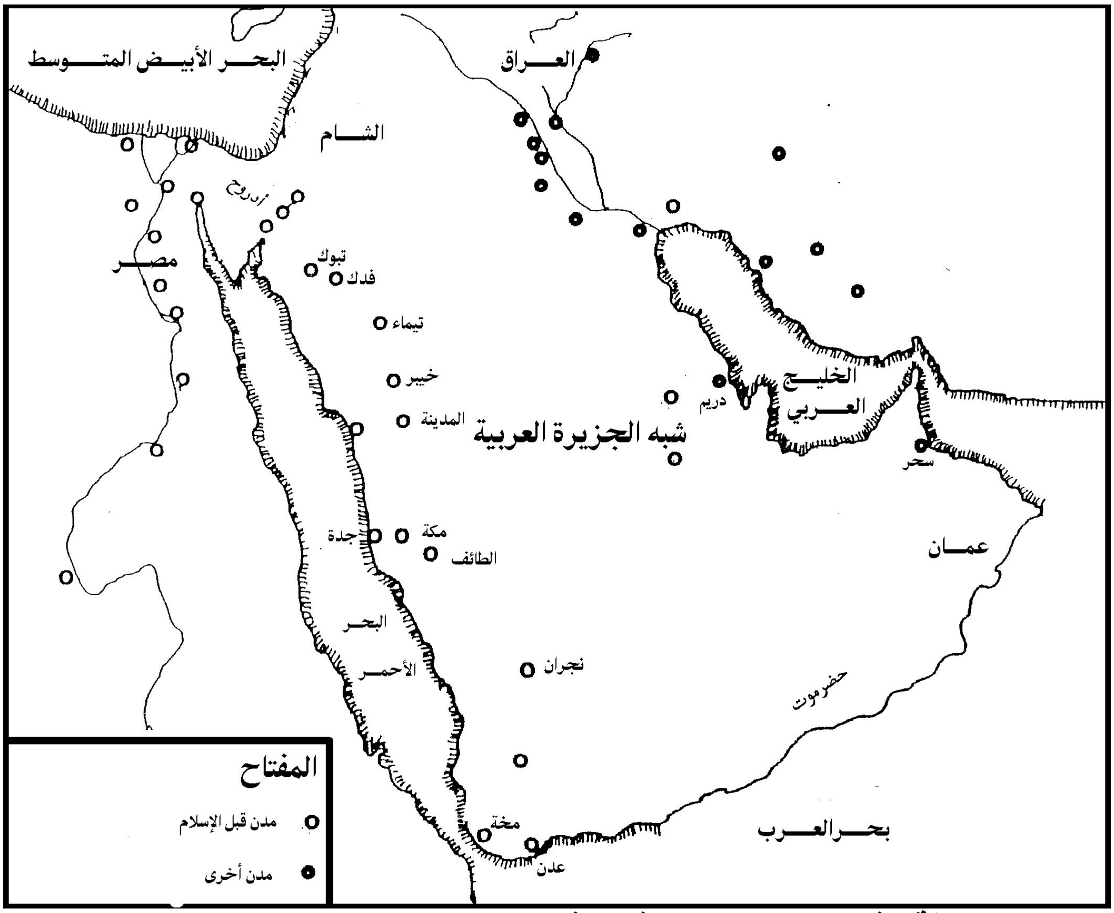
ولا شك أن بناء العرب للكثير من المدن في العصر الجاهلي، (**خريطة رقم 7)** إنما يدل دلالة قاطعة على أنهم سكنوا المدن كما سكنوا البادية،([1]) كما أن القول بسكناهم المدن يعني أنه كانت لديهم حضارة على درجة ما حيث كانوا ملمين بجميع جوانب العمران التي يقتضي وجودها بالمدينة أمرا مهما لاستمرار حياة المدينة. وعليه فإن ذلك يدل عل الخصائص الحضارية التي عرفوها في هذا الجانب (العمران)، والتي ستساهم لا محالة في نمو العمران الإسلامي. وانطلاقا من هذه الفكرة نرى ضرورة دراسة بعض النماذج من المدن التي شيدها العرب قبل الإسلام واستمر وجودها بعد ظهوره والتي ستكشف لنا عن تأثيراتها الحضارية على العمران الإسلامي سلبا أو إيجابا. لأننا نعتقد أن العصر الجاهلي يعتبر من أهم مصادر الحضارة الإسلامية في كثير من جوانب الحياة.

ولذلك وقع اختيارنا على مدينتي مكة([2]) ويثرب([3]) لقدمهما إذ ترجع جذورهما إلى العصر الجاهلي، وفيهما ظهر الإسلام وانتشر قبل أن يظهر في مدن شبه الجزيرة العربية الأخرى على وجه الخصوص، وبلاد المشرق على وجه العموم. فالمدينة الأولى عرفت ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم، ونزول الوحي، وبها بيت الله الحرام ومقام سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل عليهما السلام، أما الثانية فهي بيت الهجرة، ومدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، وطيبة عاصمة الدول الإسلامية الناشئة، والمخبر الأول للعمران الإسلامي، حيث ظهرت بوادره الأولى بهذه المدينة المباركة.

1- ناجي معروف، عروبة المدن الإسلامية، مطبعة العاني، الطبعة الثانية، بغداد، 1964، ص 12-13. وانظر أيضا: محمد حسين جودي، المرجع السابق، ص 48-49

2 _ جاء عند ابن الفقيه في تعريف مكة:" قال عبد الله بن عمرو بن العاص : سميت بكة لأنها كانت تبك أعناق الجبابرة إذا ألحدوا فيها بظلم _ أي تدق وقال إبراهيم بن أبي المهاجر: بكة موضع البيت، ومكة موضع القرية. وسميت بذلك لاجتذابها الناس من الآفاق. وقالوا: سميت بكة لأن الأقدام تبك بعضها بعضا _ أي تزدحم _ وسمي البيت العتيق لأنه أعتق من الجبابرة. وهي أم القرى، وأم الرّحم، لأن الرحمة تنزل بها. ومن أسمائها: صلاح، وناسة لقلة الماء بها، وبنية الأمين." مختصر كتاب البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1988، ص 20

3 _ وقد جاء في تعريفه للمدينة:" يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: للمدينة عشرة أسماء هي: طيبة، والباقية، والموفية، والمسكينة، والمباركة، والمحفوفة، والمحرمة، والغدراء، والمسلمة، والمقدسة، والشافية، والمرزوقة". ابن الفقيه، المصدر السابق، ص 26



خريطة رقم 7: المدن ومواقعها قبل الإسلام وبعده من إعداد الطالب

أولا : مدينة مكة:

1- تاريخ تأسيس مكة :

يرجع تاريخ هذه المدينة إلى عهود سحيقة، فقد ذكر بعض المؤرخين العرب أن أصلها يرجع إلى سيدنا آدم عليه السلام بعد نزوله من الجنة،([1]) حيث جاء في كتاب تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام للإمام أبي البقاء محمد المعروف بابن الضياء في الباب الثالث الذي جاء تحت عنوان ذكر هبوط آدم عليه السلام إلى الأرض وبنائه الكعبة وحجه وطوافه، فعن ابن عباس قال: (لما هبط آدم إلى الأرض كان رأسه في السماء ورجلاه في الأرض وهو مثل الفلك في رعدته. قال : فطأطأ الله عز وجل منه إلى ستين ذراعا، فقال: يا رب مالي لا أسمع أصوات الملائكة ولاحسهم قال : خطيئتك يا آدم ، لكن اذهب فابن لي بيتا وطف به، واذكرني حوله كنحو ما رأيت الملائكة تصنع حول عرشي...).([2])

وقد ذكر بطليموس هذه المدينة تحت اسم مكرابو أي المقدسة([3])، مما يدل عن قدسيتها منذ أقدم العصور، كما ورد اسمها([4]) في القرآن الكريم عدة مرات وبمسميات مختلفة منها اسم مكة مصداقا لقوله تعالى:" وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيدكم عنهم ببطن مكة"([5])، وبكة لقوله جل جلاله:" إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين([6]) وأم القرى حيث جاء في القرآن الكريم:" ... ولتنذر أم القرى ومن حولها"([7]).

---

[1]- البلخي ابن سهل ، كتاب البدء والتاريخ، الجزء الثاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1997، ص 19

- ابن الضياء أبي البقاء ، تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف، تحقيق علاء إبراهيم الأزهري وأيمن نصرا الأزهري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1997، ص 27

[2]- المصدر نفسه، ص 27.

[3]- بطليموس الكتاب السابع نقلا عن دائرة المعارف الإسلامية، مادة مكة .

[4]- عن مكة أنظر: الأزرقي، تاريخ مكة، تحقيق رشيد ملحس، دار الأندلس، 1385، ج1، ص 101. عصام السعيد، تاريخ العرب في العصور القديمة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2000، ص 104 - 105

[5]- الآية24 من سورة الفتح.

[6]- الآية 96 من سورة آل عمران.

[7]- الآية 92 من سورة الأنعام.

تتفق الكتب التاريخية ([1])على أن تاريخ تأسيس مدينة مكة يرتبط بقصة سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام، تلك القصة المشهورة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم: " وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك السميع العليم* ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك التواب الرحيم* ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم."([2])، ذلك أن إبراهيم كان يصنع مع أبيه الذي كان نجارا ببلاد العراق الأصنام التي كان يعبدها سكان العراق القديم ، وكان إبراهيم وهو صغيرا لم يدرك حقيقة هذه الأصنام التي يشارك أباه في صناعتها، ولما أصبح شابا ناضجا واعيا بحقيقة هذه الأصنام تسلل إليها ذات يوم وقام بتحطيمها ولم يترك منها إلا ذلك الصنم الكبير فيها، ولما هرع إليه أهل العراق يستفسرونه عن سبب تحطيمه لآلهتهم رد عليهم بأن هذا الفعل قام به كبيرهم، فسألوه.

وقصة هذه الحادثة رواها القرآن الكريم في قوله تعالى:" قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم * قال بل فعله كبيرهم هذا فسألوهم إن كانوا ينطقون "([3])

وقد عاقبه مواطنوه جراء عمله هذا بإلقائه في النار ولكن الله سبحانه وتعالى أنقذه من فعلتهم الشنيعة هذه بأن جعل النار بردا وسلاما عليه([4]).

وأمام هذا التصرف لم يجد إبراهيم سبيلا للنجاة من كيد أهل بلده، إلا الخروج من هذا المجتمع الوثني، فقصد وزوجته سارة أرض فلسطين ومنها إلى مصر، وكانت يومها تحت حكم الهكسوس، وكان فيهم ملك مستبد ينتزع الزوجات الجميلات من أزواجهن بعد قتلهم، وقد دفع هذا الأمر بإبراهيم إلى الإعلان بين الناس بأن السيدة سارة أخته عساه أن ينجو من بطش هذا الملك، إلا أن حيلته لم تنجح مع هذا الملك.

---

[1]– الطبري، تاريخ الأمم والملوك المعروف بتاريخ الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج1، 1997، ص 152.

وابن الضياء، المصدر السابق، ص 34 – 35.

[2] – الآيات 127 – 128– 129 من سورة البقرة.

[3] – الآيتان 62 – 63 من سورة الأنبياء

[4] – الآيتان 68 – 69 من سورة الأنبياء

وبعد أن انتزع هذا الملك السيدة سارة من زوجها إبراهيم وأخلى سبيله، اقتضت الحكمة الإلهية أن يرى هذا الملك في منامه أن السيدة سارة ما هي إلا زوجة لسيدنا إبراهيم، فندم هذا الأخير عن فعلته هذه، وأعادها إلى زوجها وأعطاه رفقتها جارية تدعى هاجر وأغدق عليه بالهدايا.(1)

مكث سيدنا إبراهيم وزوجته والجارية بمصر، ولما كانت السيدة سارة لم تنجب لسيدنا إبراهيم، خاصة وأن البنين تعد من زينة الحياة الدنيا، طلبت من زوجها إبراهيم الدخول بهاجر عسى الله أن يرزقهم ولدا، وقد أفضى هذا الزواج من هاجر إلى إنجاب ولد سموه إسماعيل، وتشاء الأقدار أن تنجب السيدة سارة بعد مدة من الزمن ولدا سموه إسحاق.

أصبح لسيدنا إبراهيم ولدان غمرهما بعطفه وحنانه، هما إسماعيل من زوجته هاجر وإسحاق من زوجته الأولى السيدة سارة. وقد غضبت السيدة سارة من مساواة إبراهيم بين ابن جاريتها وابنها، وطلبت منه أن يبعدهما عنها، فأوحى الله سبحانه وتعالى إلى إبراهيم بالخروج بهما إلى مكة التي كانت حينذاك محطة استراحة القوافل التجارية، وتركهما هناك وقفل راجعا إلى فلسطين.

ولما خشيت هاجر على ابنها، أخذت تنتقل بين ضفتي الوادي عساها أن ترى أحدا من البشر لينقذها وابنها من الموت خاصة بعد أن نفد عنهما الزاد من الطعام والماء، وفي المرة السابعة من سعيها رجعت إلى إسماعيل فوجدت أن الماء قد نبع تحت قدميه، هذا النبع الذي أصبح يعرف إلى يومنا ببئر زمزم، وكانت هي البداية الأولى لاستقرار الإنسان بهذا الموضع.(2)

مضى بعض الوقت، وإذا بقبيلة عربية تسمى جرهم تمر بالموقع، فشاهدت أسرابا من الطيور تحلق في فضاء هذا الموضع، فتيقنوا أن بالموضع ماء، وعند اقترابهم من هذا المكان وجدوا السيدة هاجر وابنها إسماعيل فاستقروا بجوارهما، وكانت هذه هي أول قبيلة تستقر في هذا المكان، حيث كبر إسماعيل وسط هذه

---

[1] – الطبري، المصدر السابق، ص148

[2] – عبد الغني عبد الرحمن محمد، مكة أم القرى...لماذا؟، دار الفكر العري، الطبعة الأولى، 1990، ص 20

القبيلة وتعلم منهم العربية ([1])وتزوج أيضا من قبيلة جرهم العربية.([2])

لقد أدى شوق إبراهيم إلى رؤية ابنه إسماعيل إلى القدوم مرتين إلى مكة، وفي المرة الثانية أمر الله عز وجل سيدنا إبراهيم ببناء الكعبة وقد ساعده في البناء ابنه إسماعيل تنفيذا لأمر الله.

وبعد وفاة سيدنا إسماعيل تعاقبت القبائل العربية على تولي أمر مكة وتنافست من أجل ذلك فيما بينها، وتحالفت مع بعضها البعض من أجل الظفر بشرف تولي أمر الكعبة إلى أن استقر أمرها في قبيلة قريش([3])، بعد قتالها الطويل لقبيلة خزاعة ، وقد جمع قائدها قصي بن كلاب بن مرة كل القبائل القرشية المحيطة بمكة وأنزلها بها، ([4])ليزداد المجتمع المكي نموا وتزداد المدينة اتساعا وتطورا خاصة إذا علمنا أن قبيلة قريش كانت من القبائل العربية الأولى التي كان لها باع طويل في تجارة القوافل،([5]) ولا تفوتنا الإشارة إلى أن مكة كانت من أهم مراحل طرق التجارة بين الجنوب والشمال وبين بلاد الشرق الأقصى والغرب، أضف إلى ذلك الأمن الذي ساد مكة منذ قديم الأزمان، ورسخته فيما بعد قبيلة قريش القوية بين سائر القبائل العربية المنتشرة في شبه الجزيرة، هذا دون أن نغفل ما للعامل الديني([6]) الذي انفردت به مكة من دور بالغ الأهمية، في نمو عمرانها وعلو شأنها عبر العصور.

2 _ قريش ودورها في إرساء قواعد المدينة:

تروي المصادر التاريخية أن الزعامة في مكة كانت في القديم لقبيلة جرهم، ثم انتزعتها منها قبيلة خزاعة، ثم استطاع قصي زعيم قبيلة قريش انتزاع السيادة من خزاعة. أما عن العناصر المكونة لسكان المدينة فنحن مازلنا نجهل الكثير عن

---

[1]– المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، الجزء الثاني، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، د. ت، ص 47

[2]– ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج1، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، 1996، ص 62

[3] – ابن الفقيه، المصدر السابق، ص 21

[4]– عبد الغني عبد الرحمن، المرجع السابق، ص 24 – 27

[5]– القرآن الكريم، سورة قريش

[6]– منذ أن أسست مكة على يدي سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام وهي تمثل نقطة استقطاب ديني فقد قصدها العرب من كل أنحاء شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام ومازال المسلمون يقصدونها إلى اليوم .

أصل هؤلاء السكان وتفاصيل ظهور قبيلة قريش([1])، ونشأتها وتطورها في القديم إلى أن تمكنت من فرض سيطرتها على مكة ووصولها إليها، حيث اختلف المؤرخون والنسابون في تحديد أصول هذه القبيلة التي ستلعب دورا قياديا بالغ الأهمية في تأسيس الدولة الإسلامية الأولى، ويظهر هذا الاختلاف بشدة في نص الطبري الذي يقدم لنا بعض آراء النسابين في أصل قريش([2]) حيث يرى بعضهم أن قبيلة قريش تنحدر من نسل إسماعيل عليه السلام الذي نشأ بواد غير ذي زرع، ويبدو من خلال كتب الأنساب بعض الارتياب وقلة التدقيق خاصة في ترتيب الأسماء الواردة بها بين فترتي عدنان وإسماعيل عليهما السلام وعدم دقتها.

ومهما يكن فإن النسابين العرب يؤكدون على انحدار القبائل العربية الشمالية من نسل سيدنا إسماعيل الخليل عليه السلام، لكنهم اختلفوا في أول من لقب بقريش، وفي معنى هذه الكلمة.

لقد أورد الطبري في كتابه جوابا وافيا لمجمل هذه التساؤلات والاختلافات حول أصل من تسمى بقريش، وفي معنى هذه الكلمة، حيث قال: "... وقيل: سميت قريش قريشا بقريش بن بدر بن يخلد بن الحارث بن النضر بن كنانة، وبه سميت قريش قريشا لأن عير بني النضر كانت إذا قدمت قالت العرب: قد جاءت عير قريش... وقال ابن الكلبي إنما قريش جماع نسب ليس بأب ولا أم ولا حاضن ولا حاضنة، وقال آخرون: إنما سمي بنو النضر بن كنانة قريشا، لأن النضر بن كنانة خرج يوما عن نادي قومه، فقال بعضهم لبعض: انظروا إلى النضر كأنه جمل قريش..."([3])، وقد أرجع ابن عبد ربه([4]) سبب تسمية قريش بقريش إلى قصي بن بن كلاب الذي استطاع أن يجمع قبائل النضر بن كنانة، ذلك أن التقرش لغة يعني التجمع، فأصبحت هذه القبائل تعرف بقريش، إلى غير ذلك من الأقوال.

ويظهر من روايات النسابة أن لفظ قريش لا يدل على اسم شخص، إنما هو مصطلح يدل على اسم لنوع من أنواع الحيتان الكبيرة أو لطوطم، لقب به حسب

---

[1]- أنظر البلخي، المصدر السابق، ص 31 – 32

[2]- الطبري، المصدر السابق، ، ص 511 – 512

[3]- المصدر نفسه، ص511

[4]- ابن عبد ربه أبو عمر، العقد الفريد، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ج 3، ص 312

ما ذهب إليه ابن حزم([1]) ومصعب الزبيري([2]) قريش بن بدر بن يخلد. أما أبو الفرج الأصفهاني([3]) والأزرقي([4]) وآخرون فيؤكدون أن هذه التسمية إنما أطلقت على النضر.

ويرى الكلبي([5]) وابن قتيبة([6]) إنما أطلق اسم قريش أول الأمر على قصي تلك الشخصية التي استطاعت أن توحد القبائل العربية التي كانت تقيم حول مكة وأصبحت تعرف تحت مسمى واحد هو قريش.

لقد لعب قصي هذا دورا بارزا في نزع الزعامة من خزاعة التي احتفظت بها مدة ثلاثمائة سنة يتوارثونها أبا عن جد، وقريش آنذاك عبارة عن مضارب وبيوت متفرقة حول مكة([7]) وقد ساعده في هذا المسعى قبائل كنانة وقضاعة. وقد وقد تمكن هذا الرجل الحازم من تنظيم إدارة مكة التي أصبحت منذ زمانه مدينة دولة. ويظهر من خلال النصوص التي أشارت إلى مكة أنه اعتمد أسلوب التقسيم العشائري في تنظيم المجتمع المكي، كما قسم القبيلة إلى بطون، وميز بين سكان مدينة مكة وسكان نواحيها([8]).

كانت قريش عند نزول الوحي على الرسول صلى الله عليه وسلم منقسمة إلى فرعين رئيسيين هما: قريش الظواهر وقريش البطاح، فأما قريش الظواهر فهي تلك البطون والعشائر التي تقطن ريف مكة وأطرافها، فهم أهل بادية يعيشون على تربية الحيوانات، وقد ساهموا مساهمة قوية في الدفاع عن مكة المكرمة، حيث أن الغزاة إذا ما أرادوا غزومكة فلابد لهم من المرور على مواقعهم قبل الوصول إليها([9]).

---

[1]- ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص 10

[2]- مصعب الزبيري، كتاب نسب قريش، تحقيق ليفي بروفنسال، سلسلة ذخائر العرب، القاهرة،1954 ، ص 12

[3]- أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، الجزء الثاني عشر، دار الثقافة، بيروت، لبنان، الطبعة الثامنة، 1990، ص 212

[4]- الأزرقي، المصدر السابق ، ص 61

[5]- الطبري، المصدر السابق، ، ص 512

[6]- ابن قتيبة الدينوري، المعارف، نشر وستنفلد، جوتنجن، 1850، ص 31

[7]- البلخي، المصدر السابق، ج2، ص 41. ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج3، ص 312

[8]- المصدر نفسه، ص 40

[9]- البكري، كتاب المغرب في ذكر أفريقية والمغرب، باريس،1965، ص 257

تتكون قريش الظواهر من بني محيص بن عامر بن لؤي، وتيم الأردم بن غالب بن فهر ومحارب، والحارث ابنا فهر. والملاحظ أن هذه البطون القرشية لم تلعب دورا هاما في الأحداث التي جرت في مكة وخاصة عند ظهور الرسالة.

وإلى جانب هذه البطون القرشية، عاش في منطقة مكة الكثير من بطون القبائل العربية من كنانة وآخرون، وكانت هذه القبائل العربية تؤدي دورا كبيرا في الحروب التي تخوضها قريش مع القبائل الأخرى، وكانوا يعرفون تحت اسم الأحابيش([1])، كما ساهم أيضا بعض الأجانب القاطنين في شعاب مكة في الحياة الاجتماعية والاقتصادية للمدينة، بل أن بعضهم كان يساهم في اجتماعات دار الندوة.

أما الفرع الثاني من قريش فهي البطون التي تقطن داخل مكة (أي قريش البطاح)، وقد احتكر أفرادها الوظائف الأساسية في إدارة المجتمع المكي، فمنهم التجار، وأصحاب رؤوس الأموال الذين كانوا يسيطرون على تجارة القوافل في شبه جزيرة العرب، ويربطون شعوب وأمم العالم القديم([2]). وهم على حسب ما جاء جاء في المصادر بني عبد مناف، بني عبد الدار، وبني عبد بن قصي، وبني زهرة بن كلاب وبني تيم بن مرة، وبني مخزوم بن يقظة بن مرة، وبني سهم، وبني جمح أبناء عمر، بني هصيص، وبني عدي بن كعب، وبني حسل بن عامر بن لؤي، وبني هلال بن أهيب بن ضبه بن الحارث بن فهر، وبنوهلال بن مالك بن ضبه بن الحارث بن فهر([3]).

وقد حذف صاحب مروج الذهب من هذه القائمة بني هلال بن أهيب وهلال بن مالك وأضاف إلى القائمة السابقة بني هاشم عبد مناف، وبني المطلب عبد مناف وبني الحارث عبد مناف، وبني الحارث بن فهر. وللعلم فإن هذه العشائر تقرب بينها المصاهرات والمصالح.

3 _ موقـــع مكـــة :

---

[1]-Lamens, L'Arabie occidentale avant l'hégire, université St Joseph, Beyrouth, 1928,p238–239.

[2]– صالح أحمد العلي، محاضرات في تاريخ العرب، الجزء الأول، الدولة العربية قبل الإسلام، والنظم البدوية، حياة الرسول والدعوة الإسلامية في مكة، دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، الطبعة الأولى، 1981، ص 107

[3]– المسعودي، المصدر السابق، ج2، ص 58 – 186

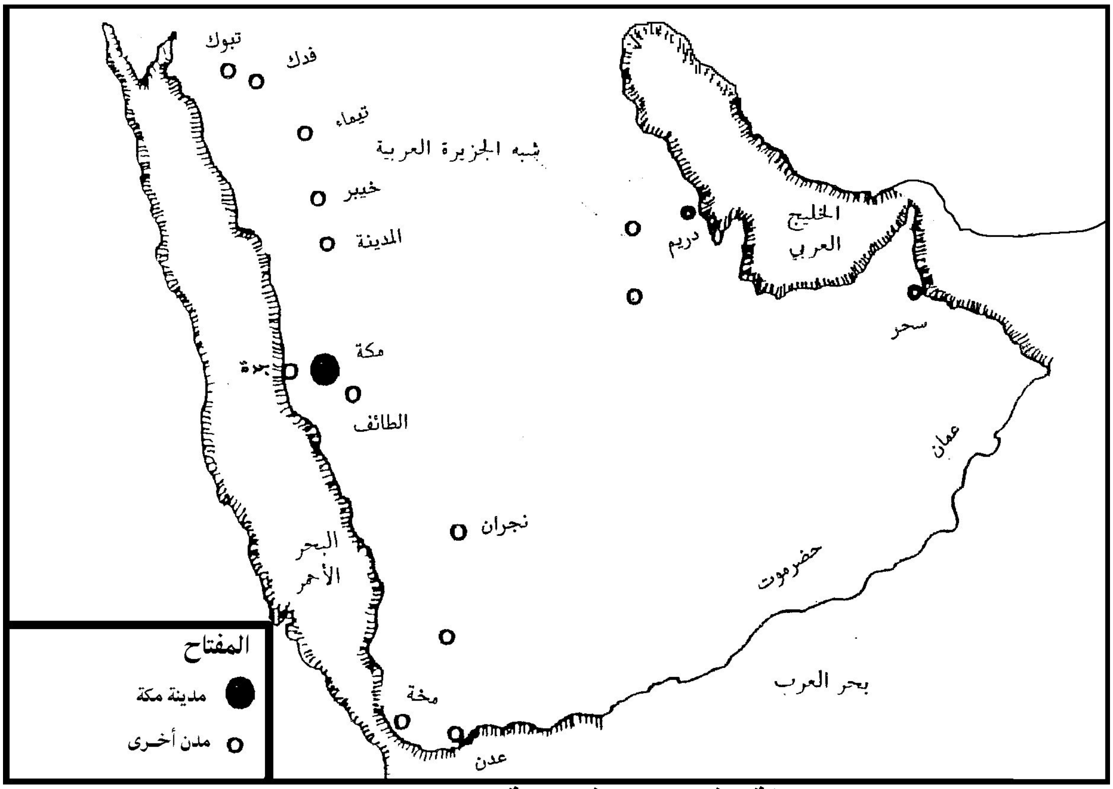
تمتاز مدينة مكة بموقعها الجغرافي المتوسط لشبه الجزيرة العربية بين أقصى مدينة في شمال شبه الجزيرة وبين أبعد مدينة في جنوبها، كما أنها كانت تحتل موقعا وسطا أيضا بين حضارات الشرق القديم ([1])، **(خريطة رقم 8)** كما جعلها موقعها المتوسط بين القبائل العربية هدفا تنافست هذه القبائل فيما بينها من أجل السيطرة عليه([2])، رغم أنها كانت تقع في واد جاف بين الجبال الجرداء ذات الحرارة الشديدة صيفا. والتي تنزل بها لأمطار أحيانا في فصل الشتاء محدثة سيولا جارفة تشكل خطرا كبيرا على مكة([3])، هذا من جانب، أما من جانب آخر، تعتبر هذه السيول مهمة لأن عليها تقوم الحياة في هذه المنطقة، حيث تمد طبقات الأرض بالمياه فيزداد منسوب المياه في آبار مكة لتصبح صالحة للشرب وتسد بالتالي حاجة سكان تلك الناحية من هذه المادة الحيوية التي تتطلبها قطعانهم من الإبل والحيوانات المختلفة الأنواع.

---

[1]– حضارة العراق في الشرق، وحضارة بلاد الشام في الشمال، ومصر في الغرب، واليمن في الجنوب.

[2]– خالص الأشعث، المدينة العربية، التطور والوظائف ــ البيئة والتخطيط، المنظمة العربية للتربية والتعليم والثقافة، دار العلوم، بغداد، 1982، ص 5 – 8 – 9

[3]– مثل هذه السيول أغرقت الكعبة عدة مرات وهدمتها. أنظر البلاذري، فتوح البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1978، ص 65 – 66



خريطة رقم 8: موقع مكة من إعداد الطالب

إن هذه الجبال تحيط بمكة وتخفيها،([1]) حتى أن الوافد إليها لا يتمكن من مشاهدتها من بعيد([2]) بسبب موقعها المنخفض، فلا تبدو ديارها ومعالمها للقادم إليها إلا إذا اقترب من موضعها وأطل على الوادي.

والمدينة تقع في واد منحدر من الشمال نحو الجنوب، منحصر بين سلسلتين جبليتين تكادان تتصلان ببعضها البعض من جهات الشرق والغرب والجنوب وأقصد بذلك أبواب مكة الثلاثة.

تتكون السلسلة الشمالية منها من جبل الفلق غربا، ثم جبل قعيقعان، ثم جبل الهندي، ثم جبل لعلع، ثم جبل كداء، وهو أعلى مكة ومن جهته دخلت جيوش الرسول صلى الله عليه وسلم عند افتتاحها([3]).

أما السلسلة الجنوبية فتتركب من جبل أبي حديدة غربا، يليه جبلا كدي وكدّي بانحراف إلى الجنوب، ثم جبل أبي كبيس إلى شرقها، ثم جبل خذدمة، كما

أن هذه الشعاب المحيطة بأم القرى كانت ملجأ لكل من عادته قريش أوكره معاشرتها([4]).

أما بالنسبة لمناخ المدينة فهوقاري صحراوي، حار جدا في الصيف، حيث تتجاوز درجات الحرارة أحيانا حد الخمسين درجة في الظل، كما أنه بارد شتاء وخاصة في الليل([5])، قليل الأمطار إذ نادرا ما تسقط في هذا الفصل([6])، مما ينعكس سلبا على مصادر المياه بالمدينة ومحيطها، وفوق كل هذا فإن المياه الجوفية مالحة في مجملها غير صالحة للشرب والري، وهذا ما جعل أعيان مكة منذ أقدم العهود يصرفون أموالا طائلة لتمكين أهل المدينة

---

[1]– صالح أحمد العلي، المرجع السابق، ص 102

[2]– كذلك هوالحال بالنسبة لقلعة بني حماد والكثير من المدن المغربية.

[3] _ اليعقوبي، كتاب البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1988، ص 78

[4] – وقد حدث هذا الأمر أيضا في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم عندما قاطعت قريش أتباعه، فاتخذ المسلمون من بعض شعاب مكة مراكز يقيمون فيها شعائرهم الدينية.

[5] – ليلي زعزوع، مكة المكرمة، التفاعل الحضاري في المكان المقدس، الدار العربية للعلوم، الطبعة الأولى، 2005، ص 98

[6]– عندما تسقط المطر بصفة فجائية فإنها تحدث سيولا غزيرة، ذلك أن الجبال المحيطة بمكة صخورها بركانية وعارية تسهل سيلان الماء بسرعة ولا تعيقه.

من الحصول على مياه عذبة تسد حاجاتهم([1])، فحفروا العديد من الآبار وأقاموا بعض الحواجز المائية الصغيرة لتخزين مياه الأمطار والسيول، للاستفادة منها في الري وتزويد أهل مكة بالماء الشروب، وكذلك لوقاية محلاتهم من خطر السيول الغزيرة([2]). ومن هذه المنشآت المائية ردم بني جمح، وردم آل عبد الله، كما أنشأ الخليفة عمر بن الخطاب في عهده سدا كبيرا مستفيدا في ذلك من خبرة بعض المهندسين من بلاد الفرس([3]).

ونظرا إلى أن مدينة مكة كانت تمثل أهم مركز ديني في شبه الجزيرة العربية منذ القديم، (**خريطة رقم9**) يحج إليه كل عام عدد كبير من الناس في مواعيد محددة([4])، فقد عمل القائمون على تنظيم الحياة الاقتصادية والدينية في المدينة على وضع بعض المؤسسات لتسهيل الحياة فيها، وللعلم فإن هذه المؤسسات كانت قديمة بالمدينة قدم الحج، إلا أن قصيا بن كلاب زعيم قريش بعد توليه الإشراف على أمور المدينة، عمد إلى تنظيمها وتطويرها لتستجيب للطلبات المتزايدة، فأسند هذه الوظائف إلى بعض أفخاذ قريش، كالرفادة ([5]) والعمارة والسقاية التي أعطاها لولده عبد مناف ([6]). وقد رفع الله من شأن هاتين الوظيفتين لأخيرتين في قوله تعالى: "أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر" ([7]). وقد منح عبد الدار السدانة ([8]) ودار الندوة واللواء ([9]).

---

[1]- الأزرقي، المصدر السابق، ص 64 – 65

[2]- لطفي عبد الوهاب يحي، العرب في العصور القديمة، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1979، ص 100 – 107

[3]- الأزرقي، المصدر السابق، ج2، ص 142

- البلاذري، المصدر السابق، ص 65

[4]- ابن الضياء، المصدر السابق، ص 1 وما بعدها.

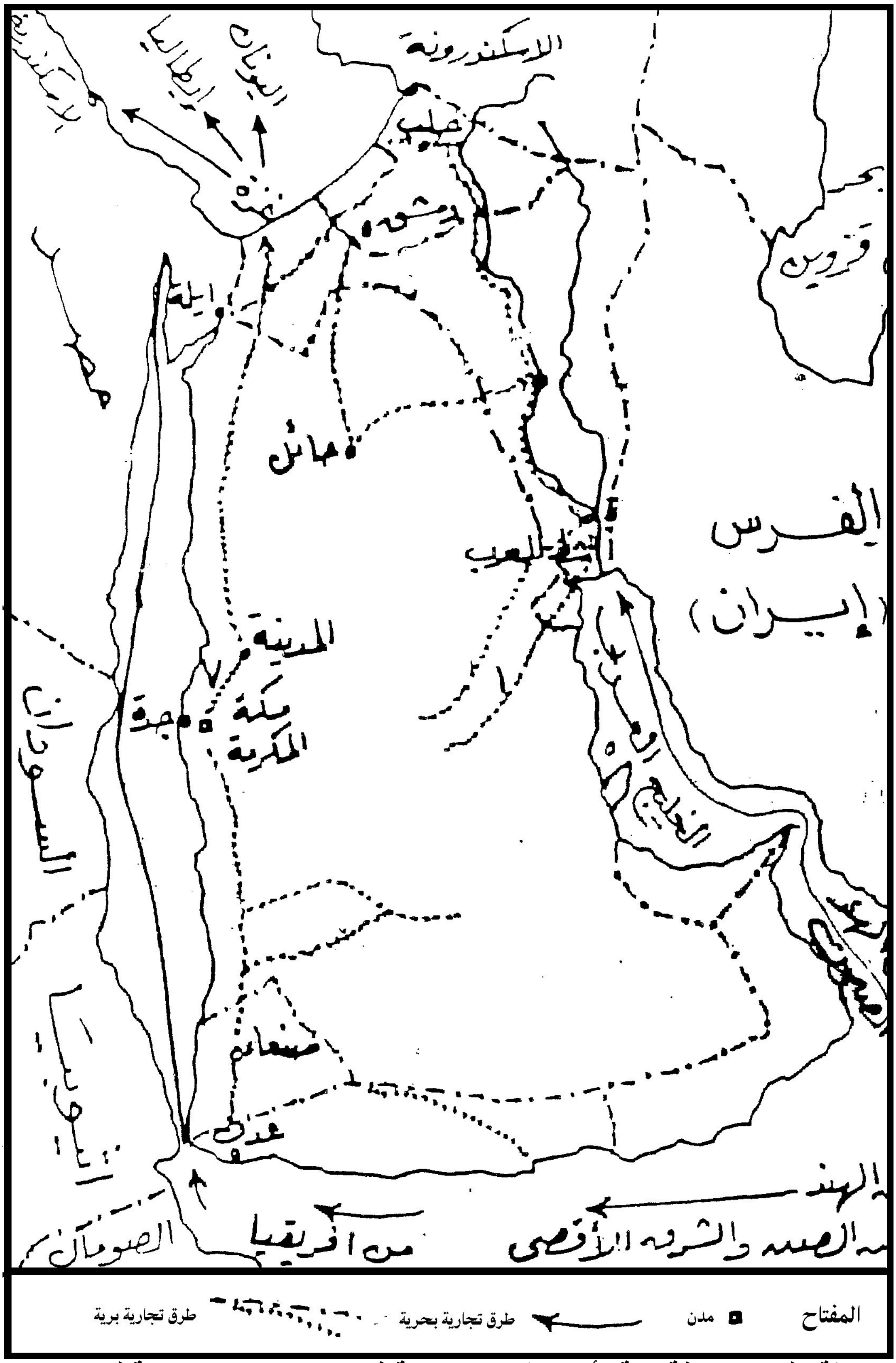
[5]- وهي خرج كانت تقدمه قريش إلى قصي من أموالهم يتعاونون فيه على تقديم الطعام والشراب للحجاج أيام الموسم. أنظر البلخي، المصدر السابق، ج2، ص 41.

[6]- يروي بن حجر أن وظيفة السقاية والعمارة كانت في الجاهلية للعباس.

[7]- الآية 19 من سورة التوبة.

[8]- السدانة هي الحجابة أي خدمة البيت وتولي أمره، وفتح بابه وإغلاقه. أنظر ابن الضياء، المصدر السابق، ص 61

[9]- ابن الضياء، المصدر السابق، ص 61



خريطة رقم 9: علاقة مكة بأهم الطرق التجارية في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام

<u>من إعداد الطالب</u>

ورغم جفاف مناخ منطقة مكة وحرارته الشديدة، إلا أنه يعتبر صحي غير موبوء، عكس مناخ يثرب وخيبر والعديد من المدن التي تقع في واحات وفيرة المياه([1]).

إن جفاف ناحية مكة، وملوحة مياهها الجوفية، جعلت من الأراضي المحيطة بها أراض ميتة غير صالحة للزراعة، لا تنبت بها إلا بعض الحشائش الصحراوية القليلة التي لا تصبر على العطش وتتلاءم وطبيعة هذا المناخ. ترتادها قطعان الظأن والإبل، وقد اضطرت هذه الظروف القاسية أهل مكة إلى جلب جل ميرتهم من مناطق أخرى مثل الطائف واليمامة، وقد شجع هذا التبادل التجاري على ازدياد الوافدين إلى مكة فعرفت نهضة حضارية وتطورا عمرانيا واسعا استجابة لدعوة سيدنا إبراهيم التي جاء فيها على لسانه في القرآن الكريم : " ... رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات" ([2]) .

4 _ مصادر المياه :

إن طبيعة المناخ الذي يسود مكة جعل مصادر المياه شحيحة، فالأودية كما سبق الحديث عنها تجري خلال موسم الأمطار، وتجف عقب توقفها، وكما رأينا فيما سبق، فإن من العوامل الأساسية التي أدت إلى تأسيس المدينة وفرة المياه (بئر زمزم) التي دعت القبائل العربية إلى الاستقرار بهذا الموضع.([3])

وإذا كان قصي بن كلاب هوالذي نظم القبائل العربية ووحدها وأنزلها مكة، فإن هذه القبائل قبل عهدها بقصي كانت منتشرة في مختلف المناطق المحيطة بمكة متخذة من المواقع التي تتوفر بها مصادر المياه مضارب لها، فقد كانت هذه الخيرة تعتمد على الحياض وعلى المصانع النتشرة على قمم الجبال.([4]) ومع ازدياد استقرار القبائل العربية حول مكة أخذ الطلب على هذه المادة الحيوية يتزايد وأدى بهذه القبائل إلى الزيادة في حفر الآبار لتلبية حاجاتها من هذه المادة الحيوية، وقد

---

[1]– شهدت بعض مدن شبه الجزيرة العربية التي تقع في مناطق وفيرة المياه، انتشار بعض الأمراض بها، كداء الملاريا الذي ظهر في مدينتي يثرب وخيبر.

[2]– الآية 126 من سورة البقرة.

[3]_ أنظر الصفحة 96 من الرسالة.

[4]_ البلاذري، المصدر السابق، ص 60

تحدثث المصادر العربية([1]) عن الكثير من البرك والآبار التي حفرت بمكة وريفها قدرها البعض بستة وثلاثين بئرا([2])، وقد كانت هذه الآبار على نوعين: منها ما هوللغستعمال الشخصي، أي أن البئر تحفر في الدار، أوبالقرب منها وتعرف باسم صاحب الدار أوقبيلته، أوللإستعمال العام كبعض الآبار التي حفرت بغرض تلبية حاجات الحجاج . وقد ارتبطت زيادة حفر الآبار بمكة مع تزايد عدد سكانها ونموعمرانها.

ومن أهم المصادر العربية التي تحدثت بنوع من التفصيل على مصادر مياه مكة كتاب البلاذري الذي جاء فيه:"... كانت قريش قبل جمع قصي أياها وقبل دخولها مكة تشرب من حياض ومصانع على رؤوس الجبال، ومن بئر حفرها لؤي بن غالب خارج الحرم تدعى اليسيرة ومن بئر حفرها مرة بن كعب تدعى الروى، وهي مما يلي عرفة ثم حفر كلاب بن مرة خم، ورم، والجفر بظاهر مكة، ثم أن قصي بن كلاب حفر بئرا سماها العجول واتخذ سقاية،... ثم أنه سقط في العجول بعد ممات قصي رجل من بني نصر بن معاوية فعطلت، وحفر هاشم بن عبد مناف بذر، وهي عند الخندمة على فم شعب أبي طالب، وحفر هاشم أيضا سجلة،... وقد دخلت سجلة في المسجد، وحفر عبد شمس بن عبد مناف الطوى وهي بأعلى مكة، وحفر أيضا لنفسه الجفر، وحفر ميمون بن الحضرمي حليف بني عبد شمس بن عبد مناف بئره وهي آخر بئر حفرت في الجاهلية بمكة،... واحتفر عبد شمس أيضا بئرين وسماهما خم، ورم على ماسمى كلاب بن مرة بئريه، فأما خم فهي عند الردم، وأما رم فعند دار خديجة بنت خويلد.

وحفرت بنوأسد بن عبد العزى بن قصي شفية بئر بن أسد،... وحفرت بنوعبد الدار بن قصي أم أحراد... وحفر بنوجمح السنبلة... وحفر بنوسهم الغمر... وحفرت بنوعدي الحفير... وحفرت بنومخزوم السقيا... وحفرت بنوتيم الثريا... وحفرت بنوعامر بن لؤي النقيع... وكانت لجبير بن مطعم بئر وهي بئر بني نوفل... وكان عقيل بن أبي طالب حفر في الجاهلية بئرا... فكانت للأسود ابن أبي البختري ابن هشام بن الحارث بن أسد بن عبد العزى بئر على باب الأسود...

---

[1] _ البلاذري،المصدر السابق، ص 60 – 61. المقدسي شمس الدين أبو عبد الله، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1978، ص 76

[2] _ البلاذري، المصدر السابق، ص 60 ومابعدها.

بئر عكرمة نسبت إلى عكرمة بن خالد... بئر عمرو نسبت إلى عمرو بن عبد الله بن صفوان... بئر حويطب نسبت إلى حويطب بن عبد العزى... بئر أبي موسى كانت لأبي موسى الأشعري...بئر شوذب نسبت إلى شوذب مولى معاوية... وبئر بكار نسبت إلى رجل سكن مكة من أهل العراق... وبئر وردان نسبت إلى وردان مولى السائب... وسقاية سراج بفخ... وبئر الأسود نسبت إلى الأسود بن سفيان بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وهي بقرب بئر خالصة مولاة أمير المؤمنين المهدي، والبرود بفخ لمخترش الكعبي من خزاعة."([1])

يظهر من هذه المقتطفات من كتاب البلاذري أن كل قبيلة من القبائل العربية التي سكنت مكة حفرت لها بئرا، وقد كانت هذه الآبار في البداية موزعة على مضارب القبائل، ولكن مع مرور الزمن ومع تطور عمران مكة واستغلال المساحات الأرضية الفارغة بين مضارب هذه القبائل في بناء دور الوافدين الجدد إلى مكة، وبناء بعض المعالم الرئيسية بالمدينة، والتوسيعات التي عرفها المسجد الحرام، أدى إلى دخول بعض هذه الآبار في بعض المعالم الرئيسية للمدينة مثل بئر الأسود بن البختري، وبئر شوذب اللتان دخلتا في مساحة المسجد بعد توسعته، وكذلك الحال بالنسبة لبئر بني نوفل التي أدخلت في دار القوارير التي بناها حماد البربري في خلافة هارون الرشيد، وكذلك الأمر بالنسبة لبئر عقيل بن أبي طالب التي حفرها في الجاهلية، وقد شيدت عليها فيما بعد دار ابن يوسف.

وقد كانت بعض القبائل تتنافس فيما بينها في حفر الآبار، وتتباهى بوفرة مياهها وبوضعها تحت تصرف الحجيج، وقد أورد لنا البلاذري في كتابه بعض الأبيات الشعرية التي تنص على هذا التفاخر في حفر الآبار بين القبائل العربية نذكر منها على سبيل المثال ما قاله قصي بن كلاب عندما حفر بئر العجول:

نروى على العجول ثم ننطلق   قبل صدور الحاج من كل أفق

إن قصيا قد وفى وقد صدق   بالشبع للناس وروى مغتبق([2])

وقد أنشدت أميمة بنت عميلة بن السباق بن عبد الدار مفتخرة ببئر قبيلتها:

نحن حفرنا البحر أم أحراد   ليست كبذر النذر والجماد

---

[1] _ البلاذري، المصدر السابق، ص 60 وما بعدها.

[2] _ البلاذري، المصدر السابق، ص 61

فردت عليها صفية بنت عبد المطلب، وعلى الأوصاف التي نعتت بها بئرهم قائلة:

نحن حفرنا بذر   تروي الحجيج الأكبر   من مقبل ومدبر

وأم أحراد بشر   فيها الجراد والــذر   وقذر لا يذكــر([1])

يفهم من هذه الأبيات الشعرية ، وغيرها مما لم يرد هنا، أن القبائل العربية قبل الإسلام وبعد ظهوره كانت تتنافس في حفر الآبار لتوفير أكبر قدر ممكن من المياه نظرا لكونها الوسيلة الوحيدة التي يمكن اللجوء إليها لتوفير هذه المادة الضرورية للحياة في بيئة صحراوية يمتاز مناخها بالجفاف وشدة الحرارة وقلة تساقط الأمطار، وقد شهدت مكة تزايدا مضطردا في عدد الوافدين إليها في موسم الحج، ومن سنة إلى أخرى مما جعل الطلب على المياه يتزايد، فوجد سكان مكة أنفسهم مضطرين لحفر المزيد من الآبار.

وقد بلغ الأمر ببعض القبائل العربية بسبب ندرة المياه في هذه المنطقة إلى التباهي بكثرة مياه آبارها والافتخار بالخدمة التي تقدمها للحجيج، وفي العصر الإسلامي ونظرا لتزايد الطلب على الماء من أهل مكة والحجاج، فقد جلبت المياه في عهد الخليفة هارون الرشيد من موضع يسمى مشاش الواقع على بعد اثني عشر ميلا من مكة في أنابيب من الرصاص مدتها أم جعفر بنت جعفر ابن الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور([2]) لتملأ ثلاث برك بمكة، وذلك قصد تغطية العجز المسجل في منسوب الآبار من هذه المادة الحيوية، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مدى نمو عدد سكان مكة وتطور عمرانها على مر الزمن.

5 _ اقتصاد مكة :

إن وقوع مكة في منطقة جافة قليلة المياه([3])، لا تصلح عموما للزراعة جعل المدينة تعتمد اعتمادا كليا في تزويدها بالميرة على المناطق القريبة منها والبعيدة، وجعلها تعتمد اعتمادا كبيرا في اقتصادها على التجارة والحج.

إذن دفعت الأحوال الجغرافية سكان مكة نحو احتراف مهنة التجارة وتنظيم

---

[1] _ المصدر نفسه، ص 62

[2] _ اليعقوبي، المصدر السابق، ص 79.
المقدسي، المصدر السابق، ص 86

[3] – أنظر الصفحة 94 من الرسالة.

قوافلها، ذلك أن المدينة كانت تمثل نقطة أساسية على الطريق التجاري البري الرابط بين منطقة الهلال الخصيب شمالا واليمن جنوبا، وهي في الوقت نفسه محجا للعرب، فهي تتوسط منطقة حرم، بلغت مساحتها في الأيام الأولى لظهور الإسلام 125 ميلا مربعا([1]).

لقد تمكن أهل مكة من تنظيم تجارة القوافل، فسيروا قوافل تجارية كبيرة، وأدركوا منذ القدم أهمية هذا النشاط التجاري في نمو مدينتهم الدولة([2])، وأظهروا حذقا وبراعة لا مثيل لهما في تنشيط الحياة الاقتصادية في مكة، واتخذوا التجارة كوسيلة ربط بين حضارات العالم القديم ومناخاته بفضل تبادل المنتجات المختلفة لهذه المناطق، ويبدو أن أهمية مكة التجارية جلبت إليها الأنظار([3])، فأصبحت محط أطماع الكثير من الدول التي حاولت الاستيلاء عليها، فقد حرصت بيزنطة على إخضاع مكة إلى سيادتها المباشرة أو غير المباشرة، فاستولى عليها أليوس كالوس وهو في طريقه إلى اليمن([4]).

والجدير بالذكر أن قصي لم يتمكن من انتزاع السلطة في مكة من خزاعة إلا بعد تحالفه مع قضاعة([5]) التي تربى بها والتي كانت في نطاق حكم البيزنطيين كما أن أبرهة حين توجه إلى مكة غازيا لها لم يقدم على فعلته هذه إلا بعد تلقي مساندة من بيزنطة، وكذلك كان الحال في محاولة عثمان بن حويرث الأسدي.

لقد استفادت مكة اقتصاديا من سقوط الدولة الحميرية بيد الأحباش، ومن نشوب الحروب بين الفرس والبيزنطيين في المناطق الشمالية والشرقية لها، مما عرقل التبادل التجاري العالمي الذي كان يمر ببلاد هاتين الدولتين والذي كان يتم بين الدولتين نفسيهما على وجه التحديد.

وأمام هذه المستجدات عملت الدولة البيزنطية على إحياء الطريق التجاري الذي يعبر البحر الأحمر، والذي كان يتميز ببعده عن النفوذ الساساني، وظلت

---

[1] _ حول حدود حرم مكة أنظر: ابن الفقيه، المصدر السابق، ص 24. وابن خرداذبه، المسالك والممالك، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1988، ص 116

[2] - Lamens, Op. cit. P. 25 - 41.

[3] – صالح أحمد العلي، المرجع السابق، ص 95

[4] – المرجع نفسه، ص 95

[5] – الأزرقي، المصدر السابق، ج1، ص 57 – 58.
الطبري، المصدر السابق، ج2، ص 183

التجارة نشطة بين اليمن وبلاد الشام، وكان يتم هذا التبادل عن طريق القوافل البرية التي كانت تمر بمكة نظرا إلى أن الملاحة في البحر الأحمر كانت صعبة خاصة عند الاقتراب من الشواطئ بسبب الشعب المرجانية التي كانت تعيق عملية رسو البواخر ، إلا أن قريش لم تكتف بهذا الدور الذي تقوم به مدينتها، كونها تمثل مرحلة هامة في طريق التجارة، بل ساهمت بقسط كبير في تنظيم النشاط الاقتصادي بالمنطقة وتسييره.

ومما تجدر الإشارة إليه أن المدينة كانت سوقا جهوية كبيرة يؤمها العرب من كل أنحاء شبه الجزيرة العربية للحج والتجارة([1]).

لقد ارتبط المكيون بعلاقات تجارية وطيدة مع مختلف جهات شبه الجزيرة العربية، ومع الدول المجاورة لها، فكانت لهم علاقات ممتازة مع الحيرة، وقد توصلت هذه الأخيرة في زمن المناذرة إلى ربط علاقات تجارية وطيدة مع المناطق الجنوبية الغربية من بلاد العرب([2])، فكانت قوافلهم المحملة بالمسك والمنسوجات التي يستعملها العرب تصل تباعا إلى الأسواق الرئيسية لشبه الجزيرة العربية، كسوق عكاظ، وقد عمل ساسة الحيرة وتجارها لتأمين قوافلهم من غارات القبائل العربية إلى ربط علاقات طيبة مع القبائل البدوية التي تمر القوافل بأراضيها، أما سكان مكة فقد دأبوا على المتاجرة مع الحيرة، فقد زارها أبو سفيان والمغيرة بن شعبة وغيرهم.

أما تجارة قريش مع بلاد الشام، فكانت مهمة لحياة أهل المدينة، حيث اعتاد المكيون على استيراد الكثير من ميرتهم من هذه المنطقة، كالحبوب، والزيت، والخمر المعتقة، والأسلحة، والمنسوجات، والجواري، ويكفينا دليلا على ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم تولى قبل بعثته أمر تجارة خديجة بنت خويلد، فخرج إلى الشام في عدة قوافل للتجارة، يبيع أحماله من منتجات مكة، ويشتري منتجات الشام ليحملها إلى أسواق مكة([3]). وبالإضافة إلى ما سبق، كانت قريش أيضا تعيد تصدير بعض بضائع اليمن والهند وبلاد السند إلى بلاد

---

[1]- صالح أحمد العلي،المرجع السابق، ص96.

- محمد رشدي، مدينة العرب في الجاهلية والإسلام، مطبعة السعادة، القاهرة، 1911، ص59 - 60

[2]- الأصفهاني، كتاب الأغاني، ج 19، ص 318

[3] - الطبري، المصدر السابق، ص 521

الشام .

لقد أثرت هذه العلاقات التجارية تأثيرا قويا في بناء المجتمع القرشي وأدت إلى اختلاط الجنس العربي بأقوام أعجمية، ذلك أن العديد من الإغريق الأحرار والعبيد قد نزلوا بمكة واستوطنوها نذكر منهم على سبيل المثال صهيب الرومي، وسنان، وزيد بن حارثه ربيب الرسول صلى الله عليه وسلم([1]).

أما بلاد الحبشة، فكانت حسب بن هشام([2]) متجر قريش، يتجرون فيه ورفاغا من الرزق وأمنا ومتجرا حسنا. وكانت الطريق من مكة إلى الحبشة برية ثم بحرية ثم برية، تخرج القوافل محملة من مكة إلى الشعيبة وهو ميناء مكة على ساحل البحر الأحمر، ومنه يستعمل التجار السفن إلى الأجار وهو ميناء على ساحل الحبشة.

أما التجارة مع بلاد اليمن فعادة ما كانت تنشط في فصل الشتاء، وهو فصل يتميز بالجفاف واعتدال المناخ نسبيا في بلاد اليمن. وكانت السلع التي تمثل محور التجارة مع اليمن تتمثل في العطور والجلود والأقمشة والأسلحة كالسيوف والنبال([3]).

لقد اشتهر سكان مدينة مكة بحذقهم في المعاملات التجارية، وبامتلاك معرفة واسعة حول المسالك، وبثقافة جيدة حول الممالك، وعلى دراية بعلم النجوم، ساعدتهم مساعدة كبيرة في تكثيف نشاطهم التجاري، فقد اهتمت قريش بهذا النشاط وجعلته عماد اقتصادها، واعتقدت أن تسعة أعشار الاقتصاد يرجع الفضل فيه إلى التجارة، فمن لم يكن تاجرا في عرف قريش فلا قيمة له في ثقافتهم.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن التجارة لم تكن مقصورة على الرجال دون النساء، بل شاركت فيها نساء قرشيات كخديجة بنت خويلد، وقد أثر النشاط التجاري الذي ازدهر بمكة على المدن المجاورة لها قبل الإسلام وبعده، ففي عهد الرسول صلى الله عليه وسلم نقل المهاجرون حذقهم وتجربتهم إلى مدينة الرسول

---

[1] – صالح أحمد العلي، المرجع السابق، ص 97.

- Lamens, op. cit. p 47 – 48

[2] – ابن هشام، السيرة النبوية، الجزء الثالث، تحقيق طه عبد الرءوف سعد، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثالثة، 1998، ص 318

[3] – ابن قتيبة الدينوري، المعارف، ص 249

صلى الله عليه وسلم، فأصبحت بدورها قطبا تجاريا ينافس مكة، حيث برز بها عدد من الصحابة بممارستهم للتجارة وكسبهم أموالا طائلة، نذكر منهم عبد الرحمن بن عوف الذي اشتهر بكونه يحصل الذهب من الحجارة دليلا على مهارته وحذقه في التجارة، وكذا سيدنا عثمان بن عفان الخليفة الثالث الذي تمكن من جمع ثروة طائلة صخر جزءا كبيرا منها في تجهيز حملة غزوة تبوك([1]).

لقد استطاعت قريش أن تجهز العديد من القوافل، التي تميزت بكثرة أحمالها وتنوع سلعها، وبالعدد الهائل من إبلها التي كان يفوق عددها أحيانا 2500 بعير ([2]).

وعادة ما كانت قريش بمختلف بطونها وأفخاذها تشارك في تجهيز القوافل التجارية، فقد ورد في النصوص التاريخية أن القافلة التي هاجمها الرسول صلى الله عليه وسلم في بدر لم يتأخر عنها بيت من بيوت مكة إلا وقد ساهم في تجهيزها([3]). وكانت القوافل يتولى رئاستها تجار من قريش الذين يعتمدون على عدد من الإجراءات التي كانوا على دراية بها لتوجيهها وحراستها وتقديم الخدمات اللازمة لها أثناء السفر، ومن جملة هذه الإجراءات عمدت قريش إلى عقد عدد من الاتفاقيات مع أهل المناطق التي تمر بها قوافل تجارتهم التي كانت تتوجه شتاء إلى بلاد اليمن وصيفا إلى بلاد الشام، وهو ما كان يعرف عندهم بالإيلاف وقد وردت في القرآن الكريم إشارة إلى هذا النشاط التجاري حيث يقول الله عز وجل في محكم تنزيله:" لإيلاف قريش* إيلافهم رحلة الشتاء والصيف* فليعبدوا رب هذا البيت* الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف." ([4])، وكان أول من أقر هذه الطريقة في تأمين الطرق التجارية حسب ما ذهب إليه الطبري هو هاشم بن عبد مناف([5]).

وفي كتاب الرحلة لابن جبير الذي استهل زيارته لمكة في صبيحة يم الخميس الثالث عشر من شهر أوت سنة 579هـــ يصف أسوق مكة في موسم

---

[1]- الأصبهاني، المصدر السابق، ج 13، ص 1 - 5

[2]- صالح احمد العلي، المرجع السابق، ص 99

[3]- ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج1، قسم 3، ص 20

[4]- القرآن الكريم، سورة قريش.

[5]- الطبري، المصدر السابق، ص 504

الحج وقد اكتظت بمختلف السلع التي جلبت إليها من مختلف بلاد المشرق والمغرب وقد أشار إلى المعادن النفيسة كالجواهر، والياقوت، والأحجار الكريمة، وإلى أنواع الطيوب كالمسك، والعنبر، والعود، والعقاقير الهندية، والتي كان يؤتى بها من بلاد الهند والحبشة ، كما تحدث أيضا عن بعض الأمتعة اليمانية والعراقية، وبعض سلع خراسان وبلاد المغرب، وقد بلغ من حجم هذه السلع حسبه ما لوفرق على أسواق البلاد لغطتها ولاستفاد الجميع منها ومن رخص أسعارها .

وقد اندهش ابن جبير مما رآه من الفواكه المختلفة والخضر التي غصت بها أسوق مكة فراح يعددها قائلا:"... حتى حللنا بهذه البلاد المباركة فألفيناها تغص بالنعم والفواكه كالتين ، والعنب ، والرمان ، والسفرجل ، والخوخ، والأترج ، والجوز، والمقل ، والتمر ، والبطيخ ، والقثاء ، والخيار، إلى جميع البقول كلها كالباذنجان ، واليقطين ، والسلجم ، والجزر، والكرنب إلى سائرها"([1])، والتي كانت تجلب حسب ما ذكره من الطائف، ومن قرى حولها، حيث تقع أبعد نقطة فيها على مسيرة ثلاثة أيام سيرا متأنيا.

وتحدث عن بعض الفواكه الجافة مثل الزبيب الأسود والأحمر واللوز التي كانت تجلبها معها أقوام من أهل اليمن، وهوالذي كان يعتقد أن هذه المنتجات الزراعية التي اعتاد على مشاهدتها في بلاد الأندلس، تقتصر زراعتها على هذا البلد دون غيره من البلدان. ولم يخف مدى إعجابه بالجودة العالية التي امتازت بها هذه المنتجات على اختلاف أنواعها.

وقد أبدى إعجابا أيضا بما شاهده من أنواع اللبن ومشتقاته وجودتها . وتعجب من طيب لحم ظأنها الذي أرجعه إلى نوعية أعشاب مراعيها ، وأشار إلى الأنواع الغريبة من الحلوى التي كانت تصنع بمكة خاصة في شهور رجب وشعبان ورمضان، وكيف كانت تباع في سوق مكة وأن طريقة عرضها كانت تسترعي الانتباه وقد بلغ به الإعجاب بهذه الطريقة إلى درجة جعلته يقول أنه لم يشاهد لها مثيلا في مختلف المدن الإسلامية التي مر بها في طريقه إلى الحج. ([2])

[1] – ابن جبير، رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك المعروف برحلة ابن جبير، دار ومكتبة الهلال، بيروت، الطبعة الثانية، 1986، ص 87

[2] – ابن جبير، المصدر السابق، ص 87 – 88

إن هذا الوصف التفصيلي الذي قدمه لنا ابن جبير في رحلته عن أسواق مكة ،إنما يدل على مدى أهمية هذه الأسواق، ومكانتها بين الأسواق العالمية آنذاك ، ذلك أن السلع التي كانت تباع فيها، كانت تجلب من مختلف مناطق العالم ، مما جعل مكة تتبوأ مكانة مرموقة بين مدن تلك الفترة ، وقد ساهم انتشار الدين الإسلامي في مختلف مناطق العالم وإقبال الناس على الحج من رفع مكانة مكة المكرمة الاقتصادية بين سائر مدن شبه الجزيرة العربية خصوصا ومدن العالم على وجه العموم .

والجدير بالذكر أن سكان مكة لم يقتصر نشاطهم الاقتصادي على التجارة التي هي سمة التمدن وميزة اختصت بها المدن، بل تفننوا في تنمية ثرواتهم بطرق مختلفة اختلط فيها الحلال بالحرام، فقد عمل عدد كبير من القرشيين قبل الإسلام في مجال الصيرفة، ذلك أن مدينة مكة كانت تتوسط العالم القديم وكانت قوافلها ترتبط في تجارتها ببلاد الروم التي كانت تستخدم في تعاملاتها التجارية العملة الذهبية([1])، كما تعاملت قوافلها مع بلاد الساسانيين التي كانت عملتها المصنوعة من الفضة أساس تعاملاتها التجارية، وأمام هذا التنوع في طبيعة المواد التي صنعت منها العملة استعمل المكيون أوزانا لتقييمها منها القنطار والأوقية والنش والمثقال وتمكنوا من هذه الأوزان ومن القيمة الحقيقية لكل معدن.

استفاد اقتصاد مكة إلى جانب التجارة من الصيرفة، وقد اشتهر أبناء قريش بحذقهم في معرفة المعادن الثمينة من الرديئة، وتمييز المعدن النقي من المغشوش مما ساعد على رفع المستوى الاقتصادي لمدينتهم.

كما اعتمد بعضهم على تقديم القروض الربوية لمن له حاجة لهذه الأموال لتغطية مصلحة أو نشاط تجاري، وقد كانت هذه القروض تقدم لأهل الثقة من قريش، وقلما كانت تقدم للأعراب لصعوبة استرجاعها منهم، ولما كانت سلطة قريش لا تتميز بدرجة عالية من القوة التي تسمح لها باسترداد المبالغ المقروضة لأصحابها، فقد عمد أصحاب المال إلى أخذ فوائد عالية على قروضهم حتى يتسنى لهم الاستفادة منها قدر المستطاع، وتعويض الخسائر التي تنجم عن عدم استرجاع أموالهم من بعض المستفيدين من هذه القروض.

---

[1]– البلاذري، المصدر السابق، ص 450 وما بعدها.

وقد استفحلت هذه الظاهرة في قريش وألحقت أضرارا كبيرة بالطبقات الهشة من المجتمع القرشي.

لقد تأثر النسيج العمراني بمكة بفعل النشاط الاقتصادي، وبفضل الوظائف الاقتصادية المختلفة، فارتقت من مجرد مركز تجاري إقليمي ينشطه الحجاج الوافدون إليها من مختلف مناطق شبه الجزيرة العربية، إلى مركز تجاري عالمي لعبت فيه تجارة القوافل دورا أساسيا، فقد أدت المدينة دورا اقتصاديا بارزا منذ نشأتها، ومع ذلك فقد كان للعامل الديني دورا لا يستهان به في نمو المدينة وتطورها، كيف لا وأن المدينة كانت إرهاصاتها الأولى دينية حسب ما أجمعت عليه أغلب المصادر التاريخية، فالمدينة تعد مركزا دينيا رئيسيا في شبه الجزيرة العربية، يقصده كل عام عدد من الناس، وقد تطلب الأمر لخدمة هؤلاء الناس توفير كل شروط الراحة لهم، فأدى هذا إلى تنظيم تواجدهم بالمدينة، وقد برزت على إثر ذلك عدة وظائف لخدمتهم تطلبت من القائمين عليها نوعا من الحذق والقابلية على التعامل معها. وقد انعكست آثار هذا الدور المهم الذي قام به أعيان مكة عليها، حيث برزت كمدينة قائمة بذاتها، كان للعامل الديني فيها دور بالغ الأهمية في تأسيسها، ونموها عمرانيا، وتطورها اقتصاديا، شأنها شأن الكثير من مدن الشرق القديمة التي قامت على أساس ديني إما حول معبد، أو وثن، أو ملك، والذي عادة ما يتخذ من وسط المدينة مكانا له، وهو أيضا ما جسدته مكة، حيث تميز مركزها باحتوائه على الكعبة المشرفة التي كانت أساس قيام هذه المدينة، يحيط بها فضاء واسع لطواف الحجاج وذلك منذ أقدم الأزمنة، ورغم قلة المعلومات حول مخطط مدينة مكة القديمة إلا أنها برزت من خلال نسيجها العمراني كمدينة دينية تميزت بطابع عمراني خاص بها أملته الظروف الجغرافية والمناخية.

6 _ مخطط مــكة :

لقد أجمعت المصادر التاريخية والجغرافية على أن مدينة مكة أسست في عهد سيدنا إبراهيم عليه السلام على أرض بكر، ولم يشهد هذا الموقع قيام حضارات قديمة أو إنشاء مدينة ما، أسست على أنقاضها مدينة مكة، بل الفضل يرجع في تعميرها إلى القبائل العربية التي استقرت بها عبر الزمن، ورغم أن المصادر التاريخية والجغرافية، وكتب البلدان، لم تشر بتاتا إلى مخطط مدينة مكة

قبل الإسلام، إلا أن ما ورد بها من نتف يمكن أن نستنتج منها ولو إشارات عامة حول الأسلوب المتبع في تخطيط المدينة وتعميرها.

إن الحديث عن تخطيط مدينة مكة يعيدنا إلى قبيلة جرهم العربية التي كانت أول من استقر بهذا الموضع([1])، وإليها تعود الإرهاصات الأولى في تعمير الموضع ، كما سبق أن أشرنا، وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة لجرهم، فإن الفضل في تعمير مدينة مكة يعود إلى قبيلة قريش العربية التي نشط في عهدها عمران مكة نشاطا ملحوظا ، ذلك أن الفترة التي سبقت استيطان هذه القبيلة لم يزد فيها عمران مكة عن مضارب من الخيام المصنوعة من الشعر كانت إما متقاربة، وإما متباعدة حسب منازل بطون القبائل العربية وفخوذها . ونظرا إلى أن طبيعة الموضع الذي أسست فيه مدينة مكة هو عبارة عن وادي تحيط به الشعاب من مختلف الاتجاهات فقد نصبت مضارب الشعر هذه في الأراضي المنبسطة على حواشي الوادي، وبين التواءات الجبال المطلة عليه.

ظلت هذه الخيام تمثل الأسلوب الأمثل والمتبع عند القبائل العربية في تعمير مكة، وكوسيلة سهلة يلجأ إليها العرب عند الاستقرار في موضع ما، توارثته القبائل في مكة بدءا بقبيلة جرهم ومرورا بقبيلة خزاعة وانتهاء بقبيلة قريش. كما كان للطابع القبلي الذي اعتادت عليه القبائل البدوية العربية دورا كبيرا في تحديد مضاربها، ذلك أن كل قبيلة أو بطن فيها أو فخذ، اتخذت لها موقعا متطرفا ضربت فيه خيامها، مبرزة فيه نوع من الاستقلالية عن بقية القبائل الأخرى مرده إلى طابع الاستقرار البدوي الذي ألفته القبائل العربية.

استمر هذا الأسلوب في التعمير إلى عهد قريش، حيث حلت البيوت المبنية بالحجر والطين محل مضارب الشعر، حيث بنيت هذه البيوت حول الكعبة بعد أن تركت بينها وبين الكعبة مساحة لطواف الحجاج حولها، يعتقد أنها تمثل صحن الحرم المكي الذي يطوف فيه الحجاج اليوم حول الكعبة.

وتشير كتب التاريخ أن قصي زعيم قريش هو صاحب الفضل، في تخطيط هذه المساحة ومنع الناس من البناء فيها([2])، فبنيت الدور حول الكعبة

---

[1]– البلخي، المصدر السابق، ج2، ص 40

[2]– البلخي،المصدر السابق، ص 41 – 42

ودون هذه المساحة من جهاتها الأربع، والتي قدرها البعض بمساحة صحن المسجد الحرام الذي يطوف فيه الحجاج في وقتنا الحاضر، كما أمرهم أيضا أن يتركوا بين بيوتهم مسالك تسهل على الناس الوصول إلى الكعبة من جميع جهاتها، وللأسف لم يبق في الوقت الحاضر أي أثر لهذه المسالك، اللهم بعض الإشارات التي وردت في بعض الدراسات الحديثة حول مكة([1])، وقد حرص قصي على أن لا يرتفع الناس في بنيانهم فوق الكعبة، لتبقى الكعبة وهي المعلم الوحيد الذي يميز المدينة مشرفا على دور العامة من الناس وكبار القوم منهم حتى أن الزائر لها يمكن له أن يراها من بعيد وهو في طريقه إليها.

وقد امتدت الدور من أعلى الوادي إلى أسفله متخذة من الأراضي المنبسطة على حافتي الوادي مواقع لها، وتتعرج هذه الدور مع شعاب الوادي، ولم يمتد عمران مكة ليشمل مرتفعاتها بل اقتصر أهلها على المناطق المنبسطة لإنشاء دورهم. ففي المنطقة العلوية لمكة كانت بطون من غساسنة الشام وبعض السفيانيين يتخذون من الجهة الشرقية للكعبة موضعا لهم أنشئوا فيه دورهم وكانت تتخللها متاجر للعطارين ومن بين الدور المشهورة التي كانت بهذه الجهة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت العباس، ودار جبير بن مطعم، ودور لبني عامر بن لؤي، ودار لابن علقم، ودور أخرى لآل عدي من ثقيف. وإذا انحرفنا قليلا في اتجاه أعلى مكة فنجد أن المصادر تتحدث عن أسواق للفاكهة وأخرى للرطب، وكانت بالقرب من هذين الموقعين دار تسمى بدار مال الله كانت تجمع فيها الأموال لإنفاقها على المرضى([2])، وبجوارها يمتد شعب ابن يوسف الذي يضم دور عبد المطلب بن هاشم وأخرى للعباس بن عبد المطلب وعلى مسافة قصيرة منها يلتوي شعب بن عامر الذي كانت تقوم عليه دور لبني بكر وأخرى لبني عبد المطلب بن عبد مناف.

أما من الناحية الشمالية الشرقية فكانت تنتشر بهذه الجهة دور لبني عدي، وكان بها درب يسمى الخزامية كان فيه مكان للبانين، وفيه دار الحكم بن حزام وفي هذه الناحية كان بيت خديجة بنت خويلد رضي الله عنها. وبالقرب من المروة

---

[1]– أحمد السباعي، تاريخ مكة، دراسات في السياسة والعلم والاجتماع، الجزء الأول، العبيكان، الرياض، 1999، ص 39

[2]– يشغل مكانها اليوم السوق المعروف بسوق الليل.

كانت تقوم دور لآل عتبة بن فرقة، ودار لآل ياسر، ودور لآل عبد شمس، ودار أبي سفيان، ودور لأولاد العباس، وكانت دروب هذه الدور تنتشر بها محلات الحجامين والحلاقين، كما كانت بالجهة رحبة واسعة كانت تنزل بها القوافل التجارية المحملة بالحنطة والسمن والعسل والحبوب لتباع فيها وفي باقي أسواق المدينة.

أما من الجهة الغربية للكعبة فكان أهم معلم بها هو دار الندوة التي كانت تجتمع فيها قريش لمناقشة قضاياها الاجتماعية والسياسية، والتي يعود الفضل في بنائها إلى قصي بن كلاب، ويقال أنها كانت أول دار بنيت بمكة من دور قريش([1])، ولم يكن يسمح بدخولها من غير أولاد قصي إلا من بلغ الأربعين سنة من باقي القبائل وذلك للمشورة في الأمور المطروحة، وقد جاء في هذا الصدد عند البلخي:"... فقطع قصي مكة أرباعا، وبنى بها دار الندوة فلا تتزوج امرأة إلا في دار الندوة، ولا يعقد لواء، ولا يعذر غلام، ولا تدرع جارية إلا فيها، وسميت الندوة لأنهم ينتدون فيها."([2])

يبدو من كلام البلخي، أن دار الندوة عند قريش كانت بمنزلة الأجورة عند اليونان، ومجلس الشيوخ عند الرومان، والمسجد في الدولة الإسلامية الناشئة، وإن دلت على شيء فإنما تدل على أن المجتمع العربي الذي اشتهر بالحروب بين قبائله في العصر الجاهلي وقبل عصر قصي، أصبح في عهده مجتمعا مدنيا يميل إلى السلم أكثر منه إلى الحرب، وما دار الندوة إلا مكان يجتمع فيه كل أعيان قبائل مكة للتشاور قبل أن يأخذوا قرارهم في مختلف القضايا التي تتعلق بمدينتهم ومجتمعهم، أو تلك التي لها علاقة بالمجتمعات الأخرى كعقد التحالفات، إلى غير ذلك من المستجدات على الساحة السياسية بالمنطقة.

وبالإضافة إلى دار الندوة نجد بهذه الجهة بعض الدور ذات المنفعة العامة كدار خزانة الكعبة، ودار لصاحب البريد، ودار لبيت المال، ثم تمتد إلى الشمال من هذه الدور، بعض منازل بطون وأفخاذ القبائل كدور بني خزاعة، ودور لآل

---

[1]- ابن الضياء، المصدر السابق، ص 61

[2]- البلخي، المصدر السابق، ج2، ص 41.

وانظر أيضا البلاذري، المصدر السابق، ص 64

زرارة من تميم.

وإذا كانت الجهات العلوية لمكة قد عرفت تمركز القبائل العربية بها، فإن ما نستطيع أن نستنتجه من أسماء بعض هذه القبائل أنها كانت تمثل منطقة استيطان القبائل العربية الشمالية، ولعل هذا الجانب من المدينة الذي تخللته بعض الأسواق، فإنه من طبيعة البضائع التي كانت تباع بها نخلص إلى أن هذه البضائع كانت تمثل منتجات المنطقة الشمالية من شبه جزيرة العرب.

وإذا رجعنا إلى الجهة الجنوبية من المدينة نجد استقرار القبائل العربية بها أيضا ومن جملة القبائل التي ورد ذكرها في النصوص التاريخية، والتي اتخذت من المنطقة الجنوبية الشرقية للمدينة وتحديدا في المساحة المحددة بركن الكعبة اليماني وبئر زمزم غربا والتي كانت بعض دور كبار قريش تفتح على مكان المسعى بين الصفا والمروة، ونجد بهذه الناحية منازل عدي بن كعب، تمتد أسفلها في اتجاه الجنوب سقيفة لبني عائد، وبجوارها كانت توجد سوق للبزازين (تجار القماش)، وعلى مقربة من هذا السوق كان يوجد البيت الذي اتخذه النبي صلى الله عليه وسلم للتجارة قبل ظهور الإسلام مع شريكه السايب بن السايب، وغير بعيد عن هذا الموقع يمتد شعبان تتخللهما دروب ملتوية عرقلت المنازل استقامتها، شأنها في ذلك شأن بقية الدروب الممتدة بين الدور في شعب القبائل الأخرى، حيث كانت بها منازل بني تميم بالقرب من باب أجياد اليوم، حيث تمتد هذه المنازل من الجهة الغربية من المكان الذي سبقت الإشارة إليه إلى حدود صحن الكعبة من الجهة الغربية، وكان ينزل بهذه الجهة قوم من بني مخزوم، وقد اتخذ إلى جوارهم جماعة من الأزد منازل لهم، وخلف منازل هذه الأقوام، كان يوجد منزل أبي جهل بن هشام، ودور لآل عدي بن عبد شمس، ودار لعبد الله بن جدعان التي انعقد فيها حلف الفضول([1]).

---

[1]– تعاقدت قريش في هذه الدار وتحالفت على إنصاف المظلوم من الظالم وأن لا يبقى بمكة ظالم وهوما أصبح يعرف بينهم بحلف الفضول الذي كان سببه رجل من اليمن باع بضاعة إلى رجل من مكة فأطال عليه في تسديد ثمنها حتى يئس من ذلك فصعد جبل أبي قبيس وقريش حول الكعبة ونادى شاكيا بمظلمته مما جعل قريش تخجل من هذا الفعل وتبادر إلى عقد هذا الحلف. أنظر المسعودي، المصدر السابق، ج2، ص 276 – 277. الأصفهاني، المصدر السابق، ص 210 وما بعدها. أحمد شلبي، مكة المكرمة من التهيؤ لاستقبال دين جديد إلى التنكيل بمن تبعه، مكتبة النهضة المصرية، 1987، ص 20. محمد رشدي، المرجع السابق، ص61 وما بعدها.

وإذا واصل الإنسان سيره في اتجاه الجنوب يجد الكثير من الدروب تتخللها أماكن صغيرة كانت تتخذ كمواقع لأسواق تباع فيها مختلف البضائع، كمكان للحواتين وهناك أيضا درب يعرف بدرب الحناطين يستدل من اسمه أنه كان يمثل سوقا لبائعي الحنطة التي كان يؤتى بها من مدن جنوب شبه الجزيرة العربية لبيعها بمكة، وفي هذه المنطقة كانت توجد منازل لآل عبد الدار، ودور لبني أسد بن عبد العزيز، ولعلنا لا نكون مجحفين في حق مكة إذا اقتصر ذكرنا فقط على بعض هذه القبائل العربية التي كانت تسكن مكة، ذلك أن مكة عرفت استقرار الكثير من القبائل العربية التي لم نستطع تحديد مواقعها لندرة المادة العلمية عموما واقتصارها على ذكر أسماء بعض القبائل العربية التي كان لها شأن كبير في مكة قبل البعثة المحمدية.

كانت منازل هذه الأقوام من القبائل العربية تمثل أحياء مدينة مكة في العصر الجاهلي، وقد رأينا كيف أنها لم تتبع مخططا معينا لبناء منازل حول الكعبة، اللهم تلك المساحة المحيطة بالكعبة التي منعهم قصي من البناء فيها، وقد كان للتضاريس الجغرافية المحيطة بمكة أثر بالغ على نمو عمران مكة وتطوره وكذا التحكم في امتداده وازدحامه مع مرور الزمن، فقد خضع انتشار العمران في مكة إلى التضاريس الجغرافية التي جعلته يمتد طوليا مع امتداد مجرى الوادي لا لسبب إنما لوفرة بعض الأرض المنبسطة التي تسمح ببناء الدور بها نظرا للإمكانيات المتواضعة للقبائل العربية والتي لا تسمح لهم بالامتداد على حساب المرتفعات الجبلية.

أما ضواحي مكة المتمثلة خاصة في المناطق السفلية التي تمتد إلى جنــوب الكعبة مع مجرى الوادي، ونظرا لتجمع مياه السيول في برك صغيرة، فقد أشــار الأزرقي إلى أن هذه المناطق كانت تمثل منتجعات يلجأ إليها أهــل مكــة وقــت الأصيل في شهور القيظ للتنزه، ومن أشهر هذه المنتزهات الليط الذي ورد ذكــره عند الأزرقي، والذي كان يقصده أهل مكة مساء يلبسون أزهى الثياب ويتطيبــون بأفخر العطور، ويجلسون بين الزهور، وقد أشارت النصــوص التاريخيــة إلــى أقحوانة كان العرب يفضلون الجلوس حولها ويتباهون بــها حتى أن بلغ الأمــر بأحد شعرائهم إلى قول بعض الأبيات الشعرية فيها ألا وهو الحارث بن خالد الذي يقــول :

من ذا يســـائل عنا أين منزلنا فالأقحـــوانة منا منـــزل قمن

إذ نلبس العيش صفوا ما يكدره طعن الوشاة ولا ينبو بنا الزمن([1])

وكان يتصل بالليط شعب خم وهي منتزه آخر كان يقصده سكان مكة، وكان عبارة عن بساتين مزروعة بمختلف الأشجار، وكانوا يقصدون موقعا يسمى حائط الحمام كانت به نخيل وبساتين وزروع تمتد على مساحات شاسعة على الطريق المؤدية إلى منى. وفي الموقع المسمى المحصب كانت لهم به دكة يجتمع فيها المتنزهون مساء كل يوم، حيث كانت تتميز بموقع يشرف على غابات النخيل الباسقة والبساتين المختلفة الأشجار التي تمتد بين شعاب الوادي الذي ينتهي مجراه إلى منى، وكانت بساتين وادي طوى، ووادي فخ، وبساتين أخرى في الطريق المؤدية إلى كل من مزدلفة وعرفة على مسافة تقدر بحوالي خمسة وعشرون كيلومترا، كلها منتزهات يلجأ إليها سكان مكة في شهور القيظ يتمتعون بمناظرها الجميلة وينعمون بمناخها وهوائها اللطيف.

وقد كانت توجد بين هذه المنتزهات دور وقرى عربية متباعدة عن بعضها البعض تفصل بينها مسافات كبيرة خالية من المنازل تقطع سيرا على الأقدام متبعة في ذلك الأسلوب المستمد من الطبيعة البدوية العربية التي كانت تفضل فيه قبائلها اتخاذ مضارب لها في مواقع متباعدة عن بعضها البعض عكس ما شاهدناه في مكة التي تميزت بتمركز القبائل العربية بجوار بعضها البعض مشكلة مجتمعا حضريا حول الكعبة، استطاع فيه قصي أن يجمع شمل هذه القبائل العربية في مجتمع واحد انصهرت فيه كل العادات والأعراف العربية.

<u>7_ تحصين المدينة:</u>

إذا كانت المصادر العربية لم تتحدث عن تحصين القبائل العربية لمدينتهم مكة التي استقرت بها، فإن هذا يدعونا إلى الاعتقاد من خلال ما أمكننا الإطلاع عليه من المصادر والدراسات الحديثة أن المدينة لم يبن حولها سور، ذلك أنه لم يثبت في المصادر السابقة الذكر أن اتخذ العرب قبل الإسلام سورا يحيط بالمدينة بغرض تحصينها من الأخطار، وهذا مرده في اعتقادنا إلى عدة أسباب منها:

---

[1]– الأزرقي، المصدر السابق، ص 225 وما بعدها.

بعد المدينة عن دائرة الأحداث التي ميزت بلاد الشرق القديم، والتي كانت فيها الدول الكبيرة آنذاك مثل دولتي الفرس والبيزنطيين اللتين كان التنافس بينهما كبيرا إلى درجة نشوب الحروب بينهما من حين لآخر.

الأمر الثاني يتمثل في أن مكة في تلك الفترة، لم تكن المدينة الكبيرة التي تستقطب اهتمام الدول القريبة منها نظرا لوقوعها في منطقة صحراوية، لا تتوفر على الخيرات التي تجعل منها منطقة تجلب الأنظار إليها. حيث أن المدينة كما سبق أن أشرنا لم تعرف تنظيما عمرانيا ونموا سكانيا إلا في عهد قصي بن كلاب.

العامل الثالث الذي نرى أن له دورا كبيرا في عزوف العرب عن إحاطة مكة بسور هو الأمن الذي ميز المدينة منذ تأسيسها، ولا ينبغي أن تفوتنا الإشارة هنا إلى دعوة سيدنا إبراهيم الخليل:" وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات".([1]) أضف إلى ذلك الدور الذي لعبته قريش في استتباب الأمن في المنطقة برمتها.

أما العامل الرابع الذي يعتبر في نظرنا أهم هذه الأسباب هو وقوع مكة في موضع تحيط به الجبال من أغلب جهاته مما جعله يتمتع بحصانة طبيعية حالت دون إحاطة المدينة بسور. ومع ذلك فقد اهتدت قريش إلى هذا الأمر في آخر عهدها بالجاهلية، حيث وردت إشارات في بعض المصادر إلى أنها أقامت ما يشبه السور في الجهات التي لا تحيط بها الجبال، فبنت قريش سورا من جهة المعلى، وهي المنطقة العلوية لمكة، ومن هذه الجهة يمكن الدخول إليها. وبالمقابل بنت قريش سورا من جهة المسفلة وهي المنطقة السفلية من مكة وفتحت به بابا ومنه يمكن أيضا الدخول إلى مكة والخروج منه. أما باقي الجهات فكانت تشغلها جبال يصعب الوصول منها إلى المدينة، مما جعل قريش تكتفي ببناء أجزاء من السور في هاتين الجهتين اللتين تفتقران إلى تحصين طبيعي، وهذا ينم عن نظرة اقتصادية ودفاعية سليمة اكتفت فيها قريش بتدعيم المناطق الضعيفة في تحصين مدينتهم، الأمر الذي سيكلفهم أموالا كبيرة لو أنهم أحاطوا المدينة كلها بسور.

وقد أشار إلى هذا السور الرحالة ابن جبير في القرن السادس الهجري، أثناء

[1]_ الآية 126 من سورة البقرة.

زيارته إلى مكة، حيث وجده قد تهدم ولم تبق منه إلا بعض الأجزاء البسيطة الدالة عليه([1]).

---

[1] _ ابن جبير، المصدر السابق، ص 81

ثانيا: المدينـة المنـورة

1 _ تاريخ تأسيس يثرب :

ترجع المصادر التاريخية استقرار الإنسان بهذه المنطقة إلى عهد النبي داوود عليه السلام، ثم توالت عليها القبائل العربية، فسكنها أقوام من اليهود التي بعث بها النبي موسى عليه السلام إلى الحجاز عقب البطش الذي لحقه من فرعون وفراره من مصر، وكان هذا أول استقرار ليهود بني النضير، وبني قريظه، وهزل، بهذه المنطقة التي أصبحت تسمى يثرب وبنو بها تسعا وخمسين أطما ([1])، ثم نزل بهذا الموضع في فترة لاحقة قبائل من العرب وشاركوا اليهود في بناء هذه الآطـــام([2]).

أصبحت يثرب([3]) مركزا لتجمع القبائل اليهودية التي تكون قد هاجرت إليها سنة سبعين ميلادية إثر تدمير الرومان لبيت المقدس، فظل اليهود خلال فترة استقرارهم بيثرب يشكلون مجتمعا متماسكا، ومنطويا على نفسه، تميزه عاداتهم وتقاليدهم وارتباطهم بدينهم السماوي وسط بيئة وثنية ([4]) ميزت شبه الجزيرة العربية عموما ومدينة مكة خصوصا.

ظل اليهود يشكلون غالبية السكان في يثرب إلى أن هاجرت إليهم قبائل الأوس والخزرج([5])، **(خريطة رقم 10)** التي وجدتهم على قدر كبير من الغنى، والأموال، والقوة، فشاركوهم في الأعمال المختلفة، وخالطوهم في التجارة حتى تمكنوا بدورهم من تكوين ثروات طائلة، وقد توجت هذه العلاقة بين يهود بني النضير وبني قريظة من جهة، وقبيلتي الأوس والخزرج من جهة ثانية، بعقد تحالفات تضمن لهم الأمن وحق المجاورة، وقد دام هذا الحلف مدة زمنية طويلة

---

[1] _ الأطم: جمعه آطام وهو بناء مرتفع من الحجارة يشبه الحصن. أنظر ابن الأثير، النهاية، ج1، ص 54

[2] _ شكري فيصل، المجتمعات الإسلامية في القرن الأول، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثالثة، 1973، ص24 – 25

[3] – لقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم في الآية 13 من سورة الأحزاب.أما عن سبب تسميتها بهذا الاسم فهونسبة إلى يثرب بن قانية بن مهائيل بن إرم بن نوح حسب ما ذهب إليه بعض النسابين، في حين يرى البعض أن اسمها مأخوذ من الثرب أي الفساد. أنظر: عصام السعيد، المرجع السابق، ص 112

[4] _ مصطفى العبادي، محاضرات في تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت، د.ت، ص 149 – 150

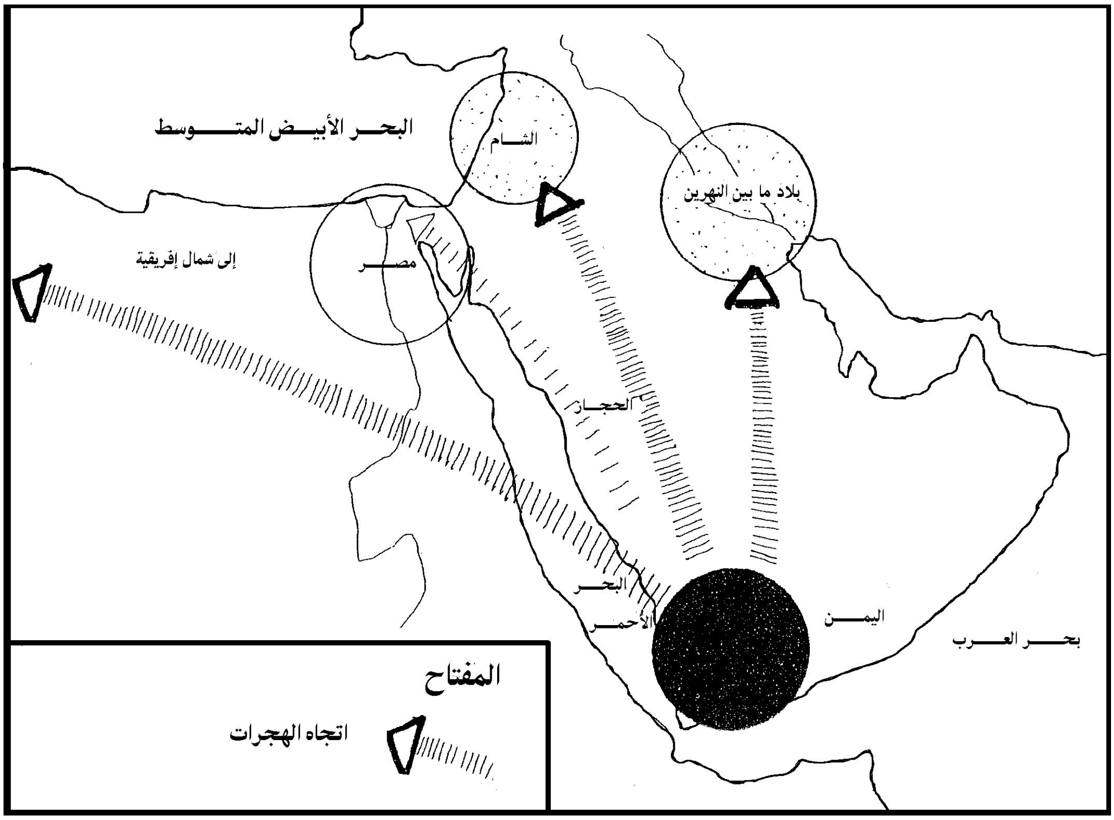
[5] – المقدسي مطر بن طاهر، كتاب البدء والتاريخ، نشرهكلمان هوار، باريس، 1899، ص 31

استغلتها قبيلتا الأوس والخزرج في الزيادة من رفع نشاطها الاقتصادي مما أدى إلى زيادة رؤؤس أموالهم، فأصبحت القبيلتان تظاهيان اليهود قي الأموال. ولما أدركت قبائل بني قريظة وبني النضير قوة الأوس والخزرج، وتعاظـــم شأنهم من الناحية الاقتصادية، خافــوا أن تفلت الأمور من أيديهم، وخشوا أن تمتد سيطرتهم على سائر مجالات الحياة الاجتماعية والسياسية، فتنكروا لهم وقطعوا الحلف الذي بينهم.

وقد كان لهذا الفعل أثر كبير في نفوس الأوس والخزرج الذين أيقنوا أن المستقبل ينذر بالخطر، خاصة وأن قبيلتي بني النضير وبني قريظة كانتا كثيرة العدد مقارنة بقبيلتي الأوس والخزرج، فخافوا على أنفسهم من انتقام اليهود منهم فلبثوا قي منازلهم يهادنون اليهود ويتعاملون معهم بحذر ويترقبون ما سيصدر عنهم وأخذوا يحتاطون من كل مكروه قد يصيبهم.

وفي ظل هذه الظروف التي لا تعلم فيها قبيلتي الأوس والخزرج ما تحمله لهم الأيام، برز منهم قائد لهم وهو مالك بن عجلان الذي تمكن من توحيد صفوف القبيلتين، ثم اتفق بعد ذلك هو وقومه على إرسال مبعوث لهم إلى أحد ملوك الغساسنة بالشام والذي تربطهم به علاقة النسب يقال له أبوحبيلة ــ وكان هذا الأخير قد انتقل من يثرب إلى بلاد الشام واستقر بها واستطاع أن يبني له ملكا وأن ينال مكانة وشرفا بين قبائل تلك المنطقة([1]) ــ يستنجدون به ويشكون له أمرهم وما حل بهم من بطش على يد اليهود بيثرب، وخوفهم من أن يقتلوهم أو يطردوهم شر طردة. وقد تمكن هذا المبعوث من كسب التأييد لقومه من طرف الملك.

[1]_ ابن الوردي، المصدر السابق، ص 61.



خريطة رقم 10: هجرة قبائل الأوس والخزرج قبل الإسلام عن( )

زحف هذا الملك في جيوش جرارة على يثرب وفي ذهنه نية إصابة أحد الهدفين :

إما طرد اليهود من منطقة يثرب، أو جعلهم تحت سيطرة الأوس والخزرج. وقد اهتدى هذا الأخير إلى استخدام الحيلة مع اليهود حتى يتمكن منهم، فتظاهر أول الأمر أنه قاصدا بلاد اليمن، ولما بلغ مشارف يثرب أسرع الأوس والخزرج إليه فأخبرهم بما جاء إليه، فنصحوه ألا يتعرض لهم وأن لا يستخدم معهم القوة، لأن ذلك سوف يجعلهم يتحصنون في آطامهم ولا يتمكن بذلك من القضاء عليهم، فأشاروا عليه أن يجمع رؤساءهم ويحسن معاملتهم حتى يطمئنوا إليه.

أعد الملك أبو حبيلة طعاما وأرسل إلى رؤوس اليهود وزعمائهم يدعوهم الحضور لمشاركته هذا الطعام، فكان إقبال اليهود عليه كبيرا، حيث لبى هذه الدعوة رؤساء القبائل اليهودية وحاشيتهم وكلهم طمعا في رضاء الملك عليهم، وقد سمحت له هذه الفرصة من القضاء على زعماء اليهود ووجهائهم، وساعده في ذلك الأوس والخزرج فانطفأت بذلك شوكة اليهود بالمنطقة وأصبح القرار بيد الأوس والخزرج.

لقد أدى القضاء على زعماء اليهود إلى فسح المجال للأوس والخزرج، وفك الحصار المضروب عليهم، فازدادت معاملاتهم التجارية وازداد معها عمران يثرب توسعا ببناء دور جديدة لهم، وانتشروا في جميع نواحي يثرب بعدما كانوا متمركزين في مواضع محددة، وتوسعوا على حساب الأراضي التي لم تكن مبنية، فازداد عمران المدينة نموا وأصبحوا سادة يثرب بعد أن كانوا ضعفاء فيها، فتوحدت كلمتهم حول قائدهم مالك بن عجلان بعد أن كسروا شوكة اليهود.

إن هذا السلام الذي نعمت به القبيلتان لم يؤد في ظل القائد مالك بن عجلان إلى بناء كيان سياسي ذاع صيته بين المدن العربية الأخرى مثل ما أقدم عليه قصي بمكة، بل لم يزد عن كونه نظام عشائري سرعان ما انهار، ذلك أن وحدة الكلمة التي جمعت بين الأوس والخزرج لم تدم مدة زمنية طويلة، إذ لم تفتأ أن دخلت القبيلتان في حروب بينهما، وأسرعت كل منهما إلى عقد تحالفات مع القبائل الأخرى ومع اليهود أعداءهم في الماضي، فقد تحالفت الأوس مع بني

قريظة وبني النظير، ولجأت الخزرج إلى محالفة بني قينقاع وقد أرسلت حتى إلى مكة مبعوثين لها يطلبون من قريش الحلف ضد الأوس ([1]) فكانت لهم أيام ومواطن.

استمرت الحروب تثور بينهم أحيانا وتهدأ أحيانا أخرى إلى أن بعث الله الرسول صلى الله عليه وسلم، وهاجر إلى يثرب التي أصبحت بمقدمه تعرف بالمدينة المنورة([2])، فآخى بينهم وعرفت الأوس والخزرج بالأنصار لنصرتهم الرسول صلى الله عليه وسلم، حيث استقبلوه بالترحاب وهو يطل عليهم من المكان المسمى بثنيات الوداع([3]) فكانت بذلك يثرب المدينة الوحيدة التي فتحت سلما في حين أن باقي البلاد التي بلغها الإسلام تم فتحها بحد السيف.

لم ترق المدينة المنورة إلى مصاف المدن العربية آنذاك، إلا مع مقدم الرسول صلى الله عليه وسلم، ففي عهده شهدت المدينة المنورة تطورا عمرانيا وتوسعا كبيرا، وأصبحت لها سلطة سياسية، وكيان قائم استطاع فيه الرسول صلى الله عليه وسلم من ربط علاقات خارجية على مر الزمن مع باقي الدول والأمم المجاورة له في تلك الفترة.

2 _ الموقع والمناخ :

إذا كانت مدينة مكة قد أسست في واد جاف ليس به أدنى شروط الحياة، من جبال وهضاب تحيط بها من أغلب جهاتها، فإن يثرب قد أسست قي أرض بطحاء ([4]) تحيط بها بعض الجبال البعيدة عنها من جهتيها الشمالية الشرقية والجنوبية الغربية، فمن الناحية الأولى نجد جبل أحد، وأما من الناحية الثانية فيمتد جبل عـــير، في حين تشكل الهضاب والمرتفعات الصغيرة حاجزا طبيعيا لها من الجهة الغربية، أما الجهة الشرقية فتشغلها أراضي منبسطة ومفتوحة تعرف بالحرة، وهو

---

[1] _ الطبري، المصدر السابق، ص 577. اليعقوبي، تاريخ الرسل والملوك (تاريخ اليعقوبي)،ج1، تحقيق عبد الأمير مهنا، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، الطبعة الأولى، 1993، ص 356

[2] – نهى الرسول صلى الله عليه وسلم أن تسمى بعد مقدمه بيثرب. عصام السعيد، المرجع السابق، ص 112

[3] _ ابن الضياء، المصدر السابق، ص 227

[4] _ لقد وصفها اليعقوبي في القرن الثالث الهجري قائلا:" والمدينة كما سماها رسول الله صلى الله عليه وسلم طيبة في مستوى من الأرض، عذبة، برية، جبلية، وذلك أن لها جبلين أحدهما: أحد. والآخر: عير". اليعقوبي، كتاب البلدان ، ص 76

اسم يطلق على كل أرض منبسطة ذات حجارة بركانية سوداء، وهي أيضا الميزة الغالبة على صخور جبال منطقة الحجاز عموما. **(خريطة رقم11)**

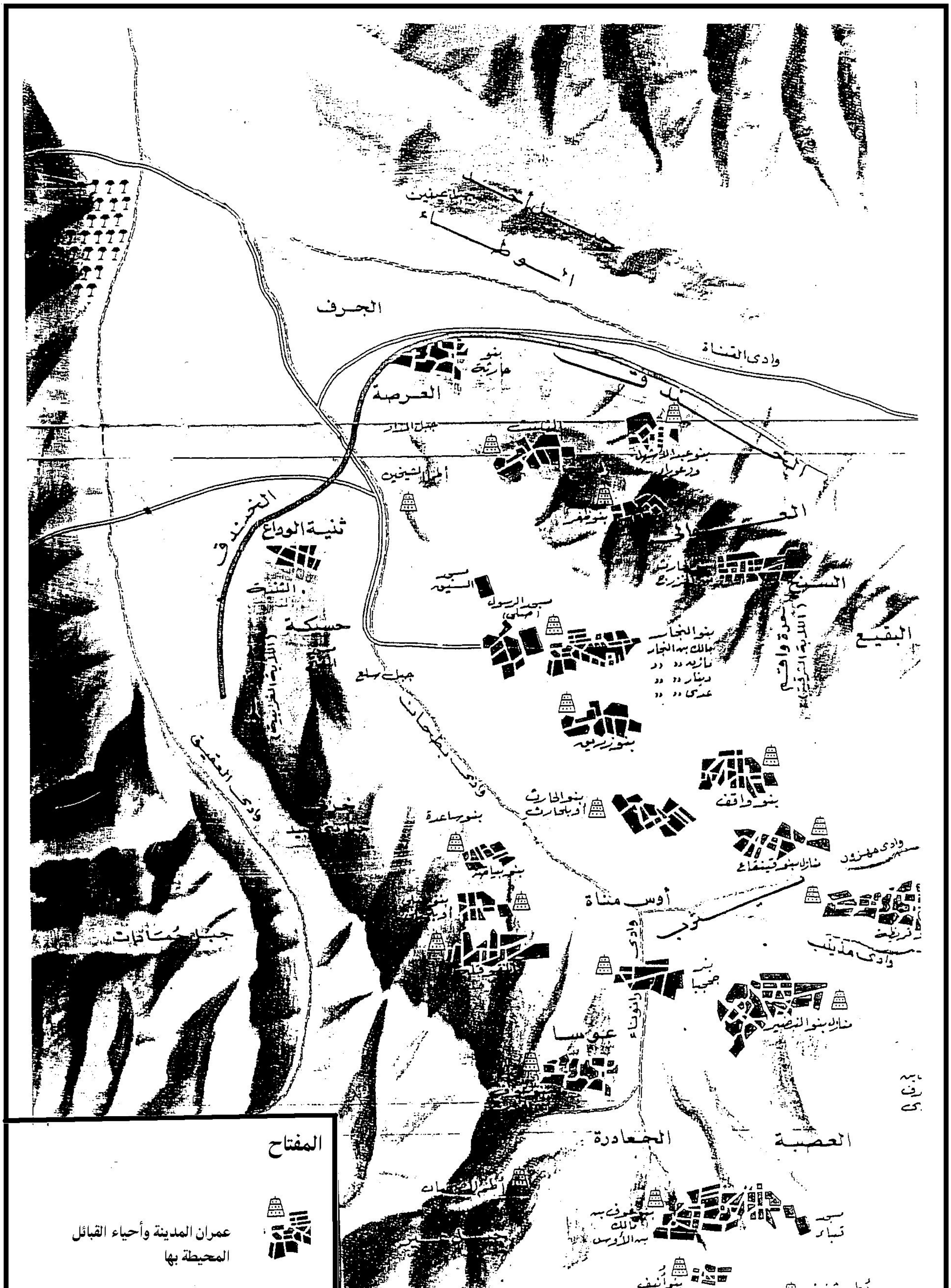
لقد كان لموقع المدينة المتوسط للجبال والمرتفعات الصغيرة، أثر على المدينة وعلى القبائل العربية في العصر الجاهلي، ذلك أنها اتخذت من المرتفعات المحيطة بها منازل لها، فكانت يثرب آنذاك عبارة عن قرية صغيرة تتكون من مجموعة من القبائل التي استقرت في مواضع بعيـــدة عن بعضها البعض، تفصل بينها البســـاتين وبعـــض التضاريس الأرضية، ولم تعرف يثرب تجمع القبائل في موضع واحد إلا بعد هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إليها.

كما تميز موقع المدينة المنبسط بين الجبال والتلال بشبكة من الوديان تداخلت روافدها فيما بينها مشكلة خطرا كبيرا على المدينة أثناء فترات المطر الذي يخلف في كثير من الأحيان سيولا شديدة الاندفاع، حيث تلتقي هذه الروافد التي اتخذت لها من الأراضي المنخفضة بين الجبال، والتلال، والسهوب المحيطة بالمدينة، مجاري لها مشكلة في النهاية مجموعة من الأودية تخترق الأراضي المنبسطة التي استقرت عليها القبائل العربية بعدما عرف المجتمع المدني تزايدا في عدد سكانه.

وقد وردت أسماء هذه الوديان عند اليعقوبي في قوله: "... ولها أربعة أودية، يأتي ماؤها في وقت الأمطار والسيول من جبال بموضع يقال له حرة بني سليم على مقدار عشرة فراسخ من المدينة، وهي وادي بطحان والعقيق الكبير والعقيق الصغير، ووادي قناة فمياه هذه الأودية تأتي في وقت السيول ثم تجتمع كلها بموضع يقال له الغابة، ويخرج إلى واد يقال له وادي أضم." ([1])

---

[1] _ اليعقوبي، كتاب البلدان، ص 77



خريطة رقم 11: موقع المدينة عن(الأطلس الإسلامي بتصرف)

يبدو من خلال نص اليعقوبي أنه أغفل ذكر بعض أسماء أودية المدينة، واكتفى بذكر وادي العقيق الذي قسمه إلى جزئيين: كبير وصغير، ووادي بطحان، ووادي قناة، فأما وادي العقيق فينحدر من موقع يسمى بطاويح ويجري بمحاذاة المدينة من جهتها الغربية، ويقابله من الجهة الشرقية وادي مهزور، الذي كانت سيوله تشكل خطرا كبيرا على أهل المدينة حسب ما ذهب إليه ابن شبة([1])، حيث كانت سيوله تتجمع في الحرة الشرقية ثم تتدفع بقوة عبر منطقة البقيع بجوار المسجد النبوي لتصب في واد صغير يسمى قناة، وقد سال هذا الوادي بقوة شديدة في عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى درجة خاف فيها أن تلحق سيوله أضرارا بالمسجد النبوي الأمر الذي دفعه إلى بناء ردم ليدفع به السيل عن المسجد. وفي عهد الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور تكرر هذا السيلان بالشدة نفسها مما حـــدا بعامله على المدينة المنورة عبد الصمد بن علي سنة 256 هـــ، إلى إعادة حفر خندق قديم دلته عليه عجوز مسنة ليحول مجرى السيول نحو وادي بطحان بعدما غمرت المياه الأراضي المحيطة بالمسجد ([2]). وإلى جانب هذا الوادي هناك واديا آخر يسمى الرنوناء الذي تأتي سيوله من الشعاب الشرقية لجبل عـــير منحدرة في اتجاه بطحاء المدينة التي كانت بها مضارب القبائل العربية.

تتجمع سيول أغلب هذه الأودية عند اقترابها من يثرب في مجرى وادي بطحان، الذي تأتيه السيول ـــ بالإضافة إلى سيول الأودية السالفة الذكر ـــ من موقع يسمى الجدر فتجري وسط بيوت المدينة مخترقة بذلك موضع المدينة على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم لينتهي مجراها في فضاء خارج المدينة يسمى زعابة.

والجدير بالذكر فإن هذه الأودية تجري أثناء فترات المطر التي تمتاز في هذه المنطقة بأنها فجائية، وتجف بسرعة عندما تتوقف الأمطار عن التساقط، لذا فإن الطبيعة الجغرافية ليثرب على وجه الخصوص، وشبه الجزيرة العربية على وجه العموم بيئة صحراوية لا نجد بها أنهار كبيرة يصل مداها إلى شواطئ

[1] _ ابن شبة، تاريخ المدينة المنورة، دار الكتب العلمية، الجزء الأول، بيروت، 1996، ص 107 – 108

[2] _ المصدر نفسه، ص 108

البحار، بل إن مجاريها عبارة عن شبكة من الوديان القصيرة التي تجري بها المياه نتيجة لغزارة الأمطار، هذه الأمطار التي تميزت بقلتها وعدم انتظامها. فقد تتساقط أحيانا بغزارة تنجم عنها سيول شديدة وبصفة فجائية قد يؤدي تدفقها إلى إغراق بعض منازل القبائل العربية، وإلى تدمير بعض المعالم العمرانية للمدينة على مر الزمن.

وإذا كان مناخ شبه الجزيرة العربية يميل بشكل ملحوظ إلى الجفاف، وتميزه الحرارة الشديدة في فصل الصيف، فإن مدينة يثرب التي تقع إلى الشمال من مكة، يعتبر مناخها أقل حرارة في فصل الصيف مقارنة بمناخ مكة، كما تنزل به درجة الحرارة إلى مستويات دنيا خلال فصل الشتاء، خاصة بالليل.

لقد ساهمت هذه العوامل الطبيعية والمناخية مجتمعة في جعل بيئة يثرب قاسية، ومع ذلك فإنها لم تعرف استقرار القبائل العربية بها منذ قديم الأزمان هكذا اعتباطا، وإنما لما شاع عنها آنذاك من مناخ مناسب يساعد على الاستقرار بها، ومن توفر مصادر المياه بها، ومن وجود التربة الصالحة للزراعة([1])، مما هيأ ظروف الحياة المناسبة لها، فجعل العرب يستقرون بها منذ أقدم الفترات التاريخية، فمصادر المياه بها متوفرة منذ القديم حيث تحدثت بعض المصادر العربية على العديد من آبار المياه التي حفرت في الفترة السابقة للإسلام، وعلى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، كما أشارت إلى الكثير من العيون التي كانت تزود سكان المدينة بالمياه الصالحة للشرب واستغلال ما زاد عن حاجة الناس في ري غابات النخيل، والأشجار، ومختلف المزروعات([2]). وفي هذا الصدد يقول اليعقوبي: " ...ثم يخرج العقــيق الكبير والعقــيق الصغير (واديان) في آبار منها: بئر رومة، وهي حفير بني مازن، وبئر عروة، فيشرب أهل المدينة سائر السنة من هاتين البئرين وغيرهما من الآبار التي ليست لها شهرة هاتين البئرين، وبها آبار يسقى منها النخل والمزارع تجرها النواضح وهي الإبل التي تعمل في الزرانيق. وبالمدينة عيون نابعة معينة، فمنها عين الصورين، وعين ثنية مروان، وعين

---

[1] _ ابن الضياء، المصدر السابق، ص 243 وما بعدها.
عبد الباسط بدر، التاريخ الشامل للمدينة المنورة، ج1، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، 1993، ص 99 – 100

[2] _ ابن الضياء، المصدر السابق، ص 217

الخانقين، وعين أبي زياد وخيف القاضي، وعين برد، وعين أزواج النبي صلى الله عليه وسلم...".([1])

وإذا كان نص اليعقوبي يبين فيه أسماء هذه الآبار، وأسماء العيون التي كانت تمثل مصدرا لمياه المدينة، فإنه لم يعطينا تواريخ إنشاء هذه العيون، ولا أي خبر عن منشئيها، أضف إلى هذا أيضا أنه ذكر بعض أسماء الآبار والعيون، وأغفل بعضها بحجة عدم شهرتها كما أشار إلى ذلك، لذا فإن النتيجة التي يمكن أن نخرج بها من هذا النص أن مصادر المياه بالمدينة كانت كثيرة ومتنوعة، بإمكانها تلبية حاجة السكان المتزايدة من هذه المادة الحيوية ولولا أن هذه المادة غير متوفرة بالقدر الكافي لما وجدت بها غابات النخيل ولما هاجرت إليها قبائل الأوس والخزرج منذ أمد بعيد.

3 _ اقتصاد يثرب :

تشير بعض المصادر العربية إلى أن يثرب كانت منذ القديم واحة من النخيل، وأن هذه الشجرة كانت مصدر غنى غالبية أهلها، فمنها معاشهم وقوتهم([2])، كما وصفت أرضها بأنها صالحة للزراعة، وقد كان ذلك من الأسباب الرئيسية التي دفعت بقبيلتي الأوس والخزرج إلى الهجرة إليها من بلاد اليمن طمعا فيما توفره هذه المنطقة من أسباب العيش والاستقرار.

ولكن رغم هذه الأوصاف التي نعتتها بها بعض المصادر، إلا أن يثرب لم يكن لها شأن كبير بين مدن شبه الجزيرة العربية مثل مكة، وحضرموت، والأكثر من هذا، فإن الزراعة بها كانت متذبذبة المحاصيل تبعا لطبيعة المناخ السائد وللأوضاع السياسية التي كانت تميز قبائلها، فتسوء أحوالها عندما يشتد القحط، وقد تزيدها أحيانا الحروب التي كانت تنشب من حين لآخر بين قبائلها سوءا، وتتحسن أوضاعها ويزدهر اقتصاد المدينة في السنوات المطيرة، وفي أوقات السلم، ومع ذلك ونظرا لقلة عدد سكانها في العصر الجاهلي، فإن اقتصادها إن لم يكن وافرا فإنه كان يميل في غالب الأحيان إلى الاكتفاء الذاتي، ذلك أن المصادر التاريخية لم تذكر اقتصادها إلا ضمن اقتصاد مدن شبه الجزيرة العربية، ونادرا ما كانت تشير إلى اقتصاد المدينة، وأن هذه الإشارات لا تعدو عن كونها أخبار عن

[1] _ اليعقوبي، كتاب البلدان، ص 77

[2] _ ابن الضياء، المصدر السابق، ص 217. اليعقوبي، كتاب البلدان، ص 77

أحوالها المناخية وعن غابات النخيل ولم تشر عن التبادل التجاري الذي كان يتم بينها وبين بقية مدن شبه الجزيرة العربية من جهة ومدن بلاد الشام من جهة ثانية مثلما كان الحال بمكة. ولولا أنها كانت واقعة على طريق التجارة الرابط بين جنوبي شبه الجزيرة العربية وشمالها لما كان هنالك ذكر ليثرب.

وإذا كانت الزراعة في يثرب لا تكفي حاجة الناس، فإن وقوعها على الطريق التجارية الرابطة بين شمال بلاد شبه الجزيرة العربية وجنوبها جعل منها محطة توقف هذه القوافل التجارية المحملة بمختلف السلع، فجعلتها سوقا تلتقي فيها منتجات الجنوب ومنتجات الشمال، بالإضافة إلى بعض منتجات المنطقة، الزراعية منها والمعدنية.

كل هذا جعل المدينة تكتفي ذاتيا اقتصاديا نظرا إلى العدد القليل من القبائل العربية واليهودية التي استقرت بالمنطقة منذ سالف الأزمان.

وإذا كان العامل الديني الذي جعل من مكة محجا للناس، زيادة على وقوعها على الطريق التجارية التي سبق ذكرها، فإن هذه الميزة لم تكن موجودة في يثرب قبل الإسلام، بحيث لم يرتفع شأنها، ولم يتعد صداها حدود بعض المدن المجاورة لها إلا مع هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم، واستقراره بها. حيث عرفت المدينة هجرة موجة بشرية كبيرة من مكة، واستقرت بها مما زاد في متاعب اقتصادها، ذلك أن المدينة وهي على ما هي عليه من قلة سكانها في الفترة السابقة للإسلام، كان اقتصادها في بعض الأحيان لا يكفي حاجتها، ناهيك عن الحديث عن قدرة هذا الاقتصاد في تلبية متطلبات الزيادة البشرية التي شهدتها مع هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إليها، أضف إلى هذا أن أغلب المهاجرين إليها إما كانوا من ضعفاء القوم أو اضطرتهم قريش إلى الهجرة دون السماح لهم بأخذ أموالهم إن كانوا من أغنياء المسلمين([1]).

لقد ساهمت هذه العوامل في جعل اقتصاد يثرب عاجزا عن تلبية المتطلبات الاجتماعية والاقتصادية المتزايدة للمجتمع الجديد الذي آوته يثرب، ومع ذلك فقد كانت لتعاليم الدين الإسلامي التي تحث على العمل والاجتهاد، ولوصايا الرسول صلى الله عليه وسلم أثرها في نفوس الأنصار والمهاجرين الذين آخى

[1] _ لقد اضطر صهيب الرومي إلى التنازل عن كل ماله لقريش مقابل السماح له بالهجرة، وكذلك الأمر بالنسبة لآل عبدالله بن جحش الذين انتزع منهم أبو سفيان دارهم. أنظر عبد الباسط بدر، المرجع السابق، ص 226

بينهم، فقد كان للأنصار دور كبير في مساعدة المهاجرين في الأيام الأولى لفتح المدينة المنورة، فتحملوا متاعبهم، وسهلوا عليهم ظروف الحياة، وتقاسموا معهم ممتلكاتهم. وسرعان ما أخذ المهاجرون يساهمون في النشاط الاقتصادي للمدينة المنورة، فبالإضافة إلى الدور الرئيسي الذي كانوا يؤدونه ألا وهو نشر الإسلام، وذلك بمساهمتهم في الغزوات، كانوا يمارسون شتى الحرف والأعمال التي اعتادوا على ممارستها في مكة.

اشتغل بعض المهاجرين بالزراعة، وتربية المواشي، اهتم البعض الآخر منهم بالتجارة فاتجه إلى الأسواق قصد المتاجرة. وقد دفعهم تعففهم وعدم اعتمادهم على الأنصار رغم الضيافة الكريمة التي لقوها منهم إلى ممارسة كل الأنشطة الاقتصادية التي أباحها الإسلام، والتي من شأنها أن توفر لهم العيش الحلال والرزق الكريم في الوقت نفسه، هذا دون أن نغفل ما كان للغنائم التي كانت تغنمها سرايا المهاجرين التي كان يوجهها الرسول صلى الله عليه وسلم للتعرض لقوافل قريش التجارية من دور كبير في الرفع من المكانة الاقتصادية للمجتمع المدني عموما والمهاجرين على وجه الخصوص، إذ سرعان ما نضم المسلمون أنفسهم فغزوا القوافل القرشية المارة بالمدينة وغنموا منها الكثير من الأموال والسلع ([1])، فابتداء من السنة الثانية للهجرة بدأت غنائم الغزوات والسرايا تصل إلى المدينة ([2]) وكانت أولى هذه الغنائم من سرية عبد الله بن جحش ([3]) التي غنمت قافلة لقريش ثم جاءت بعدها غنائم غزوة بدر، ثم توالت الغنائم بعد ذلك مع كل انتصار يحققه المسلمون في غزواتهم ضد القبائل العربية. وقد عادت هذه الغنائم على المدينة بالخير حيث رفعت من اقتصادها فازدهر وأصبح قادرا على مسايرة الأعداد المتزايدة من السكان المسلمين وغير المسلمين من المقيمين بها. ولم يكن المسلمون يهدفون من وراء هذه الغنائم اتخاذها كقاعدة اقتصادية، أو سببا لزيادة ثرواتهم، بل انهم كانوا في غنى عن ذلك، لأن هدفهم من الجهاد كان بالدرجة

---

[1] _ البلخي، المصدر السابق، ص 71. وانظر ابن شبة، المصدر السابق، ص 290 – 291

[2] _ الطبري، المصدر السابق، ص 14 وما بعدها.

الواقدي محمد بن عمر، كتاب المغازي، تحقيق مارسدند جونس، دار المعارف، مصر، 1964، ص 9 ومابعدها.

[3] _ البلخي، المصدر السابق، ص 71 – 72.

الواقدي، المصدر السابق، ص 13

الأولى نشر الدين الجديد وتوفير حاجة المسلمين من الأموال قدر الإمكان، ذلك أن نصيب الفرد الواحد من هذه الغنائم لم يكن كبيرا حتى في الأيام الأولى للهجرة، وقد شهد تناقصا تدريجيا مع ازدياد عدد المسلمين بالمدينة، ومن هنا كان لابد لمن أراد من المسلمين اكتساب الثروات أن ينشط نشاطا موازيا في ميادين أخرى كالزراعة وتربية المواشي من الإبل والغنم، وتوظيف ما اكتسبوه من حرف بمكة في بعث الصناعة بالمدينة، أو الاتجاه نحو التجارة سواء كان ذلك بالمساهمة في القوافل التجارية، أو المتاجرة في أسواق المدينة.

وقد برز الكثير من المسلمين في مختلف النشاطات الاقتصادية، واستطاعوا أن يكونوا ثروات هائلة وظفوها في سبيل خدمة الإسلام، كتمويل بعض الغزوات التي شهد التحضير لها عسرا في الأموال، وفي توفير حاجة المجاهدين من الغذاء. ولنا في عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو بكر الصديق مثالا حيا عن ذلك. فاستجابة لطلب الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يهم في التحضير لغزوة تبوك*، فقد جاء الأول بألف دينار وأعطاها للرسول صلى الله عليه وسلم، وقد قـــدم له الثاني نصف ماله، أما الثالث فأتاه بماله كله.

يستخلص مما سبق أن هدف المسلمين لم يكن اكتناز الأموال وادخارها كما كان يفعله العرب قبل الإسلام، وإنما كان الهدف من جمع الأموال بالنسبة لهم هو توفير الشروط الضرورية لمعيشتهم، وتوظيف ما زاد عن حاجاتهم في خدمة الإسلام والمسلمين.

4 _ الــزراعــة :

لقد طالعتنا بعض المصادر التاريخية بما لموقع المدينة المنورة من أهمية من الجانب الزراعي، فهذا ابن الضياء يورد في كتابه سبب هجرة قبيلتي الأوس والخزرج من بلاد اليمن عقب تهدم سد مأرب إلى يثرب مرده إلى سماع ملكتهم عن ما تتوفر به المنطقة من غابات نخيل وأرض صالحة للزراعة ووفرة مياه، وكيف حثت أقوامها على الهجرة إليها.

وقد كان لأهل يثرب منذ القدم بساتين يقومون بزراعتها ويسقونها من آبار حفروها، وكانت شجرة النخيل تعد أهم شجرة زرعت بكثرة في المنطقة، حيث كانت تمثل قاعدة اقتصاد الفرد في تلك المنطقة، فمنها مؤونته وطعامه في القرار،

والسفر، وفي الحروب قبل الإسلام، والغزوات بعد ظهوره، وكان التمر يشكل السلعة الأولى في التجارة مع بقية المدن الأخرى، وقد زاد الإسلام في رفع مكانة شجرة النخيل لما فيها من فوائد جمة فأقبل المهاجرون على زراعتها، إذ سرعان ما اتسعت رقعة أراضي غابات النخيل في العصر الإسلامي مع فتح الأراضي المحيطة بالمدينة مثل خيبر، وفدك، ووادي القرى، حيث أبقى المسلمون على أصحاب البساتين والمزارع من اليهود مقابل الحصول على نصف المحصول يوم جنيه([1])، مما زاد في ثروات سكان المدينة من مختلف المحاصيل الزراعية عموما والتمر خصوصا.

وقد كان لخروج اليهود من بني النضير وبني قريظة من المدينة، ([2]) عاملا مساعدا عل نمو الزراعة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، حيث وزعت بساتينهم على المسلمين فاستغلوها أحسن استغلال.

وإلى جانب زراعة النخيل فقد استغل المسلمون الفضاءات الممتدة بين أشجار النخيل واستثمروها في زراعة محاصيل زراعية أخرى ([3]) مستفيدين من المناخ المناسب الذي توفره شجرة النخيل الباسقة. فزرعوا الشعير الذي كان يمثل المنتوج الذي يحصلون منه على قوت يومهم بين أشجار النخيل أول الأمر، ثم توسعت زراعته لتشمل حقول مستقلة لا سيما شمالي المدينة على طرفي وادي قناة، كما زرعوا العنب وكذلك اهتموا بإنتاج بعض الزراعات الأخرى مثل البصل، والثوم، والعدس، والبقول، إلى غير ذلك من المزروعات التي كانت معروفة آنذاك.

والجدير بالإشارة إلى أن هذه الزراعة وإن كانت في العهد السابق للإسلام تفي حاجة السكان، وأنها في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم كانت أيضا تتماشى مع زيادة عدد السكان، فإن هذه الزراعة لم تكن مضمونة كل السنوات فكثيرا ما كان يؤثر عليها تغير المناخ، حيث شهدت المدينة سنوات قحط كثيرة اضطر فيها سكانها إلى جلب قوتهم من المحاصيل الزراعية من

---

[1] _ البلاذري، المصدر السابق، ص 36 – 42 – 47
ابن الوردي، المصدر السابق، ص 63

[2] _ البلاذري، المصدر السابق، ص 31 وما بعدها.

[3] _ البلاذري، المصدر السابق، ص 31

المدن الشمالية، فقد وصلت القوافل التجارية المحملة بالحبوب، وأقبل على شرائها سكان المدينة، وعادت محملة بأنواع التمور التي اشترتها هذه القوافل من المدينة.

وقد ساعد النشاط الزراعي سكان المدينة على الاهتمام بتربية المواشي على اختلاف أنواعها، نظرا إلى أن بيئة المدينة زراعية رعوية بالدرجة الأولى، وقد زاد هذا الاهتمام بتربية المواشي في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم. وللعلم فأن العرب كانوا محبين لتربية الإبل والأحصنة إلى جانب الأغنام، فقد كانت الإبل وسيلتهم قي التنقل لتحملها العطش لمدة طويلة قد تصل في بعض الأحيان إلى خمسة عشرة يوما. كما أنها بإمكانها نقل أحمال ثقيلة لمسافات طويلة بالإضافة للاستفادة من لحومها ولبنها في الغذاء ووبرها في صناعة الخيام والملابس، كما تستخدم الأحصنة في الحروب وكوسيلة للتنقل السريع، وقد كان الأمر كذلك في الجاهلية وبقي على ما هوعليه بعد ظهور الإسلام، بل لقد شجع الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين في المدينة على تربية المواشي المنتجة لأهميتها في رفع اقتصاد المدينة، وامتصاص الكثير من اليد العاملة، ذلك أن لقطعان المواشي رعاة يتقاضون أجورهم من أصحابها. كما حث الرسول صلى الله عليه وسلم على تربية الخيول وركوبها، فقد جاء في الأثر على لسانه:" علموا أبناءكم الرماية والسباحة وركوب الخيل" وقد جاء هذا التوجيه النبوي انطلاقا من واقع الحياة العربية في الجاهلية، وفي الإسلام لأن الفرس كانت الوسيلة الأولى المستعملة في الغزوات ومن تمكن من ركوبها ضمن جزء من تكوينه العسكري.

5 _ التجـــــارة :

عرفت التجارة نشاطا كبيرا في المدينة قبل الإسلام وبعد ظهوره بها، فقد كان هذا النشاط التجاري قبل الإسلام يقوم به اليهود من بني النضير وبني قريظة، كما كان مجاله محددا حيث كان يعتمد على بعض الصناعات التي توفر الوسائل المستخدمة في الزراعة كسكك الحرث، كما كانت تقوم أيضا على بعض الأدوات الحربية كالسيوف، والتروس، ورؤوس الرماح ، والنبال، والسكاكين. بالإضافة إلى الأدوات المنزلية، ودباغة الجلود وصباغة الصوف، والحياكة، وبعض الصناعات الخشبية، أضف إلى هذا بعض السلع الأخرى التي كان يستوردها

اليهود، وكانت هذه السلع تباع في سوق بني قينقاع التي كانت تعد أكبر سوق في المدينة قبل الإسلام، كما كانت تباع في بعض الأسواق الصغيرة المقامة في بعض آطامهم، ذلك أن اليهود من بني قريظة وبني النضير كانوا يتحصنون في حصون متباعدة عن بعضها البعض في الفترة السابقة لانتشار الإسلام بالمنطقة، وقد ساعد هذا النشاط التجاري على استمرار الحياة بالمدينة.

أما في الفترة التي تلت هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، فقد استمرت التجارة كعامل اقتصادي نشيط، وقد ازداد هذا النشاط أهمية بعد قدوم المهاجرين إليها من مكة، حيث كان بعضهم يمارس النشاط نفسه في مكة، وكانوا حاذقين فيه، كما ساهموا في بعض القوافل التجارية المتوجهة إلى بلاد الشام. ورغم ما خلفه انسحاب قبائل بني قينـــقاع من الساحة التجارية أول الأمر من تراجع في النشاط التجاري، إلا أن مهارات بعض المهاجرين وخبرتهم العالية في هذا المجال، جعلتهم يتداركون الموقف في أقصر وقت ممكن، ويتمكنون من سد العجز المترتب عن هجرة يهود بني قينقاع، إذ سرعان ما أخذ المهاجرون يسيطرون على التجارة، وخاصة بعد أن أبدى الرسول صلى الله عليه وسلم رغبته في أن يجعل للمسلمين سوقا خاصة بهم، بعيدا عن مواقع الأسواق التي كان يسيطر عليها اليهود، وكانت بذلك أول فكرة عرفتها المدينة الإسلامية في تحديد موقع السوق داخل المدينة، فقد اختار الرسول صلى الله عليه وسلم منطقة بقيع الزبير المحاذية لمسجده لتكون مكانا يقام فيه سوق المدينة المنورة، وعندما اعترض عليه كعب بن الأشرف غير موقع هذه السوق إلى المنطقة المعروفة اليوم باسم المناخة([1]). وقد زاد من هذا الترغيب في اتخاذ مكان جديد للسوق إعفاء البائعين فيه من الخراج، وعدم ملكية مواضعه لأحد أو احتكارها، إذ لم يسمح الرسول صلى الله عليه وسلم لأي كان ببناء محل له، أو أن ينصب خيمة دائمة، بل إن الحيازة على موضع في السوق، في السياسة التجارية النبوية لمن سبق إليه، مما يخلق نوعا من التداول على الموضع الواحد ولا يجوز أن يحتكره أحد مما يجعل فرصة النشاط التجاري متاحة للجميع دون استثناء. مما شجع المسلمين من المهاجرين والأنصار على الإقبال عليه، ولم تقتصر السوق على التجار فقط دون

---

[1] _ صالح الهذلول، التحكم في استعمالات الأراضي في المدينة العربية، ندوة أنقرة، تركيا حول الإسكان في المدينة الإسلامية،(من 16 إلى 25 يوليو 1984)، إعداد مركز الدراسات التخطيطية والمعمارية، القاهرة، الطبعة الأولى، 1986، ص 285

سواهم، بل أصبح كل فرد مسلم من المدينة بإمكانه أن يبيع ما بحوزته من السلع ويشتري بدون قيود.

وقد استمرت سوق المدينة على الطريقة التي أسسها عليها الرسول صلى الله عليه وسلم خالية من البناء، ومعفية من الضرائب، وأماكنها غير مملوكة لأحد، حتى عهد الأمير معاوية بن سفيان الذي سمح للتجار بإنشاء المحلات بها، وقد مثلت سوق المدينة النموذج الأول للسوق في الإسلام، من حيث الموقع والتنظيم، ذلك أن هذا النموذج أصبح متبعا في المدن الإسلامية التي أسست بعد المدينة مثل البصرة، والكوفة، والفسطاط، وغيرها من المدن الإسلامية([1]).

ومن أشهر الأسواق بالمدينة المنورة تلك الأسواق التي ذكرها ابن الضياء:"قال أبوغسان: وكان بالمدينة في الجاهلية سوق بزبالة من الناحية التي تدعى يثرب وسوق بالجسر في بني قينقـــاع، وبالصفاصف بالعصبة سوق، وسوق يقـــوم في موضع زقاق ابن حبين كانت تقوم في الجاهلية وأول الإسلام، وكان يقال ذلك الموضع مزاحـــم".([2])

وقد كان سوق بني قينقاع أكبر الأسواق في الجاهلية ، أما أكبر الأسواق وأشهرها في الأيام الأولى لهجرة الرسول صلى الله عليه وسلم، سوق بالمنطقة المسماة المناخة غربي المسجد النبوي. وقد كان اختيار الرسول صلى الله عليه وسلم لهذا المكان بعيدا عن دور المهاجرين والأنصار عن قصد، واستشرافا للمستقبل، ذلك أن وجود السوق في فضاء واسع يجعل دخول القوافل التجارية إليه من جميع المسالك سهلا، ويمكن أن يستوعب مع مرور الزمن العدد المتزايد من التجار الذين يقصدونه مع إبلهم فيجعل الحركة فيه سهلة، كما أن اختيار السوق بعيدا عن الدور السكنية يحفظها من ضوضاء السوق، ومن الروائح الكريهة المنبعثة من بعض النشاطات التجارية، كل ذلك يشجع الإقبال على النشاط التجاري بكل حرية ودون قيود.

كانت تباع في هذا السوق مختلف السلع المجلوبة من مختلف البلاد آنذاك، فكان أهل الشام يأتون بالزيت، والشعير، والتين، والقماش، والدقيق، والسمن، والعسل لبيعها في هذه السوق، أما تجار مكة فيصدرون إليها ما وصلهم من

---

[1] _ صالح الهذلول، المرجع السابق، ص 285

[2] _ ابن الضياء، المصدر السابق، ص184

بضائع بلاد الشرق الأقصى كالطيوب بمختلف أنواعها، والعمائم، والأدوات المنزلية، وكان هؤلاء التجار يشترون من هذه السوق التمور، وكانت بعض القبائل المقيمة بأرياف المدينة كبني سليم يجلبون إليها المواشي مثل الإبل، والغنم، والخيل، كما كان للصناعات المحلية حضور فيها، فقد كان أهل المدينة يبيعون فيها بعض السلع المنزلية كالأقمشة، والصناعات الصوفية، وبعض مشتقات الحليب. كل هذا ساعد على نمو النشاط التجاري بها، وأدى إلى رفع المكانة الاقتصادية للمدينة بين سائر مدن شبه الجزيرة العربية.

ولعل من الأمور التي لا يجب أن نغفلها والتي ساهمت بقسط كبير في تنشيط التجارة بالمدينة حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على نوعية المنتجات، والصدق في التعامل، والابتعاد عن كل النشاطات التي بها شبهة، والتي من شأنها إلحاق الضرر بالسوق وبالتجار، ذلك أنه في زيارته ذات يوم إلى هذه السوق متفقدا لنوعية السلع بها فإذا به يعثر على بعض التصرفات التي لا تليق بالتاجر، فقد جاء فيما يرويه عنه أبو هريرة انه صلى الله عليه وسلم مر على صرة طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللا، فقال ما هذا يا صاحب الطعام قال: أصابته السماء يا رسول الله، قال: أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس، من غشنا فليس منا.([1])

يستخلص من هذا الحديث مدى الأهمية التي أولاها الرسول صلى الله عليه وسلم للسوق كونها الشريان الحيوي الذي يقوم عليه اقتصاد المدينة، ومدى حرصه على توفير كل شروط الأمن، وسنه لقوانين تنظيمية، الغاية منها الحفاظ على نشاط هذه السوق لما لها من فائدة كبيرة تعود على المسلمين خصوصا وعلى سكان المدينة عموما.

6 _ عمران المدينة :

لقد تميز عمران يثرب في الجاهلية بكونه عبارة عن مجموعات سكنية صغيرة موزعة على مساحة أرضية واسعة، بحسب القبائل التي استقرت بها، وأن هذه التجمعات السكنية كانت متفرقة، ومتباعدة فيما بينها قدرت بعض المصادر

---

[1] – صحيح مسلم، باب من غشنا فليس منا

التاريخية عدد أفرادها بثلاثة آلاف نسمة ([1]). ولم تكن على شاكلة مكة لأنها لم تؤسس في موضع مشابه لموضع مكة، ذلك أن يثرب أسست في أرض منبسطة تتخللها بعض الحرار وبعض التلال الصغيرة التي اتخذها اليهود مواقع أنشئوا عليها آطامهم، كما اتخذت بعض القبائل العربية من المواقع المتطرفة أماكن استقرت فيها، وكانت تفصل بين هذه القبائل بعض البساتين، والحرار، أو أراض منبسطة، وهكذا كانت يثرب على آخر عهدها بالجاهلية عبارة عن مجموعة قرى صغيرة متقاربة، وإذا جمعناها أصبحت تشكل لنا قرية كبيرة، ولم تكن بها معالم دينية بارزة من شأنها أن تجعل من يثرب مدينة تستقطب القبائل العربية، أضف إلى هذا عامل الحروب المدمرة التي كانت تدور رحاها بين الفينة والأخرى بين قبيلتي الأوس والخزرج، علاوة على انطواء القبائل اليهودية حول نفسها، فكانت هذه الأسباب مجتمعة من العوامل التي جعلت يثرب لم تبرز على الساحة العربية كمدينة كبيرة ترقى إلى مستوى بعض مدن شبه الجزيرة العربية كحضرموت، ومكة، وصنعاء، ولولا أنها كانت واقعة على طريق التجارة بين شمال بلاد شبه الجزيرة العربية وجنوبها لما كان لها شأن في التاريخ.

بقيت يثرب على حالها إلى أن بدأت هجرة المسلمين إليها من مكة. وقد ترتب عن هذا الأمر ازدياد في عدد سكانها، مع ازدياد توافد المهاجرين عليها، فقد استطاعت أن تستوعب الأعداد الأولى من المهاجرين حيث استقبلهم الأنصار من أهل المدينة وتقاسموا معهم ديارهم وقوتهم، ذلك أن عدد الوافدين إليها خلال الشهرين الأولين من بداية الهجرة لم يتعد خمسين أسرة.

وإذا كان عدد المهاجرين في الأيام الأولى لوصول الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة يبدو بسيطا، فإنه سرعان ما تضاعف هذا العدد بسرعة مع ازدياد إقبال الناس على الإسلام، وإلى الهجرة إلى المدينة خوفا من بطش قريش بهم في مكة، وعملا بالتوجيهات الربانية التي جاءت بها الآيات القرآنية التي نزلت تبرئ الرسول صلى الله عليه وسلم من مسؤولية ما قد يلحق من ضرر الداخلين الجدد في الإسلام إن هم فضلوا البقاء في مكة، وذلك مصداقا لقوله تعالى: "والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شي حتى يهاجروا." ([2])

[1] _ عبد الباسط بدر، المرجع السابق، ص 239

[2] _ الآية 72 من سورة الأنفال.

فلم تكد تنقضي السنة الثامنة للهجرة، وهي السنة التي فتحت فيها مكة حتى تضاعفت أعداد المسلمين بالمدينة المنورة ذلك أن هذه الهجرة لم تقتصر فقط على مسلمي مكة، وإنما امتدت لتشمل بعض القبائل البدوية التي أسلمت كاملة مع إسلام زعميها كما حدث ذلك عدة مرات، أوأسلم بعض أفرادها زيادة على هجرة المقيمين من المسلمين في ضواحي المدينة، وكان الدافع إلى الهجرة من هذه المناطق إلى المدينة هو رغبة هؤلاء الأقوام في الاقتراب من الرسول صلى الله عليه وسلم ومشاركته في حياته اليومية، قصد تعلم مبادئ الدين الإسلامي خاصة وأن أغلبهم حديثي العهد بيه، وكذا الجهاد معه في سبيل إعلاء كلمة الله، والأكثر من هذا رغبتهم في العيش في بيئة إسلامية يسطيعون فيها ممارسة عبادتهم بكل حرية في ضل الأمن الذي يكفله لهم الرسول صلى الله عليه وسلم، وبعيدا عن كل المشاكل التي قد تلحقهم من المجتمعات الكافرة.

لقد أدى هذا التزايد في عدد المسلمين المستقرين بالمدينة من المهاجرين والأنصار إلى بناء مجتمع إسلامي خالص ازدادت عدد دورهم بازدياد عددهم.

والحقيقة أن عمران المدينة المنورة شهد بداية توسعه وتميزه عن عمران يثرب القديمة منذ أن وصل إليها الرسول صلى الله عليه وسلم، وأسس بها مسجده ليكون اللبنة الأولى لعمران إسلامي سيكون له صدى كبيرا في إنشاء المدن الإسلامية فيما بعد، ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم بأقدامه على تأسيس مسجده، إنما أراد أن يميز المسلمين عن غيرهم من سكان المدينة من اليهود، ومن لم يدخل بعد في الإسلام من العرب، وإحداث القطيعة بين المرحلة السابقة للإسلام، والتأسيس لمرحلة جديدة تختلف تماما عن سابقتها من الناحية السياسية، والاقتصادية، والعمرانية، وذلك بمباشرة بنائه هذه المؤسسة التي ستصبح معلما رئيسيا، وعنصرا معماريا محوريا في المدينة الإسلامية، لما لها من أهمية دينيه، واجتماعية، واقتصادية، ولما لها من دور كبير في توجيه المجتمع المسلم ومن خلاله العمران الإسلامي ككل .

وهكذا فقد كان أول بناء وضع الرسول صلى الله عليه وسلم أساساته في المدينة هو المسجد، ثم فسح المجال بعد ذلك لبناء البيوت مما جعل عمران المدينة يتطور تطورا سريعا ليستجيب وحاجة الأعداد الهائلة من البشر التي وفدت إلى المدينة ، وقد ساعد على هذا التطور طبيعة عمران يثرب القديم الذي كانت دوره متناثرة في هيئة كتل بنائية صغيرة متباعدة عن بعضها البعض، تفصل بينها

البساتين، أو الحرات، أو أراضي فضاء، كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، فاستعمل الرسول صلى الله عليه وسلم هذه المساحات الشاغرة والمحيطة في الوقت نفسه بالمسجد أو تلك المتناثرة في جميع نواحي المدينة بين المباني القديمة ليخط عليها بعض القطائع للمهاجرين ليبنوا عليها مساكن لهم.

وقد وهب له الأنصار بعض الخطط العامرة، فكان يقطع منها للمهاجرين كلما زاد عددهم ([1]). وقد كان الأوائل من المهاجرين قد اختط لهم الرسول صلى الله عليه وسلم قطعا كبيرة، وعند ما زاد العدد وأصبحت المساحة الأرضية قليلة اقتطع لمن تخلف من المهاجرين خططا صغيرة ، وكان من هؤلاء المهاجرين خالد بن الوليد الذي اختط له الرسول صلى الله عليه وسلم قطعة مما بقي من الأراضي، وعند بنائها أدرك هذا الأخير أنها صغيرة، فشكا أمره إلى الرسول صلى الله عليه وسلم قصد إقطاعه مساحة أوسع، غير أن الرسول صلى الله عليه وسلم وجهه إلى التوسع عموديا، أي بناء ما يكفيه من الطوابق([2]) .

لم تكد تمضي عدة سنوات عن هجرة النبي عليه الصلاة والسلام إلى المدينة حتى أصبحت الأراضي المحيطة بالمسجد النبوي مكتظة بالمساكن مشكلة بذلك كتلا بنائية متلاصقة تتفاوت فيها الارتفاعات ، ولم تمض السنة الثامنة للهجرة ــ وللعلم فإنها السنة التي تم فيها فتح مكة ومنع المسلمون بعدها من الهجرة ــ حتى امتدت مساكن المدينة أفقيا لتبلغ منطقة بني ساعدة شمالا ، واقتربت جنوبا من العوالي ومنطقة قباء، وشغلت كل المساحات الأرضية الفاصلة بين المسجد والسوق التي أنشأها الرسول صلى الله عليه وسلم غربا، كما زحفت هذه الدور شرقا لتتصل بناحية بقيع الغرقد، وكان المسجد يتوسط كل هذه المباني وكأنه يمثل قلب المدينة، وشريانها الحيوي، بحيث كان يمثل مركز تسيير المدينة في جميع جوانب حياتها اليومية، وقد نجم هذا الازدحام في بناء المساكن في هذه المنطقة عن رغبة المسلمين وتسابقهم إلى الإقامة قرب المسجد لملازمة الرسول صلى الله عليه وسلم، وليكونون رهن إشارته. وقد حاول بعض المسلمين التحجج بمختلف الأمور قصد كسب رضاء الرسول صلى الله عليه وسلم،

---

[1] – حول مواقع خطط القبائل. أنظر ابن شبة، المصدر السابق، ص 160 وما بعدها.
وانظر أيضا البلخي، المصدر السابق، ص 70

[2] – عبد الباسط بدر، المرجع السابق، ص 2249

والسماح لهم بالتخلي عن مواقعهم البعيدة، وبناء مساكن جديدة لهم بالقرب من المسجد، وهو الأمر الذي لم يلق ترحيبا من الرسول صلى الله عليه وسلم حيث نصحهم بالبقاء في مساكنهم.

ورغم هجرة يهود بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة من المدينة([1]) إلا أن هذا الأمر لم يؤثر على نسبة تزايد عدد المسلمين بالمدينة، ورغم أن بعض دورهم سكنها المسلمون والبعض الآخر بقي مهجورا، ربما لكونها كانت متطرفة، إلا أن هذا لم يحل مشكلة ازدياد عدد الدور، فقد جعل تزايد عدد السكان المدينة تنمو أفقيا بحيث امتد مجالها العمراني على مناطق شاسعة أصبحت معها دور بعض القبائل العربية بعيدة عن المسجد، مما حدا بها إلى استئذان الرسول صلى الله عليه وسلم في إنشاء مساجد صغيرة لها، وهو الأمر الذي استحسنه الرسول صلى الله عليه وسلم، وساهم بنفسه في بناء هذه المساجد، فخط بعضها لهم بيده وصلى فيها، وما أن حلت السنة العاشرة للهجرة حتى بلغ عدد هذه المساجد بالمدينة المنورة حسب المصادر التاريخية تسعة مساجد صغيرة تصلى فيها كل قبيلة أو بطن من بطونها الصلوات الخمس، ويتجمع فيها أفرادها للنظر في مختلف القضايا والمستجدات التي تطرأ من حين لآخر .

والجدير بالذكر أن أول مسجد خطه الرسول صلى الله عليه وسلم، هو مسجد قباء الذي خطه لقبيلة بني عمرو بن عوف قبل أن يبني مسجده بالمدينة ، ثم خط بعد ذلك مسجد بني جهينة، ثم مسجد بني سلمة، وواصل الرسول صلى الله عليه وسلم عملية تخطيط المساجد لكل من بني بياضة ،وبني الحبلى، وبني عطية، وبني دينار، وبني حارثة، وبني ساعدة، وبني عبد الأشهل. ([2])

هكذا يبدو أن عمران المدينة قد تطور من مجرد كتل بنائية صغيرة متناثرة على منطقة يثرب قبل الهجرة مشكلة قرى صغيرة إلى عمران متقارب غطى مساحات أرضية شاسعة([3])، وكانت هذه البيوت في بداية الأمر قد بنيت حول نواة مركزية هي المسجد النبوي الشريف الذي أصبح يشكل مركز المدينة، ثم أنشئت بمرور الزمن في خطط بعض القبائل المهاجرة مساجد لتؤدي فيها

---

[1] – البلخي، المصدر السابق، ص 20

[2] – ابن شبة، المصدر السابق، ص 103 – 159 وما بعدها.

[3] – اليعقوبي، كتاب البلدان البلدان، ص 77

الصلوات الخمس بعد أن توسعت المدينة وأصبحت خططها بعيدة عن مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم، ويعكس هذا الأمر مدى اتساع رقعة المدينة التي أصبح عمرانها يمتد من قباء جنوبا إلى جبل أحد شمالا على مسافة خمسة أميال، ومن حرة الوبرة غربا إلى حرة واقم شرقا، ويبقى وسط هذا العمران المسجد النبوي الذي كان يمثل مركز القيادة حيث تجتمع فيه جل القبائل عدة مرات في اليوم، ورغم أن بعضها كانت تصلى في مساجدها التي أنشأتها بخططها نظرا لبعدها عن المسجد النبوي الشريف إلا أن صلاة الجمعة التي كانت تقام بمسجد الرسول صلى الله عليه وسلم كانت تجمع كل سكان المدينة المنورة لتلقي الدروس، والمواعظ، والإرشاد، من قائدهم الأول، فمنه كانت تسير شؤون المدينة وفيه كانت تؤخذ القرارات الهامة، وفيه كانت تقضى أمور المسلمين. واستمر المسجد يؤدي هذا الدور الريادي في جميع المدن الإسلامية التي أنشئت فيما بعد، إقتداء بمسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان المسجد في المدينة الإسلامية يمثل دائما نقطة البداية في تخطيطها حيثما عزم المسلمون على إنشاء مدينة لهم.

وإذا كانت مكة أسست في العصر الجاهلي وأن عمرانها أنشئ تدريجيا حول الكعبة المشرفة منذ زمن سيدنا إبراهيم عليه السلام، واستمر هذا العمران ينمو ويتطور حول هذا المعلم الديني الكبير إلى السنة الثامنة للهجرة التي بدأت فيها تعرف استقرار المسلمين بها، فإن مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت قبل هجرته إليها لا ترقى إلى مستوى مدينة مكة من حيث العمران والسكان والاقتصاد، ولم تعرف المدينة المنورة هذا التطور العمراني إلا مع هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم الذي أرسى قواعد عمرانها على الطريقة الإسلامية، حيث شهدت مع مقدمه نقلة عظمى في جميع جوانب العمران فانتقلت من مجرد قرية صغيرة إلى مدينة كبيرة تضاعف فيها عدد المساكن، كما أزداد فيها عدد الناس مع مرور الزمن. وقد قدر أحد الدارسين هذا العدد بحولي ألفين وخمسمائة مسكن مع حلول السنة العاشرة للهجرة. ([1])

وفوق كل هذا وذاك، فإن المدينة المنورة كانت تمثل النموذج الإسلامي الأول في تخطيط المدن، من اختيار مواقع الخطط والأسواق.

والجدير بالذكر أنه رغم التوسع الذي عرفته المدينة المنورة، إلا أن

[1] – عبد الباسط بدر، المرجع السابق، ص 251

سوقها ظل خارج منطقة السكن، فقد تحدثت المصادر عن سوق المناخة الذي أبقاه الرسول صلى الله عليه وسلم بعيداً عن مدينته في جهتها الغربية، كما تحدثت هذه المصادر أيضا عن عملية تنظيم الأسواق، فأصبحت كل سوق من الأسواق مع ازدياد عددها متخصصة في تجارة معينة، منها سوق الماشية، وسوق الخيل كما يفهم من الاسم الذي نعتته به المصادر التاريخية ألا وهو سوق بقيع الخيل([1])، وهذا إن دل على شيء فإنما يعكس مدى التنظيم الذي عرفته المدينة الإسلامية الأولى على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، بدءاً باختيار موضع المسجد الذي يتوسط المدينة المنورة، ومروراً بتنظيم خطط القبائل التي تجعل من استقرار كل قبيلة في خطة خاصة بها تمتد بينها الدروب والشوارع،وانتهاء بحواف المدينة التي كانت مواقع مخصصة للأسواق والنشاطات التجارية على اختلاف مجالاتها، والتي تسهل مواقعها سهولة وصول التجار إليها محملين بسلعهم ومغادرتها بسهولة كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

7 – تحصين المدينة:

لقد أشارت بعض المصادر العربية إلى أن المدينة المنورة كان يحيط بها سور من جميع جهاتها، ثم دعم الجزء الغربي من المدينة بخندق حفره الرسول صلى الله عليه وسلم مع صحابته، وذلك عملا بنصيحة سلمان الفارسي الذي يعود إليه الفضل في نقل هذا الأسلوب الدفاعي إلى المدينة المنورة وتنفيذه بها في غزوة الأحزاب.

فقد ذكر المقدسي في القرن الرابع الهجري أن المدينة كان بها سور حيث جاء كلامه عنها: "والمدينة هائلة الأبواب وبها أربعة أبواب، باب البقيع، وباب الثنية، وباب جهينة، وباب الخندق، والخندق من نحو مكة عامرة الحصن مشرفة".([2])

وقد وصف ابن جبير في رحلته هذا السور قائلا: " وللمدينة المكرمة أربعة أبواب، وهي تحت سورين، في كل سور باب يقابله آخر، الواحد منها كله حديد ويعرف باسمه، ويليه باب الشريعة، ثم باب القبلة، وهو مغلق، ثم باب البقيع، وقد

---

[1]– محمد السيد الوكيل، المدينة المنورة معالم وحضارة، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، 1996، ص 73

[2] – المقدسي، أحسن التقاسيم ، ص 82

تقدم ذكره. وقبل وصولك سور المدينة من جهة الغرب بمقدار غلوة تلقى الخندق الشهير ذكره الذي صنع النبي صلى الله عليه وسلم عند تحزب الأحزاب".([1])

يبدو مما سبق أنه من المؤكد أن المدينة كانت مسورة، كما يظهر من خلال نص ابن جبير أن المدينة كان يحيط بها سوران وهو ما عبر عنه بما يلي: " وهي تحت سورين، في كل سور باب يقابله آخر."([2]) ولم يشر صاحب هذا النص إذا كان السوران أنشئا في مرحلة واحدة أو أن أحدهما أضيف إلى المدينة بعد أن توسع عمرانها، وهو ما نميل إليه.

وإذا كان المقدسي قد أشار صراحة في نصه إلى تزويد المدينة بخندق في جهتها الغربية، فإنه يفهم من كلام ابن جبير الذي سمى فيه أحد أبواب المدينة بباب الخندق عن وجود هذه الوسيلة الدفاعية بالمدينة.

وإذا كان كلا من المقدسي وابن جبير قد اتفقا في ذكر السور والخندق، وفي ذكر أبواب المدينة، فإنهما اختلفا في أسماء هذه الأبواب، ولم يتفقا إلا في اسم باب واحد هو باب البقيع، في حين وردت عندهما أسماء مختلفة للأبواب الثلاثة الأخرى. ورغم هذا الاختلاف، فإن النتيجة التي يمكن أن نخرج بها من هذين النصين أن المدينة المنورة كانت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم محصنة بسور نظرا لوقوعها في أرض منبسطة، ولافتقارها لتحصينات طبيعية، وكذلك للظروف السياسية التي عرفتها المدينة على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم من مكر وخداع اليهود ومن تحرش القبائل العربية بها، مما اقتضى تحصينها حتى يتمكن المسلمون من دفع الأذى عن أنفسهم وعن مدينتهم.

وفي ختام هذا العرض وبناء على ما جاء فيه نخلص إلى القول أنه رغم تضارب المعلومات التي وردت في المصادر الجغرافية والتاريخية العربية حول موضوع العمران العربي، ورغم ما سجلناه من عدم الدقة في روايات بعضها، إلا أنها حاولت أن تنقل إلينا الحقيقة كما كانت قدر المستطاع، مبرزة أن العرب أصحاب حضارة على خلاف المستشرقين الذين اتفقوا على أن حضارة العرب بدوية بدائية، وتباروا في تحقيرها، والحط من المستوى الذي بلغته، والإنقاص من

---

[1] – ابن جبير، المصدر السابق، ص 156 – 157

[2] – المصدر نفسه، ص 156

قيمتها، وعملوا على طمس معالمها والإقلال من أثرها ونفي أي تأثير لها.

والحقيقة غير ذلك تماما، فالعرب في العصور القديمة غير ذلك تماما، فمن خلال ما أمكننا الإطلاع عليه من الكتب والدراسات، فقد تبين أنهم كانوا أصحاب حضارات متطورة، ارتبطت في نموها وازدهارها ببيئتهم الصحراوية وشبه الصحراوية ذلك أنهم أنشئوا في المناطق ذات المناخ الممطر حضارات قامت على الزراعة والاستقرار فكان ذلك حال اليمن وعمان في الجنوب، ودولتي الغساسنة والمناذرة في الشمال، وكثير من المناطق "الواحات" التي توفرت فيها شروط الحياة والاستقرار، من ماء وأراض صالحة للزراعة، وموقع استراتيجي من حيث التجارة والدفاع، بل أن هناك مدنا نمت وتطورت معتمدة على عوامل ساهم في توفيرها وتطويرها الإنسان، فمكة مثلا أنشئت في واد غير ذي زرع في مكان صخري تندر فيه مصادر المياه، إلا أن سكانها الأوائل الذين اعتمدوا حياة البداوة كأسلوب للعيش وطريقة لكسب الرزق، تمكنوا مع مرور الزمن ــ بفضل ما حباهم به الله من وضع بيته بين ظهرانهم ــ من تأسيس مدينة، اعتمدت في اقتصادها على الحج والتجارة، فأصبحت إحدى أهم مدن شبه الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام.

لقد أنشأ العرب مئات المدن في شبه جزيرتهم، تراوحت أحجامها ما بين مدن كبيرة، ومتوسطة، وصغيرة، وما مدن نجد، وحضرموت، وعمان، ومكة، ويثرب، إلا شواهد على هذا الصرح العمراني الكبير.

لقد اعتمدنا على الكتب التراثية القديمة لتحري الحقيقة، وحاولنا الاستفادة من بعض الدراسات الغربية الحديثة فكانت من النتائج التي توصلنا إليها أن العرب تمكنوا من وضع شبكة من المدن والقرى في المناطق التي توفرت فيها شروط الاستقرار أو بعضا منها، بل أن حذقهم العمراني مكنهم في الكثير من الأحيان من تدجين الظروف الطبيعية والمناخية الصعبة، وما مكة المكرمة إلا نموذجا حيا من النماذج العمرانية التي تشهد على قدرة العرب الكبيرة في تطويع هذه الظروف.

أنشئت غالبية المدن العربية على السواحل، أو على تخوم الشام والعراق، أوفي مناطق قريبة من الجبال التي عادة ما توفر للمدن والتجمعات البشرية ما تحتاجه من مياه وما يترتب عنها من عوامل الاستقرار.

أما المناطق الداخلية فكانت أرض بداوة، ذلك أن مناخها لا يمكن الاستقرار والزراعة فيه، ومع هذا كله فقد تمكن العرب من إنشاء نسيج عمراني عرف بمدن المراحل التي ارتبط وجودها بنشاط الحج والتجارة، فظهرت العشرات من المدن الصغيرة نمت وتطورت بفضل عوامل الخدمات وتجارة القوافل وبعض الحرف التي لها علاقة مباشرة بهذه العوامل، علما أن غالبيتها جاءت على حواف المسالك الطبيعية الكبيرة التي ربطت مكة بمناطق العالم المختلفة.

أما في العهد الإسلامي، فقد استفادت يثرب من وظيفتها الجديدة كعاصمة للدولة الإسلامية الناشئة التي سرعان ما سيطرت على غالبية العالم القديم.

استفادت هذه المدينة المقدسة من الدور الجديد الذي حباها بها الإسلام، فأصبحت عاصمة للدولة الإسلامية، ومقصدا للتجار، ومحجا للعام والخاص.

تطورت المدينة المنورة مستفيدة في ذلك من ظروفها الجغرافية الحسنة، ومن الديناميكية الاجتماعية والاقتصادية التي برزت مع الدين الجديد، فنمت أيما نمو وتطورت، فتوحد مخططها وتركز عمرانها، وأصبحت مثالا يقتدى به في التعمير الإسلامي، ومصدرا يرجع إليه، فتأثرت بعمرانها الفريد مدن الهجرة والمدن الإسلامية التي جاءت بعدها.

أما مكة فقد زاد الإسلام من تنظيم مخططها وقوى اقتصادها بعد أن دان بالإسلام العالم القديم ودخلت إلى الدين الجديد الأمم والشعوب فأصبحت بفعل المكانة الدينية لها في نفوس المسلمين تشد إليها الرحال في كل حين من يوم أن فتحها الرسول صلى الله عليه وسلم إلى يومنا ، فكان هذا عاملا مساعدا على نموها وتطور عمرانها وازدهار اقتصادها بفعل الأعداد الهائلة من الحجاج والزوار الذين تستقبلهم في كل وقت.

لقد نشطت تجارتها وكثر عدد حجاجها في ظل الدين الجديد، فتوسعت من ناحية العمران وازدهرت عمارتها وتطور اقتصادها وأضحت هي والمدينة المنورة أهم مدينتين في شبه الجزيرة العربية، وكانت النموذج التخطيطي والمثال الحضاري الذي سيعتمد في عمران الدول الإسلامية فيما بعد، بل أن عمرانها في عهد الإسلام أثر حتى على عمران وعمارة الدول المجاورة لأرض الخلافة.

الفصل الثالث

بداية نشوء العمران الإسلامي في المشرق

- تمهيد

أولا : البصرة

ثانيا : الكوفة

ثالثا : الفسطاط

تمهـــيد:

نجد في المكتبات الغربية عددا غير قليل من الدراسات الأكاديمية حول المدينة الإسلامية والعمران الإسلامي، هذه الإسهامات رغم نواقصها تستحق الثناء، ولكن الباحث الذي يوظف هذه الدراسات ينبغي عليه أن لا يسلم بها بصفة تلقائية، ويستعين بها دون دراسة وتمحيص، وذلك أن أغلبها لا يسلم من توجيه النقد نظرا لتحيزها وابتعادها عن الموضوعية في الطرح.

لقد اهتم الأوربيون خاصة وبعض الأمريكيين بالمدن الإسلامية فأنجزوا حولها عددا من البحوث تناولوا فيها الجوانب التاريخية والحضارية والعمرانية مبرزين أهميتها ومكانتها في حركة التمدن، ونمو الحضارة الإسلامية وتطورها.

عمد عدد لا بأس به من المستشرقين الأوائل إلى الاهتمام بتاريخ هذه المدن وتتجلى صحة هذا الأمر من خلال إلقاء نظرة سريعة على ما ألفوه من كتب ودراسات حول التمدن الإسلامي خلال الحقبة الأولى من القرن العشرين والفترة التي تلتها، حيث يتبين جليا للباحث أن أكثرية هذه الدراسات كانت ذات طابع تراثي وتاريخي، ولكن ما هي الدوافع الرئيسة التي أدت بهذه الثلة من المؤرخين الغربيين إلى توجيه دراستهم نحو المدن الإسلامية.

إن تركيز جهود هؤلاء المؤرخين حول دراسة المدن العربية الإسلامية إنما يدخل في إطار إستراتيجية تخدم سياسة بلدانهم وأهدافها الاستيطانية والاستعمارية، ورغم أننا نستشف من خلال دراستهم ولوعا بالحضارة الإسلامية، وحبا للاستطلاع، فإن المتعمق في الأمر يرى أن هذه الدراسات على اختلاف اتجاهات مؤلفيها، تستخدم نظرة أحادية غربية تعتقد فيها أن المثال الذي لابد أن تقتدي به حركة التمدن في العالم كله هو المثال الغربي اليوناني الروماني، وأن ما دون ذلك من المدن إنما هي مدن ذات تخطيط ناقص .

والجدير بالذكر أن حقل الدراسات المقارنة بين التمدن الإسلامي وغيره من المدنيات العالمية مازال في وقتنا الحاضر مجالا دراسيا حديثا، فهو مازال فتيا لم يبلغ بعد من العمر مرحلة النضج والبلوغ، كما أنه معقد وصعب قد يحتاج فيه الباحث إلى خبرة علمية طويلة وخلفيات تاريخية وثقافة واسعة ليتمكن من إجراء

المقارنات اللازمة بين عينات من المدن المختلفة من الناحية الوصفية والتركيبية والعمرانية في مناطق مختلفة جغرافيا من ناحية التضاريس والمناخات.

لقد ساهمت المدرسة الغربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية في إثراء هذا المجال بالعديد من الأبحاث المتميزة، فالدارس لهذه الأبحاث يقف على تنوعها واختلاف توجهاتها ونظرياتها في مجال الدراسات العمرانية الإسلامية، لكنه يتمكن عند التعمق من تحديد اتجاهين هامين في هذه الدراسات :

1- يعطي الاتجاه الأول أهمية كبرى للجوانب الوصفية للمدن وظروفها الخارجية لعقد المقارنة بين الأمثلة المختلفة ويركز في تحليله على التنظيمات الاجتماعية التي كانت تنظم هذه المدن مع تجاهل تتبع الامتدادات التاريخية لعينات المدن المدروسة .

2- أما الاتجاه الثاني فهو الاتجاه البنيوي الذي اهتم كثيرا بالنظر لمجمل العوامل المحيطة بالمدينة وبيئتها مع التركيز على العوامل الاقتصادية والثقافية والاجتماعية، وقد ربط ممثلو هذا الاتجاه ماضي المدينة بحاضرها دارسين التوترات والاضطرابات وعلاقتها بالنمو الاقتصادي والاجتماعي لتلك المدن. فالباحث الكبير روبير آدمس([1]) عند تناوله مدن المنطقة العربية بالدراسة اهتم بنموذجين متباعدين جغرافيا، مختلفين حضاريا، متباينين في الزمن هما نموذج وادي أمريكا بالمكسيك في المرحلة ما قبل الغزو الأسباني ونموذج وادي الرافدين خلال مرحلة ما قبل التاريخ، وبذلك عمد إلى مقارنة عينية تمدنية عربية قديمة، ترجع إلى فترة ما قبل الإسلام، بعينة تمدنية حديثة، وحاول الوصول من خلال هذه الدراسة إلى عناصر التوافق والتشابه إن وجدت وعناصر الاختلاف، وقد وصل إلى نتائج منطلقا من بعض الفرضيات كون المجتمعين المدروسين متكونين من مزارعين وربط عملية الاستقرار والاعتماد على الزراعة بنمو هذه المدن. وقد ظهرت مجموعة من الدراسات اتخذت مناهج مختلفة لدراسة المدن القديمة كدراسة فوستيل دي كولنج ([2]) التي اعتمدت الجانب الديني لتفسير التمدن، وقد اعتمد

---

[1]- Robert Mec Adams, the evolution of urban society, early Mesopotamia and Prehipanie, Chicago;1960, p. 1- 12.

[2]- Fustal de Coulanges, the ancient city, a study of the religion laws institutions of Greece and Rome, New York, p. 127 – 131 – 134.

أرنولد توينبي ([1]) على الجانب نفسه، والحقيقة أن غالبية المدن تظهر عند توفر جملة من العوامل التي تساعد على ذلك، فليس هناك مدينة تجارية، ولا وجود لمدينة سياسية إدارية فقط، ولا عسكرية فقط، رغم أن العديد من الدراسات المقارنة تبرز أحد هذه العوامل كأساس لنشوء المدن وتطورها .

ويظهر أن موضوع المعايير المحددة لنشوء المدن بدأت تصل إلى مرحلة النضوج في الآونة الأخيرة حين اعتمد الكثير من علماء العمران على عدد من الخصائص والسمات لوضع المعايير الأساسية التي تحدد وضعية مكان ما من الناحية التمدنية ويمكن تلخيص أهم هذه المعايير في ما يلي: توفر الأمن، قيام السلطة السياسية، والاستقرار في مكان معين تتوفر فيه شروط التحصين الطبيعية أو إنشائها إن لم يتوفر عليها المكان، ووجود ديان أو قاضي أو سلطة مركزية تطبق القانون وترعى المصلحة العامة.

أما المصادر العربية فقد عمدت إلى تحديد معايير خاصة للمواضع التي تصلح كمدن، فالمقدسي في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) يذكر أن المصر في رأي الفقهاء، هو كل بلد جامع تقام فيه الحدود ويحله أمير ويقوم بنفقته ويجمع رستاقه. ([2])

أما ياقوت الحموي فيقول في هذا الصدد: " اعلم أن المدن قرار تتخذه الأمم عند حصول الغاية المطلوبة من الترف " ([3]) ثم يحدد بعد ذلك الأمور التي يجب على مؤسس المدن احترامها في هذا القرار، وأهمها دفع المضار والاحتماء من الهجمات وجمع المنافع. ويتفق معه ابن الأزرق الذي يجعل من عمارة المدن ركنا أساسيا بعد إتمام الجانب السياسي لبناء الدولة.([4]) أما ابن خلدون فيجعل من اجتماع البشر ضرورة حتمية لإنشاء المدن وهو المعنى الفعلي للعمران في نظره لما يترتب عن هذا الاجتماع من أمور تنظيمية يفرضها استقرار البشر في موضع

---

[1] - Arnold Toynbee, cities on the move, Oxford; 1970, p. 153.

[2] – المقدسي، المصدر السابق، ص 47

[3] – ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1993، ج4، ص 114

[4] – ابن الأزرق، بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق محمد عبد الكريم، الدار العربية للكتاب، ج1، 1977، ص 233.

معين.([1]) وسيظهر ذلك جليا في نمو مدن الهجرة وتطورها كالبصرة والكوفة والفسطاط.

أولا: مدينة البصرة:

1 - تأسيس مدينة البصرة :

بعدما استتب الوضع في منطقة شبه جزيرة العرب في عهد أبى بكر الصديق عقب تمكنه من دحر المرتدين، بدأت عملية الفتوح تشهد نشاطا كبيرا في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فدخلت بلاد الشام والعراق ومصر تحت سلطة الإسلام، وظهرت الحاجة إلى إدارة هذه الأقاليم الجديدة، واتخاذ قواعد للجيوش الإسلامية بها، فأنشئ عدد من المدن المعسكرات التي لعبت دورا أساسيا كمعسكرات تمد الفاتحين بما يحتاجونه من مؤونة ويرجعون إليها عند الحاجة للاستراحة أو التطبب ويتركون فيها أطفالهم وعوائلهم. ومع مرور الوقت وابتعاد ساحة الفتح عن هذه المدن، قامت بدور مهم في إدارة الأقاليم المفتوحة وكانت هذه المدن منذ نشأتها مرتبطة ارتباطا عضويا بدواعي الفتح فجاءت كلها على حواف الصحاري، ووظفت للجهاد في سبيل الله ونشر الإسلام أو كما جاء في كتاب مصطفى الموسوي ([2]) حيث يقول عنها: " ما هي إلا معاقل لتوكيد الفتح، وحمايا لتغذية جهات القتال بالرجال والمؤمن، ونقاط ارتكاز لحركة الفتح العربي، ودور هجرة ومنازل جهاد ومعالم لنشر الدين، وبذور بعث جديد للحضارة الإنسانية باختيار الزمان والمكان كما أنها أقرت التزام الدولة اتجاه المجاهدين في السكن والوظيفة وفي اللقمة والهدمة في حين أحالت نسيب البدوي إلى ساكني المدن وهنا وضع الأساس لما نراه في العصور التالية من تقديم العلم على السيف فيصبح العالم نمطا مقبولا في المجتمع. "

ويجدر القول أن الرسول صلى الله عليه وسلم كما رأيناه في مدينة يثرب قد سن سننا عمرانية ومعمارية كثيرة وعمل على خلق تخطيط أصيل للمدينة الإسلامية حيث اتبع في عهده سياسة عمرانية نظم بها أحياء المدينة المنورة وعمل على شغل الأراضي الموات لإنشاء أحياء لسكنى المهاجرين والأنصار .

---

[1] – ابن خلدون، المقدمة، ص 335.

[2] – مصطفى الموسوي، العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن الإسلامية، دار الرشيد للنشر، 1982، ص 103

لقد جاءت مدن الهجرة متبعة لهدى الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا المجال، وعاملة على إظهار تخطيطها الإسلامي، حيث مكنت التوجيهات الصادرة من عاصمة الدولة الإسلامية مؤسسوها من حرية الإنشاء والبناء، ذلك أنها أنشئت على مواضع عذراء لا يوجد بها البناء على خلاف المدينة المنورة التي كانت تسكن بها بعض القبائل العربية واليهودية .

تبدأ قصة هذه المدينة عندما تمكن المسلمون من فتح بلاد العراق وجاءت لتلعب دورا عسكريا حيث ظهرت أول الأمر كمعسكر للجند الفاتحين سنة 11 هـ / 631 م ([1]) وقد أسسها عتبة بن غزوان بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهي أول مدينة عربية أسست خارج منطقة شبه جزيرة العرب، وقد استمرت هذه المدينة تؤدي دورا هاما على مراحل التاريخ المختلفة وهي اليوم عاصمة مهمة لإقليم في بلاد العراق .

وقد تميزت المدينة بأهميتها في مجالات عدة من الناحية الثقافية والعلمية ولعبت دورا تجاريا مهما حتى قيل بأن المرء أين ما ذهب في البلاد يجد تاجرا بصريا، وهي دلالة على انتشار المجال التجاري لهذه المدينة. ([2])

أما كلمة بصرة فقد اتفقت المعاجم اللغوية على أنها كلمة مأخوذة من الطبيعة الجغرافية لتربة المنطقة، فبعضها يقصد بكلمة بصرة الحجر الأبيض الرخو وبعضها يقصد بها الكذان ومعناه الحجارة الرخوة، وفي هذا الصدد تذكر المصادر التاريخية أن القائد عتبة بن غزوان عندما مر بموضع المربد متجها إلى البصرة لقتال الفرس وجد الكذان الغليظ فقال (هذه هي البصرة)، وقد ذكرت بعض المعاجم العربية أن هذه الكلمة تعني الأرض الطينية الحمراء أو الطين العلك، وهناك أراء أخرى مختلفة كالرأي الذي يقول أن الكلمة تعني مفترق الطرق أو ملتقى الطرق. ([3])

---

[1] – محمد عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية، مجلة عالم المعرفة ، الكويت، 1988، ص 65

[2] – عبد الجبار ناجي، دراسات في تاريخ المدن الإسلامية، شركة المطبوعات والتوزيع والنشر، بيروت، الطبعة الأولى،2001، ص 153

[3] – أنظر خليفة بن خياط، تاريخ دمشق، ص 115. نقلا عن عبد الجبار ناجي، المرجع السابق، ص 154.
ابن منظور، لسان العرب،الجزء الأول، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، 1997 ، ص 214-215 (مادة بصر).
ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1، ص 430.

لقد أسست مدينة البصرة لأسباب إستراتيجية ترتبط بتطور عملية الفتح على أرض بكر، فلم تكن من المدن التي أسست لاعتبارات تجارية، أو اقتصادية، أو لخدمة القوافل التجارية، أو قوافل الحجيج، ورغم أن من الباحثين من أراد أن يبحث في عمران موضع البصرة قبل الإسلام معتمدا في ذلك على بعض الإشارات المستقاة من النقوش الأثرية كنقش يعود إلى الملك الآشوري سنحاريب وجد في موضع يسمى باب سلامتي، هذا الموقع قريب من الموضع الذي أنشئت عليه البصرة، أو ما ورد كاسم لموضع يسمى تريدون، أو دريدوس في رحلة نيارخوس عندما اخطأ الطريق ودخل دجلة بدلا من نهر كارون، ([1]) إلا أن هذا الأمر وإن حاول البعض إثباته في الوقت الحاضر بعد التوسع الكبير الذي عرفته المدينة، فإن المدينة في الأيام الأولى لنشأتها كانت مدينة صغيرة حاول مؤسسوها قدر الإمكان الابتعاد بها عن المدن الفارسية القديمة حتى لا يميل المسلمون إلى الترف ويتناسون المهمة الأساسية التي جاءوا من أجلها، هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإنهم عملوا بالأوامر الصادرة إليهم من الخليفة عمر بن الخطاب الذي نصحهم بالابتعاد عن الاستقرار بالمدن القديمة.

والحقيقة أن الجيوش الإسلامية لما وصلت موقع البصرة سنة 12 هـ أو14هـ/635م لم تجد بها مركزا عمرانيا مأهولا بل وجدت المكان خاليا([2]) فاختاروا المكان لتأسيس المدينة واختطوا خططها وكانوا أول من نزلها وأسس المساكن بها. وقد بدأ مؤسس المدينة بتخطيط المسجد الجامع باعتباره نواة المدينة وذلك سيرا على الطريقة التي اتبعها الرسول صلى الله عليه وسلم وبجواره ابتنى دار الإمارة ثم اقطع القبائل العربية المشاركة في الجيش خططها حول المسجد. وكما اختلفت الروايات في تفسير معنى كلمة البصرة فقد ظهر اختلاف حول سنة تأسيس المدينة فبعض المؤرخين كالبلاذري والدينوري يشيران إلى أنها أسست سنة 14هـ/635م بعد فتح الأبلة حيث يقول الدينوري أن الخليفة عمر بن الخطاب بعد تولية عتبة

المسعودي، مروج الذهب، ج2، ص 328.

البلاذري، فتوح البلدان، ص 336.

[1] – عبد الجبار ناجي، المرجع السابق، ص 155

[2] – يذكر ابن قتيبة (الدينوري) في الأخبار الطوال، القاهرة، 1960، ص 117، وكذلك البلاذري في فتوح البلدان، ص 336، منطقة كانت موجودة بموضع إنشاء البصرة وجد فيها بعض الأطلال سميت بالخريبة حيث يقول الأول:" ولم تكن هناك يومئذ إلا خريبة وكانت منازل خربة وبها مسالح لكسرى تمنع العرب من العبث في تلك الناحية فنزلها عليه بأصحابه في الأخبية والقباب."

قال له: "إن الحيرة قد فتحت فصر إلى ناحية البصرة واشغل من هناك من أهل الأهواز وفارس وميسان عن إمداد إخوانهم على أخواتك "([1]). والمهم أن عتبة بن غزوان توجه إلى البصرة بعدد قليل من المقاتلين بلغ عددهم ثلاثمائة([2]) رجل ونيف فوضع أسسها. أما المجموعة الثانية من الرواة فتؤكد أن مدينة البصرة أسست سنة 16 هـ / 637 م موضحة أن عتبة بن غزوان لم يخرج إلى ناحية البصرة بأوامر من الخليفة عمر بن الخطاب، بل أمره سعد بن أبي وقاص الذي جاءه أمر الخليفة قائلا: أضرب قيروانك بالكوفة ووجه عتبة بن غزوان إلى البصرة " ([3]).

2 – عوامل تأسيس البصرة :

أسست مدينة البصرة لأسباب عسكرية إستراتيجية ذلك أن عتبة بن غزوان بعد الاستيلاء على الأبلة، والفرات، وأبزقباذ، أراد أن يتخذ للمجاهدين معسكرا يكون مكانا لاستقرارهم، وقد اتفقت آراء بعض المؤرخين على أن عتبة كان في أول أمره ينزل في خيم أوأخبية وقباب حيث يذكر البلاذري في هذا الصدد: "ضربوا بها (أي مدينة البصرة) الخيام والقباب والفساطيط ولم يكن لهم بناء"([4])، وهذا ما حصل على علمنا فيما بعد في الفسطاط والقيروان .

بعد النجاح الكبير الذي حققه عتبة بن غزوان في عملية الفتح، رأى أهمية إيجاد موضع لمعسكر إستراتيجي يعتمد عليه في حروبه ضد الساسانيين فكتب إلى عمر بن الخطاب طالبا ومؤكدا عليه ضرورة اتخاذ العرب المسلمون لموضع يجتمعون فيه قائلا: "لابد للمسلمين من منزل يشتون به إذا شتوا ويسكنون فيه إذا انصرفوا من غزوهم ." وقد قبل عمر بن الخطاب رضي الله عنه بطلب عتبة هذا ولكنه ربط قبوله بتوفر جملة من الشروط في الموقع والموضع الذي ستنشأ عليه مدينة البصرة حيث جاء في المصادر قوله: "لا تجعلوا بيني وبينكم بحرا بل مصروها". وقد اشترط أن يكون أيضا موضع المدينة في مكان تحيط به المراعي

---

[1] – يذكر الطبري في كتابه الأمم والملوك، الرواية نفسها ، ص 439

[2] – ورد هذا العدد عند الطبري (الامم والملوك، ج2، ص439)، أما البلاذري فيذكر ثمانمائة رجل (فتوح البلدان، ص 345).

[3] – البلاذري، المصدر السابق، ص 345.

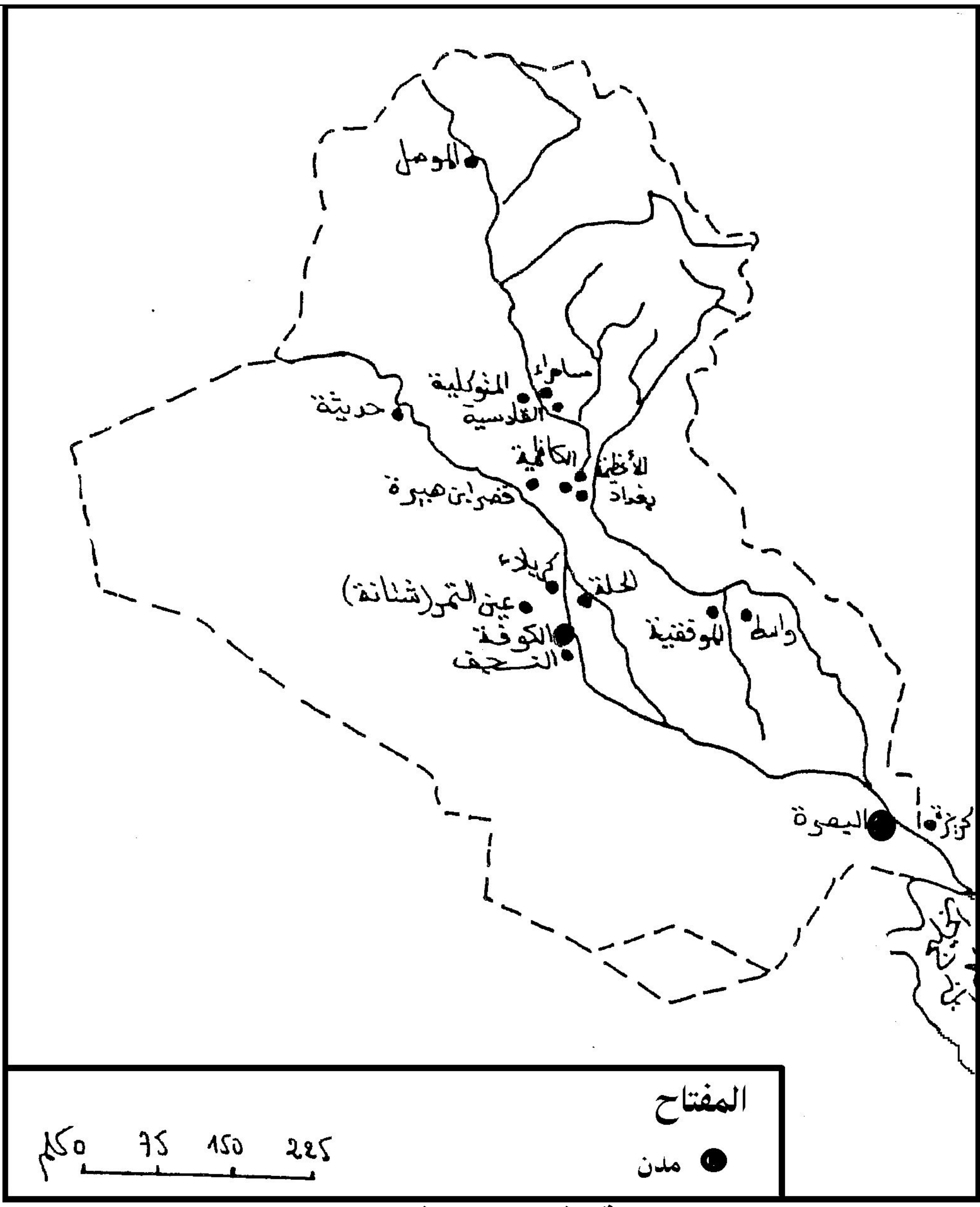
[4] – البلاذري، المصدر السابق، ص 336 – 345.

ويتوفر فيه الماء، ويظهر أن الخليفة عمر أراد من كل ذلك أن يؤسس معسكرا للمقاتلين العرب يكون على اتصال سهل بالمدينة المنورة عاصمة الدولة الإسلامية، ولا يقطنه إلا المقاتلين وعائلاتهم فحسب، وكان رد عتبة أن الموقع الذي اختاره توفرت فيه شروط ثلاثة ألا وهي كثرة القصب والقضة، أي المواد الإنشائية التي تستعمل فيما بعد في إنشاء المدينة، ثم أنه يقع على طرف البر أي أن هذا الموضع لا تفصله عن المدينة المنورة موانع طبيعية فيمكن إمداده عند النجدة بسهولة، وهو في نفس الوقت مكانا يمتاز بجودة هوائه الصحراوي ومناخه الجاف أي أنه ملائم للعرب وقطعانهم، وهو مع كل ذلك قريب من مناقع المياه، فوافق عمر قائلا: "إنها أرض نضرة قريبة من المشارب والمراعي والمحتطب"([1]). **(خريطة رقم 12).**

والحقيقة أنه كان بإمكان عتبة بن غزوان اتخاذ مدينة الأبلة وهي مدينة قديمة قاعدة له، ومركزا لإدارة الإقليم، ونقطة انطلاق لغزواته القادمة، فالمدينة كما هو معروف تتمتع بموقع إستراتيجي، وأهمية اقتصادية متميزة، لكن عتبة اتبع الإستراتيجية الأولى لقاعدة الفتح ألا وهي الابتعاد عن الشواطئ، فالأبلة ميناء تجاري تحيط به البساتين، والأنهار، والعرب في حربهم المعتمدة على إستراتيجية الكر والفر كانوا يحبذون المناطق الواسعة القليلة العوائق من أنهار، وبرك، وغابات. ثم أن الخليفة لم يرغب في أن تتخذ

---

[1] – البلاذري، المصدر السابق، ص 336 – 337-341.



خريطة رقم 12: موقع البصرة

المدن القديمة كمراكز للعرب لئلا ينشغلوا عن مهمتهم الرئيسية ألا وهي الجهاد ذلك أن حياة المدن تفتر عزائمهم على رأي الخليفة عمر بن الخطاب. ([1])

3 – تخطيط البصرة :

يظهر من المصادر أن موضع البصرة كان زمن عتبة مكانا لتجمع المقاتلين، تشغله الخيام والفساطيط، ولم يكن به بناء فهذه المرحلة تعد في حقيقة الأمر مرحلة تجمعت فيها الجيوش الإسلامية في مخيم مؤقت، ولا نستطيع الحديث هنا عن مدينة أو معسكر أو ما شابه ذلك من مكان للاستقرار.

إن حملة عتبة بن غزوان هذه كانت حملة استطلاعية، وأن عدد المرافقين له من الجند العرب لم يتعد ثمانمائة مقاتل في أكثر التقديرات، ولا يمكن الكلام هنا عن ظهور المدينة إلا عندما بدء عتبة بأعمال التخطيط والتشييد، أي بعد موافقة الخليفة عمر بن الخطاب، وتبين الروايات أن عتبة بدء عملية رسم أولى خطط المدينة بنفسه في حين تقول روايات أخرى أن المحجن بن الأذرع السلمي هو الذي اختط المدينة. في حين تذهب روايات أخرى إلى القول أن الحارث الثقي أو الأسود بن سريح التميمي هو مخطط المدينة. ([2])

ويتفق المؤرخون على أن مادة الإنشاء الأولى في البصرة هي القصب لوفرته في بطائح البصرة. ونستشف من نص البلاذري في هذه المرحلة بالذات، مرحلة البناء بالقصب أنها لم تتميز بصفة الثبات فهو يقول أن المقاتلين العرب كانوا عند التوجه إلى القتال: "نزعوا ذلك القصب، وحزموه، ووضعوه، حتى يرجعوا من الغزو، فإذا ما رجعوا أعادوا بناءه". ([3]) إذن عرفت المدينة في هذه المرحلة الأولى اضطرابا في الخطة وعدم انتظام في الهيئة العمرانية، فهي معسكر حربي أكثر من مدينة متحضرة .

---

[1] – ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج1، ص 77.

[2] – البلاذري، المصدر السابق،ص 341 – 342.

[3] – المصدر نفسه، ص 242.

لقد ساعدت الانتصارات العسكرية المتتالية للجيوش الإسلامية على اجتذاب أعداد جديدة من المقاتلين، فكثر عدد سكان المدينة، واختلطت القبائل في خططها مما جعل الخليفة يأمر الوالي أبو موسى الأشعري (17-25هـ / 638- 645م) أن يجعل لكل قبيلة خطة، وأن يأمر الناس بالبناء،([1]) وحددت شوارع المدينة من حيث قياسات العرض فكان شارع المربد ـــ وهو أعظمها ـــ عرضه ستين ذراعا، أما الشوارع الأخرى فكانت دون عشرين ذراعا أما انتظام خطط المدينة فقد تأكدت بعد الحريق الذي التهم كل ما بني بالقصب، وبعدما أمر الخليفة أن يعاد بناء كل ما احترق باللبن، أخذت المدينة مظهرا جديدا وانتظمت في خططها انتظاما كبيرا، ذلك أن مادة البناء الجديدة قد ساعدت على ثبات وحداتها البنائية. **(مخطط رقم 9).**

4- المسجد الجامع :

اتفق جمهور المؤرخين على أن المسجد الجامع كان أول معلم أسس بالموضع في البصرة، فقد ذكرت بعض المصادر أن القائد عتبة بن غزوان هو الذي وضع مخططه سنة 14هـ/635م، بينما ذهبت بعض المصادر الأخرى إلى أنه أمر محجن بن الأذرع السلمي باختطاطه، وفي رواية أخرى نافع بن الحارث الثقفي أو الأسود بن سريح التميمي([2]). المهم أن المسجد الجامع شيد سنة 14هـ/635م وأن مادة بنائه كانت القصب،([3]) وقد أعيد بناء المسجد الجامع بمادة اللبن والطين أثناء ولاية أبي موسى الأشعري (17- 25هـ / 638م-645م)، وقد عمل هذا الورع على الزيادة في مساحة المسجد وعلى تسقيفه بالعشب.

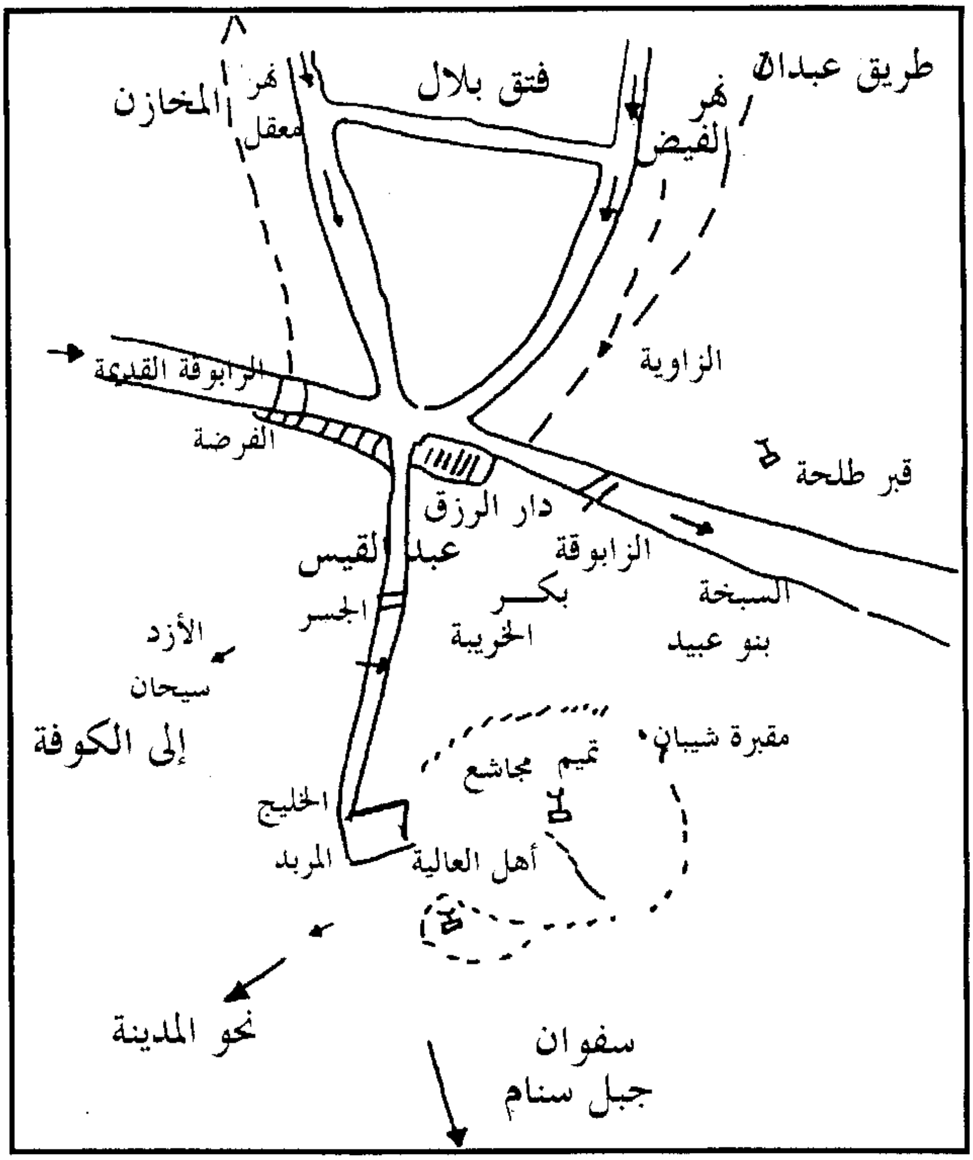
كما عرف المسجد توسيعات أخرى زمن الوالي عبد الله بن عامر بن كريز، جاءت على شكل زيادات وإضافات .

---

[1] - K. A. G. Kreswell, architecture musulmane primitive, encyclopédie de l'Islam, architecture, N. E, tome 1, p. 15.

[2]- البلاذري، المصدر السابق، ص 341-345. اليعقوبي، تاريخ الرسل، ج2، ص 143

[3] - البلاذري، المصدر السابق، ص 342



مخطط رقم 9 يبين شوارع البصرة حسب ماسينيون

رغم قلة المعلومات، وتضاربها أحيانا حول هذه الفترة المبكرة من تاريخ البصرة عموما، وعن تاريخ تطور وجهها المعماري العمراني على الخصوص، فإنه يظهر جليا أن فترة الوالي زياد بن أبيه كانت من أهم الفترات التعمــيرية في تاريخ المدينة، التي عرفت نشاطا عمرانيا فعالا أثر في وجه المدينة تأثيرا كبيرا، وقد عرف مسجد المدينة إعادة بنائه بمواد أكثر مقاومة وصلابة ألا وهي الطابوق والجص والحصى، كما استبدل سقفه العشبي بخشب الساج، كما استخدمت في رفع هذا السقف دعامات مصنوعة من الحجارة جلبت خصيصا لهذا الغرض من جبال الأحواز.

وقد أشارت المصادر التاريخية إلى كيفية تحضير هذه الحجارة لتصبح سواري، حيث أوردت أن تلك الأساطين من الحجارة المستخرجة من محاجر جبال الأحواز ــ حيث كان القائم على فرقة العمال المكلفة باستخراجها الحجاج بن عتيك الثقفي ــ كانت تنقر وتثقب ثم تحشى بالرصاص والحديد، وقد بلغ ارتفاع الواحدة منها ثلاثين ذراعا أي ما يعادل خمسة عشرة مترا.

أما في العصر العباسي فقد عرف الجامع أيضا توسيعات زمن ولاية محمد بن سليمان، حيث زيدت له إضافات سنة 161هـ/ 777م من جهة القبلة ومن الجهة اليمنى مما يلي رحبة بني سليم، ومن الجهة الشمالية، حيث أدخل في هذه التوسيعات عدد من مساكن بني ثقيف. كما عرف هذا المعلم الديني توسعا كبيرا آخر زمن الخليفة العباسي هارون الرشيد، حيث أدمجت دار الإمارة في المسجد فأصبح عظيم الاتساع.([1])

عرف المسجد الجامع في البصرة عصر ازدهاره في أوقات الاستقرار حيث خصصت له السلطات المتوالية أموالا كثيرة، وحرصت على العناية به وصيانته وتوسيعه متى تطلب الأمر إلى ذلك، كما شهد هذا المعلم أيام سود عرف فيها كل أنواع التخريب والتصدع، وكان ذلك أثناء ثورة الزنج، وزمن ثورة القرامطة خلال هجماتهم المتكررة على المدينة، مما جعل السلطات القائمة على

---

[1] – الطبري، المصدر السابق، ج8، ص 136. البلاذري، المصدر السابق، ص 344 ، المقدسي، البدء والتاريخ، ج4، ص 89.

المدينة وعلى رأسها "ضامن المدينة" أبوعبد الله البردي يصرف ألفي دينار لترميم الجامع سنة 335هـ/936م.([1])

كما تعرض هذا المعلم العتيد إلى الحرق سنة 621 هـ/1226م، مما دفع بياتكين الذي كان واليا على البصرة عهد خلافة المستنصر بالله من إعادة بنائه، وتشييد أساطينه، فجلب الحجارة من جبال الأحواز والأخشاب من الخارج،([2]) وشيد رابطين متصلين به، وقد وصف ابن بطوطة([3]) هذا المسجد في أثناء زيارته له قائلا : "... وكنت رأيت عند قدومي عليها (البصرة) على نحو ميلين منها بناء عاليا مثل الحصن، فسألت عنه، فقيل لي هو مسجد علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكانت البصرة من اتساع الخطة وانفساح الساحة بحيث كان هذا المسجد في وسطها. وبينه الآن وبينها ميلان... وهذا المسجد من أحسن المساجد، وصحنه متناهي الإنفساح مفروش بالحصباء... ولهذا الجامع سبع صوامع، إحداهما الصومعة التي تتحرك بزعمهم عند ذكر علي بن أبي طالب رضي الله عنه."

يستخلص من كلامه أن للمسجد سبعة صوامع، وأنه من أحسن المساجد، كما وصف صحنه بكثرة الاتساع وبأنه مفروشا بالحصباء الحمراء. كما يظهر من خلال ما اطلعنا عليه من المصادر التاريخية والدراسات الحديثة أن المسجد كان يحتوي على ثمانية عشر بابا منها باب عثمان، وباب جحدر، وباب الرحبة. كما أن منارته هي أول منارة شيدت في الإسلام إذ يرجع تاريخ إنشائها إلى سنة 45هـ/665م. أما المنبر فوضع في مقدمة المسجد. كما احتوى المسجد على ميظـأة تعرف بطست المسجد أو المطهرة، وكانت عبارة عن بركة مسقفة مطلية بالقار.([4])

5 – دار الإمـارة :

أسست دار الإمارة مع بعض المباني الإدارية الأخرى كالحبس والديوان، بعد تشييد المسجد، وقد كانت دار الأمارة والوحدات الإدارية التابعة لها تقع بمحاذاة هذا المعلم الديني. أنشئت هذه المباني أول الأمر بمادة القصب، شأنها في

---

[1] – عبد الجبار ناجي، المرجع السابق، ص 162.

[2] – المرجع نفسه، ص 162

[3] – ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 201- 202-203.

[4] – عبد الجبار ناجي، المرجع السابق، ص 162.

ذلك شأن أغلب المباني التي أنشئت في المدينة. وبعد الحريق المهول الذي شب بالمدينة وأتى على معظم مبانيها أعيد بناؤها بمادة تعميرية أشد مقاومة للحريق ألا وهي مادة اللبن المدعم بالطين.

لقد تم نقل دواوين دار الإمارة أثناء ولاية زياد بن أبيه إلى مبنى جديد شيد قبلة المسجد الجامع، وقد كانت هذه الأخيرة قبل ذلك تقع في رحبة الدهناء جنوب المسجد الجامع، كما فتح هذا الوالي بابا ينفذ من دار الإمارة مباشرة إلى الجامع.

والجدير بالذكر هنا أن دار الإمارة أصبحت مقرا لإدارة المدينة فقط ولم تصبح في هذه المرحلة تجمع بين تسيير شئون المدينة وإقامة الوالي كما كان الحال في الفترات السابقة،([1]) حيث درج الولاة في هذه الفترة على سكنى القصور، فعبد الله بن زياد، كان يقطن في قصر بعيد عن مركز المدينة يدعى البيضاء.

هدمت دار الإمارة في ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي، وبقت المدينة بدون دار إمارة إلى أن أعيد بناؤها بالطابوق والجص من طرف صالح بن عبد الرحمان، وفي عهد هارون الرشيد أدخلت هذه الدار في الجامع فانتهى دورها.

كما تذكر بعض المصادر أن دار الإمارة ربما انتقلت إلى خطة بني نمير وهي خطة بعيدة عن وسط المدينة.([2])

6 – أحياء المدينـــة :

أما فيما يخص تقسيم المدينة إلى أحياء، فقد تم تخطيط البصرة وفق ما جرت عليه العادة عند العرب في شبه الجزيرة العربية، وعلى وجه التحديد في مكة والمدينة المنورة، وإتباعا لسنة الرسول صلى الله عليه وسلم عندما أراد تخصيص أراضي بناء للمهاجرين، حيث لما تزايد عددهم وقويت سلطة الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة، سمح لهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالاختطاط حول الجامع في الأراضي التي وهبها لهم الأنصار، ولقد أنشئت كل هذه الديار في الأراضي التي لا يصلها الماء، والأراضي الغير الصالحة للزراعة (الأراضي الموات)، وقد وزع الرسول صلى الله عليه وسلم هذه

[1] – عبد الجبار ناجي، المرجع السابق ، ص 163.

[2] – ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج1، ص 432 – 433.

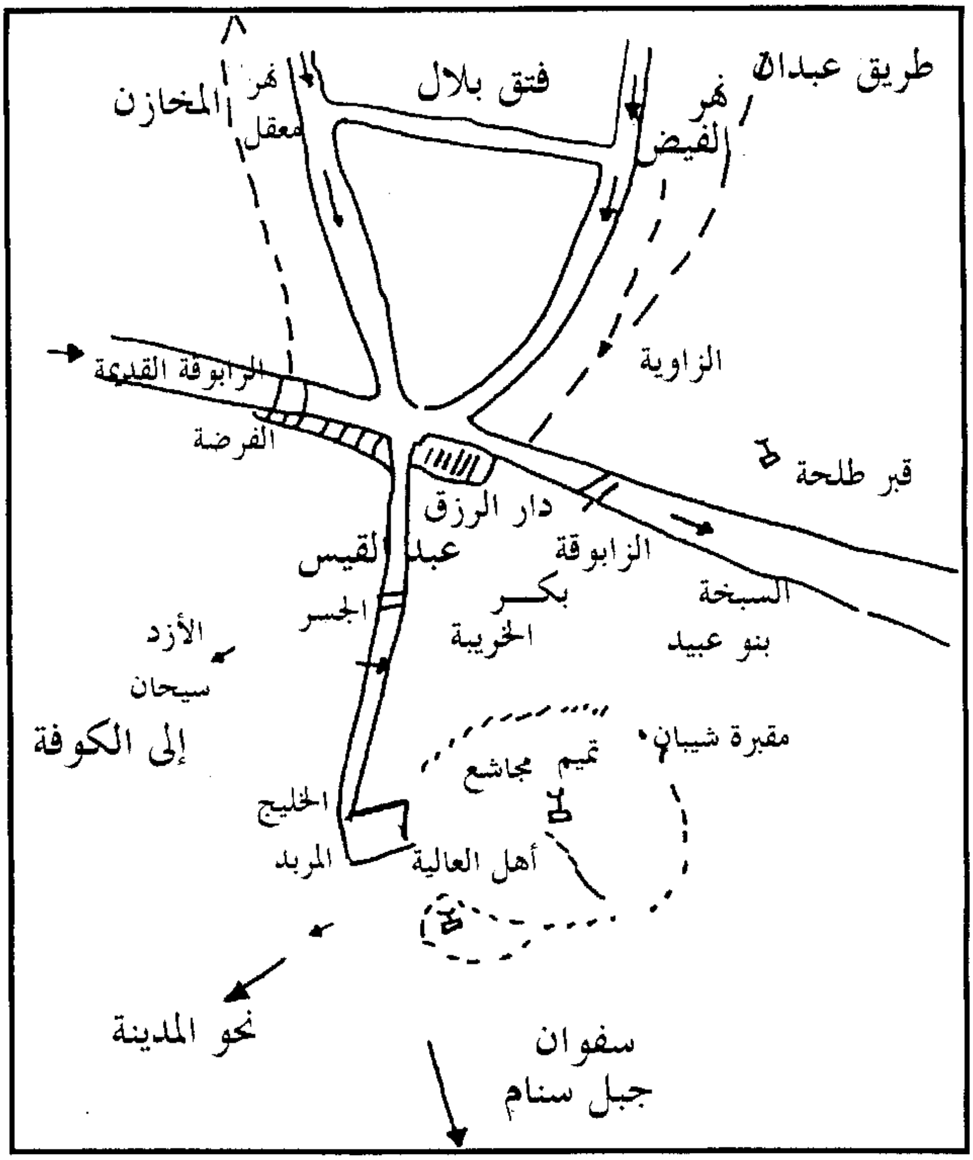
الأراضي على المهاجرين، فامتلأت بالمباني، وتماسك بناء المدينة، وتوحدت أحياءها. وقد اعتمد الرسول صلى الله عليه وسلم على رابطة النسب في اقتطاع الخطط بدءا بالقرابة القبلية وانتهاء بالقرابة الأسرية، فجمع كل ذوي قرابة في موضع، وعلى هذا الأساس جاء اقتطاع الخطط في مدينة البصرة. وللعلم فإن البصرة قسمت إلى خمسة أخماس، خصص كل قسم لقبيلة أو مجموعة من القبائل مما ساهم مساهمة كبيرة في تنظيم المدينة عمرانيا وسهل إدارتها.

ترجع بعض المصادر التاريخية هذا التخطيط إلى عهد الوالي زياد بن أبيه، الذي يعتبر بدون أدنى شك من بناة البصرة، كما نجد بعض الأخبار التي تعيده إلى زمن أبي موسى الأشعري، زمن الانتقال من البناء بالقصب إلى استخدام اللبن، والجدير بالذكر أن هناك أماكن بالمدينة، اتخذت محلات لإسكان الناس، ولم تكن ذات طابع قبلي كما هو الحال في الخريبة، والزابوقة، والباطنة، والزاوية. (**مخطط رقم10**).

لقد أضفى نظام الأخماس الناتج عن التقسيم القبلي للخطط في المدينة، تنظيما دقيقا ومحكما، وهيئة عمرانية منظمة. كانت نتيجة مخطط منتظم سهل

الفهم، جعل إدارتها مرنة، حيث سهل عملية توزيع الأرزاق، وجمع المجاهدين للقتال، كما ساهم مساهمة كبيرة في خلق كل أواسر المودة والمحبة بين الناس داخل هذا المجمع العمراني الجديد، بأن ميز بين ساكنيه من القبائل إذ لم يجمع بين أضداد مختلفة متباينة، فكانت خطط البصرة مواضع سهلت التآلف بين القبائل، بالإضافة إلى تسهيل إدارة المدينة، فمن المعروف أنه كان على رأس كل قبيلة شيخ يسير أمورها وتتعامل معه السلطة في البصرة مما زاد في إحكام تسيير شئون المدينة

.



مخطط رقم 9 يبين شوارع البصرة حسب ماسينيون

وأخماس البصرة هي :

ا- خمس بني تميم: يقع في الجانب الجنوبي الغربي من البصرة، ويظم مجموعة من الخطط، والمحلات، والمربعات التابعة لقبيلة بني تميم منها خطة بني سعد، وخطة بني عامر، ومحلة بني حمان، ومحلة بني منقر، وخطة بني مالك وبني عمروابن تميم بن مازن، بالإضافة إلى بطون بني تميم، زد على هذا كله ما دخل في حلف بني تميم من قبائل العرب كخطة بني العم، وخطة الأساورة.([1])

ب - خمس أهل العالية: وتقطنه قبائل هذيل، وحزيمة، وقيس بن علان، وبه عدة محلات منها محلة بني سليم، ومحلة هذيل، ومحلة الخططة كخطة بني ناحية.

كما استقر بهذا الخمس في خطط ومحلات بعض المجموعات التي لا تنتمي لقبائل العالية، فكان لسيابجه وأصلهم من الهند درب به، وكذلك الحال لدرب سكنه الأحباش الذين نقلهم سيدنا عمر رضي الله عنه إلى البصرة وكان يقع في محلة هذيل.([2])

ج- خمس بكر بن وائل : يقع هذا الخمس شمال شارع المربد الشهير، وهو جنوب المسجد الجامع ودار الإمارة، ويظم خطط عديدة ومحلات منها محلة بني سدوس، ومحلة بني ضبيعة بن قيس، ومحلة المسامعة، ومحلة بني شيبان، ومحلة بني عجل،([3]) وبه أيضا خطة بني عدي بن حشم.

د- خمس عبد القيس : يقع شمال البصرة وتمتد محلاته وخططه إلى جسر البصرة ودار الرزق، وقد قطنه زيادة على قبيلة عبد القيس، بطون من قبائل أخرى ومن محلاته محلة بني عامر، ومحلة الجارودين، وخطط ربيعة بن نزار.

هــ- خمس الأزد : أما الخمس الأخير فهو خمس قبيلة الأزد، وينتشر هذا الجزء في الجهة الجنوبية الشرقية من مدينة البصرة، ويظم كغيره من الأخماس

---

[1] - البلاذري، المصدر السابق، ص336. عبد الجبار ناجي، المرجع السابق، ص 164
الجاحظ، كتاب الحيوان، دار الهلال، بيروت، 1997، ج2، ص 333 .وج3، ص 295.

[2] - البلاذري، المصدر السابق، ص 432

[3] - الطبري، المصدر السابق، ج5، ص 439- 440.

محلات وخطط لبطون قبلية تشمل القبائل الأزدية المتقاربة كبني مالك، وبني نصر، وبني مازن.([1])

إن أهمية قاعدة البصرة في عملية الفتح، وكونها من المعسكرات الحربية الإستراتيجية، وحرص الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه على تعميرها بالعرب المسلمين، كل هذه الأمور ساعدت مساعدة كبيرة على تطوير المدينة وعلى قدوم العديد من القبائل والعشائر العربية للاستقرار بها. خاصة بعدما اضطلعت هذه المدينة بدور العاصمة لإقليم واسع ضم جزء من العراق وبلاد فارس والبحرين، وتأديتها لدور اقتصادي هام، فتزاحمت بالسكان وكثر البناء فيها.

ويظهر أن أغلب أسماء محلات وخطط ودروب البصرة اتسمت بالطابع القبلي، رغم أن بعضها سمي باسم أعلام نافذين، وبعضها سمي بما كان يجري فيه من نشاط اقتصادي وحرفي، فقد سجلت لنا المصادر التاريخية العديد من هذه المسميات، كسكة بني سمرة التي ترجعها إلى عبد الرحمان بن سمرة الفزاري، وسكة قريش التي يبدو أنها نسبت إلى بعض من سكنها من قبيلة قريش، وسكة الذباحين، والعطارين، والقصارين، وقد سميت بأسماء حرف اشتهرت بها المدينة، وسكة البخارية، والموالي، حيث سكن في الأولى أهل بخارة، وفي الثانية الموالي.([2])

7 – أسواق المدينة:

يبدو أن المساحة التي تركت شاغرة بين المسجد الجامع ودار الإمارة من جهة، وخطط المدينة من جهة ثانية بقت شاغرة لأغراض تنظيمية وأمنية لمدة معينة من الزمن، علما أن المصادر التي تحدثت عن تأسيس البصرة لم تقدم لنا الكثير من المعلومات حول مؤسسة السوق فلا نجد فيها إشارة إلى السوق في عهد عتبة بن غزوان، وأبي موسى الأشعري، رغم أن هذين الواليان كانا قد اشتهرا بمجموعاتهم الإنشائية والتنظيمية العمرانية بالبصرة.

والراجح أن أهل المدينة في هذه الحقبة المبكرة من حياتها كانوا يقتنون حاجياتهم من سوق المربد الذي يعد نقطة لقاء بين عالم الريف وعالم المدينة.

---

[1] – اليعقوبي، البلدان، ص 340.

[2] – عبد الجبار ناجي، المرجع السابق، ص 166

هذا مع العلم أن السوق نظم على الطريقة التي نظم بها الرسول صلى الله عليه وسلم سوق البقيع بالمدينة،([1]) وجعلها واحدة على خلاف أسواق يثرب في الجاهلية التي كانت مبعثرة في آطامها. جاءت هذه السوق لتسد حاجة المسلمين وتجنبهم شر اليهود، ولتمكن أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم من التعامل حسب الشريعة الجديدة ولكي يتمكن المسلمون من الاكتناز والغناء، وقد استعمل الرسول صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه كمراقب لهذه السوق وقائم على حسبتها.

جاءت سوق مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم في رحبة واسعة، تضرب فيها خيام يعرض التجار فيها سلعهم، وكان الراكب يدخل هو ورحله إلى السوق، وقد حرص الخلفاء الراشدين على ترك الأسواق خالية من البناء.([2])

يقول الطبري فيما يخص تنظيم أسواق البصرة أن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: "هي على سنة المساجد من سبق إلى المقعد فهو له حتى يقوم منه إلى بيته أو يفرغ من بيعه."([3]) وهي القاعدة نفسها التي سنها الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة.([4])

تذكر الروايات التاريخية أن أول من أنجز أمرا في هذا المجال هو الوالي عبد الله بن عامر بن كريز (25- 36 هـ / 615 - 656 م) الذي عمل على تشجيع الأسواق، وترمي هذه السياسة إلى تنشيط الاقتصاد السلمي للمدينة، بعدما قلت مداخيل الجهاد الذي أصبحت جبهاته بعيدة عن البصرة.

لقد عمل هذا الرجل على شراء عدد من الدور بالقرب من نهر أم عبد الله.([5]) وبعد تهديم هذه الدور شيد مكانها السوق، ورغم أننا لا نعرف عنها الكثير

---

[1] - قال الرسول صلى الله عليه وسلم حينئذ في كيفية تنظيم السوق:" هذا هو سوقكم ليس له أن يبنى أو يملك، ولا ضرائب تجبى عليه."

[2] - ولم تظهر المباني في الأسواق إلا في العهد الأموي.

[3] - الطبري، المصدر السابق، ج1، ص 15 - 16

[4] - أنظر الصفحة، 134 ، من الرسالة.

[5] - وهو نهر منسوب إلى أمه.

إلا أن هذه السوق كانت أهم سوق بالمدينة وبقيت تلعب دورا مهما حتى ولاية بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري (109- 118 هـ /728- 736م).

أما الوالي زياد بن أبيه، فقد عمل على تنشيط اقتصاد المدينة، وجعل التجارة عنصرا محركا لسياسته هذه، فأنشأ العديد من الأسواق أهمها دار الرزق([1]) التي تتربع على مساحة كبيرة، جمعت عددا من الأسواق وكانت هذه السوق تغلق مساءا بأربعة أبواب. فقد أدت دار الرزق دور المحزن الكبير للطعام والمؤن([2])، ومن الممكن أنها هي سوق الطعام التي قصدتها المصادر التي ذكرتها بكثرة، أو كانت على علاقة وطيدة بهذه السوق.

أما بعد ذلك فقد قام والى البصرة بلال بن أبي بردة بتحويل سوق عبد الله من موقعه إلى نهر بلال فجعل على جانبي الطريق النافذ إلى المدينة صفوف الحوانيت، وقد ساهم موقع السوق هذا على نموه السريع فأصبح من الأسواق الكبيرة للمدينة.

ورغم كبر أسواقها، فإن النشاط الاقتصادي للمدينة، وريفها الثري والخصب، ذو الإنتاج الوافر، وموقعها الاستراتيجي والمتميز بين السواد والبادية، وبين النهر واليابس، جعل ولاتها وأصحاب أموالها وتجارتها يفكرون في المزيد من الأسواق، ذلك أن البصرة تحولت في هذه الفترة من الزمن من معسكر تجمع للجيوش الفاتحة يعيش على الغنائم وأعطيات الجند إلى مدينة تعيش على اقتصاد السلم القائم على إنتاج ريفها الواسع، وعلى صناعتها التحويلية المختلفة وتجارتها المحلية والدولية.

لقد أدى تحول وظيفة المدينة هذه من معسكر في أول الأمر إلى مدينة إلى المساهمة في جعل الأعداد الكبيرة من السكان تقطن بها، فكثرت فيها اليد العاملة الماهرة في مختلف الحرف والصناعات والخدمات، فأصبحت محط أنظار العلماء والتجار من مختلف البلدان. كل هذا ساعد بدون شك على إعادة تنظيم أسواقها والزيادة في أعدادها والاتساع في مساحتها، فخصص لكل مهنة أو سلعة سوق([3])

---

[1] – ويظهر أن دار الرزق كانت موجودة من قبل وأن زياد بن أبيه إنما قام بتنظيمها فخصص لكل مهنة سوق.

[2] – صالح أحمد العلي، خطط البصرة، مجلة سومر، 1952، ص 291 – 295

[3] – خالد محمد عزب، تخطيط وعمارة المدن الإسلامية، الدوحة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية،

لذلك أضحى سوق المربد العتيق الذي كانت تسوق فيه بضائع بادية البصرة، سوقا كبيرا أعيد تنظيمه ليشمل عددا هائلا من الأسواق الفرعية المختصة، وقد اعتمدت في ذلك اعتبارات عديدة لإعادة هيكلته وهيكلة الأسواق الأخرى بالبصرة، ابتداء من مركزها وانتهاء بمختلف أطرافها، كما تحكمت نوعية المنشآت التجارية التي يمكن مجاورتها بعض الاعتبارات أهمها:

ا) إن حاجات السكان المتكررة والملحة على بعض المواد الواسعة الاستهلاك، تتطلب من القائمين بالأمور الاقتصادية في المدينة القيام ببعض الإجراءات التنظيمية لتسهيل وصول المستهلك لها، وعملا على عدم تكثيف الحركة المرورية في مركز المدينة([1]) فقد وزعوا أسواقها في الأحياء المختلفة حسب الاحتياجات. مع الإبقاء على معظم هذه المواد في سوق المدينة المركزي.

ب) أما السلع التي تنتجها بعض الحرف التي تعود بالضرر على السكان كالدخان والرائحة الكريهة والضجيج([2]) فقد حرص أولو الأمر على وضعها خارج المدينة أو على مقربة منها، فجاءت أسواق القصابة التي تحتاج إلى مذابح بالقرب من أبواب المدينة، وكذلك سوق الحطب والفحم، وورشات الطابوق، والفخار، والدباغة.([3]) والجدير بالذكر أن مدينة البصرة اشتهرت بصنعتها المتقنة إلى درجة أن الجاحظ خصها بهذه الصفة دون غيرها من مدن بلاد المشرق التي نعت كل واحدة منها بالصفة التي تميزها عن غيرها.([4])

لقد صنفت التجارة في سوق المربد تصنيفا يعتمد على التخصص، إذ يحدد لأصحاب كل مهنه أو حرفة أو تجارة جانب من السوق، سواء على امتداد السماط (الشارع الأعظم) أوفي الشوارع الثانوية الجانبية المتفرعة منه على هيئة حوانيت.

لقد عمل على أن يكون لكل أصحاب صنعة سوق مختص تعرض فيه سلعهم وذلك لتسهيل عمل البائع والمحتسب في نفس الوقت وكذلك لدفع التجار

1977، سلسلة كتاب الأمة، العدد 57، ص 98 – 99

[1] – خاد محمد عزب، المرجع السابق، ص 99

[2] – محمد السرياني، الأسواق في المدينة الإسلامية، مجلة البلديات، عدد 21، 1990، ص 18

[3] – محمد عبد الستار عثمان، المرجع السابق، ص 256

[4] – المقدسي، المصدر السابق، ص 41.

على التنافس في التجارة وإلى خلق روح الإتقان في الحرف والتطلع نحو الأجود، ولجعل السوق سهلة المراقبة للمحتسب.([1])

انعكس التنظيم التخصصي للسوق على مسميات أحياء البصرة فظهر حي سوق الدباغين، وسوق الطحانين، وسوق الوزانين، وسوق الإبل.([2])

أما سوق الكلأ ([3]) التي ذكرها المقدسي، فقد تحولت مع الوقت، ونمت، وانضمت إلى بقية الأسواق المتخصصة كسوق القصابين، وأصحاب السقط، وسوق الكحالين، وسوق الدقيق.

أما الساحة التي كانت تحيط بالمسجد الجامع فقد حوت هي الأخرى أيضا عددا من الأسواق نذكر منها على سبيل المثال: سوق الطحانين، وسوق السمك، وسوق عثمان، والسوق القديم.

إن كل هذه الأمور تؤدي بنا إلى القول، أنه في ظل هذا التخصص الذي قامت عليه الأسواق بالبصرة، ظهر مفهوم جديد في تنظيم الأسواق تمثل في التجاور في السلع المتشابهة أو السلع المتكاملة، فتجاور أصحاب الملابس مثلا وكل المصنوعات المخصصة لغرض معين. كل هذا تحكمت فيه قواعد شرعية مستمدة من الدين نذكر منها على سبيل المثال القاعدة الفقهية التي تقول " لا ضرر ولا ضرار".([4])

8- شوارع المدينة ودروبها:

لقد أشرنا فيما سبق ان الخليفة الثاني عمر بن الخطاب أمر بأن يكون عرض الشوارع الرئيسية في الأمصار المنشأة ستين ذراعا وما دونها أربعين ذراعا والدروب عشرين ذراعا([5])، أي بمعنى أن تنظيم الشوارع يتدرج اتساعه من من الشوارع الرئيسية التي عادة ما تشق مركز المدينة إلى أصغر هذه الشوارع والتي تربط خطط القبائل فيما بينها وتتصل بين دور هذه الخطط. وهو ما

---

[1] - محمد عبد الستار، المرجع السابق، ص 259

[2] - خالد محمد مصطفى عزب، المرجع السابق، ص 100 - 101

[3] - المقدسي، المصدر السابق، ص 105.
عبد الجبار ناجي، المرجع السابق، ص 168

[4] - عبد الستار عثمان، المرجع السابق، ص154.

[5] - عبد الجبار ناجي، المرجع السابق، ص 161.

جسده الوالي أبو موسى الشعري في البصرة حيث كانت شوارع المدينة تتفرع من ميدان المربد الذي يقع غربي المدينة، وكان أهمها وأوسعها الشارع الذي أخذ تسميته من الميدان، أي شارع المربد، حيث قارب عرضه الستين ذراعا، في حين كان عرض ما دونه من الشوارع عشرين ذراعا، أما الدروب الصغيرة فكان عرضها سبعة أذرع.

من خلال هذا العرض يبدو أن نظام الشوارع في البصرة جاء وفق النمط السائد في المدينة المنورة، ومطابقا للتخطيط المعتمد في الأمصار الإسلامية المعاصرة لها، حيث نلاحظ تدرج عرض هذه الشوارع من الشارع الرئيسي (المربد) الذي يمتد وسط المدينة مرورا بالشوارع الفرعية والتي بلغ عرضها عشرين ذراعا وانتهاء بالأزقة التي قدر عرضها بسبعة أذرع والتي عادة ما كانت تشق أطراف المدينة. وقد جاء هذا التدرج وفق الوظيفة التي كان يؤديها كل شارع، فشارع المربد مثلا كان يحتوي على دور الشخصيات الكبيرة في المدينة ([1]) ويمثل وسيلة ربط بين مركز المدينة والشوارع المتفرعة منه التي كانت تربط بدورها خطط القبائل بالأسواق ثم الدروب والأزقة التي كانت تصل بين الخطط ودور المدينة.

وقد تميزت شوارع البصرة بالاستقامة أحيانا وبالالتواء أحيانا أخرى وبعدم انتظامها ([2]) وبالاتساع في مركز المدينة والضيق وعدم النفاذ في خطط القبائل مرد ذلك إلى جملة من الأسباب أهمها ما يرتبط مباشرة بالظروف المناخية الحارة التي تميز المنطقة خاصة في شهور الحر وهو ما جعل الدروب الرابطة بين خطط القبائل وبين الدور ضيقة وملتوية الهدف منها توفير المناخ المناسب للحياة. ومن الأسباب أيضا ما له علاقة مباشرة بالدفاع عن المدينة فيجعل من الشوارع غير النافذة وسيلة دفاعية يمكن من خلالها حصر العدو ودحره في أماكن معينة.

9 – تحصين المدينة:

---

[1] – صلح أحمد العلي، دراسات أولية مستمرة في المصادر الأوربية، مجلة سومر ، المجلد 8، الجزء 2، بغداد، 1952، ص 286 .

[2] – حسين عبد الرزاق، نشأة مدن العراق وتطورها، معهد البحوث والدراسات العربية، المطبعة الفنية الحديثة، 1973، ص 39-40.

لقد شجع الإسلام على بناء الأسوار والقلاع، حتى أصبح السور من العناصر المعمارية المميزة للمدينة([1])، وقد صنف الفقهاء هذا البناء ضمن البناء الواجب، ولا سيما إذا كانت الحاجة ملحة لها للدفاع عن المسلمين، وعن أرواحهم، وأموالهم، وحرماتهم، فوافقت الأحباس على إنشائها، وترميمها، وتقويتها. ورغم ما للأسوار من أهمية بالغة في المدينة إلا أن البصرة لم تكن مسورة في أول أمرها وهي في هذا تشبه مدن الهجرة كلها. ذلك أننا لا نجد في الكتابات التاريخية التي تحدثت عن مدينة البصرة في مرحلة النشأة أي إشارة إلى هذا الجانب، فلم يرد فيها أن المؤسسين الأوائل أرادوا تحصين المدينة أو حاولوا إحاطتها بسور أو حتى التفكير فيه، ذلك أن الهدف من تأسيس البصرة لم يكن هدفا دفاعيا، بل جاءت المدينة لتلبية وظيفة مهمة اعتمدت في إطار سياسة هجومية شاملة تستهدف فتح بلاد العراق.

لقد أنشئت المدينة في أول الأمر لتكون معسكر إمداد وتموين للجيوش العربية المنتشرة في ساحات الوغى. لكن المدينة مع مرور الوقت، أصبحت هدفا سهلا للقبائل البدوية الموجودة بالناحية وصيدا مضمونا للحركات السياسية المختلفة. حيث عانت المدينة من الثورات والاحتجاجات وضاق أهلها من المضايقات والمصاعب التي عرفوها في العهد الأموي أيام ثورات الخوارج المتكررة.

كانت حركة إبراهيم ذي النفس الزكية في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور هي القشة التي قطعت ظهر البعير حيث كانت هي العامل الأساسي الذي دفع بالخليفة العباسي المنصور إلى بناء سور للمدينة.([2])

وفي هذا الصدد تذكر الروايات أن المنفذ لأمر المنصور بإنشاء سور البصرة هو الوالي الهيثم العتكي الذي قام ببناء السور عام 155هـ/771م، وحفر خندقا حول المدينة، ونظرا إلى أن الأسوار تدخل ضمن البناء الواجب، وأن الفقهاء لم يتأخروا عن حث العامة على المشاركة في بنائها، وتمويل ورشات إنشائها خصوصا، إذا دعت الحاجة إلى ذلك، واحتاجت السلطة إلى العون([3])، لهذا

---

[1] – القزويني، المصدر السابق، ص 807

[2] – عبد الجبار ناجي، المرجع السابق، ص 168

[3] – محمد عبد الستار عثمان، المصدر السابق، ص 135

فقد استوفيت نفقات البناء من أموال أهل البصرة. ويظهر أن هذا السور تهدم أو تقادم الأمر الذي جعل القائم على شؤون المدينة الوالي الواثقي ينشئ سورا آخر سنة 286 هـ/899م.

أنشئ هذا السور أثناء ثورة القرامطة وبلغت الأموال المخصصة لبنائه أربعة عشر ألف دينار. يدل هذا المبلغ الكبير من الأموال على مدى أهمية هذا السور وشساعة المساحة التي كان يحتويها. ظل هذا السور يحمي المدينة حتى زيارة ناصر خسرو لها الذي وصفه بأنه محكم البناء قوي .

أما السور الثالث الذي تذكره المصادر فهو السور الذي بني سنة 516هـ/1132م، وقد امتد هذا السور حول مجال شمل التوسعات التي عرفتها المدينة خارج السور، حيث يبعد هذا السور عن السور القديم بحوالي نصف فرسخ([1]) وقد عرف هذا السور الخراب فسورت المدينة بسور آخر سنة 629هـ/1231م زمن الوالي باتكين([2]).

[1] – ابن حوقل، كتاب صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت ،1992، ص 213.

[2] – عبد الجبار ناجي، المرجع السابق، ص 169.

10 – مصادر المياه:

لقد واجهت مدينة البصرة منذ تاسيسها مشكلة ندرة المياه الصالحة للشرب فالمدينة قد أسست على بعد إثنى عشر ميلا من شط العرب في مكلن شبه صحراوي يفتقر إلى مصادر المياه. ولذلك يظهر من خلال رواية الطبري أن أهل البصرة شكلوا وفدا إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وقد موا شكوى إليه حيث جاء في خطابهم أن إخوانهم في الكوفة " قد نزلوا في مثل حدقة البعير الغاسقة من العيون العذاب... وإنا معشر أهل البصرة نزلنا سبخة هشاشة زعقة نشاشة... يجري إليها ماجرى في مثل مريء النعامة"([1]).

وعلى الرغم من المجهودات الكثيرة التي بذلها الولاة في حفر القنوات لتوصيل المياه الصالحة للشرب لأهل المدينة، فإن مشكلة الماء وملوحته بقيت من أهم المشكلات التي واجهت عملية نمو المدينة وتطورها إلى فترة متأخرة. حيث تطرق الإصطخري([2]) الذي كتب في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي إلى هذه النقطة مبينا أفضلية الكوفة في هوائها وعذوبة مياهها عن البصرة رغم تساويهما في المساحة. أما المقدسي([3]) فيرى أن البصرة ضيقة المياه وأن الماء كان ينقل إليها من الأبلّة في السفن لكون مياه المنطقة مالحة غير طيبة، كما وصفها الرحالة ابن بطوطة في القرن الثامن للهجرة قائلا:" والبصرة على ساحل الفرات والدجلة، وبها المد والجزر كمثل ما هو بوادي سلا، من المغرب وسواه. والخليج المالح الخارج من بحر فارس على عشرة أميال منها، فإذا كان المد غلب الماء المالح على العذب، وإذا كان الجزر غلب الماء الحلو على الماء المالح، فيستسقي أهل البصرة ماء غير جيد لدورهم، ولذلك يقال إن ماءهم زعاق"([4]).

يفهم من كلام ابن بطوطة أن ملوحة مياه البصرة مردها إلى حركة المد والجزر وقربها من البحر مما جعل سكانها يعانون من ملوحة المياه في كل الأحوال. الأمر الذي جعلهم يجلبون مياههم من الأبلة.

---

[1] – الطبري، المصدر السابق، ص 477 وما بعدها.

[2]– الإصطخري، المصدر السابق، ص 82.

[3]– المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 129

[4]– ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 204 – 205.

11- اضمحلال المدينة وخرابها:

عرفت البصرة نموا عمرانيا كبيرا، وعاشت عبر قرون متعددة نشاطا اجتماعيا واقتصاديا منقطع النظير على الرغم من الحوادث التاريخية التي مرت بها والظروف الجغرافية التي عرقلت نموها على مدى هذه الفترة الزمنية.

كانت مدينة البصرة منذ نشأتها مركزا إداريا مهما، فهي وشقيقتها الكوفة كانتا في البداية معسكرين للجيوش الإسلامية الفاتحة، وبعد انتهاء مرحلة فتح العراق وبلاد فارس، وابتعاد ساحات الوغى عنها ، تمكن القائمون عليها من إدارة إقليمها إدارة راشدة، حيث انتفعت البصرة بخيرات هذا الإقليم الخصب ذو الزراعة الكثيفة والمروية، واستفادت من الصناعات التي كانت بها، ووظفت التجارة التي برع فيها أهلها لتنمية اقتصادها وتطوير عمرانها والتعريف بها بين المدن.

لقد نمت المدينة اقتصاديا في العهدين الأموي والعباسي ، فأصبحت في العهد العباسي من أهم موانئ الدولة العباسية، فقد ساعدها موقعها القريب من شط العرب والمنفتح على الخليج العربي على إنماء علاقاتها الاقتصادية مع بلاد الشرق والغرب القديمين بفضل الطرق البحرية التي كانت تربطها بالصين والهند عبر المحيط الهندي، وبباقي المناطق كالحبشة ومصر ودول البحر الأبيض المتوسط عبر البحر الأحمر.

أدى ميناء البصرة دورا تجاريا مهما ساهم في ازدهار اقتصاد المدينة، فأصبحت بفضله من أهم المراكز التجارية العالمية آنذاك ، إذ أضحت مركزا كثر فيه الصيارفة وأصحاب البنوك، فأقبل عليه الناس من شتى أنحاء المعمورة للاستفادة من نشاطه الاقتصادي الكبير. كما كان لنهر المعقل دورا استراتيجيا في ربط المدينة بباقي أنحاء العراق وبالخليج العربي، فازدادت صادرات البصرة إلي الدول المركزية في العالم القديم مما ساعد على علو شأن سلع البصرة فيها، وأصبحت لها مكانة مميزة بين هذه الدول.

لكن المدينة سرعان ما عرفت العديد من الاضطرابات والثورات ابتداء من منتصف القرن الثالث الهجري، وقد أثقلت هذه الظروف الاجتماعية والسياسية وحتى الطبيعية كاهل المدينة، وعملت على إضعاف المدينة والإقلال من أهميتها الاقتصادية والعلمية، فتضاءل عدد السكان بها تضاءلا سريعا نتيجة لهذه الظروف.

وقد كان من العوامل الأساسية التي أدت إلى إضعاف المدينة وتخريبها ثورات الزنج وضربات القرامطة التي أدت إلى إضعاف إنتاج ريفها بسبب الدمار الذي لحق بوسائل الري من منشآت مختلفة فأضحت الأراضي الزراعية لا تصلها مياه الري.

لقد ترتب عن هذه الظروف رحيل العديد من البصريين إلى مدن أخرى أكثر حظا في شتى جوانب الحياة من البصرة، ولعل أحسن وصف لازدهار المدينة ولهذا الدمار الذي لحق بها ما سجله لنا المقدسي إذ قال:" دخلتها (أي البصرة) سنة سبع وثلاثين وخمسمائة وقد خربت ولم يبق من آثارها إلا الأقل ، وطمست محالها فلم يبق فيها إلا محال معلومة كالنحاسين وقساميل وهذيل والمربد وقبر طلحة، وقد بقي في محله بيوت معدودة وباقي بيوتها إما خراب وإما غير مسكونة، وجامعها باقي في وسط كأنه سفينة في وسط بحر لجي، وسورها القديم قد خرب وبينه وبين ما قد بقي من العمارة مسافة بعيدة ... وسبب خرابها ظلم الولاة والجور وأيضا في كل سنة مرة أو مرتين تشن عليهم البادية الغارات وأكثرهم خفاجة، وابتدأ خرابها منذ خرج بها البرقعي وادعى أنه علوي وتحصن بنهر الخصيب، ومحاصرة أحمد الموفق بن المتوكل ... وللبصرة من استفاضة الذكر بالتجارة والمتاع والمجالب والجهاز إلى سائر أقطار الأرض ما يستغني بشهرته عن إعادة ذكره فيه."([1]) ويؤكد ابن جبير أيضا ما قاله المقدسي في سبب خراب المدينة.([2])

---

[1]- المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 313-314.

[2]- ابن جبير، الرحلة، ص 168.

أما ابن بطوطة فلعل أبرز ما لفت انتباهه وهو يتجــول بالبصـــرة قبـــور الصحابة والعلماء المسلمين الذين أصبحت قبورهم بعيـــدة عـــن مركـــز المدينـــة والعمران ربما مرد ذلك إلى الخراب الذي لحق بأجزاء كبيرة من المدينة مما جعل زيارة بعضها أمرا مستعصيا بسبب كثرة الحيوانـــات المتوحشـــة وعـــدم وجـــود العمران بجوارها([1]).

إن هذه الاضطرابات المتوالية التي أشار إليها المقدسي، جعلت لا محالـــة طبقة من سكان المدينة النشطين من تجار وحرفيين يهجرونها إلى مدن أكثر أمنـــا مثل الأبلة التي أصبحت اكبر المدن المحيطة بالبصرة والى بغداد ومناطق أخرى من العالم الإسلامي، وقد استفادت الكثير من المدن من خراب البصـــرة فنمـــت وتطورت بالقرب منها كمدينة شط عثمان والأبلة حتى ظهرت البصرة من جديـــد في العصر الحديث.

ثانيا ــ مدينة الكوفة :

1- تأسيس الكوفة:

حالما تمكن العرب من فتـــح بلاد العراق، وبعد استيـــلائهم علـــى جلولاء والمدائن ([2]) وسيطرتهم على السواد كله، شعروا بحاجة ملحـــة إلـــى إنشاء دار هجرة على تخوم بلاد الرافدين، تصبح معسكرا تنطلق منه جيوشهم لاستكمال عملية الفتح، فالكوفة كانت عند نشأتها توجد في موقـــع اســـتراتيجي حيث كانت تحتل موقعا وسطيا بين جهات الجهاد الدائر بين العرب المسلمين، وجيوش الإمبراطورية الساسانية . ([3])

لقد تمكنت جيوش المسلمين في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه من القضاء على المرتدين في شبه الجزيرة العربية في أواخر سنة 11 هــ وشرعت

---

[1]– ابن بطوطة، الرحلة، ص 304.

[2] – كانت المدائن العاصمة السياسية للإمبراطورية الساسانية، واصطخر عاصمتها الدينية .

[3] – سيطر الفرس على بلاد العراق مدة تفوق الألف سنة وكان العراق بلد خصب وغني .

بعد ذلك في اختبار جبهة العراق بغارات متتابعة سنة 12 هـ / 633 م ([1]) أكدت قدرة الجيوش الإسلامية المتنامية. ([2])

والواقع أن مشروع فتح العراق انتظمت إستراتيجيته في عهد سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حيث بدأ أواخر سنة 13 هـ في تنظيم فتح العراق فوسع جهاتها وحدد أهدافها . ([3])

نجد في كتاب الطبري أن خالد بن الوليد، استولى على أليس والحيرة، وبسما وبنقيا وأمغيشا وبقيت عملية الفتح في نمو مستمر إلى عهد سعد بن أبي وقاص الذي تمكن من حشد مجاهدي قبائل معروفة من البدو كانت قد ساهمت فيما قبل مساهمة كبيرة في حروب الردة. ([4])

ويظهر ممن رافق الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص أن النسبة الغالبة من المجاهدين العرب أصبحت لصالح البدو، وأن أعداد الحضر تناقصت مع الزمن رغم أنها كانت تمثل زبدة القوم ومركز السلطة والقيادة، وجاءت معركة القادسية بعدما استقر العرب في قلعة عذيب المهجورة ([5]) ورستم في النجف ثم عسكر بين الحصين والعتيق، وكان الجيش العربي مكون من ثلاثين ألف رجل ([6]) **(خريطة رقم 13).**

---

[1] – دعيت هذه الغارات الأولى بالأيام، وقد ذكرتها المصادر التاريخية كالدينوري في الأخبار الطوال، ص 112، والبلاد ذري بالتفصيل في فتوح البلدان، ص، 24 .

[2] – لامراء أن العرب نظرا للظروف الجغرافية القاسية لشبه الجزيرة العربية، سبق لهم على طول تاريخهم القديم أن تسللوا إلى بلاد الرافدين، يظهر ذلك بجلاء في نص الطبري حيث يقول حول هذا الموضوع خالطا الحقيقة التاريخية بالخيال : " بأن التجار العرب كانوا يتعاملون مع بلاد الرافدين زمن نبختنصر الذي عاش زمن معد بن عدنان، وأن هذا الملك قد سمح لهم بالإقامة في الأنبار ورغم الخلط الواضح بين حقب التاريخية ذلك أن الأنبار أسست بعد ذلك بكثير زمن سابور ذي الأكتاف. الطبري،المصدر السابق، ج3، ،ص 184 .

[3] – في إطار هذه الإستراتيجية الجديدة، عمد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى توسيع مشاركة العرب في فتح العراق والهجرة إليه، متجاوزا بذلك دائرة المدنيين وقبيلة ثقيف .

[4] – كقبيلة تميم وغطفان وأسد .

[5] – الطبري، المصدر السابق، ج2، ص 424 .

[6] – أما الجيش الفارسي فيتراوح عدده ما بين 60 ألف إلى 120 ألف رجل. الطبري، المصدر السابق، ج3، ص 505 .

جرت المعركة بين العرب والفرس على حدود بادية العرب([1]) وقد جهز الفرس جيشهم خير تجهيز وربطوا بعضهم ببعض بالسلاسل واستعملوا الفيلة([2]) كما جرت العادة عندهم في حروبهم.

دخل الجيش الفارسي مدرعا بالحديد متثاقلا في الحركة، واعتمد قائدهم رستم إستراتيجية الاستنزاف والحرب النفيسة([3]).

أشارت المصادر إلى حذر رستم الشديد ذلك أنه مقبل على معركة صعبة لا غنيمة فيها إن توجت بنصره كما أن هزيمته فيها تعد كارثة عليه وعلى دولته لكن العرب لم ينتظروا كثيرا حيث بادروا بسرعة إلى المعركة.

استمرت هذه المعركة الأساسية والفاصلة أربعة أيام وليلة هي: يوم أرماث([4])، ويوم أغوات، ويوم عماس([5])، وليلة الهرير، ويوم القادسية.

لقد استأسدت الجيوش الإسلامية في المعركة، وصبرت رغم كثرة الخسائر وكان لها النصر صبيحة يوم القادسية بعد مقتل رستم وانهيار الجيش الفارسي .

---

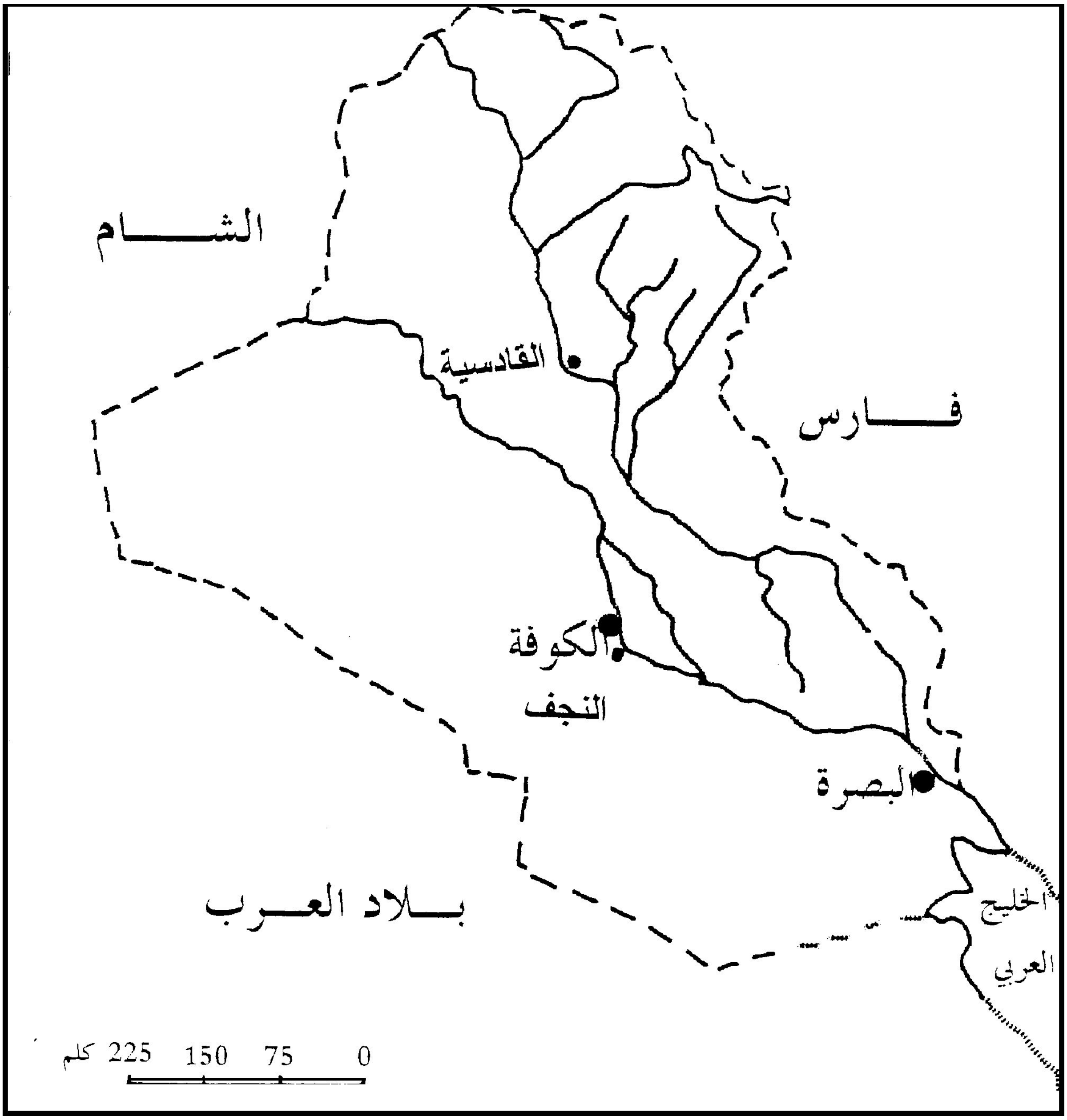
[1] – بحيث لا يفصل بينهم وبين نجدات المدينة أي حاجز طبيعي، ويبقى بإمكانهم العودة إلى صحرائهم فيأي وقت ــ وكان الجمعان يتموقعان في أسفل منحدرات الطف ــ أما الفرس فقد انتشروا على ثلاثة عشر صفا خلف نهر الفرات .

[2] – الطبري، المصدر السابق، ج2، ص 420. البلاذري، المصدر السابق، ص 256.

[3] – واجهت فيها العرب صدام الفيلة، وقد تمكنوا من التصدي لها، وكانت خسائرهم كثيرة إذ فاقت ألفين وخمسمائة شهيد. هشام جعيط، الكوفة نشأة المدينة العربية الإسلامية، دار الطباعة، بيروت، الطبعة الثانية 1993، ص 19 .

[4] – الطبري، المصدر السابق، ج2، ص 406 وما بعدها.

[5] – المصدر نفسه، ص 412- 417- 424.



خريطة رقم 13: موقع معركة القادسية من إعداد الطالب

لقد فتح هذا النصر العظيم طريق العراق للجيوش الإسلامية وجاء تتويجا لجهود دامت ثلاث سنوات. تواصلت الأحداث بسرعة بعد هذا الانتصار الساحق، وتم فتح منطقة السواد كافة ([1]) (**خريطة رقم 14**) وبما أن التوسع العربي كان مرتبطا بإعلاء كلمة الله وإيصالها إلى أقاصي الأرض، ولما جاء الفتح ليؤمن نتائج الفتح الذي قبله ويؤكدها، فقد استمرت الجيوش الإسلامية المنتصرة في متابعة الفرس وقد أسفرت هذه المتابعة على التقاء الجيشين في وقعة المدائن الطاحنة .

خرج المسلمون إلى المدائن مدفوعين بضرورة استكمال نصرهم الذي أحرزوه في معركة القادسية بفتح عاصمة الفرس والقضاء على السلطة الفارسية في العراق، ورغم أن الفرس قد تمكنوا من إعادة تنظيم صفوفهم ولونسبيا، إلا أن فاجعة القادسية التي لم ينسوها بعد، قد تركت في نفوسهم اضطرابا وزعزعة في صفوفهم، الأمر الذي سهل مهمة الجيش الإسلامي.

تقدمت الجيوش الإسلامية في الطريق الواصل بين الحيرة وبابل فالمدائن فالنهروين فجلولاء في اتجاه حلوان والري([2]) وكانت هذه المنطقة كثيرة النخيل والترع، والقنوات الرابطة بين نهري الفرات ودجلة، كما كانت ذات كثافة عمرانية كبيرة حيث تنتشر فيها القرى والمدن الصغيرة انتشارا واسعا .

لقي المسلمون الفاتحون بعض المقاومة في لزس([3]) وفي بابل ثم حوصرت بهرشير مدة شهرين([4]) وكان حصارها ممهدا لفتح المدائن([5]).

---

[1] – الطبري، المصدر السابق، ج2، ص 432.

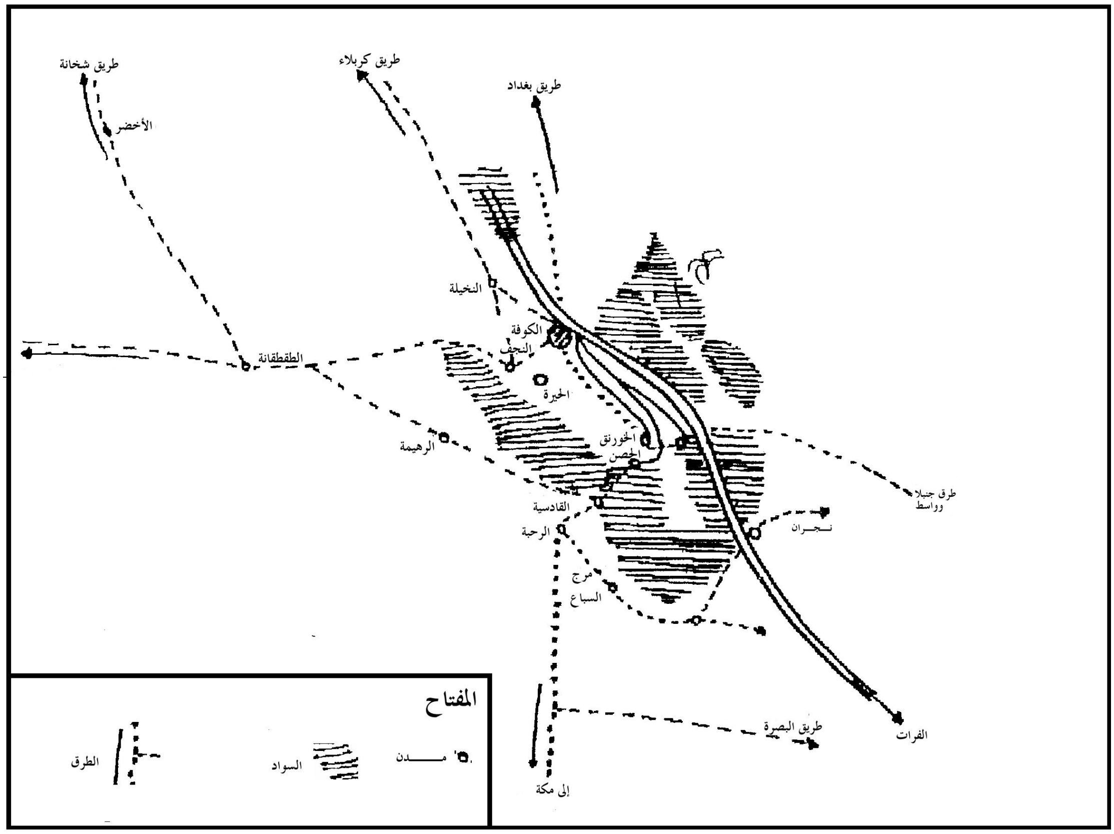
[2] – هشام جعيط ، المرجع السابق، ص 51 .

[3] – البلاذري، المصدر السابق، ص 262 – 263 .

[4] – الطبري، المصدر السابق، ج2، ص 458

البلاذري، المصدر السابق، ص 262 .

[5] – كانت هذه المدينة جزءا من مجموعة المدن المكونة للمدائن، فضلا على أنها مفتاحها .



خريطة رقم 14: منطقة السواد عن(ماسينيون)

لم تكن المدائن من حيث تكوينات مخططها مدينة موحدة بل كانت مدينة أرخبيلية([1]) نمت على ضفتي نهر دجلة يربط بينهما جسر، وقد تمكن الفرس من إخلاء بهرشير وتمركزهم على الضفة الشرقية للنهر دون تفطن العرب، وقاموا بتحطيم الجسر، لاستغلال مياه النهر كحاجز طبيعي يحول دون عبوره من طرف الجند العرب بسرعة، ولربح بعض الوقت لتنظيم صفوفهم، لكن المسلمون لم يكن مثل هذا الحاجز ليوقفهم، بل عبروا نهر دجلة على ظهور جيادهم([2]) ورغم ذكريات الجسر المريرة تمكن المسلمون من التغلب على خوفهم من ماء النهر، وقد فاخروا بهذا الحدث فسمي هذا اليوم بيوم الماء([3]).

استقرت العرب بالمدائن بصفة مؤقتة، وتقاسموا بينهم دورها([4]) وكان الاستيلاء عليها بلا قتال .

بدأ التأهب إلى معركة جلولاء الفاصلة، وهي آخر المدن الواقعة في الأراضي السهلية قبل الوصول إلى المناطق الجبلية، وكانت المدينة تتحكم في الطرق الرابطة بين الشمال والجنوب وبين الشرق والغرب ([5]). فهي الحاجز والحصن من الناحية الإستراتيجية([6]). كانت المعركة حامية الوطيس سريعة، استولى فيها العرب على غنيمة عظيمة .

أ – تنظيم السواد وأثره في تأسيس الكوفة :

بعد استكمال فتح العراق، رفض عمر بن الخطاب رضي الله عنه مواصلة فتح الأراضي الإيرانية والاكتفاء بالسواد، وكأن الفرس رضوا بهذا الوضع فلم يحاولوا استرجاع ما أخذ منهم .

---

[1] – يتكون مركب المدائن بداية من مدينتين هما سلوقية المؤسسة ما بين 312 و301 قبل الميلاد غرب نهر دجلة، وطيفوس شرق دجلة والمؤسسة سنة 221 قبل الميلاد، وهي وريثة أوبيس " opis". تطورت مدينة طيفوس وتوسعت توسعا كبيرا مدمجة بذلك عددا من القرى المجاورة، أما سلوقية ذات الأصل اليوناني فإنها على خلاف جارتها عرفت تدهورا كبيرا ولم يبق منها أيام الفتح إلا ضاحيتها الجنوبية التي أصبحت تسمى أردشير، عرب الاسم من طرف العرب ليصبح بهرسير، وكانت الضاحيتان ترتبطان فيما بينهما بجسر .

[2] – البلاذري، المصدر السابق، ص 263 .

[3] – الطبري، المصدر السابق، ج2، ص 462 .

[4] – الطبري،المصدر السابق، ج2، ص 462 – 463– 464 .

[5] – بين أذربيجان وجبال فحراستان .

[6] – لم يكن للمدينة تحصينات كبيرة، بل عمل الفرس على تحصين مواقعهم بمواقع تحت أيديهم .

لقد اغتنم قادة الفتح تبـــلور الوضع والهدوء النسبي في ساحات القتال وعملوا على تنظيم الأراضي المفتوحة لتشجيع الفلاحين على البقاء فيها واستغلالها خير استغلال كما فعل الرسول صلى الله عليه وسلم مع يهود خيبر وفدك ([1]) كما عمدوا إلى الإبقاء على الهياكل الجبائية الفارسية ([2]) وعدم تقسيم الأراضي التي فتحت بالقوة وخصصوا ديوانا للعطاء يدفع مستحقات المجاهدين ([3]) والنخبة الإسلامية المدنية المسجلة بالديوان .

ويظهر من النصوص التاريخية، أن بلاد العراق قد تمتعت منذ وقت مبكر باستقلالية مالية، ساهمت مساهمة كبيرة في إنشاء مدينة الكوفة وتكوينها ([4]) .

ب- توجيهات عمر وأثرها في اختيار الموقع :

وردت في المصادر التاريخية أخبار كثيرة عن تأسيس الكوفة، والواقع أن العرب استقروا أول أمرهم بالعراق في المدائن وجلولاء، غير أن مناخ هذه المدينة لم يلائمهم، وظهرت عن وجوههم علامات الصفرة والتعب وبعض الأعراض المرضية، ففهموا مع مرور الوقت أن مناخ هذه المنطقة غير صحي فهو متعفنا وخيما على قول الطبري([5]) ثم إن إبلهم لم تألف هذه المنطقة لانتشار لانتشار المساحات المائية بها، وكثرة البعوض الذي كان يؤذيها أشد أذاء .

جاء اختيار موضع الكوفة وفق الشروط التي حددها الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد جاء في وصيته لسعد بن أبي وقاص أن يبحث عن موضع لإنشاء دار هجرة لا يفصلها البحر([6]) عن المدينة([7]).

---

[1] – الطبري، المصدر السابق،ج2، ص 83 .

[2] – هشام جعيط : المرجع السابق، ص 59 .

[3] – البلاذري، المصدر السابق، ص 265 .

[4] – هشام جعيط، المرجع السابق، ص 67 .

[5] – الطبري، المصدر السابق، ج2، ص 477- 478 .

[6] – بمعنى النهر هنا .

[7] – البلاذري، المصدر السابق، ص 275 .

ويظهر أن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه أراد بتوجيهاته هذه أن تحقق المدينة التي سيؤسسها المسلمون بهذه البلاد أهدافا إستراتيجية كأن لا يكون بينها وبين المدينة عاصمة الدولة الإسلامية الناشئة حاجزا يحول دون وصول المدد والنجدة إليها متى تطلبت الظروف ذلك([1]) ثم أن أعراض التعب والسقام التي ظهرت على أفراد الجيش دفعت بعمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى توجيه الأوامر إلى قادة جيوشه قصد البحث على الموضع الملائم من الناحية المناخية لطبيعة العرب الذين اعتادوا على المناخ الجاف([2]) في شبه جزيرتهم وستكون مواقع الكوفة والبصرة والفسطاط وفيما بعد القيروان ــ هذه المدن التي أسست كلها على حواف الصحراء ــ أماكن يشبه مناخها وطبيعتها مناخ وطبيعة شبه الجزيرة العربية مما جعل العرب الفاتحين يتأقلمون بسرعة مع مناخات هذه الأراضي المفتوحة([3]).

لقد جاء اختيار موقع المدينة والموضع الذي ستنشأ عليه وفق التوجيهات المباشرة للخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان هذا الاختيار حاملا لرؤية الخليفة الثاني السياسية والعسكرية، فهو يريد أن تبقى الصفة العسكرية قوية عند المجاهدين وبالتالي التأكيد على ضرورة الحفاظ على الهوية الثقافية العربية([4])، وعلى السليقة البدوية المحاربة ثم أن اختيار موضع الكوفة في مكان على حافة الصحراء جاء ليستجيب لمتطلبات الجند النفسية أكثر منها تلبية لمتطلبات اقتصادية، فالبدوي بطبيعته يحب المساحات المستوية الواسعة المفتوحة الأفق، وتقلقه الأماكن الكثيفة الأشجار العديدة الحواجز، كمنطقة جلولاء والمدائن التي اشتهرت بكثرة نخيلها وجناتها وتعدد بركها وسواقيها .

---

[1] – هشام جعيط، المرجع السابق، ص 68. وقد جاء في قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد اطلاعه على مساوئ موقع المدائن من الناحية الإستراتيجية والصحية لا تجعل بيني وبينهم – يعني المجاهدين – بحرا وفي رواية أخرى لا تجعل بيني وبينهم بحرا وعليك بالريف .

[2] – نجد في النصوص أن عمر بن الخطاب قال في موضوع المناخ الملائم للعرب " أن العرب بمنزلة الإبل لا يصلحها إلا ما أصلح الإبل. " الطبري، المصدر السابق، ج1، ص 10 .

[3] – ثم أن أغلبية الجيش الإسلامي كان مكون من البدو، فكان عليهم التأقلم على حياة الاستقرار واستبدال نمط حياتهم .

[4] – هشام جعيط، المرجع السابق، ص 67 .

ومع ذلك فقد وفر الموضع الذي أسست عليه مدينة الكوفة، ميزات أهمها كونه جاء بين المناطق المزروعة المعمورة بالقرى والمدن الآهلة بالسكان الخاضعين للدولة الراشدة([1])، والذي سيوفر الميرة لأهل المدينة، وبين البر الذي سيكون مجالا ترعى فيه إبل العرب ومواشيهم، ومجالا لتفسحهم وتدريبهم، والذي لا يفصله عن بلاد شبه الجزيرة العربية حيث مقر عاصمة الخلافة الإسلامية حاجز طبيعي (بحر) كما جاء في توجيهات الخليفة الثاني عمر بن الخطاب([2]).

ج – اختيار الموقع وتحديد الموضع :

اتسمت شخصية عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه بجدية فـائقة وبحرص شديد على مصالح الأمة، وبمعالجته لعظـائم الأمور وتتبعه لدقائقها، لذا نراه حريصا كل الحرص على تقديم النصائح والإرشادات وتوجيه الأوامر لجنده بالعراق في حربهم وفي سلمهم في الأمور المتعلقة بالحرب([3]) وفي الشؤون التنظيمية لبلاد العراق بعدما فتحت.

وقد جاءت نصائحه في أعمار البلد وعمرانه وعمارته دالة على ثقافته الواسعة وحرصه الشديد على تامين الفتح وتوطيد سلطة الإسلام بالمنطقة، ولتلبية وصايا عمر في اختيار المكان الذي سيشهد تأسيس مدينتهم الجديدة خرجت فرقتان من العارفين بأمور العمران والتعمير في جولة استكشافية على امتداد نهر الفرات ، كانت الأولى بقيادة حذيفة بن اليمان، أما الثانية فترأسها سلمان([4]) فقد طاف الرجلان بمواقع كثيرة بحثا عن المواقع التي تتوفر فيها بعض الشروط المتفق عليها، وقد تحدثت بعض المصادر التاريخية عن مدينة الأنبار([5]) التي أقام فيها القائد سعد بن أبي وقاص مدة من الزمن، والتي غادرها بعد أن كره جيشه الإقامة فيها بسبب الأذى الذي لحقه من كثرة الذباب الذي كان منتشرا بها([6]).

---

[1] – المرجع نفسه، ص 69 .

[2] – البلاذري، المصدر السابق، ص 275 .

[3] – البلاذري، المصدر السابق، ص 317 .

[4] – الطبري، المصدر السابق، ج2، ص 477.

[5] – والحقيقة أن هذه المدينة كانت نقطة إستراتيجية فهي على مدخل ممر سيء ربط الفرات بدجلة، إلا أن هذه المدينة كانت تقع وراء الفرات، أي لم يتوفر بها شرط أساسي من الشروط التي حددها الخليفة عمر بن الخطاب بأن لا يكون بينها وبين المدينة المنورة عائق .

[6] – البلاذري، المصدر السابق، ص 275 .

ويظهر أن الحيرة لم تعجب العرب لكثرة توغلها في البادية وبعدها عن مصادر المياه (نهر الفرات) والسواد الذي كان يمثل المنتوج الأول لحياة العرب. والأنبار والحيرة([1]) مدينتان قديمتان قائمتان بذاتهما، عبر عمرانهما وعمارتهما على حضارات قديمة، وديانات لا صلة لها بالدين الإسلامي وكانت هياكلها ثابتة يصعب تحويلها وتوظيفها وفق متطلبات الدين الجديد والاعتماد عليها في تجسيد فكرة العمران الناشئ.

وفي هذا الصدد نرى أن العرب كانوا مصيبين عندما اختاروا لتأسيس الكوفة أرضا عذراء بنوا فيها ديارهم، وخططوا فيها أحياء وحارات حسب ما تمليه عليهم ظروفهم، وطبقا لأمزجتهم وعملا بتعاليم دينهم الجديد وكانوا أحرارا في تجسيد ذلك لم يتقيدوا بشروط عمران الحضارات القديمة وتظهر هذه الحرية بوضوح على خطة المدينة الجديدة التي أنشئت على شكل حارات بمادة بنائية خفيفة قابلة للنقل والتشكيل([2])، وكما أن المعسكر الأول جاء مفتوحا على محيطه معبرا على طبيعة من يسكنه وحبه للحرية فلا سور إلا حاجز من قصب لا يمنع عن المعسكر إلا دخول الحيوانات .

من المعروف أن العرب كانت لهم معرفة مسبقة بالجهة التي ستنشأ في موضع ما منها مدينة الكوفة، فالراجح أنهم قد جابوها عدة مرات أثناء غاراتهم المتتالية على العراق، فالحيرة تقع على مقربة، وقد زاد من معرفتهم لها وقوع المعارك بها، فقد وقعت معركة الكريب فيها، ومعركة القادسية بجوارها .

لقد كانت هذه المنطقة مهمة للجيوش العربية الآتية من شبه الجزيرة العربية، فهي الممر والمجاز إلى السواد، ومنها يمكن عبور الفرات الأوسط بسهولة، ثم إن المنطقة على وسطيتها تمثل نقطة التقاء الطرق الرابطة بين مناطق

---

[1] – لا يعرف موقع الحيرة على التحديد، هل هوغرب الكوفة أوفي جنوبها الغربي .

[2] – لواختار العرب الاستقرار في الأنبار أوالحيرة، لما كانت لهم فرصة الإعمار بالطريقة التي يرونها مناسبة لهم، وتتماشى وفق طبائعهم، ولما تمتعوا بحرية إنشاء عمران يربط ماضي البداوة بحاضر الاستقرار، فالأنبار والحيرة كانتا لجمود هياكلهما وقدم عمرانهما جامدتي الهياكل، يصعب على البدوي العيش فيهما وتحويرهما حسب مزاجه .

واسعة من العالم القديم، اشتهرت باختلاف مناخاتها وغزارة إنتاجها من المواد المختلفة ونشاط تجارتها .

لقد عمل عمر بن الخطاب رضي الله عنه من خلال اختيار موضع الكوفة الذي اشترط أن يكون بمحاذاة السواد الغني بالمحاصيل الزراعية والآهل بالسكان مع بعض التأخر عنه على إنشاء معسكر يجمع الجند العرب ويحد من انتشارهم وأبلهم بين الأقوام، ويحفظ في نفس الوقت تميزهم وأصالتهم .

استوفى موقع الكوفة شروطا عديدة، فهو مكان توفر على اعتدال الموضع وجودة الهواء ووفرة المياه([1]). بهذا تكون الكوفة قد أنشئت في موضع صحي، في منطقة شبه صحراوية، وفي مكان يدخل فيه البر في الريف البدوي([2]). يرتفع الموضع الذي أسست عليه الكوفة عن مستوى سطح البحر بـــنحو: 22 مترا([3]) ويتوسط بطائح مغمورة بالمياه يكثر فيها القصب وسباخ مالحة تكثر فيها الأعشاب الصحراوية.

أما من حيث مواد البناء فتكثر في الموضع مواد الإنشاء المختلفة من قصب، ورمل أحمر وحصباء وحلفاء، ستسخر كميات هائلة منها لإنشاء المدينة أول الأمر كالقصب واللبن والآجر ... الخ.

برزت طبيعة هواء الكوفة، وحتى مناخها في مجالس المفاخرة بين المدن وكان أهل البصرة يفتخرون بهذه الميزة التي انفردت بها الكوفة([4]).

لقد جمع موضع الكوفة ميزات كثيرة فهومحاط من كل جهة بمناظر تختلف من حيث المظهر والشكل والمضمون والطبيعة اختلافا كبيرا فمن جهة الصحراء، ومن جهة ثانية بطائح الماء، ومن جهة ثالثة سباخ الملح، ومن جهة رابعة النهر ومياهه الجارية([5]).

---

[1] – الطبري، المصدر السابق، ج2، ص 479 .

[2]- Massignon , explication du plan de kufa ,in opéra minora , t 111 , p. 37 .

[3] – أي أنه عال لا تصله مياه الفيضانات عند فيضان أنهار العراق، وينعم في نفس الوقت بتجديد متواصل لهوائه لكونه في مهب الريح .

[4] – ويعترفون بعيوب مدينتهم العديدة انظر ياقوت الحموي، المصدر السابق،ج1، ص 192 .

[5] – الطبري، المصدر السابق، ج2، ص 479.

لم يكن الموقع الذي ستنشأ عليه الكوفة قد عرف قديما استقرارا للبشر بصفة كبيرة، ولا استصلاحا ملفتا للانتباه لأراضيه، بل كل ما ورد في المصادر حول الإنشاءات التي وجدت فيه يتلخص في بعض الأديرة القديمة ([1]) التي تتصل بها مساحات أرضية يغطيها القصب([2]).

في ظل هذه الظروف الطبيعية المميزة للمنطقة، وعلى هذا الموضع الغريب، سينشأ المعسكر الإسلامي الأول خارج المدينة المنورة والذي يعتبر المختبر الأول للمدينة الذي سيظهر فيه الفكر العمراني العربي الإسلامي بوضوح بعدما ظهرت إرهاصاته الأولى في المدينة المنورة، ويعتبر المحل الأول جانب مهم من جوانب الحضارة العربية الإسلامية، بحيث تطاحنت فيه البداوة بكل ما تحمله من معاني بمساوئها ومحاسنها بحياة الاستقرار والتمدن الذي سيشهده الموقع وما يحمله من تحول نحو المجهول في المستقبل بالنسبة لعرب البادية تحت بوتقة الإسلام، وجاء هذا المولود الجديد على هشاشته قوي البنية، تلك البنية التي استقاها من تعاليم الدين الإسلامي أولا ثم من قوة المسلم البدوي.

لقد تجمعت في المعسكر الكوفي الأول قبائل وعشائر عربية، منها ما هي قديمة العهد بالإسلام ومنها ما هي حديثة العهد به([3])، أغلبها بدوية في نمط عيشها، جاءت من مختلف مناطق شبه الجزيرة العربية القريبة منها والبعيدة، واستقرت في هذا المعسكر لتؤسس مجتمعا إسلاميا أصيلا بأتم معنى الكلمة.

إن الطابع الغالب على السياسة الخارجية للخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه هو فكرة الفتح وتوسيع دائرة الأراضي الإسلامية، ويأتي في مقدمة سياسة الفتح هذه أولوية الاستقرار في البلاد المفتوحة وأهميتها وذلك بتشجيع الهجرة إليها ([4]) وتنظيم عملية الاستقرار بها .

---

[1] – وهي ثلاثة ذكرها الطبري تحت اسم دير حرقة، دير عمرو، دير سلسلة. االمصدر السابق، ج1، ص 111.

[2] – هشام جعيط، المرجع السابق، ص 71 .

[3] – ارتدت بعض هذه القبائل عن الإسلام فحاربها الخليفة أبوبكر الصديق رضي الله عنه .

[4] – لقد هيمنت فكرة الهجرة إلى أرض العراق والاستقرار بها بصفة أوضح أكثر مما كانت عليه في فتح بلاد الشام .

استقبلت مدينة الكوفة الناشئة عددا كبيرا من الجند المسلمين فبدت وكأنها وليدة الفتح الإسلامي، وكأنها أيضا نتيجة مباشرة لتمكن العرب الفاتحين من بلاد العراق، وكان من النتائج المترتبة عن ذلك أن أصبحت الكوفة ميدانا تدربت فيه القبائل البدوية على نظم الحياة الجديدة، ومخبرا تعرفت فيه على حياة الاستقرار وتطورت فيه الحياة تدريجيا بدءا بحياة البداوة التي عرفتها المدينة في بداياتها الأولى، ومرورا بمرحلة الانتقال من البداوة إلى التحضر، وانتهاء بمرحلة التمدن والتحضر الذين عرفتهما المدينة مع مرور الزمن .

لم تكن الكوفة عاصمة للخلاقة بل كانت إحدى مدنها الأساسية، فهي مدينة تحكمت في المناطق المفتوحة في هذه الناحية من البلاد، وستتحكم أيضا في المناطق التي ستفتح فيما بعد ([1])، فقد أدت منذ نشأتها دورا هاما في الحفاظ على الوسع الإسلامي بالشرق، وفي إمداد هذه الجبهات المتتابعة في هذه الناحية بالعدة والعدد .

إن إنشاء مدينة الكوفة لم يكن الهدف منه بناء حصن تتمركز فيه حامية إسلامية ([2]) بل كانت بالنسبة للمسلمين موطنا جديدا يقيم فيه العرب المهاجرون إقامة دائمة، وبنية ألا رجعة بعد أن فارقوا أوطانهم البعيدة واعتمدوا حياة الاستقرار كأسلوب جديد لهم في الحياة، فقطنوا المصر([3]) الجديد ليصبحوا من المجتمعات المتحضرة .

لقد كانت الكوفة بالنسبة لهذه الثلة من الفاتحين، المدينة المدرسة التي تكونت فيها طبقة من العرب المسلمين الفاتحين على مختلف أساليب حياة التمدن وعلى هذه الثقافة الجديدة، فأنتجت حضارة راقية أصيلة سواء على الصعيد البشري وما نتج عنه من تعاملات حضارية في الحياة اليومية، أوعلى الصعيدين المعماري أوالعمراني .

---

[1] – كان للكوفة ثغور عديدة تدافع عنها وتحرسها كالموصل وحلوان، وقرقيسيا .

[2] – كما هو الحال على التخوم والمناطق الحدودية .

[3] – يعرف ابن خلدون كلمة مصر بقوله : " فالمصر هو الحاضرة بالضبط " وقد استعمل هذا المصطلح كتسمية للظاهرة المدنية في أشد نقاوتها وفي أشد تعارضها مع البداوة .

وكان من سمات العمران الجديد أن قسمت الأراضي المخصصة للبناء في الكوفة على شكل خطط ([1]) فجاء هذا التقسيم متماشيا مع ما قام به الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة عندما وزع الأراضي الموات على المهاجرين فأعطى آل الزبير خطة، وبني مخزوم خطة، وبني تيم خطة([2]).

والجدير بالذكر أن كل من استفاد من خطط الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة كان من الحضر ([3]) بينما كان العكس في الكوفة، إذ أن الغالبية منهم كانوا من البدو، وقد ساعد هذا التوزيع في الكوفة على تحضيرها لتتطور من معسكر للجند كانت تتشكل طبقاته الاجتماعية من البدو أول الأمر، حيث سكنتها فخوض من قبائل أسد وتميم وكندة البدوية ([4]) لتتحضر هذه القبائل بمرور الزمن في هذا الإطار المكاني والزماني . هذا دون أن نغفل ما كان للقبائل اليمنية ([5]) التي امتازت بماضيها السحيق في الاستقرار والتمدن من شأن كبير في هذا المجال، وما أدته أيضا مجموعة من الصحابة من ذوي الجاه، والشرف، والمال، والنفوذ، والسلطة، من دور بالغ الأهمية في تحريك ديناميكية التمدن([6]).

لم تكن الكوفة عاصمة عراقية فحسب، ولا مركزا اقتصاديا مهما، ولا ثقافيا مشعا بالنسبة لهذا القطر، إنما كانت كما كان الحال في بعض الحواضر الإسلامية التي ستنشأ فيما بعد ــ كمدينة القيروان مثلا ــ مدينة متفتحة على الأفق البعيد لها (الأراضي الإيرانية) مثلما كان المغرب الأقصى وبلاد الأندلس بالنسبة لمدينة القيروان. ورغم أن السواد كان يشكل العمود الفقري لاقتصاد هذا المصر، الذي تميز بتزايد عدد سكانه وتوسعه العمراني، ونموه الاقتصادي، بحيث يعتبر هو الممول الرئيسي له بما يحتاج إليه من ميرة، ([7]) فإن تركيبة هذا البيت السكانية وتنظيمه لم يطرأ عليها تغير بسرعة بل بقي على حاله في

---

1 – الطبري، المصدر السابق، ج2، ص 479.

2 – ابن شبة، المصدر السابق، ص 141 وما بعدها.

3 – القبائل التي هاجرت مع الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة.

4 – أبقت هذه القبائل على روابط مع حضارتها السابقة مع أعتزازها بأصلها البدوي بل أنها قد ربطت هذا الماضي بالضرورة التي أملتها عليها البيئة الجغرافية لا باختيار منها .

5- Massignon, op.cit P. 11.

6 – لقد اختلفت أراء المستشرقين في الأسباب التي جعلت هذه الديناميكية ممكنة منهم من أصاب بعض الشيء كماسينيون ومنهم من أخطأ كليا وأضاع منهج البحث وتعصب كبلنهول .
Xavier et Planhol , les fondements géographiques de l'histoire de l'islam , Paris , 1968 .

7 – يذكر ابن الفقيه الهمذاني في مختصر تاريخ البلدان(ليدن، 1885)أن السواد هو بستان الكوفة .

مرحلة ما قبل الفتح لمدة زمنية طويلة، بحيث كانت تربطه بالكوفة علاقة سلطوية تمثل وجهها في جامعي الضرائب من دهانيق كانوا يمثلون الدولة .

إن توفر الإمكانيات المعيشية في المدينة، وتوسع آفاق الرزق بها، ذلك أن أهلها استفادوا من أموال الفيء والخراج، ومن هبات الخلافة ومن التجارة ([1]) والحرف ومن أبواب رزق أخرى مختلفة، لا ترتبط بالضرورة بما ينتجه السواد، ساعدت على نموالمدينة وتطورها .

لقد كانت مدينة الكوفة الأولى في القرنين الأول والثاني للهجرة، واسعة مفتوحة مهيأة، مدينة تجدرت فيها الحضارة العربية الإسلامية([2]).

د – مراحل نمو الكوفة :

توحي النصوص التي وردت في المصادر التاريخية حول مدينة الكوفة على ما هي عليه من تشتت في المعلومات وقلتها، وتؤكد ذلك الحفريات الأثرية التي أجريت في موقع المدينة،([3]) أن هذه الأخيرة عرفت مراحل نمو متتابعة ([4]) تخللتها فترات جمود وتقهقر من ناحية التطور العمراني([5]).

تذكر المصادر التاريخية([6]) أن مدينة الكوفة قد مصرت سنة 14هـ/635م، وتذهب روايات أخرى إلى أنها أسست في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعلى وجه التحديد في سنة 17 هـ / 638م وعرفت أثناء خلافته خاصة تطورا نوعيا كما شهدت أثناء فترة الخلافة الراشدة على وجه

---

[1] – على أن التجارة على أهميتها في تطور المدن لم تكن من العوامل الأساسية في تطور الكوفة ونموها في مراحلها الأولى .

[2] – لم تكن المدينة قد أخذت طابعا شعبيا فارسيا بعد، وهذا ما سيحصل في القرنين الثالث والرابع للهجرة .

[3] – عزيز حسن الدليمي، حفريات البصرة القديمة، مجلة سومر، المجلد الثامن والأربعون، 1996، ص 44 – 62

[4] – وهي على التوالي:

- مرحلة خلافة عمر بن الخطاب : 17 – 23 هـ / 638 – 613 م .
- مرحلة ولاية زياد بن أبيه : 50 – 53 هـ / 670 – 673 م
- مرحلة ولاية خالد القصري : 105 – 120 هـ / 723 – 737 م
- مرحلة العصر العباسي الأول : 132 – 197 هـ / 791 – 813 م .
- مرحة العصر العباسي الثاني : 197 – 331 هـ / 813 – 915 م .

[5] – هاجر العديد من الكوفيين هذه الحاضرة في اتجاه بغداد، وكان جل المهاجرين من الطبقات العالية والقوة الحيوية في مجال الثقافة والمال .

[6] – ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص 154. المقدسي، أحسن التقاسيم،، ص 105.

العموم بروز أهم خصوصيات عمرانها ومعالمها ومؤسساتها، غير أن هناك من يرى أن تأسيسسها كان سنة 18هـ/635م، في حين يرجعها البعض إلى سنة 19هـ/ 640م، والشائع أنها أسست سنة 17هـ/638م. أما عن تسميتها فتجمع أغلب المصادر التاريخية على أنها مشتقة من طبيعة المنطقة الرملية التي تختلط بالحصى([1]).

نستشف من خلال كتابات بعض المؤرخين القدامى مثل الطبري والمؤرخين المحدثين مثل العمل القيم الذي أنجزه ماسينيون وكذلك الدراسة القيمة حول هذه المدينة التي قام بها هشام جعيط، وعلى رغم قلة المعلومات سواء كانت مصدرية أو أثرية حول المرحلة الأولى من قيام الكوفة (مرحلة الخلافة الراشدة) فإنه يبدو جليا أن المدينة كانت طول هذه الفترة في مرحلة التأسيس والتكوين، فعمارتها كانت متواضعة وعمرانها كان بدائيا ورغم هذا كله فقد حدد هذا العصر العديد من الأمور في بنية الكوفة، وتوجيه مخططها، وميزها عن غيرها من مدن العراق القديم، وجعل منها أنموذجا في تخطيط المدن الإسلامية التي ستأتي بعدها .

2 – تخطيط المدينة:

لقد وصفت الكوفة في الأيام الأولى لنشأتها على أنها تجمع من أكواخ أنشئت بالقصب لتوفره في الناحية، وكانت هذه الأكواخ تقام عند الحاجة وترزم عندما يخرج الجيش إلى الجهاد، ذلك أن المجاهدين في ذلك الحين كانوا يصطحبون معهم عائلاتهم في حملاتهم المتكررة، وبعد أن نشب حريق كبير في هذا التجمع العشوائي المنشئ بمادة القصب، اضطر القوم إلى إعادة تهيئته أثناء ولاية المغيرة، فظهرت على موضع المدينة جهات محاطة باللبن أكسبته صفة الدوام، ولم يعمد القوم إلى البناء بالآجر إلا مع بداية النصف الثاني من القرن الأول الهجري

---

[1] – البلاذري، فتوح البلدان، ص 274. المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 105. ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص 154. اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج2، ص 274. الطبري، تاريخ الطبري، ج4، ص 40-43.

أي في عهد ولاية زياد بن أبيه (50هـ/706م) ([1])، ويمكن تفسير ذلك بمقارنة تطور مدينة الكوفة في مرحلة التكوين بمدينة القيروان في المرحلة نفسها.

وقد فسر ماسينيون هذا الشكل من تكوين وجه المدينة مستعينا بالأحداث التاريخية والتطورات السياسية والعسكرية التي عرفتها هذه المرحلة([2]).

لقد عرف عمران المدينة في أيامها الأولى مرحلة من عدم وضوح الرؤية والتردد بين نمو نحو مصر ترتبط أحواله بأحوال البلاد الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، أو نمو مرتبط بمقتضيات الجهاد وتوجه نحو تأسيس معسكر لتقطنه حامية عسكرية، حيث ظهر هذا التردد بجلاء في السنين الأولى عندما كانت المدينة معسكرا لاستراحة جند الجيش الإسلامي يرتادونه عند الحاجة، فتنشأ في فترة وجيزة أكواخ القصب ([3]) ثم تفكك في وقت قصير بنزع القصب وإعادة تحزيمه، فكأنها الزمالة عاصمة الأمير عبد القادر المتنقلة رغم اختلافهما في المادة الإنشائية ذلك أن أكواخ الكوفة كانت تنشأ بمادة القصب أما الزمالة فكانت تضرب بخيام الشعر والصوف([4]).

وقد اعتمد الطبري كثيرا في خبره على تأسيس المدينة على سيف بن عمر الذي يروي أن أهل الكوفة عندما أرادوا إنشاءها طلبوا من الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه السماح لهم باستعمال القصب في البناء فأذن لهم رغم أنه كان يفضل بقاءهم في معسكراتهم ([5])، وبعد تلف الكوفة بسبب حريق شهر شوال أي في الشهر العاشر من إنشائها عاود أهلها طلب الإذن من عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالبناء ولكن هذه المرة أن يسمح لهم باستعمال مادة اللبن في البناء .

---

[1] - الطبري، المصدر السابق، ج2، ص 479 – 480.

[2]- Massignon , op. cit , p 11 et s .

[3] - وهنا يظهر الاختلاف بين المصادر التي تتحدث عن مراحل تكون المدينة فمنها من يتحدث أصحابها عن مرحلة " خصاص القصب " أي حزم القصب وقد وردت نصوص كثيرة كؤكد هذه المرحلة بالنسبة لمدينة البصرة، أما الكوفة فلم ترد بصددها إلا نصوص قليلة تتحدث عن مرحلة القصب بها، الأمر الذي جعل بعض المؤرخين كهشام جعيط يتحدث عن إسقاط ما تجمع من أخبار حول البصرة على الكوفة. هشام جعيط، المرجع السابق، ص 86.

[4] - احتلت مواد البناء في هذا التصور مكانا هاما في تكوين الكوفة وبلورتها من معسكر مؤقت إلى مدينة فهناك إذن مرحلة خصاص القصب ومرحلة الخيام المحاطة باللبن، ومرحلة الآجر .

[5] - الطبري، المصدر السابق، ج2، ص 479 .

وقد جاء في كتاب الطبري بهذا الخصوص : " فبعث سعد منهم نفرا إلى عمر يستأذنوه في البناء باللبن، فقدموا عليه بالخبر عن الحريق، وما بلغ منهم ــ وكانوا لا يدعون شيئا ولا يأتونه، إلا وآمروه فيه ــ فقال: افعلوا، ولا يزيدن أحدكم على ثلاثة أبيات ولا تطاولوا في البنيان، وألزموا السنة تلزمكم الدولة "([1]).

وقد حدد عمر رضي الله عنه مقاييس الطرق فأمر بالمناهج([2]) بأربعين ذراعـــا وما يليها ثلاثين ذراعا وما بين ذلك عشرين والأزقة سبع أذرع([3]).

يظهر من هذا كله أن مدينة الكوفة كانت نتاج لتمصير إرادي عقلاني ظهرت معالمها السياسية بسرعة ومنذ أول وهلة، وأن مواد الإنشاء المختلفة تعايشت لمدة طويلة، رغم أن القصب كان طاغيا في أول الأمر، وأن اللبن والآجر ظهرا وسادا فيما بعد .

أ – مركز الكوفة :

تتفــق أغلب المصادر على كيفية تحديد المجال المركزي للمدينة الإسلامية عامة والذي كان يضم المسجد ودار الإمارة (القصر والأسواق) ([4]).

أما بالنسبة للكوفة فقد تشكل مركزها من عناصر هامة وهي الجامع ودار الإمارة (القطري) والأحياء السكنية التي كانت موزعة توزيعا قبليا والتي أحاطت بالنواة المركزية السالفة الذكر، تتصل بينها الشوارع والدروب الصغيرة وما شابه ذلك من عناصر الاتصال كالمناهج التي تميزت باتساعها لتكون شريطا بارزا وفاصلا في الوقت نفسه بين الخطط بحيث تسمح للمجاهدين بالتجمع فيها في أحسن الظروف وبأسرع وقت ممكن خاصة عندما يكون هناك طارئ. (**مخطط رقم 11**).

وسيرا على الخطة التي اتبعها الرسول صلى الله عليه وسلم في تعمير المدينة المنورة ، ومن خلال مخطط تعمير الكوفة يظهر أن أول معلم بني

---

[1] – الطبري،المصدر السابق، ص 479

[2] – الطريق الأعظم

[3] – الطبري، المصدر السابق، ج2، ص 479

[4] – البلاذري، المصدر السابق، ص 275 .

بالموضع كان جامع الكوفة الأول الذي تعرفنا عليه من خلال النصوص التي وردت حوله بالمصادر التاريخية القديمة.

ب – مسجد الكوفة:

لقد كان هذا المسجد متواضعا من حيث العمارة، ومن حيث المواد الإنشـــائية المستعملة في بنائه شأنه في ذلك شأن مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة الذي استعمل في بنائه المواد الإنشـــائية المحلية من اللبن وجذوع النخيل وسعفه. وكان المسجد قد شيد في المنطقة المركزية للمدينة وكان يمثل النواة المركزية في تخطـــيط المدينة، بحيث انطلقت من أبوابه المناهج التي حددتها أول وهـــلة صفوف الخيام.

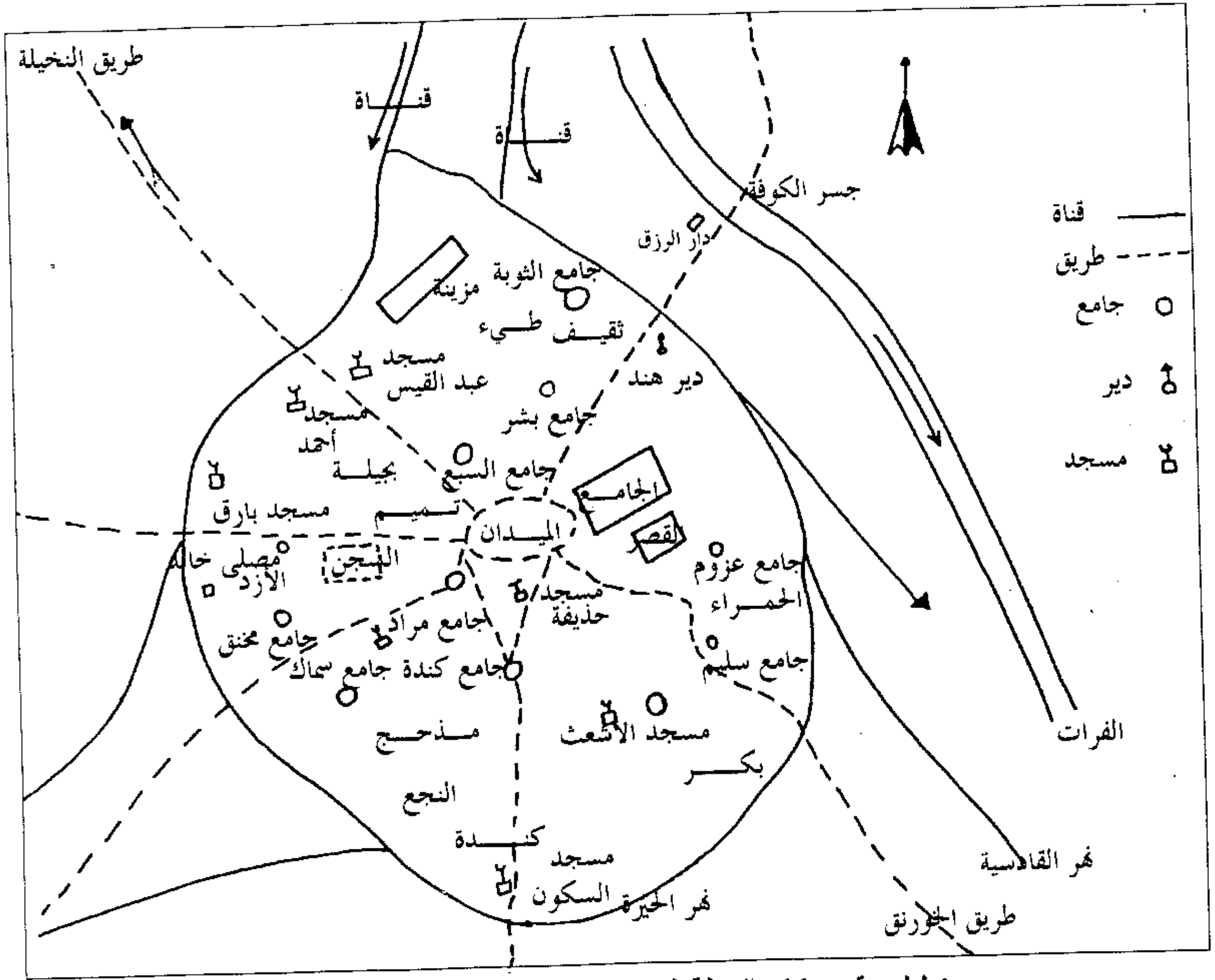
والمسجد مربع الشكل طول ضلعه 110م، وتذكر النصوص أن مسجد الكوفة الأول كان عبارة عن مساحة من الأرض العذراء محاطة بسياج من القصب أو سور من اللبن قليل الارتفاع ([1]) وكان على هذه الصفة قبل فترة إمارة زياد بن أبيه.

وقد هدم هذا المسجد بعد سرقة بيت المال أيام سعد، وأعيد بناؤه قرب دار الإمارة([2]) فكان ملاصقا لها، أما مكان المسجد الأول فقد أصبح جزءا من سوق الكوفة حيث خصص هذا المكان لباعة الصابون والتمر.

---

[1] – هشام جعيط، المرجع السابق، ص 99 .

[2] – وقد أرجعت المصادر سبب تقريب المسجد من دار الإمارة إلى أسباب أمنية ذلك أ ن المسجد كانت تقوم عليه الحراسة ليلا ونهارا .



مخطط رقم: 11 الكوفة في القرنين الأول والثاني للهجرة حسب ماسينيون

ويبدو أن هذا المسجد رغم تحويله من مكان إلى آخر فقد بقي ذا تخطيط بسيط تميز بفضاء واسع محاط بسياج([1]) وغير مبني، وقد اقتصر البناء فيه على ظلة شيدت جهة القبلة لوحظ عليها بعض التحسن في البناء مع تحويل المسجد من مكانه الأول إلى جوار دارالإمارة، **(مخطط رقم 12)** حيث بنيت بمادة صلبة يحتمل أنها الآجر. كما تفيد المصادر أن الظلة كانت تقوم على أساطين([2]) من الرخام قد جلبت من مباني قديمة يعتقد أنها قصور ملوك الأكاسرة ولم يكن المسجد آنذاك يحتوي على مجنبات (أروقة جانبية) ولا على مؤخرة، وكانت سعة الظلة مائتي ذراع مقسمة إلى خمس بلاطات، وقد حددت مساحة المسجد بخندق([3]) يكون حدا فاصلا بينه وبين خطط القبائل، وعمل الناس على المحافظة على حرمته وعلى تنفيذ وصية عمر في هذا المجال الذي أراد لمسجد الكوفة خصوصا وللمسجد في المدينة الإسلامية عموما أن يكون مكانا جامعا يتسع لأكبر عدد ممكن من المسلمين([4]).

ظـــل المسجد هكـــذا على حالـــه إلى عهد زياد بن أبيه، حيث عرف بعض التوسعات والزيادات التي ضاعفت من إمكانيات استقباله للمصلين حيث قدرت طاقة استيعابه بستين ألف شخص بعد ما كانت أربعين ألف.

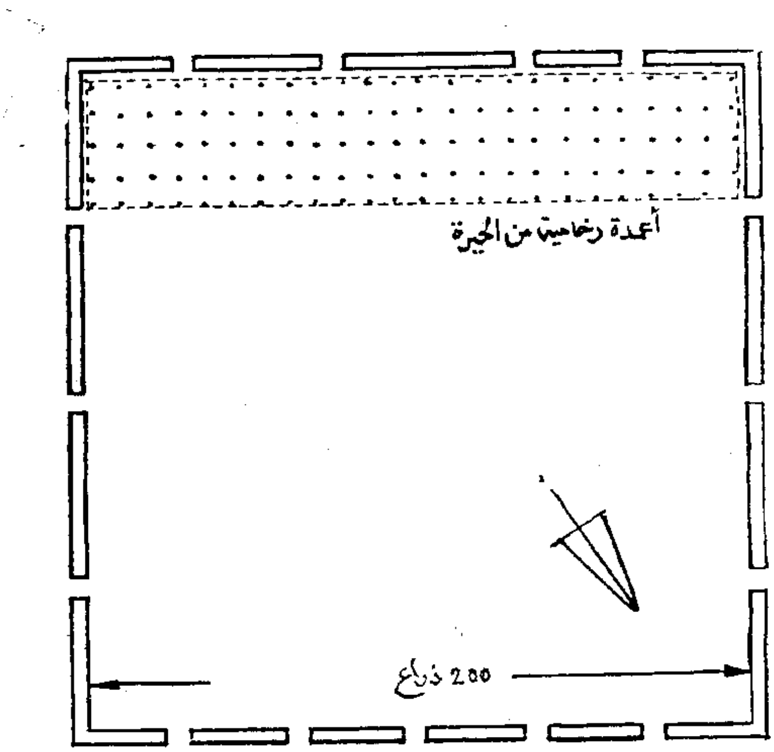
---

[1] – ومع أن المصادر تختلف في المادة التي أنشئ بها سياج المسجد فيما إذا كانت من قصب أومن لبن أومن الاثنين معا، إلا أنها تتفق على كون هذا السياج غير عال حيث كان من الممكن جدا مشاهدة دير هند وباب الجسر من صحن المسجد.

[2] – لم يتحدث البلاذري عن أساطين ولا على أي بناء زمن سعد بن أبي وقاص، وأن ما وجد منها يرجع إنشاءها إلى زمن زياد بن أبيه، وهوفي ذلك يتفق مع ما ذهب إليه ياقوت الحموي. المصدر السابق، ص 275.

[3] – محمود مطلق، تاريخ العمارة الغسلامية والوربية في العصور الوسطى، جامعة حلب، حلب، 1982، ص 62.

[4] – حيث أوصى بأن يكون واسعا ليسع عدد المقاتلين آنذاك الذي بلع أربعين ألفا.



مخطط رقم 12: مسجد الكوفة

المقياس: 1 / 1200
عن: (كمال الدين سامح)

قصور ملوك المناذرة في الحيرة. ([1]) وقد شهد المسجد إضافات جديدة في هذه الفترة، تمثلت في بناء الأبواب ورفع علو الجدران حيث بلغت ثلاثين ذراعا وكسيت أرضيته بالجص بعد ما كانت ترابا كما زود المسجد أيضا بمقصورة الإمام. ([2]) كما جلب زياد بن أبيه إلى هذا المسجد مجموعة من الأعمدة الحجرية من جبال الأهواز حيث كانت تنقر ثم تثقب وتحشى بمادة الرصاص الذائب ويتم تدعيمها بسفافيد الحديد التي ربطت بينها وبين السقف المرتفع([3]).

وتؤكد النصوص التاريخية على أن العمال الذين قاموا بالبناء أثناء عهد زياد بن أبيه كانوا من عرب الحيرة النشاطرة ([4]) وربما يرجع ذلك إلى امتلاكهم خبرة كبيرة في هذا الميدان وتحكمهم في زمام الأمور، وذلك لكونهم سبق لهم وأن ساهموا في بناء مدينة الحيرة، الشيء الذي لم يكن في متناول المسلمين الفاتحين من جهة، ومن جهة ثانية لارتباطهم بتنفيذ المهمة الأساسية الموكلة إليهم ألا وهي فتح البلاد والحرص على استقرار الأمن بها .

لقد أعجب المؤرخون والجغرافيون القدامى على السواء بمسجد الكوفة، فأسرفوا في وصفه ووصف بنائه وسعته وكان هذا المعلم الديني يلعب دورا هاما في المدينة كمركز لتجمع السكان ومكانا يلتقي فيه المسلمون خمس مرات في اليوم لأداء الصلوات، وحيزا كبيرا يتجمع فيه الناس مرة كل أسبوع لصلاة الجمعة، لكن حالة المسجد الجامع بالكوفة تدهورت بعد مرور الزمن، وذلك لكثرة القلاقل والثورات التي عرفتها والتي أثرت على مكانتها وعلى صورة مخططها، فقد وصفها الرحالة ابن جبير وصفا يفهم منه أن المدينة وصلت إلى حالة تدهور متقدمة، وأن الشيء الغامر منها أكثر من العامر، فصار مسجدها الجامع يسمى بالمسجد العتيق وهوعلى حسب قول هذا الجغرافي موجود في آخر المدينة مما يلي الجانب الشرقي منها بينه وبين المدينة مسافة خرب عمرانها([5]). ويظهر من خلال هذا الوصف، ومن وصف ابن بطوطة الذي سنذكر نصه لاحقا أن الجامع رغم هذا كله قد بقي كبيرا مترامي

---

[1] – البلاذري، المصدر السابق، ص 281 .

[2] – زود مسجد البصرة بمقصورة أيام هذا الوالي.

[3] – الطبري المصدر السابق، ج1، ص 11 – 16، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1، ص 191 .

[4] – عبد الجبار ناجي، المرجع السابق، ص 120 .

[5] – ابن جبير، المصدر السابق، ص 168.

الأطراف يحتوي جانبه القبلي على خمسة بلاطات، وفي سائر الجوانب الأخرى بلاطتان، وقد وضعت على أعمدة من السواري مبنية من الحجارة ومنحوتة قطعه، وقد فرغ فيها الرصاص([1])، وفي هذا يقول ابن بطوطة : " وجامعها الأعظم جامع كبير شريف، بلاطاته سبع، قائمة على سواري حجارة ضخمة منحوتة قد صنعت قطعا ووضع بعضها على بعض وأفرغت بالرصاص، وهي مفرطة الطول."

لقد كان جامع الكوفة مفتاح تصميمها، والنقطة المركزية التي أحاطت بها المناطق الاقتصادية من أسواق، ودروب تؤمها أعدادا من الحرفيين والحذاق، توصل إلى هذا المركز شبكة من الشوارع والأزقة تربطه بكل أنحاء المدينة، وبالمسالك التجارية الكبرى .

كما توزعت حول هذا المركز الواسع المتمثل في المساحة الواسعة التي حدت المسجد ودار الإمارة الأحياء السكنية التي جاءت على شكل خطط قبلية فجاءت خطط بني أسد في جهة قبلة المسجد، ونزل بنو سليم وثقيف مما يلي صحن المسجد، وقد حدد موضع دار الإمارة مقر الإدارة بالنسبة لاتجاه القبلة([2]).

---

[1] – ابن بطوطة، المصدر السابق، ص231

[2] – ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج1، ص 191 .

ج – دار الإمارة :

أسست دار الإمارة أول الأمر قرب جامع الكوفة، وكان يربط بين المعلمين طريق طوله مائتي ذراع([1])، وكانت دار الإمارة تضم بداخلها بيت مال المسلمين.استمر الوضع على حاله فترة من الزمن إلى أن تعرض بيت المال للسرقة، فكتب سعد بن أبي وقاص إلى الخليفة عمر بن الخطاب يخبره عن هذه الحادثة وعن مكان بيت المال فأمره أن ينقل المسجد الجامع من المكان الذي أسس فيه أول الأمر ويجعله محاذيا لدار الإمارة شريطة أن تكون هذه الأخيرة إلى قبلة المسجد وقد قصد الخليفة بهذا الفعل أن يكون بيت المال أكثر أمنا بحكم أن المسجد يكون مأهولا بالمسلمين في كل وقت ناهيك عن أوقات الصلاة.

ودار الإمارة عبارة عن مبنى مربع الشكل أبعاده 110م×110م تقريبا، وقد شيدت هذه الدار بمادة الآجر والجص، جدرانها سميكة وصل سمكها في بعض الأحيان إلى 2م. وقد دعمت هذه الجدران بأربعة أبراج نصف دائرية، أما من الداخل فقد شملت هذه الدار على مجموعة من الوحدات البنائية خصصت كل وحدة لغرض معين، كمخازن المؤن والحمام والمطبخ والغرف. لقد أصبح مخطط هذه الدار نموذجا لبناء قصور الخلفاء الأمويين فيما بعد فقد جاء تخطيط قصر المشتى الذي شيده الأمويين ببادية الشام مشابها لمخطط دار الإمارة بالكوفة، كما ظهرت تأثيراتها الزخرفية أيضا في القصور الأموية التي شيدت في بادية الأردن([2]).

والملاحظ أن دار الإمارة والمسجد كانا يشكلان نواة المدينة، وحولهما توزعت خطط القبائل العربية كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

---

[1] – الطبري، المصدر السابق، ج2، ص 479.

[2] – الألوسي (سالم)، موجز دليل آثار الكوفة، وزار ة الثقافة والإرشاد، سلسلة الكتب الحديثة، بغداد.1965. ص 12 – 13 .

3 - تحصين المدينة:

لم تشر المصادر التاريخية([1]) إذا كانت مدينة الكوفة قد حصنت بسور أوخندق في السنوات الأولى لتأسيسها، ولعل هذا لا يدعو إلى الاستغراب، حيث يعتبر هذا الأمر في هذه الأحوال من الأمور المسلم بها، ذلك أن المدينة في هذه الفترة بالذات من عمرها مازالت في طور الإنشاء والتوسع وأن عمرانها معرض للتغير والتطور في وقت سريع، ولن يستقر عند حدود معينة، فكلما استقبلت المدينة موجات بشرية جديدة كلما ازداد عمرانها توسعا. مما حال دون إحاطتها بسور يدفع عنها الأذى، زيادة على هذا فإن الغرض من إنشاء هذه المدينة كان غرضا عسكريا، ذلك أن بدايتها كانت عبارة عن معسكر للجند العرب الهدف من إقامته هواستقرار حامية من الجند المسلمين بها للدفاع عن الأراضي المفتوحة بالدرجة الأولى، ثم اتخاذها كقاعدة تنطلق منها الحملات لمواصلة الفتوحات في اتجاه بلاد فارس. ومن هذا الباب يبدو أن الحاجة لم تكن ماسة لتدعيم هذا المعسكر بسور يحميه من هجمات العدو مادامت المهمة الأولى له هي الدفاع عن الأراضي الإسلامية، فضلا عن هذا فإن العدو معروف وأن المدينة كان يفصل بينها وبينه حاجز طبيعي يتمثل في نهر الفرات الذي يعيق كل هجوم خاطف على المدينة. لهذا لم تعرف المدينة بناء سور حولها إلا في عهد الخليفة العباسي أبوجعفر المنصور – ذلك أنه إذا صحت رواية محمد بن عمر الواقدي، فإن الخليفة أبوجعفر المنصور أحاط المدينة بخندق وبنى حولها سورا، وقد أضطر إلى جمع الأموال من الأهالي لتمويل أعمال الحفر والبناء.([2])

وإذا ثبت فعلا أن المدينة كانت منذ عهد الخليفة أبوجعفر المنصور محاطة بسور، فإن المدة الزمنية التي بقيت فيها المدينة محصنة بسور لم تعرف، ذلك أن المصادر التاريخية والجغرافية لم تشر إلى وجود هذا السور([3]) وهو ما ذهب إليه

---

[1] – الطبري، المصدر السابق، ج2، ص477 وما بعدها. البلاذري، المصدر السابق، ص 274 وما بعدها.

[2] – الطبري، المصدر لسابق، ج8، ص46

[3] – مثل المقدسي وابن حوقل

أيضا الرحالة الذين زاروا المدينة، فابن جبير الذي زارها في القرن السادس الهجري كتب يقول:" هي مدينة كبيرة عتيقة البناء، قد استولى الخراب على أكثرها، فالغامر منها اكثر من العامر... وبناء المدينة بالآجر خاصة، ولا سور لها"([1]).

ورغم أن ابن جبير لم يذكر أي أثر لوجود السور، إلا أن تأكيده على خراب معظم أجزاء عمران المدينة يدعوننا إلى الاعتقاد أن سور المدينة الذي أشار إليه الواقدي يكون قد تحطم بفعل يد الإنسان وعوامل الدهر، وقد زار المدينة بعد ابن جبير الرحالة ابن بطوطة الذي لم يذكر بدوره أي أثر لوجود هذا السور([2]).

4- اضمحلال المدينة وخرابها:

لقد أدت الكوفة دورا هاما في فتح بلاد العراق، والدول المجاورة لها، وكانت حقا تمثل الطريق الذي تمر منه الجيوش العربية الفاتحة، وكانت هي والبصرة تمثلان قاعدة خلفية للجيوش الفاتحة، ولما أصبحت ساحات المعارك بعيدة عنها واطمأن أهلها، عملت الكوفة على تطوير اقتصادها في ظل السلم الذي نعمت به، وقد اعتمدت في بنائه على ثلاثة محاور أساسية ، تأتي في مقدمة هذه المحاور الزراعة ثم التجارة والحرف، تكاملت هذه العناصر فيما بينها وأنتجت اقتصادا قويا ونشيطا كان من نتائجه ظهور الحرف المختلفة والأسواق الكثيرة بالمدينة أدت إلى تنشيط التجارة بها، علما أنها كانت مركزا عمرانيا وسط منطقة ريفية كثيرة الإنتاج([3]).

أما في ميدان العلم والمعرفة، فقد كانت الكوفة مركز إشعاع ثقافي في بلاد العراق، انعكس نوره على البلاد الإسلامية، فساهمت مع مرور الزمن مساهمة كبيرة في بناء الفكر التنويري، وتطوير العلوم، وخير دليل على ذلك ما قدمته مدرسة الكوفة النحوية من خدمة للغة العربية.

---

[1] – ابن جبير، المصدر السابق، ص 168

[2] – ابن بطوطة، المصدر السابق، ص231

[3] – المقدسي، أحسن التقاسيم ، ص 105. ابن حوقل، صورة الأرض، ص 215.

لقد أنجبت هذه المدينة الإسلامية أجيالا من العلماء والمحدثين والفقهاء والأدباء...إلخ، فأصبحت مقصدا لطالبي العلم عبر تاريخها الطويل.

والجدير بالتنويه إليه أيضا، أن هذه المدينة أدت دورا رياديا في عهد الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، حيث كانت تمثل عاصمة الخلافة خارج منطقة شبه الجزيرة العربية، مما زاد من شهرتها ومن أهميتها التاريخية خلال القرن الأول الهجري. أما في العصر العباسي فقد بلغت الكوفة أوجها الحضاري في شتى مناحي الحياة العلمية والاقتصادية والعمرانية والمعمارية، فكانت المدينة قبلة للقوافل التجارية ومقصدا للعلماء والطلاب، مما ولد طبقة معتبرة من العلماء والمثقفين ذوي الدرجات العالية جعلت منها عاصمة للعلم والفن على مدى فترات طويلة.

وعلى ذكر القوافل التجارية ينبغي أن لا نغفل الموقع الاستراتيجي للكوفة بين مدن المنطقة، ولهذا لا بد من القول أن المدينة كانت نقطة التقاء الطرق التجارية، فكان المتوجه صوب دمشق يمر بها، وكذلك الأمر بالنسبة لقاصد بغداد فلابد عليه من الدخول إليها، بالإضافة إلى هذا فهي محطة مهمة من محطات الحج.

وإذا كانت هذه العوامل التي أشرنا إليها قد ساعدت على نمو الكوفة وتطورها، فإن هناك عوامل أخرى ومستجدات ظهرت مع الزمن لم تكن في صالح الكوفة رغم أهميتها، نذكر منها الطرق التجارية البحرية التي لم تستفد منها المدينة مثل البصرة كونها وسيلة رئيسية في عملية الاتصال بينها وبين بقية العالم، فرغم قرب المدينة من نهر الفرات، إلا أن صعوبة الملاحة النهرية بهذا النهر في المنطقة القريبة من المدينة، لم تسمح باستغلاله في النشاط التجاري مما جعله عاملا رئيسيا ساهم في اضمحلال المدينة، ذلك أن التجارة البحرية أقل تأثرا بالثورات والانتفاضات وبقطاع الطرق من البدو التي كانت تلحق الأذى بالقوافل التجارية.([1])

---

[1] – ابن بطوطة، الرحلة، ص 231.

أما العامل الثاني الذي ساهم في اضمحلال الكوفة، هو ظهور مدينة بغداد كعاصمة للدولة العباسية وكطرف منافس لها، فقد أثرت تأثيرا مباشرا على الكوفة أكثر من البصرة لقرب الأولى من مدينة بغداد التي سلبتها كل نشاطاتها حسب ابن حوقل.([1]) زد على ذلك أن من بين العوامل التي عجلت خراب هذا المصر في القرن الخامس الهجري الهجمات المتتالية التي كانت تشنها عليها القبائل البدوية المتمركزة في محيطها الزراعي. ويبدو أن قبيلة خفاجة التي كان لها دورا كبيرا في خراب البصرة، لم تسلم الكوفة أيضا من شر هجماتها.([2]) هذا دون أن نغفل هجمات بعض القبائل الأخرى كقبيلة بني أسد وعقيل وعبادة ([3]) مما أنهـك مقاومة المدينة وجعلها عاجزة عن الدفاع عنها فأسرع الخراب إليها.

ثالثا: مدينة الفسطاط:

قبل الحديث عن مدينة الفسطاط بوصفها عاصمة لمصر الإسلامية، يجدر بنا التذكير أن مدينة الإسكندرية كانت عاصمة مصر في العهد البيزنطي ، وقد جاء موقع هذه المدينة كما هوالحال بالنسبة لموقع مدينة قرطاج على ساحل البحر الأبيض المتوسط الذي بقي لمدة طويلة من الزمن بحيرة رومانية بيزنطية.

وقد سميت الفسطاط ([4]) بهذا الاسم لأنها أسست في الموضع الذي ضرب فيه عمرو بن العاص فسطاطه عندما فتح مصر سنة عشرين هجرية، فاختطت

---

[1] – ابن حوقل، صورة الأرض، ص 215.

[2] – ابن جبير، الرحلة، ص 167– 168. ابن بطوطة، الرحلة، ص 231.

[3] – عبد الجبار ناجي، المرجع السابق، ص 202.

[4] – يذكر المؤرخون العرب روايات عديدة في سبب تسمية المدينة بالفسطاط أبرزها أن عمرو ابن العاص عندما أراد التوجه لفتح الإسكندرية أمر بنزع فسطا طه، أي خيمته، فإذا فيها يمامة قد فرخت قال عمرو لجنده:" لقد تحرم علينا عليها بمحرم". فلما قفل المسلمون راجعين من الإسكندرية قالوا أين تنزل، قيل الفسطاط يعنون فسطاط عمرو الذي خلفه بمصر مضروبا لأجل اليمامة وفراخها فغلب عليه ذلك. أما المؤرخون الغربيون فيرون أن هذه القصة من نسج الخيال ويرون أن هذا الاسم إنما هو مشتق من

القبائل العربية خططها حول فسطاطه فأصبحت المدينة الناشئة منذ ذلك الحين تعرف بهذا الاسم. والفسطاط لغة بيت من الشعر.([1])

1- تأسيس الفسطاط:

لقد عمل عمرو بن العاص في اختياره لموقع الفسطاط على احترام الشروط التي وضعها سيدنا عمر ابن الخطاب رضي الله عنه في تحديد موقعي المدينتين اللتين أنشئتا قبل الفسطاط في بلاد العراق ألا وهما مدينتي البصرة والكوفة([2]). وقد كان أهم هذه الشروط في تلك الفترة أن لا تقع هذه المدن وراء حاجز طبيعي يفصلها عن المدينة المنورة عاصمة الدولة الإسلامية الناشئة آنذاك، فيمنع عنها المدد عند الضرورة، كما حرص على إبعاد القائد الفاتح عن البحر لأن السيطرة فيه كانت للدولة البيزنطة.

يبدو من خلال المصادر التاريخية، أن القائد عمرو بن العاص قام بعملية استكشاف لمناطق واسعة من أرض مصر بحثا عن موقع يتوافق مع شروط تأسيس المعسكرات الإسلامية الأولى التي سنها الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ويتلاءم مع الإطار الذي كان يبتغيه لهذه المدينة، فوقع اختياره على موقع سهلي قريب من حصن بابليون ([3]) يقع في ناحيته الشمالية. يحده جبل المقطم من الناحية الشرقية، ويقع بمحاذاة نهر النيل من الجهة الغربية([4]). (**مخطط رقم 13**)

وإذا كان الشرط الأساسي والإستراتيجي المتمثل في عدم وجود حاجز طبيعي (بحر أو نهر) يفصل المدينة التي بصدد التأسيس عن عاصمة الخلافة

الكلمة اليونانية Fossatum أي الخندق.أنظر: اليعقوبي، البلدان، ص 91، والبلاذري، فتوح البلدان، ص 214، وابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص 61

[1]- اليعقوبي، كتاب البلدان، ص 91. ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص 61. ابن منظور، لسان العرب، ج5، ص 128

[2]- Ayman, Fuad Sayyed et Rolant- Pierre Gayraut, Grandes villes méditerranéennes du monde Musulman médiéval, collection de l'école Française de Rome, sous la direction de Jean Claude Garcin, école française de Rome, 2000, p. 13

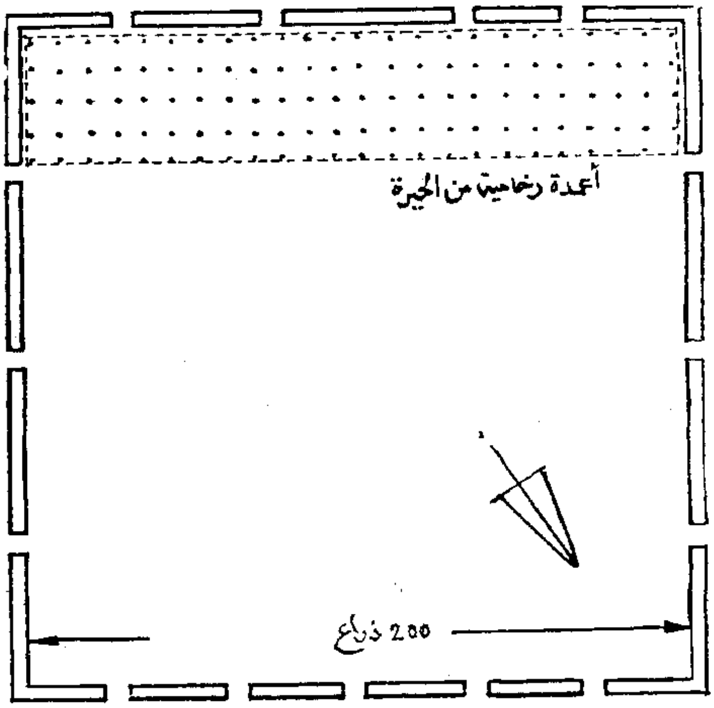
[3]- لقد جاء موقع المدينة في منطقة أسست فيها العديد من العواصم المصرية القديمة كممفيس، أون، وبابليون.

[4]- زكي عبد الرحمان، القاهرة تاريخها وآثارها من جوهر القائد إلى المؤرخ الجبرتي، القاهرة، 1996، ص 3

أصبح موجودا، فإن موقع الفسطاط بالإضافة إلى المعيار السابق، قد توفرت فيه أيضا الشروط اللازمة لإقامة المدن من ماء وفير، وأرض خصبة، ومحطب قريب، وهواء عليل،([1]) ناهيك عن كونه يمثل نقطة التقاء القوافل التجارية، وفوق كل هذا فإن المدينة تتربع على موضع محمي من ثلاث جهات: فهذا النيل يشكل حاجزا دفاعيا طبيعيا يحميها من الغرب، وهذه هضبة المقطم والجبل الأحمر يحولان دون وصول العدو إليها من الجهة الشرقية بسهولة، وهذه بركة الحبشة التي تتكون من مجموعة من المستنقعات تحصنها طبيعيا من الجهة الجنوبية وتشكل عائقا أمام من يريد مهاجمتها من هذه الجهة. أما الجهة الشمالية فكانت مفتوحة بحيث خلت من الحواجز الطبيعية، وهي التي ستشكل منطقة التوسع العمراني للمدينة الناشئة، ويمكن تحصينها والدفاع عنها عند الضرورة.

لقد جاء اختيار عمرو بن العاص لموقع الفسطاط استجابة لضرورات إستراتيجية، ونتيجة للظروف التي أملتها هذه المرحلة من التاريخ الإسلامي، ذلك أن الإسكندرية على رغم استبحار عمرانها، وتطورها الحضاري في العراق، حيث أنه أرادها وسطية لا يفصلها حاجز طبيعي عن المدينة، وأن تكون للعرب مدن فتح لا يخالطون فيها الشعوب الخاضعة لسلطانهم.

[1] – ابن حوقل، المصدر السابق، ص 137



مخطط رقم 12: مسجد الكوفة

المقياس: 1 / 1200

عن: (كمال الدين سامح)

لهذه الأمور مجتمعة اختار عمرو بن العاص رضي الله عنه موضع شمال حصن بابليون ([1])على مقربة من مدينة ممفيس العاصمة الفرعونية القديمة، وكان هذا الموضع قد سبق وأن عسكرت فيه جنده أثناء حصارها للحصن. وهكذا وتنفيذا لأوامر الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقد جاء الموضع الذي ستؤسس عليه مدينة الفسطاط على الضفة الشرقية لنهر النيل.

2- تخطيط المدينة:

سيرا على سنة الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة، وتبعا لما قام به قائدا الجيشين الفاتحين في البصرة والكوفة، كان أول ما بدأ به القائد عمرو بن العاص رضي الله عنه في تعمير مدينته هو إنشاء المسجد الجامع ليكون النواة الأولى التي ستنشأ حولها المدينة وبجواره دار الإمارة، ثم اختط بالقرب منه ـــ في المنطقة المحيطة بهذا المركز الإشعاعي الهام ـــ سوقا ليكون هذا المكان الذي يجمع هذين المعلمين نقطة جذب يلتقي فيها المسلمون للعبادة والعمل وتسيير شئونهم اليومية.

وحول ذلك سمح للقبائل المكونة للجيش باقتطاع خطط لها،([2]) فجاءت خطة أهل الراية أقرب هذه الخطط إلى المسجد الجامع، وكانت تظم جماعة من قريش والأنصار، وجمع من القبائل المختلفة نذكر منها على سبيل المثال ثقيف، وعبس، وحرش، وغيرها. وقد عرفوا بهذا الاسم لأنهم جماعة لم يكن لكل بطن منهم الكفاية العددية للظفر باسم قبيلته، وقد كره كل بطن منهم أن يدعى باسم قبيلة لا ينتمي إليها فجعل لهم عمرو بن العاص راية يميزون بها. ويلي خطة أهل الراية من جهتها القبلية خطة مهرة وهي قبيلة عربية اتخذت لها من سفح جبل يشكر منزلا لها. ومن أشهر خطط الفسطاط خطة اللفيف وهم جمع من القبائل العربية التي تحالفت فيما بينها على اللحاق بعمرو عندما سمع خبر وصول نجدات الروم إلى الإسكندرية لقتال المسلمين. ومن خطط الفسطاط نذكر أيضا خطة أهل الظاهر

---

[1] – اليعقوبي، كتاب البلدان، ص 91، زكي عبد الرحمان، المرجع السابق، ص 3

[2] – البلاذري، المصدر السابق، ص 215 – 216

ويرجع سبب تسميتها بهذا الاسم لأن القبائل التي نزلت بهذا المكان وصلت متأخرة إلى الفسطاط بعدما قفل عمرو بن العاص عائدا من الإسكندرية، ولما وصلت إلى الفسطاط وجدت أن القبائل التي سبقتها اقتطعت لها الخطط فشكت أمرها إلى عمرو الذي أشار عليها بالظهور على هذه القبائل فأصبح يعرف المكان الذي نزلت فيه يعرف بهذا الاسم. أما القبائل الأخرى فقد تقاسمت الخطط فيما بينها حسب عددها، فالصغيرة منها كان نصيبها خطة واحدة، أما الكبيرة فكان خطتان أو أكثر، أما القبائل القليلة العدد فقد ضمت في إطار خطة واحدة. فكانت خطة غافق، والصدف، وعلان، ومنحج، والحمروات الثلاث.

وإذا كانت معالم مدينة الفسطاط الأولى قد طمست بفعل عوامل الطبيعة، وبتراكم المباني الجديدة فوقها حالها في ذلك حال مدن الهجرة الأولى ، فإن المقريزي ([1]) يقدم لنا في كتابه بعض المعلومات البالغة الأهمية والتي تزيح اللثام عن مخطط الفسطاط الأول، حيث يذكر أسماء بعض خطط المدينة التي سبقت الإشارة إليها كخطة " أهل الراية "، وخطة " أهل الظاهر"، وخطة "اللفيف" .

والجدير بالذكر أن هذا التنظيم في توزيع الخطط، قد جاء متأثرا بالتنظيم الذي يتبعه ديوان الجند، ذلك أن ترتيب الخطط يتبع غالبا ترتيب قطاعات الجيش، وفي ذلك نظرة سديدة في تنظيم هذه المدينة المعسكر، حيث تعبر عن مستوى عال في سياسة تخطيط المدن المعسكرات الأولى، ذلك أنها تسهل تجميع الجيش عند الحاجة في ظرف زمني قصير، وتمكن من التعجيل في اتخاذ القرار المناسب. إن هذه الأمور تؤكد على أن مدينة الفسطاط عند نشأتها كانت معسكرا واسعا، شأنها في ذلك شأن مدينتي البصرة والكوفة.

لقد تطور عمران المدينة بسرعة، فتوسعت، وزاد عدد خططها حتى وصلت سبعة وأربعين خطة. وكما حصل في البصرة والكوفة فقد كانت هذه الخطط تتمتع بنوع من الاستقلالية في تدبير شئونها ضمنها لها التنظيم القبلي.

---

[1] – المقريزي : الخطط المقريزية المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، منشورات مكتبة العرفان لبنان، د. ت، ج1 ، ص 24 – 25

توزعت مساجد الصلوات الخمس في خطط المدينة فكان في كل منها مسجد أو أكثر، وكانت عند تأسيسها ذات عمارة وعمران اتصفا بالبساطة المستمدة من الطبيعة البدوية للعرب الفاتحين ومن تعاليم الدين الجديد الذي يكرس العدل والمساواة بين مختلف طبقات المجتمع، حيث كانت بيوتها أشبه بالأكواخ تتكون من طابق واحد، وحول كل بيت فضاء واسع ([1])، وكانت مقسمة تقسيما عشائريا، ففيها خطط لقبائل العرب المساهمة في فتح مصر، وخطط للشعوب غير العربية التي سبق وأن دخلت إلى الإسلام أفواجا مع الفتوحات الأولى، فأصبحت تشكل جماعات جهادية كبيرة في صفوف جيوش الفتح كالفارسيين.

وقد جاء وصف المقدسي للمدينة، والذي أفادنا بالكثير من المعلومات القيمة عن مدى تطور هذه المدينة ليعطينا صورة واضحة عن عمرانها، حيث ذكر أن منازلها كانت مرتفعة ذات طوابق عديدة، وأن أسعارها كانت رخيصة، وأسواقها عامرة.([2])

أما ابن جبير فقد وصف المدينة بعد الحريق المهول الذي عرفته منوها إلى شدة قذارة المدينة والخراب الواسع الذي لحق بها جراء الحريق الذي نشب بها، والذي ترجع أسبابه إلى الفتنة التي عرفتها المدينة أيام الفاطميين وذلك سنة 564 هـ، وفي هذا يقول:" وبمدينة مصر المسجد الجامع المنسوب لعمر بن العاص رضي الله عنه. وله أيضا بالإسكندرية جامع آخر هو مصلى الجمعة للمالكيين. وبمدينة مصر آثار من الخراب الذي أحدثه الإحراق الحادث بها وقت الفتنة عند انتساخ دولة العبيديين، وذلك سنة أربع وستين وخمس مئة، وأكثرها الآن مستجد والبنيان بها متصل. وهي مدينة كبيرة والآثار القديمة حولها. وعلى مقربة منها ظاهرة تدل على عظمة اختطاطها فيما سلف"([3]).

3- التجــارة:

---

[1] - أحمد محمد عوف، المرجع السابق، ص 28

[2] - المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 167 – 168.

[3] - ابن جبير، المصدر السابق، ص 27

لقد حظيت التجارة بمكانة مهمة في اقتصاد المدينة، حيث عملت سلطاتها على مر العصور، على تقوية اقتصادها وتنويع مصادر دخلها، بجعلها تساهم مساهمة قوية في التجارة الدولية.

لهذا الأمر ولأسباب أخرى، عمد عمرو بن العاص رضي الله عنه إلى شق خندق شمال الفسطاط يربط نهر النيل بخليج السويس وبالبحر الأحمر، وكان الدافع وراء شق هذه القناة يرجع إلى جدب كبير عرفته المدينة المنورة في عهد سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حيث طلب الخليفة المدد من والي مصر([1]) قائلا : " واغوثاه! ، واغوثاه!، ما تبالي أن سمنت ومن قبلك أن أعجف من قبلي" فرد عليه عمرو بن العاص والي مصر قائلا : لبيك إبل تقوى أولها عندك وأخرها عندي برا وبحرا " وندم على ذكر البحر .

إلا أن الخليفة عمر أجابه قائلا : فإن كلمة البحر التي فاهت منك فقد ندمت عليها، والله لم ترسلن من البحر لأرسلن إليك من يقتلعك أذنيك وما كان ابن الخطاب يمزح، فأرسل ابن العاص المدد بحرا معتذرا على تأخر الميرة لبعد البحر عن الفسطاط، فسأله ابن الخطاب: عرفني كم بينك وبين البحر ([2]) ، فرد عليه قائلا : مسيرة ليلتين، فأمره الخليفة بالحفر من النيل للبحر ولو أنفق جميع مال مصر فحفر الخليج.([3])

ومع مرور الزمن تزايد عدد سكان الفسطاط بسرعة فائقة، وكان من الواجب توفير احتياجاتهم المختلفة، لما لهذا المطلب الأساسي من أهمية في نمو المدينة وسهولة الحياة بها، فأقدمت السلطة الحاكمة فيها على الاعتماد على موارد إقليمها الثري ([4])واعتمدت على التجارة الدولية للحصول على ما تحتاج إليه عن طريق التبادل مع الأمم الأخرى.

---

[1] – البلاذري، المصدر السابق، ص 218

[2] – أي البحر الأحمر

[3] – أحمد عوف، المرجع السابق، ص 30. رغم ورود هذه القصة في المصادر إلا أنها تحتاج إلى التأكد منها نظرا لبعد النيل عن البحر الأحمر.

[4] – المقدسي، المصدر السابق، ص 168

لقد جاء موقع الفسطاط ومن بعدها عواصم مصر الإسلامية الأخرى كالعسكر والقطائع والقاهرة موقعا ممتازا، حيث حددته ضرورة التقاء الطرق، فالمدينة تقع عند ملتقى طريقين محوريين اللذان يعتبران من أهم طرق العالم القديم ([1]) أحدهما يتجه من الشرق إلى الغرب مارا ببغداد ودمشق وواحات ليبيا وبلاد المغرب، والثاني يربط أوروبا ببلاد السودان وشبه جزيرة العرب والهند والشرق الأقصى.

إن هذا الموقع جعل المدينة مركزا تجاريا هاما، أصبحت فيه خدمة القوافل من أهم وظائفها، حيث كانت تدر على أهلها أموالا كبيرة، ففيها تتجمع القوافل ومنها تنطلق إلى أرجاء العالم المختلفة.

وعملا على تأمين البلاد والعباد، وتقوية الاقتصاد، والاستفادة من التجربة المصرية العتيقة في الصناعة والحرف، عمل والى مصر سنة 24 هـ على إنشاء دارا لصناعة السفن بجزيرة الروضة بعد أن تكرر استهداف القوات البيزنطية لساحل البحر الأبيض المتوسط .

لقد عرفت المدينة صراعات قبلية عديدة، كون خططها كانت تجمع قبائل متنافرة متكارهة، رغم تلطيف الدين الجديد لعلاقاتها. لقد أظهرت تجربة التعايش التي عرفتها الفسطاط منذ نشأتها بين القبائل العربية المختلفة المصرية واليمنية،([2]) وبينهم وبين الأقباط، حيث أوت المدينة أجناسا مختلفة وفرق وشيع متضادة متضاربة فنشط بعاصمة الولاية المصرية الخوراج والشيعة وحتى الزبيريين، وعندما تمكن العباسيون من الدولة الأموية فر الخليفة الأموي مروان بن عبد الحكم إلى الفسطاط، وأمر عند ذلك بإخلاء وإحراق الفسطاط وإحراق الجسرين الذين يصلان الفسطاط بجزيرة الروضة. ولما دخلها العباسيون سنة 133هـ/ 750م عاثوا فيها فسادا.

---

[1] – محمد عبد الستار عثمان، المرجع السابق، ص 99

[2] – أحمد محمد عوف، المرجع السابق، ص 32

جاءت مرحلة دولة بني طولون بسلم فقدته المدينة مدة حكم العباسيين لها أي أكثر من 110سنوات. ([1])

تعتبر الفسطاط من المدن القليلة التي أثرت تأثيرا كبيرا في عمران مصر في العصر الوسيط، كونها أول مدينة إسلامية في بلاد مصر، وللتأكيد على دور الفسطاط المحوري في النسيج العمراني الإسلامي في مصر نرى أنه من الضروري رغم ندرة المعلومات حول معالم هذه المدينة القديمة التطرق إلى أهم معلم من معالم المدينة الذي مازال قائما حتي الآن ألا وهو مسجدها العتيق.

4- الجامع العتيق:

أنشئ هذا المعلم الديني الهام سنة 21هـ/ 641م من طرف الصحابي الفاتح عمرو بن العاص، في الموضع الذي كان ينصب فيه رايته أثناء حصار حصن بابليون، ويقال لهذا الجامع جامع الجوامع أو الجامع العتيق أو جامع عمرو، وكان عند نشأته مشرفا على النيل.([2]) **(مخطط رقم 13).**

وللعلم فإن الأرضية التي أقيم عليها المسجد، كانت حسب بعض الروايات لامرأة يهودية، طلب منها عمرو شراءها فرفضت، لكن عمرو تحايل عليها واشتراها منها، بأن طلب منها قدر مساحة جلد ثور فقبلت ذلك لكن عمرو استعمل دهاءه، حيث مزق جلد الثور إلى فتائل رفيعة حدد بها مساحة واسعة أقام فيها المسجد.([3])

وقف على تحديد قبلة الجامع مجموعة من الصحابة، ([4])وكانت مساحة هذا الجامع عند نشأته خمسين على ثلاثين ذراعا، يحيط به الطريق من كل

---

[1] – المرجع السابق، ص 33

[2] –عبد الوهاب حسين، تاريخ المساجد الأثرية في القاهرة، ج1، مكتبة الدار العربية للكتاب، 1993، ص25

[3] – هذه الحيلة شبيهة بالطريقة التي اتبعتها الملكة الفنيقية عليسا عند شرائها للقطعة الأرضية التي أسست عليها مدينة قرطاج.

[4] – نجد في بعض المصادر أنه وافق على تحديد هذه القبلة ثمانون صحابيا منهم الزبير بن العوام، والمقداد بن الأسود، وعبادة بن الصامت، وأبو الدرداء، وأبو ذر الغفاري.

جهة، ولم تشر المصادر التاريخية إلى وجود صحن يتوسطه([1]). (**مخطط رقم 14**)

كان الجامع مستطيل الشكل، سقفه منخفض، مكون من سعف النخيل، حاله حال مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم والمسجدين العتيقين بكل من البصرة والكوفة، ولم يكن في جامع عمرو مئذنة ولا منبر([2]).

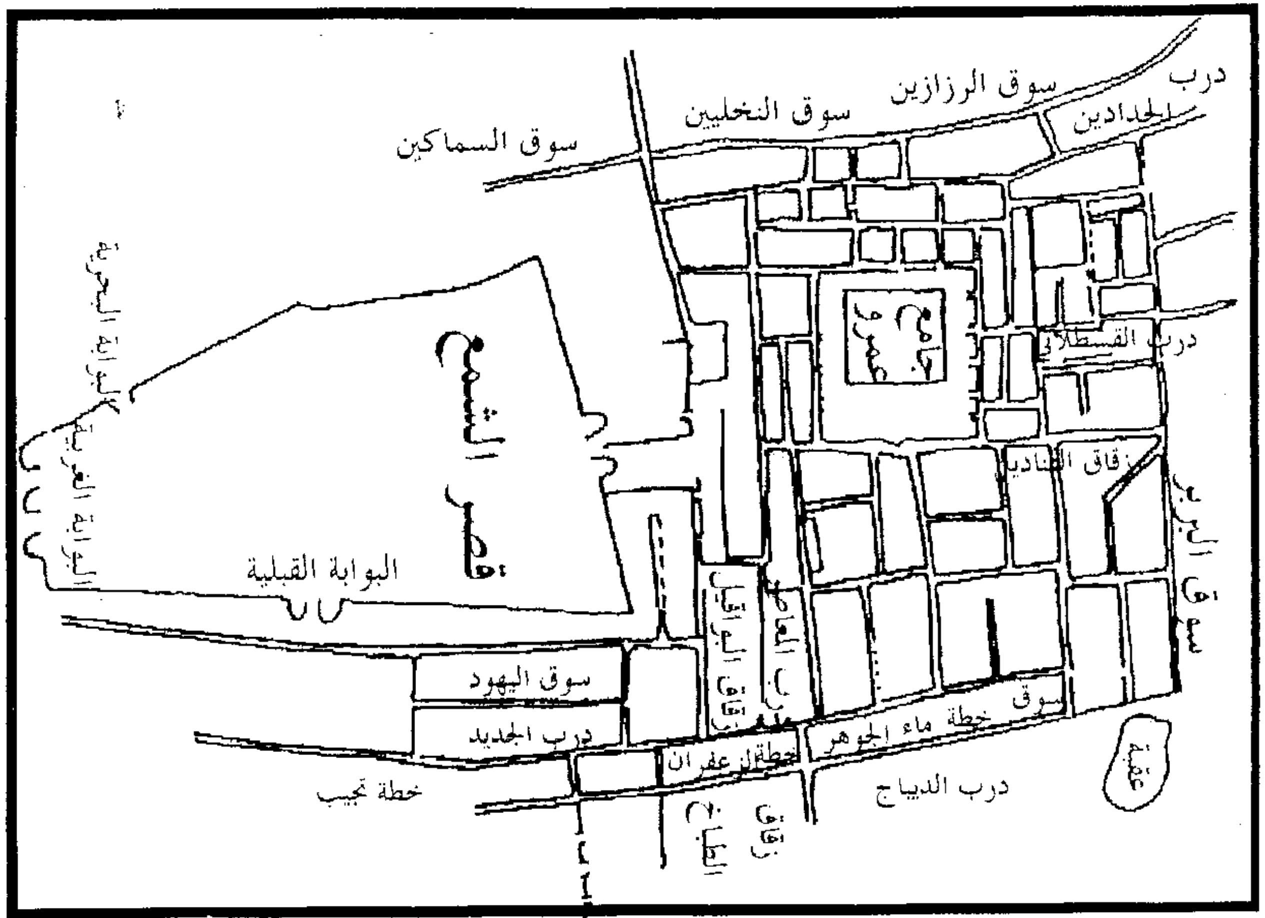
وكان للجامع ستة أبواب، منها بابان يقابلان دار عمرو، وبابان آخران في جانبه البحري وبابان آخران في الجانب الغربي، ولما اتخذ عمرو بالجامع منبرا منعه عمر بن الخطاب عن ذلك طالبا منه تكسيره قائلا له: " أما بحسبك وأن تقوم فيه قائما والمسلمون تحت قدمك" فكسره عمرو ابن العاص".

ظل الجامع على حاله حتى وسعه مسلمة بن مخلد بن صامت الأنصاري والي معاوية وذلك عام 53هـ/ 672م، حيث أضاف له رواقا في الشمال، كما وسعه من الجانب البحري، ومن جانبه الشرقي حتى ضاق الطريق الذي يربطه بدار عمرو بن العاص، وأضاف إليه أيضا أربع مآذن في أركانه الأربعة وكسا أرضيته بالجص. ووسع جامع عمرو بعد ذلك عبد العزيز بن مروان عام 79هـ/ 698م، أيام ولايته مصر من قبل الوليد بن

---

[1]– عبد الوهاب حسن، المرجع السابق، ص25

[2] – ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1936، ص67



مخطط رقم 14: يحدد موقع الجامع عن: (عبد الرحمن زكي)

عبد الملك، وقد طلب الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك بعد ذلك من والي مصر قرة بن شريك العبسي إعادة بناء المسجد بعد أن هدم جدرانه وكان ذلك عام 92هـ/ 709م. ([1]) أما في العهد العباسي فقد زاد فيه والي مصر صالح بن علي سنة 133هـ/750م وأدخل عليه بعض الإصلاحات في مؤخرته.ثم توالت عليه بعد ذلك الزيادات إلى أن بلغ المسجد غايته في العمارة والزخرفة في منتصف القرن الرابع الهجري العاشر ميلادي.

لقد قام قرة بن شريك العبسي والي مصر آنذاك بإعادة بناء هذا المسجد على أحسن صورة، وفرغ من بنائه عام 94هـ/ 710م، ووسع المسجد من ناحية المساحة، وأمد فيه هذا الوالي محرابا وصنع له منبرا وأحدث به المقصورة.

عرف المسجد مع توالي الحكام على الفسطاط توسيعات أخرى، أهمها تلك التي عرفها أيام المأمون العباسي تحت ولاية عبد الله بن الطاهر، الذي ضاعف في مساحة المسجد عام 212هـ/828م.([2])

أما الجامع اليوم فمساحته أربعة أمثال مساحته عند التأسيس، (**مخطط رقم 15)** يختلف في شكله عن الجامع الأصلي ومازال له مكانة كبيرة عند أهل القاهرة. وكان السلاطين والثقاة على حد سواء يفضلون الصلاة به. وقد قدر المقدسي أن عدد المصلين وراء إمامه يوم الجمعة يمكن أن يصل إلى عشرة آلاف مصلي إلى درجة أن المسجد أصبح مكتظا حيث تمتد صفوف المصلين إلى الشوارع المحيطة به، وإن كان هو قد اندهش عند سماعه لهذا الخبر الأمر الذي جعله يتأكد من هذا الخبر بنفسه عند زيارته له. ([3]) وظل الجامع مقرا لبيت المال حتى نقله المعز لدين الله الفاطمي إلى جامع بن طولون ([4]).

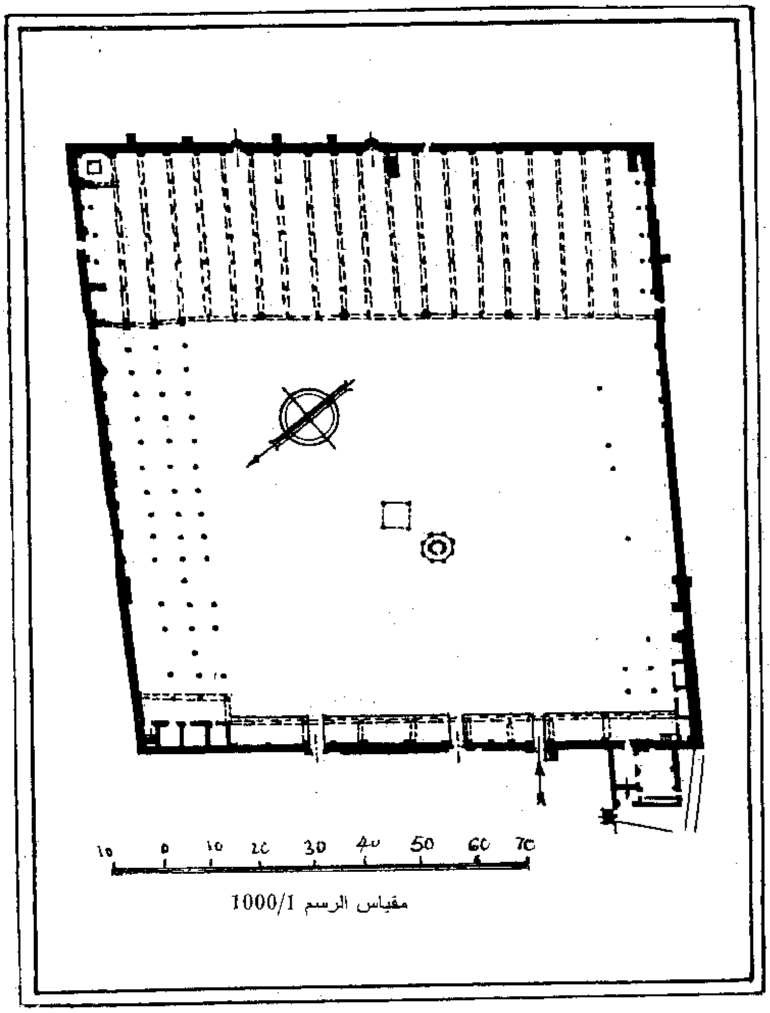
---

[1] – أحمد محمد عوف، المرجع السابق، ص 40

[2] – عبد الوهاب حسين، المرجع السابق، ص 24

[3] – المقدسي، المصدر السابق، ص 168

[4] – أحمد محمد عوف، المرجع السابق، ص 43



مخطط رقم15: التخطيط الحالي لجامع عمرو بن العاص

عن: (كمال الدين سامح)

لقد لعب جامع عمرو بن العاص دورا أساسيا في حركة التعليم في مصر فكانت حلقاته العلمية مشهورة بقدرة الأساتذة على توصيل العلم وجد الطلبة في التحصيل.

وصف ابن جبير هذا الجامع الذي زاره أثناء رحلته إلى الحج قائلا:" عاينت جامعا كبير البناء غير مزخرف ولا محتفل في حصره التي تدور على حيطانه وتنبسط فيه. وبصرت العامة رجالا ونساء قد جعلوه معبرا بأوطئة أقدامهم يجوزون فيه من باب إلى باب ليقترب عليهم الطريق والبياعون يبيعون فيه أصناف المكسرات والكعك وما سوى ذلك. وعدة صبيان بأواني ماء يطوفون على كل من يأكل. وقد جعلوا ما يحصل لهم منه رزقا. وفضلات مأكلهم مطروحة في صحن الجامع. وفي زواياه العنكبوت قد عظم نسجه في السقف والأركان والحيطان.

والصبيان يلعبون في صحنه، وحيطانه مكتوبة بالفحم والحمرة بخطوط قبيحة مختلفة... إلا أن مع ذلك على الجامع المذكور الرونق وحسن القبول وانبساط النفس مالا تجده في جامع اشبيلية مع زخرفته. والبستان في صحنه واستحسنت ما أبصرته من حلق المتصدرين لإقراء القرآن والفقه والنحو في عدة أماكن."([1])

لقد طمست الكثير من معالم الفسطاط الإسلامية وذهبت سماتها، ذلك أن المعالم المدنية كدار الإمارة والقصور عرفت تحولات عديدة وكثيرة لم تغير سماتها فحسب، بل أن بعضها قد تلاشى نهائيا إما بسبب التهديم أو الحرق أو بفعل العوامل المناخية نتيجة التقادم الأمر الذي يجعل دراستها من الصعوبة بمكان.

وخلاصة القول أن أول تجربة عمرانية ميدانية إسلامية كانت بمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم حيث عمد الرسول صلى الله عليه وسلم إلي تعمير الأراضي الموات وهي الأراضي التي لا يصلها الماء، وقد قسم هذه الأراضي على المهاجرين من المسلمين في شكل خطط منظمة، كل أمده بخطة يقطن فيها

---

[1] – ابن جبير، المصدر السابق، ص18

وأقاربه فكانت خطة آل الزبير... إلى غير ذلك من الخطط، وعمل الرسول صلى الله عليه وسلم على إعطاء مركزا لمدينته المنورة بأن أنشأ في قلبها الحي المركزي حي بني النجار مسجده الجامع الذي سيلعب دورا هاما في حياة الدولة الإسلامية الناشئة والأمة الجديدة. كما قام الرسول صلى الله عليه وسلم بعدة تشريعات نظمت الحياة العمرانية بالمدينة المنورة أهمها إيجاد بعض المرافق العمومية الهامة، فظهر بالمدينة مساجد لتعليم الصغار وبيوت الظيفان، وأنشأ السوق التي ستدور حولها الحياة الاقتصادية للمدينة، كما عمل في إطار تنظيف المدينة على إنشاء عدد من بيوت الخلاء وأمر بإنشاء مذبح للمدينة.

علما أن المدينة كانت كيانا قائما بذاته وأن الرسول صلي الله عليه وسلم عمل على تصليح الخلل فيها، وقد ساهمت هذه الشرائع في ظهور أول تجربة عمرانية إسلامية ستبرز إلى الوجود في مدن الهجرة كالبصرة والكوفة والفسطاط، هذه المدن نقلت تجربة الرسول صلى الله عليه وسلم العمرانية إلى عالم الحقيقة حيث أضحت مخبرا للعمران الإسلامي. علما أن هذه المدن كلها ستنشأ على مواضع عذراء تمكن المخطط المسلم من إنشاء ما يصب إليه دون قيد أو تقيد بالمساحة التي حددتها له المباني القديمة.

لقد ظهرت في هذه المدن الجديدة صفات المدينة الإسلامية المتعارف عليها من مركزية الجامع، ودار الإمارة، هاتان المؤسستان الاجتماعيتان والدينيتان والسياسيتان اللتان ستدور حولهما الحياة في هذه الأمصار. كما أحيط هذا المركز بالأسواق التي ستكون المركز الاقتصادي للمدينة، والمكان الذي سيلتقي فيه الجميع لكسب لقمة العيش وستكون هذه الأسواق مكانا يفصل المركز عن مختلف الخطط السكانية التي ستخص بنوع من الهدوء والسكينة والخصوصية.

لقد سار سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه عند تأسيس هذه المدن الثلاث على سنة الرسول صلى الله عليه وسلم العمرانية، فقسم مخطط هذه المدن إلى خطط تقطنها القبائل المجاهدة في سبيل الله، كما عمل على تحديد عرض طرقها، ونظم هرمية هذه الطرق، وحدد مساحة الرحبات والساحات، وعمل على الإكثار من المساجد في الخطط حيث أنشأ في كل خطة مسجدا أو أكثر، كما عمل

على تحديد حتى عدد غرف المساكن في الكوفة والبصرة بأن لا تزيد عن ثلاث غرف وأن لا يزيد ارتفاع المسكن علي طابق أرضى واحد.

لقد نمت مدن الهجرة الأولى عند نشأتها نموا أفقيا سريعا ، وكانت بسيطة بساطة الإسلام الأول، حيث أنشئت الكوفة والبصرة أول الأمر القصب، وتطورت مواد بنائها بعد الحريق المهول الذي عرفتاه إلى الطوب، وفيما بعد إلى الطابوق. وفي الأخير لابد من القول أن العمران الإسلامي ظهر في المدينة المنورة وتطور ونما في مدن الهجرة وشب في واسط ليصل إلى أوجه في مدينة السلام بغداد.

الفصل الرابع

ظهور العمران الإسلامي وتطوره في بلاد المغرب

- تمهيـــد

أولا : استراتيجية عقبة بن نافع في تأكيد الفتح

ثانيا : تأسيس مدينة القيروان

ثالثا : القيروان عاصمة الدولة الأغلبية

رابعا :النشاط الاقتصادي

خامسا: الإشعاع الثقافي

سادسا: القيروان في العهد الفاطمي

سابعا: القيروان في العهد الزيري

ثامنا : نتائج الغزو الهلالي على أفريقية والمغرب

تاسعا: مـــدن الأمـــــراء

تمهيـــد:

ما من شك أن مدينة القيروان، كانت المنبر الذي سيعلم سكان المغرب الإسلامي مبادئ دينهم، وسيساهم مساهمة هامة في انتشار الحضارة والعمران الإسلامي بهذه البقعة من العالم القديم.

لقد عرفت المدينة عدة دراسات أكاديمية قام بها الباحثون العرب والأوربيون، اهتمت بجوانب مختلفة من تاريخها وحضارتها، وحتى التعريف برجالاتها الكبار لكنها لم تعرف حسب علمنا دراسة متكاملة تناولت جميع جوانب تطورها المعماري والعمراني،([1]) كما كان لمثيلاتها من مدن الهجرة، مثل البصرة، والكوفة، والفسطاط التي عرفت كلا منها دراسة مستفيضة، بل أنها لم تتمكن من جعل الاختصاصيين يهتمون بها كما كان الحال بالنسبة لتونس، وسوسة، وقلعة بني حماد، وفاس، ومراكش التي حظيت كل منها بدراسة أو أكثر (جامعية أكاديمية). لذا سنحاول في هذا الفصل الذي يعتبر المدخل الأساسي لدراسة العمران المغربي التعريف بميلاد ونشأة العمران الإسلامي وتطوره بأم القرى القيروان، التي أنشئت على أرض بكر تحت راية الإسلام في مرحلة عزه وقوته، فكانت مثالا يقتدى به في بلاد المغرب، وكانت المنارة التي ستقتدي بها المدن المغربية التي ستنشأ بعدها في هذه المنطقة من الخلافة الإسلامية.

من غير شك أن الدارس لعمران مدينة القيروان سيلاحظ أنه تأثر تأثرا كليا في الحقبة الأولى بمراحل الفتح الإسلامي لبلاد المغرب (انتصاراته وانكساراته)، لذا لابد لكل من يريد البحث في موضوع هذه المدينة المنار، أن يولي مراحل تاريخها الطويل قدرا من الاهتمام، إذ لا يمكنه الوصول إلى ما يريده من معلومات دون الوقوف على تطوراته.

لقد كانت هذه المدينة وما تزال رمزا للحضارة العربية الإسلامية ونبراسا

---

[1]– الحبيب الجنحاني، القيروان عبر عصور إزدهار الحضارة الإسلامية في المغرب العربي، الدار التونسية للنشر، تونس، 1968.

– محمد محمد زيتون، القيروان ودورها في الحضارة الاسلامية، دار المنار، القاهرة، 1988.

– حسن حسني عبد الوهاب، ورقات عن الحضارة العربية بأفريقية التونسية، مكتبة المنار، تونس، الطبعة الثانية، 1972.

يضيء طريق الباحث المتعطش لمعرفة الماضي التليد لهذه المدينة.

لقد ارتبط تاريخ مدينة القيروان ارتباطا وطيدا بالفتح الإسلامي لبلاد المغرب، ذلك أن المسلمين بعد إتمام فتح مصر([1])، وجدوا أنفسهم على الأبواب الشرقية لبلاد المغرب التي كان يتحكم فيها البيزنطيون.

لقد كان عمرو بن العاص مصرا على مواصلة الفتح غربا، بعدما تمكن من فتح الإسكندرية حيث كان يرى ضرورة تأمين فتح مصر بفتح ما يليها من الأراضي غربا، فعمرو بن العاص كان يؤمن إيمانا بالغا أن هذا التأمين يعد أمرا استراتيجيا لابد منه، فهو لم يكن يتطلع إلى المغانم بل يريد سد الطريق أمام مهاجمة الروم للمسلمين من المغرب، وقد عمل من أجل الوصول إلى مبتغاه هذا عن طريق إرسال العديد من جرائد الخيل للاتصال بسكان المنطقة، والاستطلاع، والتجسس، وضرب العدو متى أمكن له ذلك لإضعافه([2])، فوجه عقبة بن نافع ([3]) إلى زويلة ([4])، وتوجه هو على رأس جيشه إلى برقة. ([5])

لقد دخل سكان ليبيا أفواجا إلى الإسلام منذ الوهلة الأولى، الأمر الذي جعل عمرو بن العاص يتشجع ويراسل سيدنا عمر بن الخطاب طالبا منه استكمال الفتح ويخبره:"إنه قد ولى عقبة بن نافع الفهري المغرب فبلغ زويلة وإن ما بين زويلة كلهم حسنت طاعتهم قد أدى مسلمهم الصدقة وأقر معاهدهم بالجزية وأنه قد وضع

---

[1] ــ يعتبر ابن عبد الحكم أول مؤرخ تحدث في كتابه عن فتح مصر وبلاد المغرب. أنظر: -Ch. Diehl,G. Marçais, histoire générale, histoire du moyen age, Tome III, le monde oriental de 395 à 1081 j c, P. U. F, Paris, 1896, p p 73 - 74.

[2] ــ ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج. س. كولان وليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثانية، 1400هـ، 1980م، الجزء الأول، ص 9.

ــ سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي،(ليبيا وتونس والجزائر والمغرب) من الفتح العربي حتى قيام دول الأغالبة والرستميين والأدارسة، دار المعارف، القاهرة، 1965، ص 113

- Ch. Diehl, G. Marçais, op. cit. p. 206.

[3] ــ ولد عقبة بن نافع قبل وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم بسنة واحدة. أنظر عن نسبه: ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، دار المعارف، القاهرة،1258هـ، ج 3، ص 420 ــ 421. ابن عذاري، المصدر السابق،ج1، ص 19. حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، القاهرة، 1947، ص 130. وانظر أيضا لقبال موسى، الموسوعة الوطنية للكتاب، وزارة الثقافة، 1984. سعد زغلول، المرجع السابق، ص 86.

[4] ــ زويلة: مدينة من مدن فزان القديمة، تقع في الجنوب الشرقي من مرزق بنحو 150 كم. وتبعد عن مدينة طرابلس إلى الجنوب الشرقي بنحو 770 كم.

[5] ــ ابن عذاري، المصدر السابق، ج 1، ص 8

على أهل زويلة ومن بينه وبينها وما رأى أنه يطيقونه" ([1]).

ورغم الأهداف الاستراتيجية المنتظرة من فتح بقية الأراضي المغربية غربا ([2])، إلاّ أن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يرى عكس ذلك، فهو من موقعه كخليفة للمسلمين بمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، كان القائد العام للقوات الإسلامية، والمنظر الأعلى لعملية الفتح، الأمر الذي جعله يوصي بإيقاف عملية استكمال الفتح من الناحية الغربية لمصر ([3]) لعدة أمور أهمها أن المسلمين قد تمكنوا من فتح رقعة شاسعة من الأرض في زمانه، فتح العراق وفارس، فتح الشام ومصر، وأنهم تفرقوا في الأرض فكان سيدنا عمر يرى أن يرجىء الفتح إلى أن يطمئن الداخلين الجدد إلى دينهم وأن يزداد عدد المسلمين لاستكمال عملية الفتح، وقد ألزم سيدنا عمرو بن العاص بإيقاف عملية الفتح في ليبيا في زمانه ولم يعد المسلمون إلى فتح بلاد المغرب إلا في زمن عثمان بن عفان.

و عندما بعث عبد الله بن سعد بن أبي سرح، ([4]) (**خريطة رقم 15**) بعد أن تأكد أن ظروف الخلافة أصبحت قادرة على مواصلة عملية الفتح، فندب عثمان الناس لغزو أفريقية بعد المشورة ([5])، وكان الخليفة متحمسا لغزو أفريقية حيث أعان بصدقة من ماله الخاص تمثلت بألف بعير يحمل عليها ضعفاء المسلمين، وقد استجاب العديد من الصحابة لنداء عثمان للفتح، مما جعل المالكي في رياض النفوس يقول بأن عبد الله قد خرج إلى أفريقية

---

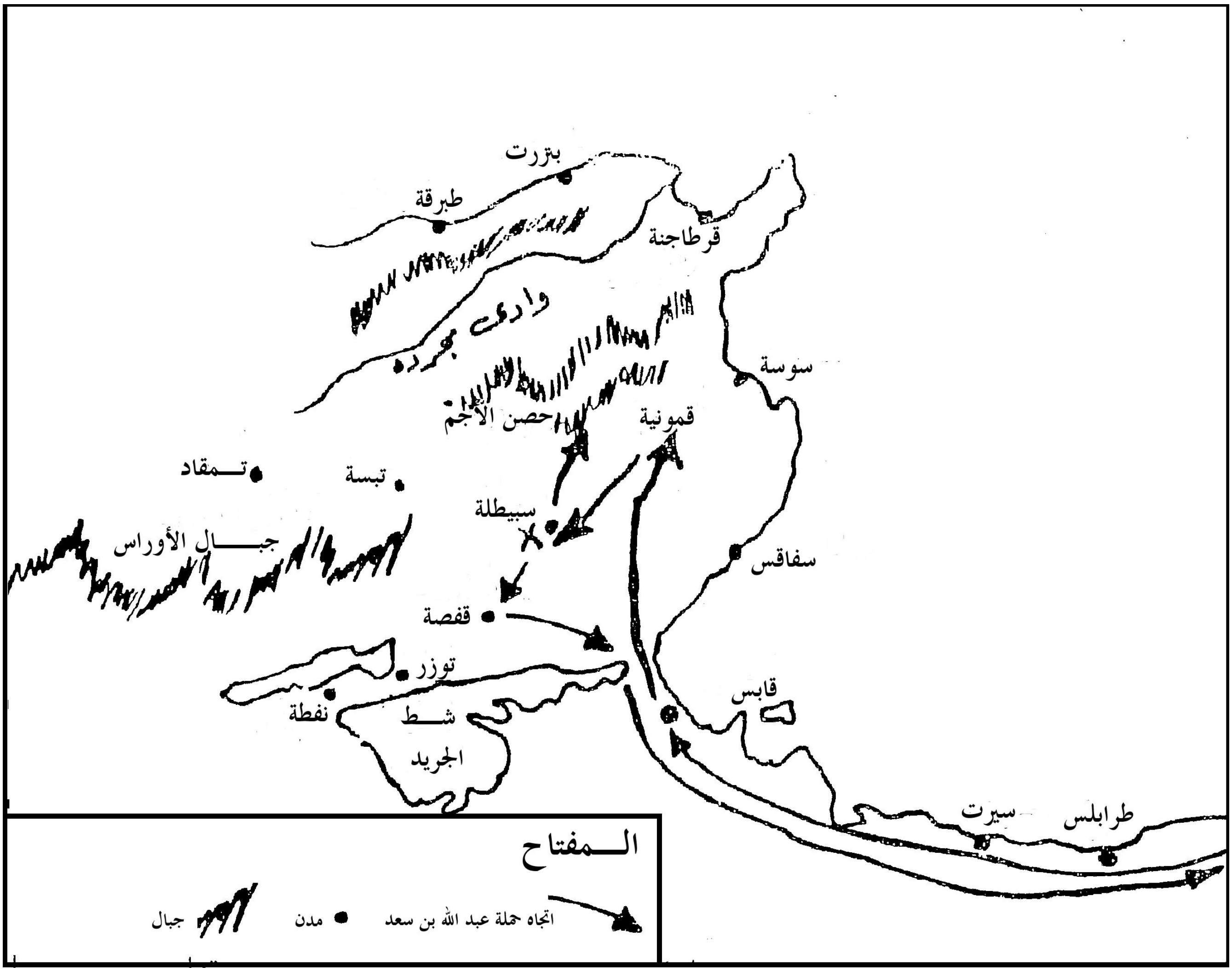
[1] ــ البلاذري، فتوح البلدان، ص 264 ــ 265. الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج4، ص 350

[2] ــ ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب والأندلس، المكتبة العربية الفرنسية، الجزائر، 1948، ص 172.
ــ ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص 8

[3] ــ ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص 172

[4] ــ المصدر نفسه، ص 44.
ــ ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، المجلد الثاني، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992، ص 547 – 550

[5] ــ ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص 183



خريطة رقم 15: حملة عبد الله بن سعد وطريق عودتها عن(سعد زغلول)

في جيش تتكون غالبيته من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ([1]).

وكان اللقاء مع البطريق جرجير الذي كان يملك حسب ابن عبد الحكم ما بين طرابلس وطنجة([2]) الذي جمع لهم ماكان بأمصارها من فرنجة وروم وبربر زهاء المائة وعشرين ألفا، بينما كان تعداد جيش المسلمين عشرين ألف جندي.([3])

التقى الجمعان في معركة حامية الوطيس، في مكان يسمى عقوبة، يقع على مسافة يوم وليلة من سبيطلة التي كانت عاصمة جرجير. وقد تمكن المسلمون بعد أيام من القتال الشرس من إنزال الهزيمة بجيش طاغية الروم وتمكنوا من قتل العديد منهم وأسر الكثير. ([4])

وبعد هذه المعركة الحامية، انتشرت سرايا المسلمين في قصور المنطقة وواحاتها فسبوا الكثير، وغنموا أكثر، مما دعا الروم إلى طلب الصلح وقبول دفع جزية سنوية للمسلمين مقدارها حسب البلاذري ثلاثمائة قنطار من الذهب الخالص، أي ما يعادل مليونين وخمسمائة ألف دينار ذهبي آنذاك. ([5])

وقد كانت نتائج هذه الغزوة إيجابية بالنسبة للإسلام والمسلمين، ولكن عبد الله بن سرح عاد إلى مصر بعد هذه الغزوة دون أن يترك وراءه حامية ولا واليا على المنطقة، الأمر الذي جعل الكثير من المؤرخين يؤكدون أن هذا الأمير قد رأى أن فتح أفريقية لن يتم بموقعة واحدة ولا بالعدد القليل من المجاهدين الذين كانوا معه، ولذلك اكتفى بالانتصار والغنيمة وعاد إلى مصر.

أما الغزوة الثالثة فهي غزوة معاوية بن حديج، وكانت هذه الغزوة في عهد الدولة الأموية بعد عام الجماعة، حيث أسند الخليفة معاوية بن أبي سفيان في سنة خمسة وأربعين للهجرة إلى معاوية ابن حديج السكوني([6]) أمر مواصلة الفتوح، وزوده بجيش يبلغ مقدراه عشرة آلاف جندي.

---

[1] ــ المالكي، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وأفريقية وزهادهم وعبادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، تحقيق حسين مؤنس، القاهرة، 1951، ص 9

[2] ــ ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص 183

[3] ــ ابن خلدون، كتاب العبر، ج 2، ص 130

[4] ــ ابن عذاري، المصدر السابق، ص 11

[5] ــ البلاذري، المصدر السابق، ص 215

[6] ــ ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص 59. - P. L. Cambuzat, L'évolution des cites du tell en Ifrikya du VII° au XI° siècle, o. p. u, Alger, tome 1,1986 , p. 35.

لقد ذكر المؤرخون أن الخلاف الذي نشب بين الحاكم الجديد، الذي ولاه هرقل على أفريقية وبين رعاياه، سببه طلب هرقل الحاكم الجديد بمطالبة رؤساء أفريقية بأن يدفعوا إليه من الأموال مثل ما دفعه إلى المسلمين فثار أهلها، كما أن الوالي البيزنطي القديم قد استنجد بالخليفة في زيارة له إلى دمشق.

دخل معاوية بن أبي حديج أفريقية، ونزلت جيوشه قرب قمونية([1]) ثم غادرتها إلى مكان يقال له القرن ([2]) (**خريطة رقم 16**). وصلت أنباء معاوية بن حديج إلى البيزنطيين بالقسنطنطنية فأرسلوا جيشا عن طريق البحر قوامه ثلاثون ألف جنديا لرد المسلمين لكنهم هزموا أمام جيوش الإسلام.

وإذا ما رجعنا إلى المالكي، نجد في كتابه بعض المعلومات عن هذه الغزوة حيث يقول: " أن معاوية غزا بنزرت وغنم غنائم كثيرة من نواحيها ورجع قافلا إلى قمونية وبنى بناحية القرن مدينة سماها: "قيروان"وموضع القيروان غير مسكون ولا معمور" ([3]).

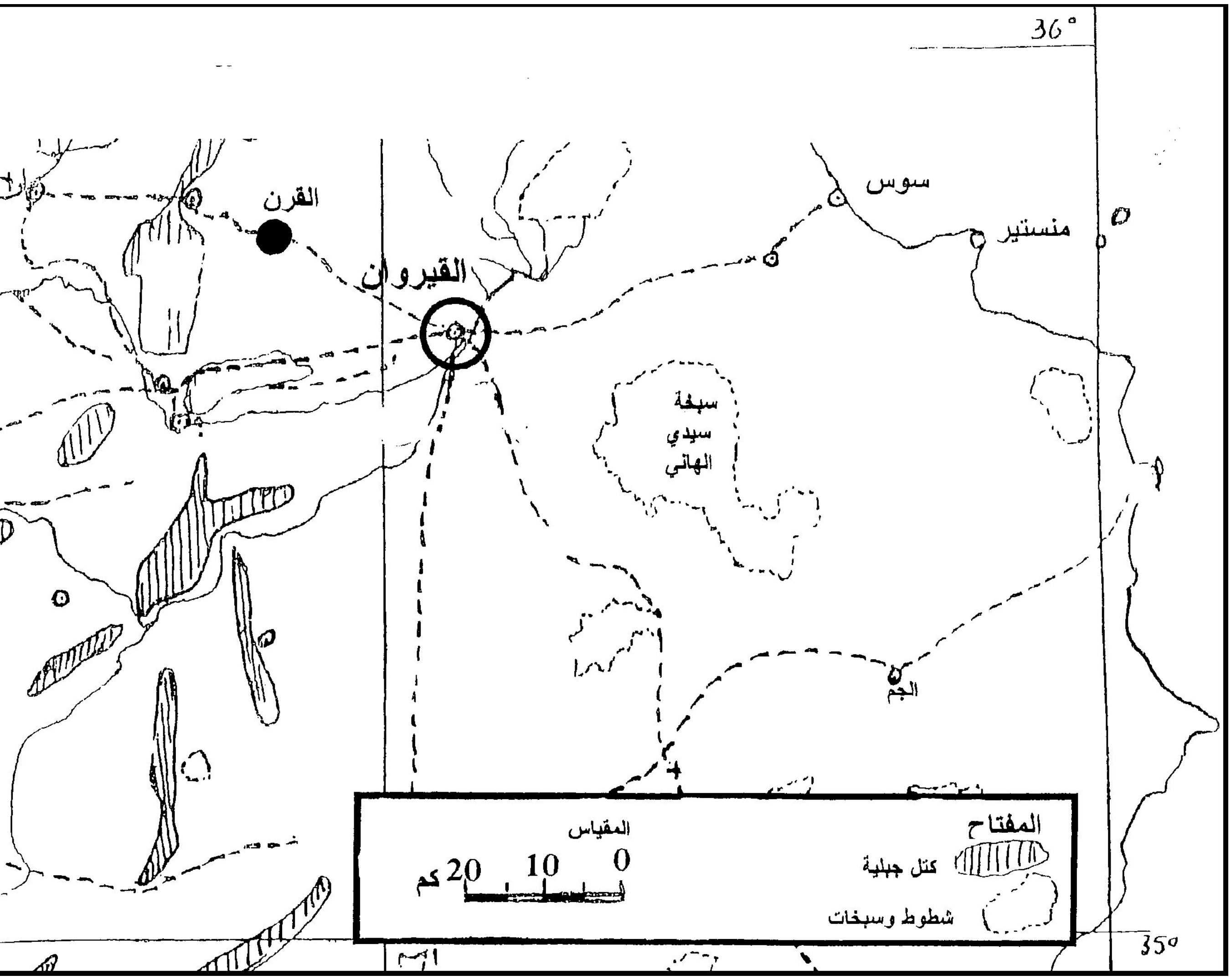
ومما سبق، يظهر أن هذا القائد الجليل بدأ يفكر في إيجاد طريقة جديدة في تأمين بلاد المغرب للمسلمين، اعتمد فيها على عامل أساسي وجديد ألا وهو عامل العمران، وإنشاء المدن، واستقرار حامية من المسلمين بهذا الموطن الجديد، فأنشأ لهذا الأمر معسكره الذي كان أول مكان استقر فيه المسلمون طوال فترة الحملة.

---

[1] ــ الدباغ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تونس، 1901، ج1، ص 43. - H.R. Idris, le récit d'Al-Maliki sur la conquête de l Ifriqiya,I R. E. I ,Paris,1969, p.13

[2] ــ موضع جبلي بتونس يسمى اليوم جبل الوسلات.

[3] – المالكي، المصدر السابق، ص 60



خريطة رقم 16: موقع القرن من القيروان من إعداد الطالب)

لقد كان المعسكر الجديد قاعدة ارتكاز ينطلق منها المجاهدين لتحقيق أهدافهم العسكرية والدعوية، بدون أن تفصلهم عن المناطق المفتوحة المسافات الشاسعة التي تستنفذ الجهد وتضعف القوة، وإذا كانت فكرة معاوية بن حديج هذه تدل على دهاء في وضع استراتيجية متكاملة لفتح بلاد المغرب، فإن منفذها الحقيقي هو سيدنا عقبة بن نافع الصحابي بالمولد والفهري بالنسب.

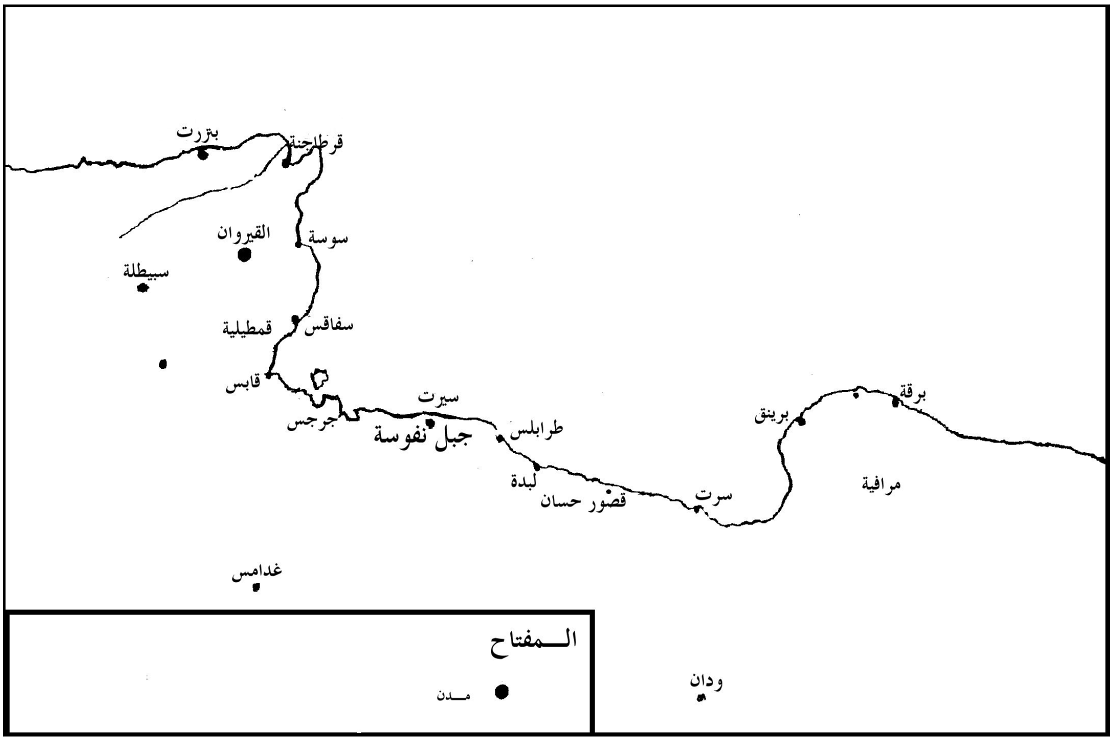
أولا: استراتيجية عقبة في تأكيد الفتح:

مما لا شك فيه أن سيدنا عقبة بن نافع رضي الله عنه وأرضاه، يعد من أعظم قادة الفتح لبلاد المغرب، ذلك أنه بدأ يجاهد في سبيل الله على تخوم ليبيا الشرقية وهو شاب يافع، تدرج في الرتب العسكرية المختلفة حتى انتهى به المطاف إلى إمارة الجيش الفاتح لبلاد المغرب([1]). لقد استفاد سيدنا عقبة من تجربته العسكرية على الجبهة المغربية الطويلة، ومن مشاركته في عملية الفتح منذ زمن عمرو بن العاص في وضع مخطط استراتيجي لتأمين فتح المغرب وجعله ولاية إسلامية، والحقيقة أن اختيار عقبة بن نافع لقيادة الجيش الفاتح لبلاد أفريقية، كان اختيارا موفقا، فالرجل عاش ببرقة، وتولى أمرها كما تذكر المصادر منذ أن فتحها المسلمون، فكان خير داعية للإسلام.

لقد بدأ عقبة إمارته بالإقامة في أفريقية فأسس القيروان (**خريطة رقم 17**) لتكون القاعدة والمعسكر الذي تنطلق منه الجيوش الفاتحة، وتكون المنارة والمدينة التي ينتشر منها الإسلام في مناطق المغرب المختلفة، علما أن هذا الرجل العظيم الشأن قد خرج في حملته بعد معاوية ابن حديج، بعد أن اجتمعت حوله ثلة من الصحابة وكان جيشه المكون من عشرة آلاف رجل، ومن عدد هائل من البربر الذين أسلموا، قد جاء إلى المغرب باستراتيجية

---

[1] – النويري (شهاب الدين أحمد)، نهايةالأرب في فنون الأدب، الجزء الخاص بتاريخ المغرب والأندلس، نشركلية الآداب، جامعة الأسكندرية، ص 323



خريطة رقم 17: موقع القيروان من إعداد الطالب

جديدة ([1]) تعتمد على استقرار حامية من الجند ببلاد المغرب، وعلى هجرة مسلمي المشرق للاستقرار بهذه البلاد المفتوحة([2])، ذلك أن البربر على حسب النصوص التاريخية يدخلون إلى الإسلام كلما جاءهم فاتح، ويرتدون عنه كلما عاد إلى برقة، ([3]) وأن سيدنا عقبة قد اشتد في معاملتهم حيث نجد هذا في قول ابن عذاري:" ووصل عقبة بن نافع الفهري إلى إفريقية في عشرة آلاف من المسلمين فافتتحها، ودخلها، ووضع السيف في

أهلها، فأفنى من بها من النصارى. ثم قال: إن إفريقية، إذا دخلها إمام، أجابوه إلى الإسلام، فإذا خرج منها، رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر فأرى لكم، يامعشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة تكون عزا للإسلام إلى آخر الدهر." ([4]).

تمكن عقبة في هذه الغزوة من تأكيد قوة الجيش الإسلامي في بلاد المغرب وركز جهده في تأسيس مدينة القيروان مما جعل الكثير من المستشرقين ككارل بروكلمان يؤكدون على كونه المؤسس الحقيقي للسلطة الإسلامية ببلاد المغرب. لقد تمكن سيدنا عقبة بالتحالفات الكثيرة التي أجراها مع البربر من وضع جبهة كبيرة ضد البزنطيين.

لا شك أن عقبة أثناء قيامة ببناء مدينة القيروان كان دائما يتحسس الأخبار، وكانت تصله تقارير يومية حول حالة البلاد والعباد، وتحرك الأعداء، ومواقف القبائل البربرية من السلطة الإسلامية الناشئة، وكان يرسل الطلائع والحملات السريعة تثبيتا لقوة المسلمين، وعاملة على نشر الدين الجديد وتبيينه للسكان، يقول ابن الأثير في هذا الصدد: " دخل هناك من الجنود بالقيروان واطمأنوا على المقام فثبت الإسلام فيها " ([5]).

تتحدث المصادر التاريخية([6]) بشح عن تأسيس مدينة القيروان، وعن

---

[1] - P. L. Cambuza, l'évolutiont , t1, p 43. .
[2] - H. R. Idris, le recit d'al Maliki, p. 127.
[3] -IBN Al- Athir, Annales du Maghreb et de l'Espagne, Extrait traduit par E. Fagnane, Alger, 1901, p 19.
- M. Talbi,L'Emirat aghlabide, histoire politique, Paris, 1968, p. 21.
[4] ـــ ابن عذاري، المصدر السابق، ص 19. هذا النص مطابق لما ورد أيضا عند ابن الأثير، الكامل في التاريخ، القاهرة، 1357، ج 3، ص 234
[5] ـــ ابن الأثير، أسد الغابة، ج3، ص 184
[6] – إذا ما اتفقنا أن تأسيس المدينة كان سنة 50هـــ/ 670م فإن أول من سيتحدث عن هذه المدينة عند

وجهها العمراني، والوارد أن عقبة بن نافع لما وصل إلى معسكر ابن حديج لم يعجبه([1])، فقرر أن يؤسس مدينة القيروان في موقع من الأرض([2]) كانت تشغله غابة من الأشجار الصحراوية. فبدأ في تأسيس معسكره الذي سيصبح أول نموذج للعمران الإسلامي ببلاد المغرب، وعن هذه المدينة الأولى فإن النصوص التاريخية على ندرتها فهي لا تقدم لنا الكثير من المعلومات، فنحن لا نعرف شيئا عن مخطط المدينة، ولا على نوعية البناءات المنشأة بها، ولا على شكل العمران. اللهم بعض الإشارات التي تدل على أن عقبة بن نافع أقطع لأصحابه خططا نزلوا فيها، ثم شرع في بناء الجامع في مكانه الحالي، وأنشأ بجواره من الجهة الجنوبية دار الإمارة ([3])، وهو بإقدامه على هذا العمل يكون قد اتبع نفس الخطوات التي قام بها أسلافه من القادة الفاتحين عند تأسيسهم للبصرة والكوفة والفسطاط، والذين كانوا يخصون كل قبيلة أو بطن من بطون القبائل التي ينتمي إليها الجند الفاتحين بخطة لبناء مساكن لهم، فكانت الجهة الشمالية من الجامع من نصيب قوم من قبيلة فهر، وقد أصبح هذا الحي فيما بعد يعرف بمنازل الفهريين،([4]) وللعلم فإن عقبة بن نافع يعود نسبه إلى قبيلة فهر.

ولعل الدافع وراء تأسيس عقبة للجامع ودار الإمارة في هذا الموقع هو وجود بئر عذبة المياه تكفي حاجة المصلين ودار الإمارة، إذ لا يعقل أن يشيد أهم معلمين في المدينة دون توفر المياه في موقعهما، خاصة وأن نسبة الملوحة في مياه المنطقة مرتفعة جدا. وقد كانت هذه البئر تعرف ببئر أم عياض أما في الوقت الحاضر فيطلق عليها الناس إسم بئر تكفة.([5])

والجدير بالذكر أيضا أن المصادر لم تتحدث عن سور المدينة، فابن عبد

الجغرافيين هو ابن خرداذبة سنة 232هـ/ 846م، أي بعد 182سنة من التأسيس وسيأتي بعده ابن الفقيه الحمداني سنة 290هـ/ 903م.

[1] – ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص 67.

[2]- J. Despois, la Tunisie orientale, sahel et basse steppe, étude géographique, Paris, p. 136 à 140.

[3]– السيد عبد العزيز سالم، المغرب الغسلامي، سلسلة كتاب الشعب، مطابع الشعب، عدد 138، 1960، ص 60.

[4]– البكري، المصدر السابق، ص 23.

[5]– حسن حسني عبد الوهاب، المرجع السابق، ص 48.

الحكم، وابن خرداذبة، وابن الفقيه الحمداني، والبكري، والإدريسي، لايشيرون إلى سور يحيط بالمدينة في زمانها الأول، ولا نجد كذلك ذكرا لهذا السورعند ابن عذاري الذي أشار إلى محيط المدينة والذي قدر طوله بـــ 13600 ذراع ([1]). يستثنى من هذا السلاوي الذي نجد في كتابه إشارة إلى سور المدينة فيما نقله عن كتاب الخلاصة النقية حيث يقول:" اختط عقبة بن نافع القيروان سنة خمسين وجعل دور سورها إثني عشر ميلا وبنى بها الجامع الأعظم".([2]) ونحن نعتقد أنه لا يمكن التسليم بهذه المعلومة التي قدمها السلاوي حول سور المدينة ذلك أن كتابه جاء متاخرا زمانيا، وأن المصادر القريبة من الفترة التي أنشئت فيها القيروان لا تتحدث على مثل هذا الإنجاز، إضافة إلى هذا فإن مدن الهجرة كلها لم تعرف عملية التحصين زمن إنشائها فكان هذا حال البصرة والكوفة والفسطاط، لذلك نرجح أن تكون القيروان مثل شقيقاتها غير محصنة بسور.

مكث عقبة بن نافع بأفريقية في حملته الأولى **(خريطة رقم 18)** مدة خمس سنوات، قضى جلها في بناء مدينته الجديدة، وفي إرسال البعثات العلمية والعسكرية إلى نواحي أفريقية المختلفة لنشر الإسلام وتأكيد سلطته. بعد هذا عزل سيدنا عقبة شر عزلة من طرف أبي المهاجر دينار([3]) سنة 51 هـــ /671م.

فوجئ عقبة بنبأ عزله من طرف معاوية بن أبي سفيان واستخلافه بأبي المهاجر دينار، الذي كره أن ينزل بمدينة عقبة، وأسس غير بعيد عنها معسكر تقيروان، لقد عمل هذا القائد على فتح المناطق الشمالية من افريقية وقد نزل على حسب المالكي: "بفحص تونس ويقال أنه نزل بسبخة وبني بها

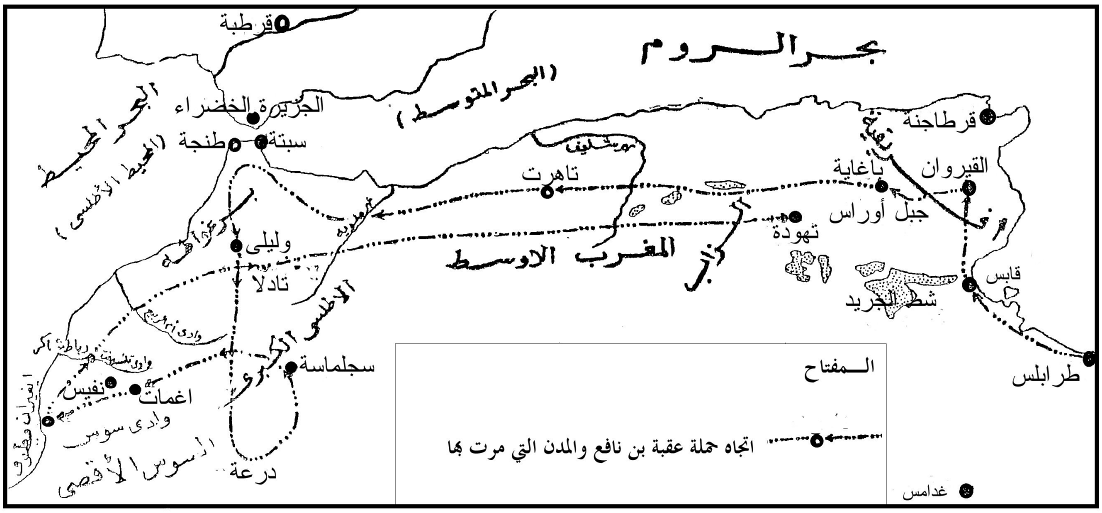
---

[1] – ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص 21

[2]– السلاوي، الاستقصا، ج1، ص 79.

[3] ـــ ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص 67.

وانظر أيضا ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص 17.



خريطة رقم 18: حملة عقبة بن نافع على إفريقية والمغرب الأقصى عن(سعد زغلول عبد الحميد)

ومنها حارب أهل قرطاجنة، ووجه حسين بن عبد الله الصنهاجي بجيش إلى الجزيرة فأفتتحها وكتب إلي أبي المهاجر بذلك فرحل إليه واجتمع معه واقتسم الفيء".وقد تصالح مع الروم على أن يخلوا جزيرة شريك، وقد كانت لهذا الفاتح استراتيجية تعتمد على مصالحة البربر والسعي لإدخالهم في الإسلام ليكونوا الشركاء الفعليين في بناء الولاية الإسلامية المغربية، وواضعي حجر الأساس مع إخوانهم من المشرق لبناء صرح الحضارة الإسلامية في بلاد الغرب الإسلامي. ويظهر من خلال المصادر أن أبي المهاجر دينار قد ركز جهوده العسكرية في محاربة البيزنطيين ومن حالفهم من البربر البرانس.

والظاهر من هذا الأمر أن أبا المهاجر دينار قد تمكن من تعميــق الفــتح غربا حيث واصل فتحه إلى أن بلغ جهة تلمسان، حيث نجد في المصادر أنه نزل قربها عند عــيون تعرف الآن بعــيون أبي المهاجر، ومن هناك زحف إلى كسيلة فظفر به، وعرض عليه الإسلام فدخله فأحسن إليه، وكان كسيلة آنذاك على ديــن النصرانية حسب ما ذكره ابن خلدون، رئيسا على قبيلة أوربة المتزعمة للبربــر ([1]).

قضى عقبة مدة من الزمن دون نشاط يذكر، وعندما أسند إليه يزيد بن معاوية ولاية الغرب عاد إلى أفريقية، حيث نجد في هذا الصدد عند المالكي أن عقبة بن نافع عندما وصل إلى دمشق وجد معاوية بن أبي سفيان قد مات وتولى ابنه اليزيد الخلافة فأخبره عقبة بما صنعه به أبو المهاجر قائلا: "لما افتتحتم أفريقية بنيت مسجد الجماعة فبعثتم عبد الأنصار فأهانني وأساء عزلي فغضب اليزيد وقال أدركوها قد يخربها ورد عقبة "وأزال مسلمة عنها وأقره بمصر وذلك سنة اثني وستون وعاد عقبة إلى القيروان بعشرة آلاف فارس". ([2])

بعد عودة عقبة لولاية المغرب للمرة الثانية سنة 62هــ/681م، كان أول ما قام به هو تخريب مدينة أبو المهاجر دينار، ثم عاد لسكنى مدينة القيروان، فرممها ووسعها واجتهد في تعميرها وإعادتها إلى مكانتها الأولى. وبدأ عمرانها مع مرور الزمن في الاتساع والتطور، بفضل الولاة الأمويين والعباسيين الذين تداولوا على حكمها، وكان أولهم حسان بن النعمان الذي جدد الجامع ونصب حذوه دار الإمارة

[1] ــ ابن خلدون، العبر، ج6، ص108

[2] ــ المالكي، المصدر السابق، ص 220.

وديوان الجند، وديوان الخراج، وديوان الرسائل. كما زاد موسى بن نصير في منشآتها العمرانية، وأنشأ بها دار الضرب لسك النقود، أما عبد الله بن الحبحاب عامل هشام بن عبد الملك فيعود إليه الفضل في تنظيم سماط القيروان الذي تركه عقبة بن نافع بين الجامع وباب أبي الربيع عند تأسيسه للمدينة، والذي يقسمها إلى نصفين على امتداد قرابة الميلين، وأصبح هذا الطريق بفضل الدكاكين المصطفة على جانبيه، وما تحتويها من سلع وصناعات يمثل شريان المدينة الاقتصادي. ([1]) وهكذا استمر الولاة الأمويون والعباسيون في إضافة أشياء جديدة إلى المدينة، ويدخلون عليها التحسينات تلوى الأخرى. أما السكان فقد بادروا إلى إنشاء منازلهم في خططهم وبنوا بها المساجد الصغيرة والكتاتيب لتعليم القرآن فسرعان ما نما عمران المدينة وتلاصق وأصبح عبارة عن كتل عمرانية متلاصقة مشكلة أحياء المدينة. أخذ كل حي اسمه من العشيرة التي تقطنه، فكانت رحبة القرشيين، ورحبة الأنصار، وحارة يحصب، وحارة بني نافد، ودرب المغيرة، ودرب أزهر، ودرب أم أيوب.([2]) ولم يكد يمضي على القيروان مدة نصف قرن من الزمن حتى عمرت وعظم شأنها وأضحت عاصمة مغربية كبيرة.

بعد أن استقر عقبة بمدينته واطمأن على أحوالها استكمل عملية الفتح الذي كان على شكل حملة سريعة قطع فيها بلاد المغرب حتى بلغ مشارف المحيط الأطلسي، وأجاز إلى بلاد السوس لقتال من كان بها من قبائل صنهاجة، وفي طريق عودته استشهد في معركة تهودة الشهيرة، وفر المسلمون إلى برقة ليعود المغرب بعد ذلك إلى سلطة البربر.

يذكر ابن عذاري أنه "سار حتى نزل إيجلي بالسوس وبنى فيه مسجدا وأنه لم يصح عنده أن عقبة رضي الله عنه حضر شيئا من المساجد بالمغرب إلاّ مسجد القيروان ومسجد بدرعة ومسجدا بالسوس الأقصى أما غير ذلك من المساجد المسماة باسمه فإن الناس والله أعلم قد بنوها بموضع نزوله". ([3])

و من هذا كله فمن المؤكد أن حملتي عقبة الأولى والثانية كانتا لهما آثارا عميقة في نشر الإسلام في بلاد المغرب وفي بناء ولايته بها، وهكذا لم يكن

---

[1] – حسن حسني عبد الوهاب، المرجع السابق، ص 54.

[2] – المرجع نفسه، ص 51-52.

[3] ـــ ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص 27.

استشهاد عقبة بمنطقة تهودا بالكارثة الحقيقية فحسب، بل أنه كان أكثر وقعا من ذلك حيث تراجع السلطان الإسلامي من جديد وخرج المغرب من إطار الخلافة الإسلامية إلى زمن غير مسمى.

و قد جاء بعده زهير بن قيس البلوي الذي استرد مدينة القيروان بعد معركة ممس الشهيرة التي أعادت هيبة المسلمين إلى ما كانت عليه قبل مقتل عقبة، ولكنه سرعان ما استشهد بعد أن غدر به الروم قرب برقة ([1]).

تولى بعد زهير بن قيس عدد من الولاة كحسان، وموسى بن نصير، الذين لم يكتفوا بإيصال الفتح إلى بلاد المغرب الأقصى وتخوم السودان بل شرعوا في فتح الأندلس.

يمكن القول أن مدينة القيروان في ولاية عقبة بن نافع الثانية، عرفت توسعا من الناحية العمرانية، فكانت على شاكلة الكوفة والبصرة على زمنهما الأول. ومن المرجح أن عقبة بن نافع لم يتمكن من بناء سور للمدينة في ولايته الثانية كونه كان منهمكا في عملية الفتح، أضف إلى هذا أن أغلبية جيشه كانت من البدو الذين لا يجيدون البناء ([2]) فمن الممكن جدا أن المدينة كان يحيط بها خندق.

وقد يطرح علينا سؤال هام، لماذا لم ينشئ عقبة مدينته في المناطق الشمالية، وفي المناطق الكثيرة العمران؟ فمدينة القيروان أنشئت بعيدا عن المناطق التي عمرها الفينيقيون والرومان والبيزنطيون، أي المناطق الساحلية والمناطق الممطرة الشمالية، بينما أنشئت القيروان([3]) في منطقة سهبية جافة وجرداء. ([4])

يمكن الرد على هذا السؤال بالقول أن المنطقة رغم جفافها فإنها تقع في مكان غني بالمياه الجوفية([5])، وأن المنطقة تحتوي على واديين هما وادي مرق الليل وزرود، الذين يرويان عند فيضانهما أراضي واسعة.([6])

---

[1] ـــ المالكي، المصدر السابق، ص 30.

[2] - P. L. Cambuzat, l'évolution, T1, p. 50.
Ch. Diehl et G. Marçais, op. cit. p. 195.
M. Talbi, op. cit. p. 592 – 592.

[3] - J. Despois, Kairouan, origine et évolution d'une ancienne capitale musulmane, annales de géographie, 1939, p. 159.

[4] - R. Brunschvig, la Tunisie dans le moyen age sa place dans l'histoire, conférence de l 'institut d'archéologie orientale, le Caire, 1948, p. 7.

[5] - G. Marçais, Tunis et kairaouan, ville d'art et d'histoire, Paris, 1917, p. 12.

[6] - S. Mansour, Kairaouan, ville musulmane d'hier et d'aujourd'hui, thèse 3ème cycle

وموقع المدينة يحتوي على بئر عميقة ذات ماء عذب هي بئر بروطة، بينما مياه بقية الآبار مالحة. علما أن المدينة لم تكن واقعة في موضع استراتيجي([1]) وهي بعيدة عن نقطة التقاء المسالك الطبيعية الكبيرة. وقد انتقد موضعها هذا الجغرافي الفرنسي ديسبوا حيث جاء في مضمون كلامه أن موضع المدينة لم تتوفر فيه الأسباب التي تساهم في نموها ورقيها، بل أنه يرى أن منطقتها تتوفر على الكثير من المواضع المشابهة له. وقد اتفق الجغرافيون المحدثون على أن موضع المدينة كان بعيدا عن كل أسباب الازدهار والتطور.

والجدير بالذكر أن نتساءل لماذا أنشئت المدينة في هذا الموضع بالذات؟ هل كان العرب يجهلون كل أسباب التطور والازدهار العمراني؟ أو تعلق ذلك بإستراتيجية ما؟.

ويجيب ابن خلدون عن هذا السؤال قائلا إنما العرب اختاروا هذا الموقع لتأسيس مدينتهم لانشغالات أخرى أهمها توفير الكلأ لإبلهم. ونحن لا نشارك الدارسين المحدثين وابن خلدون في أرائهم هذه، إنما نعيد حدث التأسيس إلى إطاره الزماني والمكاني مخضعين إياه إلى المناخ العام لتلك الحقبة, الأمر الذي يجعلنا نقول أن عقبة بن نافع أصاب الاختيار في موقع القيروان وقد أخضع اختياره للموقع لعوامل سياسية وإستراتيجية, فوضع مدينته في مكان بعيد عن البحر لأن البحر كان بيزنطيا,([2]) ووضعها في المناطق السهبية لأن المناطق الساحلية كانت تحت سيطرة البيزنطيين, ووضعها بعيدا عن الجبال الغربية لأنها كانت تقع في المنطقة التي يسيطر عليها البربر.

إذن، لقد اختار عقبة بن نافع موقعا لتأسيس القيروان على الحدود ما بين المناطق المفتوحة والمناطق التي لم يصل إليها الفتح على مكان قليل الارتفاع يحيط به سهل شاسع, بحيث لا يتمكن العدو من الوصول إليها لأن مساحات شاسعة من السهل تقع على مرأى من حاميتها ويمكن القول أيضا أن سيدنا عقبة اتبع سنة الأمراء([3]) من قبله في تأسيس المدن بحيث أسسها على أرض عذراء

---

de géographie, Paris VII, 1973, p.15.

[1] - J. Despois, Kairaouan , p. 16.

[2] – ابن عذاري، المصدر السابق، ص 10

- H. R. Idris, examen critique des récits d'Al Maliki et d'Ibn Idari sur la conquête de l'Ifriqiya, arabica, 1957, p. 10.

[3] - S. Mansour, Op. cit. p. 14.

(بكر),وهي على الرغم من بعدها عن المسالك الطبيعية إلا أنها مع مرور الزمن جعلت هذه المسائل ترتبط بها, بحيث أنها أصبحت نقطة هامة في التجارة الجهوية لأنها أصبحت سوقا تعرض فيه منتجات أهل الجبال، وسكان المناطق التلية، والصحراوية لتبادل سلعهم, وهي في نفس الوقت مركز تجارة دولي تلتقي فيه القوافل([1]) الرابطة بين مناطق العالم الإسلامي الشرقية والغربية، وبين شمال المغرب وبلاد السودان.

لقد حاول العديد من الباحثين إيجاد آثار مركز عمراني قديم في موضع القيروان, فمنهم من تحدث عن حصن بيزنطي كان في هذا الموقع مستدلين على ذلك بوجود المياه الجوفية في هذا المكان, هذه الأبحاث لم تصل إلى شواهد مادية تثبت ادعاءاتها, لكننا نجد عند المالكي صدى لمركز قديم سمي قمونية, هذا المركز كان موجودا حسب نفس المؤرخ قبل إنشاء مدينة القيروان بمدة طويلة, فهو يذكر أن عبد الله بن أبي سعد استراح في مكان يسمى قمونية([2]) قرب القيروان الحالية, ويذكر نفس المؤرخ أن معاوية بن حديج عندما جاء لفتح بلاد المغرب سنة 50هـ/ 670-671م غزا بنزرت ثم عاد إلى قمونية فأنشأ مباني قرب القرن سماها القيروان في نفس الموضع الذي سوف تنشأ فيه القيروان فيما بعد.([3])

ويمكن القول أن مثل هذا المركز قد أنشئ في المنطقة قبل تأسيس القيروان إلا أنه لم تكن له قيمة عمرانية تذكر.

كل هذا يؤدي بنا إلى القول أننا لا نعرف الكثير حول التنظيم العمراني للقيروان([4]) في الولاية الأولى لعقبة بن نافع, غير وجود مركز لها يحتوي على الجامع الكبير ودار الإمارة وأن عقبة قسّم الأراضي المجاورة لهذا المركز على جيشه في شكل خطط ,وجلب إلى المدينة سكان مدينة تقيروان, هذا الأمر يؤكده ابن عبد الحكم ([5])الذي نجد عنده أن عقبة بعد تنظيم وتهيئة الموقع قسمه إلى خطط وجلب سكان قيروان معاوية بن حديج إلى المدينة الجديدة. وتحدث ابن عبد

---

[1] - S. Mansour, op. cit. p. 15.

[2] - M. Caudel, les invasions arabes dans l'Afrique du nord 641-697jc / 78h, Paris, 1900, p. 104.

[3] - H. R. Idris, le récit d'Al Maliki, p. 129.

[4] - A. Bernard, les capitales de la bérbérie, recueil de mémoires et textes publies en l'honneur du 15ème congres des orientalistes, Alger, 1905, p. 127.

[5] – ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص 67 – 69

الحكم أيضا عن إنشاء الجامع ودار الإمارة,وأن دار الإمارة قد أنشئت قبل الجامع حسب المالكي.([1])

وبعد أن عزل عقبة من منصبه سنة 51هــ/ 671م من طرف أبي المهاجر دينار كما سبقت الإشارة إلى ذلك ([2]) وفضل هذا الأخير عدم الاستقرار في قيروان عقبة. أنشأ على بعد ميلين منها([3]) في مكان آخر مدينته الجديدة التي سماها تقيروان، التي لا نجد في المصادر الكثير من المعلومات حولها، حيث ركز المؤرخون اهتمامهم حول العداوة الموجودة بين أبي المهاجر وسيدنا عقبة وأغفلوا الحديث عنها.

---

[1] - H. R. Idris, le récit d'Al Maliki, P. 122.

[2] – ابن عبد الحكم، المصدر السابق، 67.

ابن عذاري، المصدر السابق، ج 1، ص 17.

[3] - G. Marçais, Sidi Okba, Abu el Muhadjer et Kossaila, les cahiers de Tunisie, n°1, 1e trimestre, 1953, p. 12.

ثانيا: تأسيس مدينة القيروان:

كان العرب المسلمون يغزون بلاد المغرب، فينتصرون أو ينهزمون في غزواتهم، ويعودون إلى برقة أو الفسطاط أو حتى دمشق، وقد أعاق تقدم عملية الفتح بعد خطوط المواصلات، وصعوبة الإمداد من هذه الحواضر البعيدة التي كانت تزيد بعدا كلما تمكن المسلمون من فتح أراضي جديدة غربا، الأمر الذي جعل العديد من القبائل البربرية ترتد كلما خرج المسلمين من بلاد المغرب، وأول من مكث في بلاد المغرب حولا كاملا هو معاوية بن حديج الذي بنى معسكرا شبه ثابت في مكان يسمى القرن، حفر فيه آبار، وبنى مساكن، واتخذ مقبرة لمن مات من أصحابه، نجد عند ابن الحكم حول هذا الموضوع: " واتخذ قيروانا عند القرن فلم يزل فيه حتى خرج إلى مصر". ([1]) كان ذلك قبل تأسيس مدينة القيروان.

لقد بدا جليا للقادة الفاتحين في بلاد المشرق والمغرب أنه أصبح لزاما عليهم إنشاء عددا من المدن المعسكرات على تخوم المناطق المفتوحة، وقد أنشئت لهذا الغرض في العراق، البصرة، والكوفة، زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعرفت مصر أيضا إنشاء مدينة الفسطاط زمن عمر، أما بلاد المغرب فستعرف إنشاء مدينة القيروان زمن معاوية بن أبي سفيان وابنه يزيد.

لقد حث سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومن جاء بعده من الخلفاء المسلمين على الهجرة والاستقرار في هذه المدن الجديدة لتكون الحصون التي يلتجئ إليها المسلمون عند الحاجة، ولتكون المنارات التي تشع بالحضارة العربية الإسلامية على المناطق المفتوحة، والمدارس التي تتدرب فيها الشعوب الجديدة العهد بالإسلام على مبادئ هذا الدين الحنيف. هكذا كان إنشاء مدينة القيروان أمرا مهما بالنسبة للخلافة الإسلامية، وبالنسبة للقيادة العليا للجيوش الإسلامية، وبالنسبة لأمير الجيش عقبة بن نافع على وجه التحديد. فيا ترى ما هي الدوافع التي دعته إلى تأسيس المدينة؟ وما هي الأسباب التي حددت مكان اختيارها؟ وهل وفق سيدنا عقبة في هذا الاختيار؟ وكيف كان تخطيط المدينة في ذلك الزمن ؟.

1 _ أسباب تأسيس مدينة القيروان:

---

[1] ـــ ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص 192.

إن الحافز الذي أخرج العرب من شبه جزيرتهم، كان العمل على نشر الديانة الإسلامية في أقصى أماكن الأرض، وقد اعتمدوا في ذلك على استراتيجيات وتكتيكات مختلفة للوصول إلى أهدافهم المسطرة، فمن الغزو والعودة إلى مواطنهم بالمشرق إلى سياسة منظمة للفتح تعتمد على السيطرة الكاملة على الأرض، هذه السياسة ستكون نتيجتها الفعلية إنشاء مدينة القيروان.

لقد جاء تأسيس مدينة القيروان كهدف ديني جهادي لتأكيد السيطرة الإسلامية على بلاد المغرب، والوقوف أمام الأطماع البيزنطية في العودة إليها. حيث يتفق مضمون الروايات التي نجدها عند بعض مؤلفي المصادر الإسلامية كالمالكي، والدباغ، وابن عذاري، أن عقبة كان يقول لأصحابه عن أفريقية أنها إذا دخلها إمام تحزم أهلها بالإسلام فإذا خرج منها رجعوا إلى الكفر وقد فضل أن يتخذ بها مدينة يجعلها معسكرا أو قيروانا تكون عزا للإسلام إلى آخر الدهر كما جاء في نص ابن عذاري ([1]). وهكذا يظهر جليا أن تأسيس المدينة جاء في إطار جهادي عقائدي محض، بحيث رأى عقبة أن تأسيسها سيطمئن نفوس المؤلفة قلوبهم إلى الدين الجديد.

لقد أرادها عقبة قيروانا، وحرزا للإسلام والمسلمين، وصومعة علم تهدي القلوب وتزيل الضلالة، لقد كان في معسكر سيدنا عقبة خمسة وعشرون نفرا من أصحاب الرسول "صلع" جمعهم عقبة وطاف بهم في المدينة داعيا الله بقوله: "اللهم أملأها علما وفقها وأعز بها الإسلام وأمنعها من جبابرة الأرض" ([2]).

وكان دعاءهم مستجابا فأصبحت المدينة فيما بعد مدينة جهاد، وجامعة علم، ومركز إشعاع إسلامي انتشر من خلالها سلطان المسلمين، فعم على بلاد المغرب وعلى جزر البحر الأبيض المتوسط، وأجاز إلى الأندلس وامتد إلى أفريقية جنوب الصحراء.

2 _ اختيار موقع المدينة وأسبابه:

يقول الجغرافي الفرنسي بونسي أن عقبة لم ينجح نجاحا كبيرا في اختيار

[1] ــ ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص 19.

[2] ــ ابو العرب (محمد بن الحارث)، طبقات علماء افريقية،نشر الشيخ محمد بن أبي شنب، الجزائر، 1914، ص 56.

موقع القيروان، حيث كان بإمكانه أن يجد مئات المواضع المشابهة لمدينة القيروان على امتداد مائة ميل حولها، ويؤكد ذلك ما نجده عند ابن خلدون الذي رأى أن موقع المدينة أصلح للبدو بجمالهم وأغنامهم منه لإنشاء مدينة تكون حاضرة المغرب الإسلامي، والحقيقة أن عقبة عندما أسس معسكره، كانت أغلبية أراضي بلاد المغرب خارجة عن سلطان المسلمين، فالأراضي التونسية الواقعة شمال القيروان كانت بيزنطية. أما بقية بلاد المغرب فيتحكم بها البربر الذين لم يعتنق معظمهم بعد الإسلام، ومن الحوادث الطريفة التي أثرت في نفوس البربر، وجعلت الكثير منهم يدخل في الإسلام نداء عقبة عندما بدأ أصحابه يحضر ون الموضع لاستقبال المباني الأولى للمدينة حيث قال كلمته المشهورة مخاطبا الحيات والسباع ورد نصها عند النويري: "أيتها الحيات والسباع نحن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ارحلوا عنا إنا نازلون ومن وجدناه بعد ذلك قتلناه فنظر الناس في ذلك اليوم إلى السباع تحمل أشبالها والذئاب تحمل أجراءها والحيات تحمل أولادها." ([1]). الأمر الذي أدهش الكثير من البربر عند سماعهم الخبر، ودعاهم إلى الدخول في الإسلام.

إن كون المحتل البيزنطي يسيطر على المناطق التلية من الأراضي التونسية، ويتحكم في السواحل والمسالك البحرية، ذلك أن البحر الأبيض المتوسط كان بحرا بيزنطيا تقطعه الأساطيل البحرية البيزنطية من حوضه الشرقي إلى حوضه الغربي جالبة المدد من القسطنطنية إلى قرطاج. والمسلمون كما هو معلوم مازالوا في عهد عقبة لم يتحكموا بعد بزمام الدخول إلى البحر. فلم يكن عندهم جيشا بحريا، ولم يتمكن المجاهدون بعد من تقنيات ركوب البحر، الأمر الذي جعل عقبة بن نافع يلتزم استراتيجية تجعل الجيش البري رأس حربة الفاتحين، وهذا الأمر يتجلى بوضوح عند اختياره معسكر القيروان الذي يبعد عن سواحل البحر، بمسافة مرحلة طويلة، إذا خرج الفارس منها من سوس مع غروب الشمس، وجد في السير فإنه لن يصل إلى مدينة القيروان إلاّ بعد بزوغ الشمس بمدة طويلة، الأمر الذي يجعل من عامل المفاجأة والمباغتة غير ممكن.

كما أن المدينة أنشئت في مكان بعيد عن الجبال التي يسيطر عليها البربر بمسافة أطول، كل هذا كان سعيا منه لتأمين أرواح المجاهدين، ولجعل المبادرة دائما

---

[1] ـــ النويري، المصدر السابق، ص 68.

عند قادتهم، فالمدينة كانت إذن بعيدة عن البحر لا تتعرض لغدر الأساطيل البيزنطية، وبعيدة عن الجبال أيضا لكي لا يباغتها البربر فجاء موقعها في قلب البلاد وبين ظهراني القبائل البربرية لتتمكن من نشر الإسلام والعربية بينهم، ولتؤمن إمدادات الجيش وتحمي وسائل المواصلات (الإبل)، وتقدم لها العلف الكافي والمكان الجاف الصحي الذي يمكنها من لعب دورها كاملا.

ثالثا: القيروان عاصمة الدولة الأغلبية(184- 296هـ/800-908م)

1 _ القيروان والوسع الأغلبي:

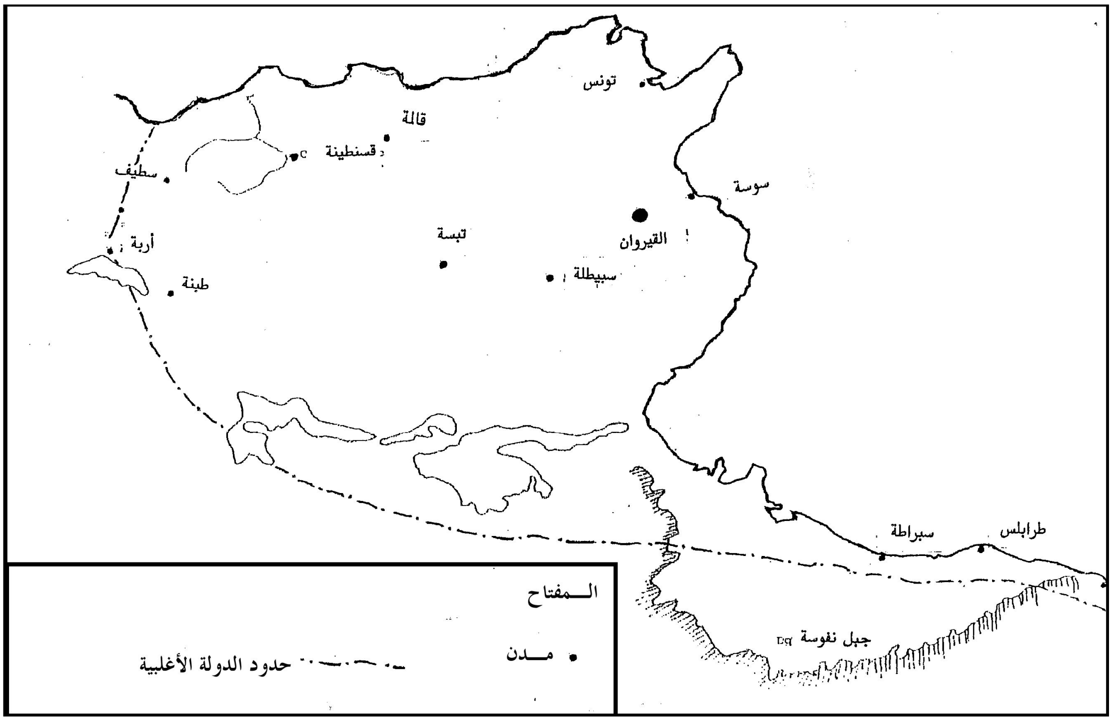
إن حدود الدولة الأغلبية ([1]) تمتد من البحر حتى مناطق طبنة وبسكرة من الناحية الجنوبية، وتصل من الناحية الغربية إلى سطيف([2]) وبلد كتامة (القبائل الصغرى) وهي محاذية لمناطق برقة من الناحية الشرقية حيث تشمل طرابلس. بينما تبقى مناطق شاسعة أخرى توجد ضمن الحدود الجغرافية للدولة الأغلبية تابعة للدولة الرستمية، لأن سكانها في غالبيتهم كانوا من الخوارج، وهذه المناطق هي منطقة جبل نفوسة بليبيا والجريد ونفزاوة بتونس ومنطقة الزاب والحضنة والأوراس بالجزائر.([3]) **(خريطة رقم 19)**

---

[1]- G. Marçais, la bèrbérie musulmane et l’orient au moyen age, Paris, 1946, p 57

[2]- M. Talbi, op. cit. p 127.

[3]- CH. Diehl, L’Afrique Byzantine, histoire de la domination byzantine en Afrique, Paris, 1896, p. 539.
M.Vonderheyden, la Bèrbérie orientale sous la dynastie des Benou'l-Arlab 800- 909, Paris, 1927, p. 46.



خريطة رقم 19: حدود الدولة الأغلبية عن(طالبي بتصرف)

يبدو من خلال هذا التقسيم الجغرافي لبلاد المغرب أن السلطة الأغلبية انتشرت في مناطق أفريقية الرومانية والبيزنطية إلا أن انتشارهـــا كان أكثر في اتجاه المناطق الجنوبية، منها إلى المناطق الشمالية الغربية.

لقد حاول الأغالبة السيطرة على هذه المناطق اعتمادا على الجند العرب، وتمكنوا من ذلك باستعمال عدد لا بأس به من التحصينات التي تركها البيزنطيون، كما عمدوا إلى إعادة تنظيم شامل لاستحكامات الليمس، واستعملوا عددا لا بأس به من قلاعها وتحصيناتها المختلفة للدفاع عن العاصمة الجديدة القيروان، التي كانت توجد في منطقة السهوب داخل البلاد، بعيدا عن الشواطئ بينما كانت قرطاجة العاصمة القديمة في العهد الروماني والبيزنطي محاذية للبحر.

وقد حددت المصادر العربية أهمية القيروان في هرم مدن أفريقية، ولعلنا لا نجد أحسن من تقديم مثال ما جاء في نص ابن خرداذبة المتوفى سنة 272 هـــ / 885 م عند تطرقه بالحديث عن الطريق الرابط بين برقة وبلاد المغرب، والذي يصف فيه مدينة القيروان وصفا مختصرا، جاء فيه: " ... ثم إلى القيروان مدينة المخالي أربعة وعشرون ميلا وهي مدينة أفريقية في وسط المغرب وهي في يدي ابن الأغلب وفي يده قابس وجلولاء وسبيطلة مدينة جرجير الملك وكان روميا وبينها وبين القيروان سبعون ميلا، وزرود وغدامس وقلسانة وقفصة وقصطيلية ومدينة الزاب وتهودة وسلسمان وودان وطفرجيل وزغوان وتونس وبين أفريقية وبينها مرحلتان على البغال واسم مدينة تونس قرطاجنة وهي على ساحل البحر يحيط بسورها أحد وعشرون ألف ذراع، وبين تونس وبين بر الأندلس عرض البحر وهو هناك ستة فراسخ ثم إلى قرطبة مدينة الأندلس مسيرة خمسة أيام ([1])

ويقدم لنا ابن الفقيه الحمداني المتوفى سنة 290هـــ / 902 م في (كتاب البلدان) المدن الهامة التي تقع على المسلك الكبير الرابط ما بين الفسطاط وبلاد أفريقية([2])، وإذا ما قارنا ما بين نصي ابن خرداذبة وابن الفقيه، فإننا نجد أن ابن الفقيه قد نقل كل معلوماته على ابن خرداذبة وإنه لم يأتنا بمعلومات جديدة.والحقيقة أن القيروان لم تعد كما كانت في عصر الولاة عاصمة بلادي المغرب والأندلس،

---

[1] – ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص 81.

[2] ـــ ابن الفقيه، المصدر السابق، ص 77

بل أصبحت في العهد الأغلبي لا تمثل إلا عاصمة لأفريقية أي أن الوسع الذي كانت تتحكم فيه قد تقلص، ورغم ذلك كله فإن المدينة زادت من ناحية قوتها التأثيرية ومن الناحيتين الاقتصادية والعلمية، وتمركزت حولها الطرقات الهامة التي أضحت تربطها بمدن المغرب ومناطقه المختلفة، لكن سيطرتها الإدارية والسياسية انكمشت إلى حدود أفريقية الجغرافية، كل هذا يدفعنا إلى القول أن هذه المدينة كانت لها سيطرة اقتصادية وثقافية تمتد خارج حدود إطارها السياسي.

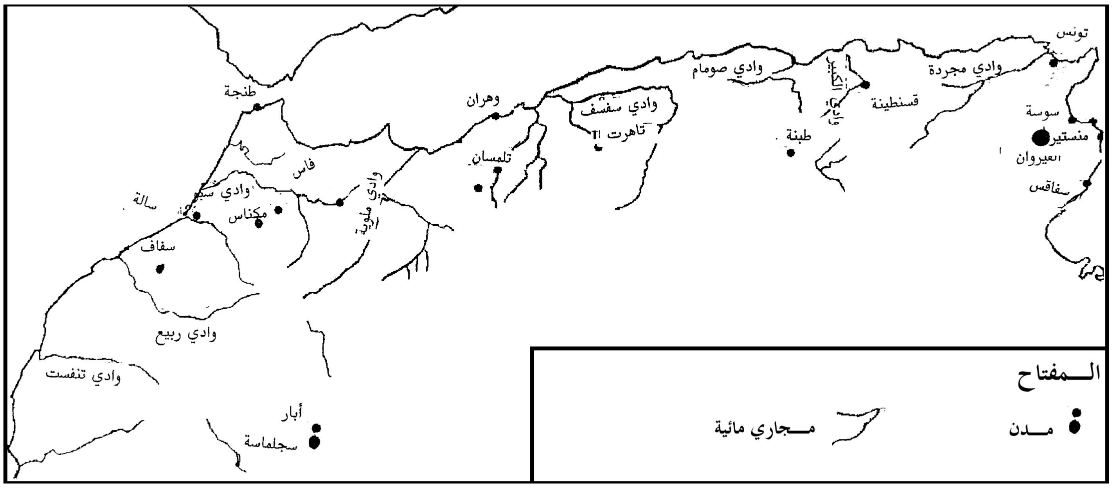
لقد لعبت القيروان في العهد الأغلبي دور العاصمة السياسية، والإدارية، والاقتصادية، والحربية، لدولة الأغالبة من ناحية. ومن ناحية أخرى كانت هي أكبر مدن المغرب الإسلامي وأكثرها قداسة وشهرة. فهي صومعة العلوم، وملتقى الثقافات، وكانت تمثل أوج ما وصلت إليه الحضارة العربية الإسلامية ببلاد المغرب. فهي ملتقى العلماء والدارسين، وبها تدرس العلوم المتنوعة وفق المذاهب المختلفة، وهي مقصد طالبي العلم من مختلف الأسقاع.

تأثرت هذه المدينة في عمرانها، وعماراتها، وفنونها، وحرفها، ببلاد المشرق. وأثرت بدورها تأثيرا عميقا في المغرب الإسلامي وإفريقيا جنوب الصحراء. عليها مرت التأثيرات الفنية إلى مدن المغرب المختلفة، وفيها تدربت أجيال المثقفين والحرفيين الذين سينشرون الحضارة الإسلامية بهذه البقاع.

2 – أهمية القيروان بين مدن المغرب.(خريطة رقم 20)

لقد عمد الأغالبة إلى وضع سياسة لترقية النشاط الاقتصادي في دولتهم، اعتمدت على مجموعة من الورشات الهامة أحداها ورشة تجهيز الطرق الموروثة عن العهد القديم ([1])والتي كانت تمر على عدد من المنشآت كالجسور وما شابه ذلك، وهذه الطرق كانت تربط مدينة القيروان بمدن الشمال والشرق، وتونس، وسوسة، وصفاقس، والأربس، وقد عمدت الدولة إلى تأمين هذه الطرق بوضع قلاع

[1]- G. Marçais , La bèrbérie musulmane. p 84.



خريطة رقم 20: أهمية القيروان في هرمية مدن المغرب من إعداد الطالب

وحاميات خاصة بحراستها.([1])

والجدير بالذكر أن أهم هذه المسالك هي:

1- المسلك الرابط بين القيروان وطرابلس والمشرق والذي كانت

تسميه المصادر العربية بالجادة، وهو أيضا ملتقى القوافل الحاملة للتجار، والعلماء، والطلاب، والحجاج، وقد ذكر ابن خرداذبة هذا المسلك في النص الذي أوردناه سلفا.

2- أما المسلك الثاني وهو مسلك هام جدا كان يربط ما بين القيروان وسطيف وتيهرت وينتهي بفاس.

3 - وهناك مسلك ثالث يربط القيروان بجزائر بني مزغنة مارا بطبرقة وزاوية بني مزغنة ليصل إلى طنجة ومنها إلى بلاد الأندلس.

وحرصا منهم على تذليل الصعاب أمام مستعملي هذه المسالك الهامة، أنشأ الأغالبة عدد من التجهيزات المختلفة كالجسور، والقناطر، ولم يتوقفوا عند هذا الحد بل عمدوا في الكثير من الأحيان إلى تبليط بعض الطرق وخاصة تلك التي كانت في المناطق القريبة من تونس وقرطاج، ذلك أن الأغالبة قد عرفوا استعمال مركبات مزودة بالعجلة في المناطق التي وجدت بها مصانع السفن.

لقد ذكر حسن حسني عبد الوهاب بعض هذه المنشآت التي تضاهي في التقنيات المعمارية المستعملة ما بناه الرومان في المناطق القريبة من تونس وقرطاج، ذلك أن الأغالبة قد عرفوا استعمال مركبات مزودة بالعجلات في المناطق التي وجدت بها مصانع السفن. فهو يتحدث عن الجسور الموجودة قرب باب أبي ربيع في القيروان، هذا الباب الذي أنشئ من طرف الحاكم زياد الله الأغلبي ثم أعاد بناؤه فيما بعد أبو إبراهيم سنة 259 هـ / 872 م.([2])

نستخلص مما سبق أن نظام المواصلات الأغلبي تطور وفق معطيين أساسيين:

1 - تمركز السلطة في إطار جغرافي ضيق، وهذا الأمر أدى إلى إعادة

---

[1] - ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج6، ص 5.

[2] - حسن حسني عبد الوهاب، المرجع السابق، ج1، ص 43وما بعدها.

تنظيم الطرقات الهامة ببلاد المغرب.

2- الحرص على إعادة هيكلة هذه الطرق لتخدم القيروان، التي توجد في قلب إفريقية. بينما كانت هذه الطرق تخدم فيما سبق قرطاجة الموجودة في الشمال على شاطئ البحر، كما أعاد الأغالبة مركزة نظامهم الدفاعي ليكون حارسا لعاصمتهم الجديدة القيروان، بينما كان فيما سبق حارسا لمدينة قرطاجة عاصمة الولاية الرومانية بأفريقية الرومانية. أي أن الأغالبة استغلوا المنشآت العمرانية البيزنطية، وكيفوها وفق احتياجاتهم.

3 - أحواز المدينة:

إن دراسة الريف القريب من المدينة يمكن الباحث من معرفة المناطق التي تزود المدينة بما تحتاجه من ماء، ومواد غذائية مختلفة، والمواد الأولية المستخدمة في النشاطات الحرفية المختلفة بالمدينة([1]).

لقد عرف ريف مدينة القيروان القريب والمتوسط تطورا سريعا ومستمرا خلال الفترة الممتدة من الفتح الإسلامي إلى الغزو الهلالي فالأغالبة والممالك التي تبعتهم في حكم بلاد أفريقية عملوا كلهم على تدعيم الأمن والسلام([2]) الذي افتقدته هاته المنطقة إبان عملية الفتح الطويلة وفي أواخر الحقبة البيزنطية وكما سنبينه عندما نتطرق إلى دراسة السياسة المائية لهذه الدول المتعاقبة ذلك أن هذه السياسة المدجنة للإمكانات المائية للمنطقة ستمكن هذه الدول من إرساء زراعة مسقية([3]) ومركزة تعطي ثمرها في كل السنين موازاة مع الزراعة البعلية. ([4])

لقد فهم الأغالبة منذ الوهلة الأولى أهمية توفير المياه الكافية للمدينة السريعة التطور، والكثيفة السكان، ولريفها القريب، والمتوسط البعد، الذي يزودها بما تحتاجه من الميرة. لذلك سنوا سياسة مائية محكمة تعتمد على المنشآت المائية الصغيرة والمتوسطة، ذلك أن المناطق المحيطة بالقيروان لم تكن تحتوي على أنهار وفيرة المياه، ولا على مياه جوفية كثيفة، إنما هي أراضي سهلية تفيض

---

[1] - L. Golvin, le Maghreb central à l'époque des Zirides, Recherches d'Archéologie et d'Histoire, Paris, 1957, p. 257

[2]- G. Marçais, Sousse et l'architecture musulmane du IXè siècle, A. I. E. O, Alger, p 54.

[3] ـــ أنظر في هذا المجال الدراسة الأكاديمية للمهندس الكبير سولينياك: M. Solignac, - Recherches sur les installations hydrauliques de Kairouan et des steppes Tunisiennes, du VII ème au XIIème siècle, A. I. E. O, Alger, tome X, 1952, p. 167.

[4] – البعلية: التي تعتمد على المطر.

وديانها عندما تتساقط الأمطار في المناطق الشمالية، لذا اهتم أهل الاختصاص في مجال الري بإنشاء منشآت مائية تتلاءم مع مناخ المنطقة ومع طبيعة مياهها.

لقد اهتم الجغرافيون العرب ([1]) بمشكلة الماء في منطقة القيروان عموما وبالكيفية التي زودت بها المدينة بالمياه الصالحة للشرب، فهذا البكري مثلا يتحدث عن مائة وأربعة عشر ماجلا أنشئت حول مدينة القيروان، جزء لا يتجزأ منها أنشئ في العهد الأغلبي، ويمكن للباحث اليوم أن يرى ما تبقى منه قرب باب تونس.([2])

يعد الماء من الأمور الأساسية لاستمرار الحياة، والتي لابد أن يوفرها مؤسسو المدن لمدنهم. فابن الربيع يتحدث عن سعة المياه المستعذبة، أي أن تكون المدينة قرب نهر أو واد أو في منطقة تكثر فيها العيون وأن تكون المياه الداخلة إلى المدينة صالحة للشرب أي غير مالحة أو مرة أو موبوءة فهل توفر حقا مثل هذا الأمر لمدينة عقبة القيروان ؟

لقد أسست هذه المدينة كما سبق وأن ذكرنا في منطقة شبه صحراوية، تقل فيها المياه إلا مياه نهري السراويل، ومرق الليل، اللذان لا يفيظان إلا بضعة أيام في السنة، كما يحتوي الموضع الذي أسست عليه المدينة على مياه جوفية غزيرة لكنها غير صالحة للشرب لشدة ملوحتها ومرارتها، كل هذا جعل أولي الأمر بالمدينة، يعتمدون سياسة استغلال كل المياه المتوفرة بالمنطقة سواء كانت كثيرة أو قليلة، فعمدوا إلى إنشاء المآت بل الآلاف من المنشآت الصغيرة والمتوسطة لتزويد المدينة بما تحتاجه من ماء شروب ولسقي الأراضي التي أخصبتها المياه فأضحت لا تزود المدينة بما تحتاجه من ميرة فحسب، بل أنها تصدر ما زاد عن حاجتها إلى بلاد المغرب وجهات العالم الإسلامي المختلفة.

لقد اهتم أعيان القيروان وأغنياءها بإنشاء العديد من المنشآت المائية

---

[1] – يلقب ابن خرداذبة المدينة في الصفحة السابقة بمدينة المواجل.

[2] ـــ مازال إلى اليوم ماجلان كبيران مستديران من جملة خمسة عشر ماجلا تحدثت عنها المصادر التاريخية يشهدان على عظمة هذا الإنجاز، عمقهما أربعة أمتار وإلى جوارهما ماجلان صغيران، عمق الواحد منهما ستة أمتار، ويتصلان بالماجلان الكبيران عبر فتحة صغيرة بينهما بحيث تصب مياه السيول في الماجل الصغير لتترسب الأوحال في قاعه قبل أن يمتلئ ثم تتسرب المياه الصافية بعد ذلك عبر الفتحة الصغيرة إلى الماجل الكبير لتستعمل في مختلف نشاطات المدينة، وتعرف هذه المواجل اليوم عند السكان المحليين بالفسقية.

بتشجيع من العلماء والفقهاء، وعملا بسيرة السلف الصالح وتطبيقا لأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم الكثيرة التي تشجع شراء وإنشاء كل ما من شأنه أن يوفر للمسلمين الماء الشروب بالكمية الكافية.

لقد تنافس أمراء الأغالبة على إنشاء مثل هذه المنشآت الخيرية ورأوا فيها عملا يقربهم من الله جل جلاله، لهذا امتلأت المدينة وضواحيها بالمآت من هذه المنشآت التي أنشئت بالمال العام والخاص، والتي ساهمت مساهمة كبيرة في عمران مدينة القيروان، ولولا هذه السياسة الحكيمة في تزويد المدينة بالماء لما اتسعت المدينة ولما كثر عدد سكانها حتى أصبحت أكبر مدن المغرب كثافة في السكان وأعظمها قطرا وأكثرها تحضرا في أوائل العهد الفاطمي.

لقد رفع الإسلام من مكانة الماء وجعل منه المادة التي يتطهر بها المسلم ليواجه بها وجه ربه وقدسها، حيث يقول الله تعالى: " وجعلنا من الماء كل شيء حي."([1]) ورغم قلة المياه بالقيروان فقد انتشرت بها الحمامات الخاصة والعامة وزودت مساجدها الكثيرة بالمياه للوضوء وكثرت في المدن التي أنشئت حولها كالقصر القديم (العباسية)، ورقادة الجنائن والمنتزهات التي يكثر فيها خرير الماء وتنتشر فيها المواجل والسواقي.

---

[1] ـــ الآية 30 من سورة الأنبياء .

رابعا: النشاط الاقتصادي

1 - الصناعة:

إن تنظيم الحرف في إطار إسلامي وتحت رعاية المحتسب([1]) مكن المدينة من قطاع اقتصادي قادر على المنافسة فكثرت بها الورش وتعددت حول سماطها الأسواق، علما أن فترة السلم التي مرت بها المنطقة في العهدين الأغلبي والفاطمي، ساهم مساهمة كبيرة في تنشيط اقتصاد أفريقية الذي كان يزود ورش المدينة وأسواقها بما تحتاجه من مواد غذائية ومواد أولية كالجلود، والأصواف، والكتان، والزيوت، وما شابه ذلك من الأمور([2]). كما ساهمت التجارة المحلية، والجهوية، والدولية، في تنشيط الحياة الاقتصادية بالمدينة، حيث كانت تصدر هذه الأخيرة منتجاتها إلى مناطق العالم البعيدة([3]) وتستورد كل ما تحتاج إليه من أسواق العالم المعروفة آنذاك.

لقد اشتهرت مدينة القيروان بالصناعات الزجاجية([4])، وبصناعة الجلد، والذهب، والورق، واهتمت ورشها بصناعة المعادن([5]) التي كانت تزود احتياجات ورش صناعة السفن بتونس وسوسة. ويذكر المالكي أن بعض صانعي النحاس كانوا يصدرون السلاسل المصنوعة من هذه المادة إلى بلاد السودان.

لقد تأثرت صناعة الزجاج بالتقنيات المصرية، أما صناعة الفخار فقد اعتمدت تقنيات بلاد ما بين النهرين([6])، ففخار رقادة يشبه كثيرا فخار سامراء، كما اشتهرت المدينة بصناعتها النسيجية التي كانت تزود سكانها بما يحتاجون إليه من ألبسة، وأغطية، وزرابي، وخيام في بعض الأحيان.

2 - التجـــــــارة:

[1] – لقبال موسى، الحسبة المذهبية في بلاد المغرب، نشأتها وتطورها، الجزائر، 1971، ص 58

[2] - G. Marçais, Tunis et Kairouan, p. 24.

- D. F. Arnoulet, Notes sur l’histoire de l’agriculture en Tunisie, IBLA , 1965 , n° 112, p. 410.

[3] - G. Marçais, le Bèrbérie musulmane, p. 63.

[4]- H. Djait , F.Dachraoui, M. Talbi, A. Douib, M..A. M’rabet , histoire de la Tunisie le moyen age, Société Tunisienne d’édition, Tunis, s.d , p. 147.

[5]-Brunschvig , initiation à la Tunisie, publiée sous la direction de J. Despois, Paris, 1950, p. 82.

[6] G. S. Colin et E. L. Provençal , un manuel hispanique de hisba d’Abu Abdellah Mohamed Ben Abi Mohamed Assakati de Malaga, sur la surveillance des corporations de la répression des fraudeurs en Espagne musulmane, paris, 1931, p 2 et 5.

ا _ التجارة الداخلية:

لقد كان النشاط التجاري في مدينة القيروان في العهد الأغلبي نشاطا مهما، حيث لعبت الدولة دورا هاما من خلال مؤسسة الحسبة، ([1]) التي قامت هي الأخرى بدور بالغ الأهمية في تنظيم المبادلات التجارية، والوقوف في وجه كل من سولت له نفس التحايل والغش، والسهر على النوعية الجيدة للمواد المستهلكة بداخل الأسواق، كما كان المحتسب يسهر على تزويد أسواق المدينة بما تحتاجه من مواد في إطار تنافسي شرعي بعيد عن كل التلاعبات. ([2])

- أسواق المدينة:

لقد بدء تنظيم أسواق مدينة القيروان على طريقة أسواق البصرة، والكوفة، وبغداد، في عهد الأمير يزيد بن حاتم بن المهلب،([3]) حيث عمل على تنظيم أسواق هذه المدينة بطريقة جديدة جعل فيها سوقا لكل صناعة ومنتوج كل حرفة على أن يكون هناك تخصص لكل سوق في حالة معينة ([4]) وذلك لتسهيل مراقبة هذه الأسواق حيث جعل على كل سوق معلم (شيخ الحرفة)، يعتمد عليه المحتسب لمراقبة السوق والوقوف ضد الغش ولأخذ الشكوى من المشتري الذي يحس بالضيم.

انتشرت هذه الطريقة في تنظيم الأسواق لتشمل مدن كثيرة في بلاد المغرب. نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر مدن تونس، وصفاقس، وسوسة، وتيهرت، وسجلماسة، وفاس، إلى غير ذلك من المدن. كما انتشرت في بلاد الأندلس في مدن مثل قرطبة وطليطلة ووصلت هذه الطريقة إلى مدينة صقلية.

لقد وردت إلينا أسماء بعض الأسواق من خلال بعض كتب الطبقات والجغرافيين، فسوق العبيد بالقيروان كان يسمى بسوق البركة ([5])، وقد انتقلت إليه إليه هذه التسمية من مصر حيث كانت تعرف الفسطاط سوقا للعبيد يقع بجوار

---

[1]- H. Djait ,F. Dachraoui ,. op.cit, p 147.

[2]- G. Marçais, Considération sur les villes musulmanes et notamment sur le rôle du muhtassib, Recueil art musulman et histoire maghrébine, Alger, 1956 , p 255.

[3]– ابن عذاري، البيان، ج1، ص 78.

[4] – محمد محمد زيتون، المرجع السابق، ص 12

[5]- R. Brunschvig, Initiation à la Tunisie, p. 59

بركة، فأصبح يعرف هذا السوق باسم البركة، وقد سميت العديد من أسواق العبيد في بلاد المغرب والأندلس بهذه التسمية مما يفسر مدى تأثير القيروان على هذه المدن.([1])

لقد عمل تجار القيروان على تنشيط التجارة في هذه المدينة فربطوها بمختلف مدن المغرب فكانت تأتيها الحبوب من باجة، والزيت من سوسة وصفاقس، والتمر من الجريد والفواكه من قابس، هذه الأخيرة التي أشار البكري إلى تنوع فواكهها، وجودة حريرها، وأضاف قائلا أن هذه المدينة هي الوحيدة التي تنتج الحرير ببلاد أفريقية. ([2])

كما تنتج التمر وقصب السكر، وهي مدينة تستقبل قوافل مصر المتوجهة إلى أفريقية والقوافل المتوجهة من أفريقية إلى مصر، كما أن ميناءها يستقبل التجار من جميع أنحاء العالم وتباع بأسواقها منتجات البدو كالجلد، والصوف، والسمن، والعسل، وغيرها مواد أخرى مختلفة تنتجها مناطق السهوب والصحراء. وموازاة مع هذا النشاط التجاري المحلي والجهوي كان تجار القيروان يؤدون دورا هاما في التجارة الدولية.

ب – التجارة الدولية:

لقد اعتمد تجار مدينة عقبة للمتاجرة مع بقية العالم على المسالك البرية([3]) والمسالك المائية، فكانت تصل المدينة القوافل المحملة بالسلع المختلفة من جميع أنحاء العالم القديم المختلفة، فبعضها يقطع الصحراء آتيا من السودان الغربي أين كانت تستبدل مادة الملح والمواد المصنعة، بالتبر والعبيد وجلود الحيوانات الأفريقية والعاج وبعض المواد الأفريقية التي كانت تصل إلى القيروان ويعاد تصدير جزء منها. كما اعتمد الجيش الأغلبي على شراء عدد من العبيد وصل إلى خمسة آلاف حسب بعض المصادر لتكوين الحرس الخاص بالأمير فكان هو المدافع عن مدينةالقصر القديم في الأول وفيما بعد عن مدينة رقادة.

لقد أصبحت القيروان خاصة، وبلاد أفريقية عموما، منطقة عبور للقوافل

1– حسن حسني عبد الوهاب، المرجع السابق، ص 59 وما بعدها

2 – البكري: المصدر السابق، ص 41.

3 – حول هذه المسالك أنظر البكري، المصدر السابق، ص 30-37-49-54-55-63-66.

الدولية، فهي التي تربط بين المغرب الأقصى وبلاد الأندلس والمشرق الإسلامي، وتمر عليها السلع من المناطق الأفريقية الموجودة جنوب الصحراء إلى أوربا وغيرها من الدول، وقد شارك في هذه التجارة الدولية العديد من التجار من جميع الجنسيات والأديان.

كما ارتبطت موانئ أفريقية كسوسة، وصفاقس، وقابس، بموانئ أوربا وخاصة موانئ صقلية، وإيطاليا، والأندلس، حيث كانت تستقبل هذه الدول كميات معتبرة من الزيوت والحبوب والجلود من أفريقية.

لقد كانت الفترة الممتدة من الفتح الإسلامي إلى الغزو الهلالي، فترة نشاط اقتصادي كبير في منطقة أفريقية عموما، وفي عاصمتها القيروان على وجه الخصوص، حيث أصبحت فيها مدينة القيروان أكبر مدن المغرب عمرانا، وأكثرها غناء ونشاطا اقتصاديا، كما أن المداخيل الهائلة التي استفاد منها سكان المدينة من خلال التجارة الدولية ــ كتجارة الذهب، وتجارة المواد الفاخرة، تلك التجارة التي قل وزنها وغلا ثمنها ــ مكنت هؤلاء من الاكتناز ومن جمع ثروات طائلة ساهموا بجزء منها في بناء العمائر والقصور وتزيين المدينة والمحافظة على نمطها الحضري. كل هذا يؤدي بنا إلى القول أن القيروان كانت نقطة إشعاع حضاري هام أخذت عنها بقية دول ومدن المغرب إلى يوم احتلال منطقتها من طرف الهلالين. ومنذ ذلك الحين شهدت المدينة تدهورا في التجارة وأخذ نشاطها يتقلص، فأدى إلى دخول المدينة في مرحلة من الانكماش والأفول بعدما انتقلت منها صفة العاصمة إلى المهدية في العهد الفاطمي وإلى تونس في العهد الحفصي.

خامسا: الإشعاع الثقافي:

لقد كانت الحياة الثقافية بالقيروان حياة نشطة تضاهي الحياة الثقافية في كبريات مدن المشرق الإسلامي كالبصرة والكوفة والفسطاط، فمدينة القيروان هي إحدى مدن الهجرة أي تلك المجموعة من المدن التي حث الخلفاء المسلمون الأوائل على الهجرة إليها من المدينة المنورة وشبه الجزيرة العربية، فكانت مدينة القيروان، إحدى هذه المدن التي استقبلت عدد كبير من العلماء والصحابة والتابعين، الذين فضلوا الهجرة إليها والاستقرار بها. فكانت بحق مركز إشعاع

الثقافة العربية الإسلامية ببلاد المغرب. ([1])

لقد كان بالمدينة عدد من الفقهاء الكبار وعلماء التربية والنحويين والأدباء وفي هذا الصدد لابد من القول أن الأغالبة ورغبة منهم في مضاهاة العباسيين قد شجعوا الحركة العلمية والثقافية بإنشاء عدد من المكتبات الملكية أين كان يلتقى رجال العلم والطلاب، وحيث كانت تخزن أعداد كبيرة من المخطوطات التي كانت تقدم لهذه الفئة من المجتمع قصد الدراسة والبحث، وهكذا أصبحت مدينة القيروان محجا لطلاب العلم من جميع أنحاء بلاد المغرب وكذا الأندلس.([2])

كانت القيروان مدينة العلوم الشرعية والفقه، وكانت أيضا مدينة العلوم الدنيوية، حيث تذكر كتب الطبقات عدد من الأطباء الذين عاشوا بها كإسحاق بن عمران، ويزيد بن خلفون الذي توفي سنة 308 هـ / 920 م.

ولتقييم مدى اتساع مدينة القيروان سنحاول تتبع مراحل تكوين أحد أهم فقهاءها وهو أسد بن الفرات(142 – 212 هـ / 759 – 828 م) ([3]) وسنأخذ مساره العلمي كمثال لأحد الطلبة الذين سيصبحون من أبرز علماء مدينة القيروان. ولد هذا العالم بديار بكر عام 142هـ/759م، وانتقل مع عائلته إلى القيروان سنة 144هـ/761م مع جيش ابن الأشعث، حيث استقر بها مدة خمس سنين، ثم انتقل إلى تونس التي أقام بها تسع سنين تعلم فيها المبادئ الأولى وحفظ القرآن الكريم، وبعد ذلك درس أسد بن الفرات بقرية بجردة المسماة الآن مجردة في أحد كتاتيبها وتعلم ما كان يتعلم الصبية في ذلك الزمان من العلوم العربية والقرآن والتفسير والحديث ثم عاد مرة ثانية إلى تونس طلبا للعلم فازدادت رغبته في المعرفة حيث جلس في حلقة علي بن زياد في تكوين طويل في الفقه والشريعة. وفي سنة 172هـ/788م انتقل إلى المشرق طالبا للعلم حيث درس على الإمام مالك بالمدينة، ومنها انتقل إلى العراق حيث التقى طلبة أبو حنيفة الذين نذكر منهم على سبيل المثال أبو يوسف أسد بن عمرو ([4]) فتعلم منهم الفقه وطرق القياس

---

[1]- R. Brunschvig , la Tunisie au moyen age , p 82.

[2]– ينظر كتب الطبقات التي تقدم لنا عددا هائلا من الأمثلة التي توضح مدى النشاط الثقافي في مدينة عقبة، وتظهر لنا مدينة يغلب عليها طابع التقوى والتعبد ولها علماء ورعين كبهلول الذي كان على رأس صوفية المدينة.

[3]– أبو العرب، المصدر السابق، ص 153.

[4]– أسد بن عمر بن أمير بن بغلي فقيه ومحدث توفي في 190 هـ / 27 نوفمبر 805 م – 16 نوفمبر 806

والمناظرة وبعدما توفي مالك بالمدينة عاد أسد إلى مصر حيث لازم حلقات الدرس التي كان ينشطها طلبة الإمام أنس بن مالك، ولما عزم أسد على العودة إلى القيروان قدم له أحد طلبته كتاب مالك بن أنس ثم توجه إلى مدينة القيروان حيث درس الفقه المالكي وأصبح من الشخصيات العلمية المحترمة وكان سببا في انتشار المذهب المالكي بأفريقية. ([1])

وبالعكس يمكن أن نضرب أيضا مثالا في هذا الصدد هو كميل بن طلحة البغدادي ([2]) الذي قام بالسفر من المشرق إلى المغرب وهو أمر غير مألوف، إذ عادة ما يكون السفر من المغرب إلى المشرق. جاء هذا المحدث الكبير لبلاد المغرب للتحقق من بعض الروايات، وذلك عند أبو معمر الذي كان أحد طلبة أنس بن مالك والذي كان يقيم بالقيروان، ويمكن ذكر أيضا أحد مشاهير علماء القيروان وهو القاضي أبو معمر محمد بن عبد الله الكناني ([3]) الذي كان على درجة عالية من العلم، وذكاء خارق، وقد ولاه الأمير زياد الله بن إبراهيم ولاية القضاء بعد تعفف أبو محرز عن الوظيفة، وكان على مذهب المعتزلة. هذه ثلة قليلة من علماء القيروان الذين يعدون بالمئات والذين وردت تراجمهم في كتب عديدة خاصة كتب الطبقات، هاته الكتب التي تعج بالأمثلة والصور التي تدل على مدى تطور الحياة الثقافية والعلمية بمدينة القيروان، وتعبر على الدرجة العالية من حرية المناظرة ومدى الحرية التي كانت تسود مجالس العلم والعلماء، لكننا في هذا البحث لا يهمنا هذا الجانب من النشاط في مدينة القيروان إلا من حيث التعرف على المستوى العلمي والثقافي والحضاري لنرى مدى تأثيره على تطور عمران وعمارة المدينة ومدى رقي حياة أهلها سواء كانوا من الطبقات الحاكمة، أو الأعيان، أو الطبقات العلمية، أو الشعبية البسيطة.

لقد كان جل علماء القيروان ينحدرون من الطبقات المتواضعة من المجتمع، وقد مكنتهم الدراسة والبحث من الارتقاء في السلم الاجتماعي، فأصبح الأمراء والملوك يتقربون منهم ويبذلون إليهم الهدايا ويتشرفون بحضور مجالسهم فكثيرا ما

م.

[1]- معجم مشاهير المغاربة، جامعة الجزائر، 1995، ص 39- 44

[2]- ولدت هذه الشخصية بالبصرة سنة 125 هـ، وتوفي ببغداد سنة 231 – 232 هـ.
M. Vonderheyden , la Bèrbérie orientale, p.123

[3]- أبو العرب: طبقات العلماء، ص 157

تحدثت المصادر التاريخية عن تقرب أمراء بنو الأغلب من أسد بن الفرات أو بهلول أو غيرهم من العلماء.

والجدير بالذكر، أن مدينة القيروان أصبحت مع مجيء أسد بن الفرات إليها والتدريس بها، والمشاركة في الحياة العلمية والثقافية التي شهدتها دور العلم بها، أصبحت من أهم المراكز العلمية ببلاد المغرب الإسلامي([1]) إن لم نقل أولى هذه المراكز التي تضاهي من حيث النشاطات العلمية والاختصاصات المدرسة بجامعها وفي بيوت علمائها أكبر مدن العالم الإسلامي.

لقد أصبحت مدينة القيروان من أهم المراحل التي تستوقف طالب العلم في ذلك الزمان فكثيرا ما يدرس على علمائها الطلاب القاصدين لبلاد المشرق لإتمام دراستهم، فالطلبة عادة ما ينتقلون من مدينة إلى أخرى للتبريز عند علمائها. فعندما يفرغون من التحصيل العلمي عند عالم طلبوا منه الإجازة ثم انتقلوا إلى من هو أكثر منه علما أو إلى من اختص في علم من العلوم الأخرى، فعادة ما يمرون بعد القيروان على مدن مصر كالفسطاط، والقطائع، والمعسكر، والقاهرة، حسب مراحل تأسيسها. وذلك في طريقهم إلى مكة والمدينة للحج وتلقي العلم. ومنهم من يعود بعد ذلك إلى بلاد المغرب، ومنهم من يكمل سفره، حيث كانوا يقصدون دمشق في العهد الأموي وبغداد في العهد العباسي.

إن الدارس لكتب الطبقات والمدقق في التراجم الواردة فيها، سيلاحظ أن طبقة العلماء وخاصة الفقهاء منهم كانوا يمثلون المعارضة الدينية للسلطة الساهرة على تطبيق الشريعة والوقوف في وجه طغيان الحكم، الأمر الذي جعل أمراء بني الأغلب يتقربون منهم خشية انتقاداتهم.

إن المرحلة الأغلبية كانت تمثل مرحلة ازدهار كبير في الحياة الثقافية والعلمية، ذلك أن الأمن والأمان، والنهضة الاقتصادية، والمداخيل الضخمة، التي كانت االسلطة في القيروان وسكانها يجنونها من التجارة الدولية. قد ساهمت مساهمة مباشرة في جعل الإشعاع الثقافي، والنشاط السياسي والاقتصادي للقيروان ينتشر في مناطق الغرب الإسلامي المختلفة.

---

[1] - Ch. Andre Julien,Histoire de l'Afrique du Nord, Tunisie – Algerie- Maroc, t2, De la conquete arabe à 1830, 2è éd, Paris, 1964, p. 387.

- W. Marçais, comment l'Afrique du nord à été arabisée, A. I. E. O, Alger, 1938, p 15.

لقد لعبت القيروان بحق نقطة التقاء بين الإنتاج الثقافي المشرقي، وبلاد الغرب الإسلامي بل أن هذه المدينة ساهمت مساهمة كبيرة في الإنتاج الثقافي الإسلامي، حيث أنجبت علماء كبار يضاهون في مستواهم علماء المدينةالمنورة، ومكة، وبغداد، وقد بلغت أوجها في المرحلة الزيرية.

لم يكتب لهذا المستوى الحضاري الذي بلغته مدينة القيروان أن يستمر، إذ كل هذا النشاط توقف في لحظة من الزمن مع الغزو الهلالي لبلاد المغرب واحتلالهم لمنطقة القيروان، حيث قدمت المدينة في سبيل الحفاظ على مكانتها أمام المد الهلالي الذي يتهددها كل ما يمكن من أجل الحفاظ على هذا المستوى الحضاري، فرغم بروز العديد من العلماء والمثقفين والحرفيين بها إلا أنها لم تتمكن من الإبقاء على مكانتها الإستراتيجية بين مدن المغرب، بل بالعكس فإن انتكاساتها ساهمت في رفع المستوى الحضاري للمدن المغربية الأخرى، ذلك أن الضغط والاضطهاد الذي تعرض له العلماء الكبار في مدينة القيروان أدى بهم إلى الهجرة نحو هذه المدن، فأدى هذا إلى استفادة هذه الأخيرة من هذه الهجرة النوعية حيث استقر بها العلماء الكبار الذين رفعوا من شأن هذه المدن. كان ذلك حال المسيلة، وقلعة بني حماد، وأشير، وتلمسان، ومدن أخرى كثيرة.

سادسا: القيروان في العهد الفاطمي (296 –362هـ/908 –972م)

1 _ قيام السلطة الجديدة:

تحدثت المصادر التاريخية أن فترة حكم الأمير زياد الله الثالث، اتصفت بكونها دموية كثرت فيها القلاقل في القصر، لقد تميز هذا الأمير باختلال نفسي كبير جعله يقتل العديد من أقاربه، كل هذا سهل على دعاة الشيعة في منطقة كتامة من استقطاب الأعداد المتزايدة من البربر المنتسبين إلى مذهبهم الجديد.

لقد أثرت شخصية هذا الأمير المهتزة سلبا على جيوشه الكثيرة، المدربة والمسلحة بأحسن ما يمكن، فجعلها لا تستطيع الوقوف أمام المد الشيعي، حيث سقطت أهم الاستحكامات العسكرية المدافعة على بلاد أفريقية الواحدة تلوى الأخرى، هذه القلاع الحصينة التي حرست بلاد كتامة لمدة طويلة من الزمن وعملت على إخماد ثوراتها، وعلى أن تكون السد المنيع الذي يفصل بين أراضي أفريقيةالتي يسيطر عليها الأغالبة وبين منطقتي (جبال كتامة وجبال الأوراس) واللتان وإن كانتا تقعان ضمن حدود الدولة الأغلبية إلا أن سكانها كانوا لا يخضعون لسلطان هذه الدولة إلا بمحض إرادتهم.

لقد تمكنت الجيوش الكتامية من دخول أهم المدن القلاع الخاضعة للنفوذ الأغلبي، فدخلوا مدينة ميلة لكن الأغالبة تمكنوا من استعادتها بسهولة، وتمكنت جيوش كتامة أيضا من الهجوم على أهم القلاع التي كانت في الأصل تمثل قلاع الخط الدفاعي الروماني البيزنطي (الليمس)، والتي أعاد الأغالبة استعمالها بعد إعادة توجيهها، وتنظيمها، وصيانتها، وفق حاجتهم لتصبح تشكل الحزام الدفاعي عن مدينة القيروان عاصمة دولتهم.

لقد تمكنت جيوش كتامة من الدخول إلى سطيف، وبغاية، والأربس، وقضت على حامياتها، بل وخربت تحصيناتها في بعض الأحيان. وأمام هذه الانتصارات المتتالية، وأمام قلة اللحمة التي ميزت الأسرة الحاكمة وكره أهل القيروان لها، لم يجد زياد الله الثالث إلا الفرار نحو بلاد المشرق الأمر الذي جعل أعيان المدينة ورجالها يفرون منها خوفا على أرواحهم، فبعضهم فر إلى المشرق وبعضهم الآخر انتشر في قرى ناحية القيروان ومدن أفريقية، أما طبقة العامة من المجتمع فبقيت بالمدينة، فداهم العديد منها القصور والمنازل الفاخرة للسطوعليها.

لم يجد أهل القيروان أمام هذا الواقع المأساوي الجديد حلا، إلا الاتفاق على إرسال بعثة مكونة من أهل العلم وأعيان المدينة إلى عبيد الله الشيعي لطلب الأمان مقابل عدم المقاومة. دخل الداعي مدينة القيروان وأقام برقادة حيث وزع مبانيها الفاخرة على أهل حاشيته.

لقد تمكن الشيعة في مرحلة قصيرة من الزمن من الاستيلاء على أكثر المناطق غنى وعمرانا بأفريقية الشمالية، هذه المقاطعة التي بدأ تنظيمها واستصلاح أراضيها، وبناء استحكاماتها العسكرية (الليمس) منذ العهد الروماني، فهي أكثر مناطق المغرب طرقا، وجسورا، ومدنا، ومداشر، وقرى. وأكثرها اليوم أطلالا شاهدة على تعميرها مند أقدم العصور. وهنا لابد من القول أن الإطار العمراني في العهد الأغلبي لم يتحول كثيرا عن المجال العمراني للمراحل التي سبقته (المرحلة الرومانية والبيزنطية) فحصون الليمس التي كانت تدافع عن أفريقية المنتجة هي التي أصبحت تدافع عن الوسع الأغلبي بعد إعادة توجيههوتنظيمه، ذلك أن العاصمة القديمة قرطاج التي كانت تدافع عنها هذه السلسلة من القلاع في إطار خط اللميس في الشمال تقع بمحاذاة البحر في منطقة خصبة كثيرة المياه، بينما مدينة القيروان عاصمة الدولة الأغلبية كانت تقع في منطقة جنوبية نوعا ما، مما تطلب إعادة توجيه دفاعات اللميس وهيكلتها لتستجيب لاحتياجاتها، بل الأكثر من ذلك فقد تطلب الأمر زيادة بعض القلاع وتطوير البعض الآخر، علما أن مدينة تونس ورثت مدينة قرطاج وأصبحت تشكل المدينة الثانية في الدولة الأغلبية.

2 _ النظام الدفاعي الفاطمي.

شهدت أفريقية مرحلة طويلة من الفوضى وعدم الاستقرار إبان الثورة الشيعية، وهجوم كتامة عليها، ذلك الهجوم الذي استهلته جيوش القائد الشيعي عبيد الله باستهداف شبكة التحصينات التي كانت تحيط ببلاد كتامة، والتي كانت بذلك تشكل سدا منيعا ضد هجماتها المستهدفة للأراضي الخصبة الواقعة تحت سلطة الأغالبة.([1])

لقد حطمت قبائل كتامة العديد من المدن الثغور، وفرت حامياتها المكونة

---

[1]- Farhat, Dachraoui, Le Califat fatimide au Maghreb 296-362 H / 909-973J.C, histoire politique et institutions, société tunisienne d’édition, Tunis,1971 , p. 116.

من الجند العرب، بعد مقاومة باسلة لم تمكنها من الوقوف في وجه المغيرين الذين واصلوا زحفهم، فخربوا أسوار هذه المدن وحطموا ما وجدوه أمامهم من عناصرها الدفاعية، فتمكنوا بذلك من اكتساح الأراضي الأغلبية واحتلالها كليا.

وأمام هذا الزحف الفاطمي، وفرار زياد الله الثالث آخر أمراء الأغالبة إلى المشرق. فسح المجال أمام الفاطميين الذين تمكنوا من أفريقية، وواصلوا محاولاتهم امتلاك المغرب بأكمله. وأمام هذه المستجدات، ظهرت ضرورات أمنية ملحة، جعلت الفاطميين يفكرون بجدية في نظام دفاعي يؤمن البلاد "أهل أفريقية" كما يقول القاضي النعمان، ويقف حاجزا منيعا وسدا واقيا أمام هجمات قبائل زناته المتكررة على المناطق الخاضعة للفاطميين، والتي أطلق عليها "أهل القبائل". وتجدر بنا الإشارة هنا أننا لا نقصد من وراء هذه الدراسة البحث عن تطور النظام الدفاعي في أفريقية الفاطمية بحثا مستفيضا بل سنعالجه من حيث كونه الدرع الواقي لأفريقية عموما وعاصمتها القيروان خصوصا ومدى تأثيره على المدينة عمرانيا ومعماريا.

لقد اهتم الفاطميون بالدفاع عن مدينة القيروان والمدن الأميرية المجاورة لها، وكذا أراضي أفريقية، واستعملوا في ذلك ما ورثوه عن الأغالبة من تحصينات كثيرة تعود أصولها إلى الفترة القديمة([1]) حيث أعادوا بناءها وتأهيلها وترميمها لمواجهة عدوهم القديم الذي ظهر في ثوب جديد والمتمثل في قبيلة زناته حليفة الدولة الأموية بالأندلس، كما استعانوا استعانة حقيقية بمجموعة من الأربطة التي وفرت لهم تحصينا كافيا للشواطئ وكانت تشكل برزخا واقيا لسواحلهم.

لقد استعمل النظام الجديد الحاكم في أفريقية هذه الاستحكامات الدفاعية القوية ضد القبائل البدوية الوافدة من مناطق السهوب ومن الغرب ومن الجنوب،

---

[1] – أنشئت هذه التحصينات في مجملها في العهدين الروماني والبيزنطي للدفاع عن المناطق الخصبة التي استولى عليها الرومان في أفريقية، والمناطق ذات العمران الكثيف أمام مد القبائل البربرية البدوية، وقد كانت هذه الحصون الحارس الأمين على سهل منطقة الحضنة، والهضاب العليا النوميدية، والتي مازالت بعض أطلالها إلى اليوم تشهد على هذا الدور الحيوي في سهوب قمودة وتخوم الأوراس وجبال البابور.

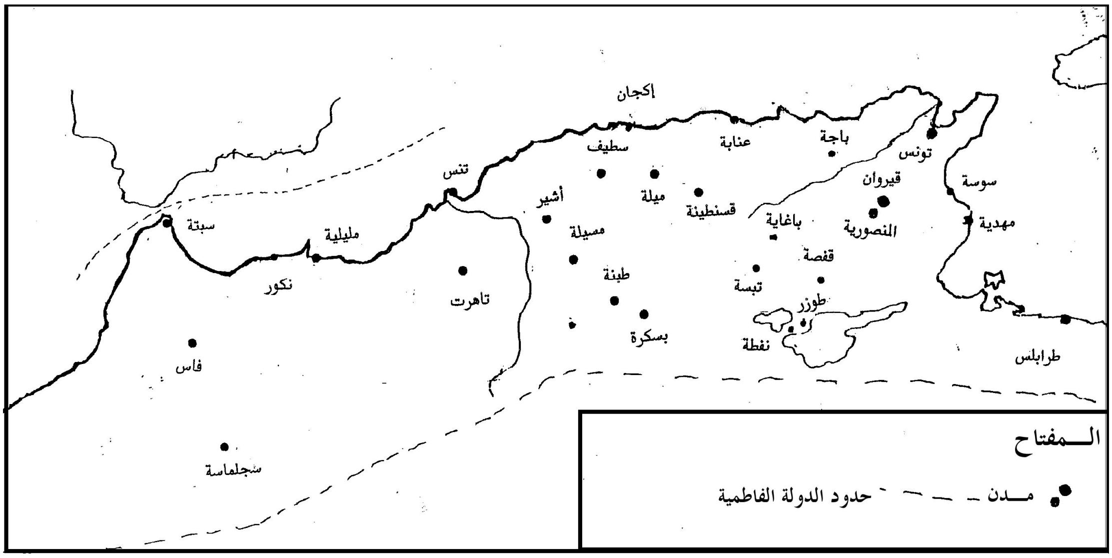
كما وظفتها أيضا كوسائل دفاعية من الدرجة الأولى ضد القبائل الجبلية التي كانت تتربص الفرصة التي تمكنها من خيرات السهول.

وبما أن الفاطميين قد توسعوا من الناحية الغربية نحو بلاد المغرب الأوسط بل وأمتد نفوذهم حتى بلغ المغرب الأقصى، **(خريطة رقم21)** فإنهم عمدوا إلى تأسيس بعض المدن القلاع بهذه المناطق وتزويدها بالعدة والرجال لتساهم في توطيد سلطانهم بها وتكون عونا لهم في غاراتهم على بلاد المغرب، وحامية لتأمين ما تمكنوا منه من أراضي عندما أصبح هدفهم فتح مصر.

وهكذا أنشئت مدينة المسيلة في مكان غير بعيد على زابي البيزنطية لحراسة المسالك الطبيعية الرابطة بين أفريقية وبلاد المغرب والتي كانت تمثل الممرات القصرية للقبائل البدوية كبني كملان وهوارة.

لقد أدت هذه المدينة الحصن دورا مهما في الدفاع على التخوم الغربية الأفريقية عموما وعلى مدينة القيروان خصوصا، وقد أسند الخليفة الفاطمي مهمة إدارة هذه المدينة وكذا منطقتها إلى عائلة بني حمدون العربية.

كما بني الزيريون الذين جاءوا بعد الفاطميين، والذين استخلفوهم على بلاد المغرب، حصن أشير في قلب بلاد صنهاجة، على سفح جبل التيتري في موضع عال يمكن منه مراقبة نهر الشلف أكبر أنهار المغرب الأوسط، الذي امتازت منطقته بخصوبة أراضيها واشتهرت بكثرة منتجاتها الفلاحية.



خريطة رقم 21: حدود الدولة الفاطمية في المغرب من إعداد الطالب

كل هذا يدفعنا إلى القول أن الفاطميين أحسنوا تنظيم دفاعاتهم على أفريقية موطن سلطانهم، فاعتمدوا تارة على ما ورثوه من منشآت دفاعية من الدول التي سبقتهم في حكم أفريقية، حيث أعادوا تحديث هذه السلسلة الدفاعية وتنظيمها وفق المعطيات الجديدة لتتماشى وسياستهم، فجعلت من المناطق الجبلية التي كانت على مر التاريخ تحت مراقبة نظام الليمس الروماني البيزنطي ثم الاستحكامات الأغلبية، لتصبح مناطق حليفة لهم تزودهم بخيرة أبنائها من المقاتلين لاستكمال الفتح وتقوية الدولة.

وبناء على ما سبق نخلص إلى القول أن النظام الدفاعي الفاطمي لم يعد كما كان في العهد الروماني البيزنطي نظاما يفصل السلطة الرومانية البيزنطية عن البربر مثل ما كان يقوم به الليمس، أو فصل السلطة العربية عن القبائل البربرية في العهد الأغلبي، بل أصبح نظاما دفاعيا تذود به الدولة

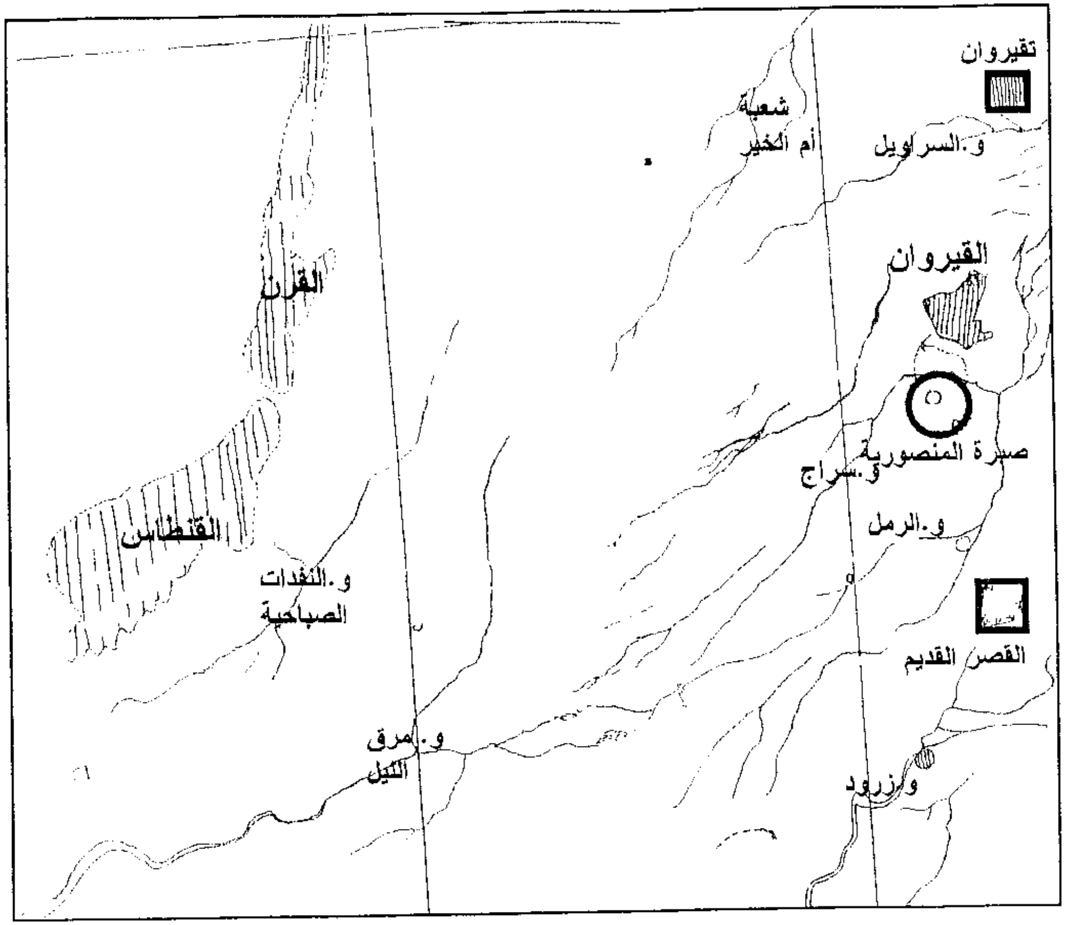
الفاطمية عن من حالفها من بربر وعرب ضد قبيلة زناته البدوية الخارجية،

وهو النظام الذي سيفصل بلاد السيبة عن بلاد المخزن.

3 _ التطور الاقتصادي للمدينة:

إن نمو المدينة من الناحية العمرانية والديمغرافية مرتبط أساسا بما يكتنزه ريفها من خيرات متنوعة باطنية وسطحية، من زراعة، وماء، ومناجم، وبدون شك أنه لا مستقبل لمدينة أو عمران دون توفر الميرة أو الماء. **(مخطط رقم16)**

وكما سبقت الإشارة إليه، فإن من سلبيات موقع مدينة القيروان، أنها أسست في موضع قليل المياه، وأن هذا الأمر سينعكس سلبا على المدينة حيث سيجعل نموها وتطورها مرتبط بسعة مواردها المائية، وستعرقل عملية البحث عن مصادر المياه، أمام الطلب المتزايد على هذه المادة الحيوية، التي تعتبر أساس قيام التجمعات السكنية، وما تتطلبه من مجهودات ومصاريف ضخمة، النمو السريع للمدينة في شتى جوانب الحياة.



مخطط رقم16: يبين موقع القيروان من صبرة المنصورية والقصر القديم

من إعداد الطالب

مخطط رقم16

لقد عمدت السلطات المتوالية على الحكم في مدينة القيروان على انتهاج سياسة رشيدة لتوفير الماء والميرة للمدينة، تعتمد أساسا على توفير أكبر كميات ممكنة من المياه، مستعملة تقنيات مختلفة ومتنوعة ومسخرة لها مبالغ مالية طائلة للوصول إلى هذه الغاية.

وإذا كانت السلطة المتوالية عل الحكم في القيروان قد عملت في سياستها على تفضيل تزويد المدينة بمياه الشرب، إلا أنها سخرت أيضا أموالا كبيرة لاستصلاح الأراضي قصد زراعتها لتمكين المدينة مما تحتاجه من ميرة، فقد حدثتنا المصادر التاريخية أن السلطة الجديدة بعد أن استقر لها الأمر، سارعت إلى وضع سياسة جديدة تمكنها من إدارة البلاد والاستفادة من خيراتها قدر الإمكان لتزويد بيت المال الفاطمي بما يحتاجه من الأموال

لقد تمكن الفاطميون من إعادة تحريك عجلة الاقتصاد في وقت قصير،

فأكملوا ما بدأه الأغالبة ([1]) وعملوا على تطويره للاستفادة منه أكثر وبالقدر الذي يكفي ومتطلبات المجتمع الفاطمي من جهة، وسياسة التوسع التي تطمح

إليها السلطة الحاكمة من جهة ثانية.

ولتنشيط اقتصادهم عمد الفاطميون إلى استغلال أهم ركائزه بأفريقية ألا وهي الزراعة، فدعموها بما تحتاج إليه من وسائل لنموها وازدهارها، من منشآت مائية، ومشاريع تخدم العالم الريفي، وإمداد للطرق، الأمر الذي جعل استصلاح الأراضي يزداد والإنتاج الزراعي يكثر. ورغم الفتن والثورات التي كانت تنشب من حين لآخر، مثل ثورة يزيد بن مخلد صاحب الحمار (280 هـ / 943 م)، فإن الأراضي الزراعية القريبة من القيروان لم تتوقف يوما ما عن تزويدها بما تحتاجه من منتجات مختلفة، ولعل هذا ما جعل الجغرافيون العرب كاليعقوبي، وابن حوقل، ويوسف الوراق، يصفونها بكونها أراضي خضرة.

وإذا رجعنا إلى المصادر الجغرافية، فإننا نجد بها شهادات حية على ريف

---

[1]- P. L. Cambuzat, L’évolution, t1, p 113.

القيروان الذي كانت تكسوه غابات الزيتون، وبساتين الأشجار المثمرة من رمان، وسفرجل، وعنب، أما الأراضي الزراعية فكانت تعطي محاصيل معتبرة في السنوات الممطرة أو عندما تسقى([1])، وأن المدينة كانت تعمد إلى جلب ما نقص من احتياجاتها من مختلف المحاصيل الزراعية من المناطق الشمالية التي تمتاز بكثرة أمطارها وإنتاجها الوافر من الحبوب.

أما فيما يتعلق بالجانب الحرفي، فقد ازدهرت الحرف بمدينة القيروان ازدهارا كبيرا مستفيدة في ذلك بما توفره المناطق الجديدة التي تم فتحها من أسواق نافقة، ومن احتياجات النظام الجديد والطلب المتزايد على جميع المنتجات، سواء تعلق الأمر بالجانب العسكري أو كانت ذات طابع مدني.

لقد وجد صناع وحرفيو مدينة القيروان أثناء العصر الفاطمي في ماتكتنزه المنطقة من مناجم كمناجم مجانة المادة الأولية لسد احتياجاتهم، حيث عرفت معادنها شهرة فاقت سمعتها المنطقة في العصور الوسطى من حيث النوعية العالية التي تميز بها خام حديدها، وكانت مجانة تنتج أيضا بالإضافة إلى الحديد معدن الرصاص، ومادة الكحل التي كان يتم تصنيعها بالقيروان([2])، كما كانت تصنع بورشاتها معادن عديدة تصدر منها على أشكال مختلفة كالسيوف، ورؤوس الرماح، والمسامير، والمحاريث، ....الخ إلى مختلف المناطق.

ولعل خير دليل على النشاط الحرفي في القيروان وتنوعه الدراسة الأكاديمية التي قام بها جورج مارسي ولويس بانسو "G. Marçais et Louis painssot "([3]) عن الأدوات القيروانية في الفترة الممتدة من القرن الثالث إلى السابع الهجري (التاسع إلى القرن الثالث عشر ميلادي) التي تظهر تنوع هذا الإنتاج وجودته العالية وأحسن مثال على هذه المنتجات، الإنتاج الوفير الذي كانت توفره ورشات الزجاج([4])، التي كانت تلبي احتياجات سكان المدينة والمناطق المجاورة لها من هذه المادة، كما كانت تصدر إلى خارج الوسع الفاطمي أنواعا مختلفة من

1- R. Brunschvig, initiation à la Tunisie , p 82.

2– محمد محمد زيتون، المرجع السابق، ص 60

3- G. Marçais et l. poinssot, avec le concours de Gaillard, objets Kairouanais , IX au XIII siècle , reliures verrerie , cuivre et bronze , bijoux , notes et documents, n°11, fascul 2 , Direction des antiquités et arts, Tunis, 1952 , p. 410 et s.

4 – حسن حسني عبد الوهاب، المرجع السابق، ج1، ص 61.

المنتجات كالقارورات والكؤوس والمصابيح وأشياء أخرى، وعن مكان تصنيع هذه الأدوات يرى الباحثان أن هذه الصناعات كانت توجد خارج أسوار المدينة لأنها كانت شديدة التلوث وكانت تحتاج إلى كميات كبيرة من المواد الإنتاجية التي تقتضي توفير مساحات كبيرة لتخزينها كالرمل والكلس والفحم والخشب.

أما فيما يتعلق بمواد البناء فقد احتاجت مدينة القيروان والمدن الأميرية القريبة منها لصناعة تلبي لها الاحتياجات المتزايدة والملحة من مواد البناء، فأنشئت أعدادا كبيرة من الأفران والورش خارج المدينة لتزويدها بما تحتاجه من جبس، وجير، وأجر، وخزف، ومواد تبليط، حيث أظهرت حفائر جورج مارسيه في موضع رقادة تنوع تقنيات هذه الصناعة، وجودتها العالية، وتأثرها الكبير بخزف سامراء، وبما أن عدد سكان المدينة كان كثيفا وأن مستواهم المعيشي كان مرتفعا، فإن حاجاتهم من اللباس والكسوة كانت كبيرة، الأمر الذي أدى إلى قيام صناعة نسيجية قوية متعددة الاختصاصات والحرف، من غزل للصوف، ونسجها، واستعمال للقطن والكتان، لتلبية الاحتياجات الخاصة.

لقد كانت ورش النسيج بالمدينة عديدة حيث تنتقل المادة الخام من ورشة إلى ورشة في مختلف مراحل تصنيعها، وكانت آخر هذه المراحل هي النسيج الذي تخصصن فيه النسوة، حيث اشتهرت ورش المدينة بجودة منتوجها ([1]) الذي غزا أسواق المغرب والعالم الإسلامي آنذاك.

إن إنتاج القطن والكتان والحرير، جعل المدينة تدخل آنذاك في الصناعة الفاخرة الموجهة إلى الطبقة العليا من المجتمع، كما احتاج سكان القصور العديدة بالمدينة إلى إنتاج وافر من الزرابي ([2]) والأغطية المختلفة التي أظهر فيها أصحاب الحرف اتقانا كبيرا وذوقا فنيا معتبرا.

كما استعمل الجلد في المدينة لإنتاج أغراض عديدة ومتنوعة، ذلك أن القيروان كانت تقع في منطقة رعوية من الدرجة الأولى وكانت تدخلها كميات

---

[1]– حسن حسني عبد الوهاب، المرجع السابق ج2، ص 157، في هذه الصفحة بالذات يتحدث الكاتب عن طراز رقادة.

[2]– عثمان الكعاك، الحضارة العربية في حوض البحر المتوسط، طبعة معهد الدراسات العربية، تونس 1965، ص 87 – 88.

هائلة من الجلود التي يبعها البدو في أسواقها. ([1]) وقد خصصت أماكن معينة في المدينة لتصنيع هذه الجلود، فدبغها عادة ما يكون خارج المدينة لأنه كثير التلوث وتصدر عنه روائح كريهة، بينما المادة النصف مصنعة فكانت ورشها تقع داخل أسواق المدينة.

لقد نالت المنتجات الجلدية القيروانية شهرة كبيرة، فكثر استعمالها في ميدان السلم والحرب، حيث زودت بها القوافل واستعملت كأحذية وأحزمة وكأجربة للسيوف وكرق للكتابة.

4 – التجـــــارة:

لقد عرفت مدينة القيروان بكونها أم مدن المغرب الإسلامي، وأكبر أقطابه من الناحية الحرفية، وأكثر أسواقه نشاطا لكثافة سكانها ومستوى معيشتهم الرفيع، ولكونها أول مدينة إسلامية أنشئت بالمنطقة، فكان لها قصب السبق في جميع مناحي الحياة. ولأنها المتحكمة في الطريق التجاري الكبير الرابط بين المشرق والمغرب ولها علاقات وطيدة مع بلاد السودان، ولا ننسى أن المدينة كانت تسيطر على مجال واسع شمل أحيانا المغرب كله وأحيانا أخرى بلاد أفريقية، فهي موطن السلطة إليها تفد الضرائب من كل ناحية.

لقد كانت مدينة القيروان في العهد الأغلبي عاصمة اقتصادية كبيرة، أما في العهد الفاطمي فقد ظفرت مدينة صبرة المنصورية ([2]) بجزء مهم من تجارة المدينة. ([3])

لقد ساهمت العائلة المالكة ووجوه المدينة في هذا النشاط الاقتصادي، وعملوا على تفضيل مدينة صبرة على القيروان في المعاملات التجارية، هذه

---

[1]– حسن حسني عبد الوهاب، المرجع السابق ج2، ص 160 وما يليها.

[2] – حول صبرة المنصورية، أنظر:

- S. Mansour, Kairouan ville musulmane d'hier et D'aujourd'hui, Paris VII, 1976, p. 115.
- A. Sayous, Le Commerce des européens à Tunis depuis le XIIè siècle jusqu'a la fin du XVI siècle, exposé et document, Paris 1929 , p. 25 et s.

المدينة التي كانت العاصمة السياسية للدولة الفاطمية، علما أن هذه المدينة لا تبعد عن مدينة القيروان إلا بمسافة ألف وخمسمائة متر.

لقد ربطت مدينة القيروان بصبرة المنصورية عن طريق سورين متوازيين. ومنعت القوافل والتجار من الدخول إلى القيروان إلا عن طريق صبره، الأمر الذي جعل هذه المدينة تنافس القيروان اقتصاديا، بل تأخذ لنفسها أقساطا متزايدة من اقتصاد المنطقة، ورغم أن هذه المدينة القريبة جدا من القيروان والمرتبطة عضويا بها عن طريق السورين المتوازيين، يمكن أن تكون أحد أحيائها إلا أنها بطبيعة سكانها المتمثلة في العائلة المالكة، ورؤوس القوم من كتامة، كانت تمثل مدينة منافسة للقيروان ومخالفة لها في كثير من المجالات، فمثلا كان المذهب الديني السائد في القيروان هو المذهب السني، بينما كانت مدينة صبرة المنصورية شيعية، كما كانت الأولى مدينة العامة من المجتمع، في حين كانت الثانية مدينة الخاصة. كل هذا أدى إلى تنافس غير شرعي وقفت فيه السلطة إلى جانب مدينة صبرة المنصورية مما جعل مدينة القيروان تخسر كثيرا من الناحية الاقتصادية.

إن تأسيس مدينة المهدية وجعلها عاصمة الدولة الفاطمية جعل المناطق الشمالية التلية تلعب دورا أساسيا في اقتصاديات أفريقية، ولكن رغم هذا فإن مدينة القيروان كانت في مرحلة انتقال الفاطميين من المهدية إلى القاهرة أم مدن المغرب الإسلامي، وأولها على الهرم العمراني والمعماري، وأكثرها سكانا وأعظمها مكانا وإشعاعا. فبقية بلاد المغرب كانت بها مدن متوسطة منها ما كان عاصمة لدولة كتيهرت، وسجلماسة، وفاس، ومنها ما كان من المدن النشيطة لكون موقعها قد جمع شروط التطور والنمو من وفرة ماء وخصوبة أرض وجودة هواء ... الخ

إن التطور الكبير الذي عرفته مدينة القيروان في المرحلة الفاطمية جعلها تشغل مساحة متزايدة كما ازداد نسيجها العمراني تركيزا وبدأت مبانيها في التطور العمودي.

لقد عرفت مدن أفريقية القريبة من القيروان نموا مضطردا، ذلك لكونها قد استفادت كثيرا من نمو مدينة القيروان وازدهارها وتفتح أسواقها على ما تنتجه هذه المدن كسوسة وصفاقس، وتوزر.

5 – الحياة الثقافية بالقيروان في العهد الفاطمي:

يظهر مما سبق أن مدينة القيروان، كانت على رأس هرم مدن المغرب الإسلامي من حيث الكثافة السكانية، والقوة الاقتصادية، والعسكرية، والسياسية، كل هذا جعلها تتصدر الحياة الثقافية والدينية بالمغرب الإسلامي،([1]) فالقيروان كانت تضاهي في زخمها الثقافي وإنتاجها العلمي، ومستوى الدروس المقدمة في جوامعها مدن المشرق الإسلامي، فلا توجد ببلاد المغرب مدينة تضاهي القيروان في هذا الباب([2]).

لقد استفادت مدينة القيروان من تجربة الكثير من العلماء المغاربة، العائدين من بلاد المشرق بعد أن أمضوا فترات زمنية طويلة في التحصيل وتلقي العلوم على المشايخ الكبار، مما جعل حلقات تدريسها تناهج حلقات التدريس بأكبر العواصم الإسلامية في ذلك الزمان مثل بغداد. وهكذا فقد ظهر علماء كبار عند المالكية، والحنفية، والمعتزلة، وكانت المناظرات التي تجرى بينهم ذات مستوى جد عال([3]).

عمل الفاطميون عملا جبارا لتطوير وتنمية الحياة الثقافية والعلمية بمدينة القيروان، وحاولوا جاهدين تكثيف الدراسات التي تتناول المذهب الشيعي مستغلين بذلك الظرف السياسي الذي تمر به المدينة، لكنهم اصطدموا بحاجز علماء السنة

---

[1]- الحبيب الجنحاني، المرجع السابق، ص 154 وما بعدها، وانظر ايضا حسن حسني، المرجع السابق، ص131 وما بعدها.

[2]- R.Brunschvig, La Berbèrie orientale sous les Hafsides, T I, Paris, 1940, p 357.

[3] – أنظر حول هذه المناظرات: المقال المنشور في الدفاتر التونسية حول شخصية التونسي، وهو من أكبر فقهاء القيروان في زمانه، وقد أفتى بعدة فتاوى معادية للشيعة.
Les Cahiers de Tunisie, n° 16 , 1958, p. 508.

والطبقة الميسورة من القيروانيين الذين كانوا على المذهب المالكي، مما جعل علماء السلطة يختلفون مع علماء المدينة في كثير من القضايا العلمية انتهت بهم إلى المصادمة، وقد يجد الباحث في المصادر التاريخية التي تتحدث عن تلك الحقبة شهادات حول هذه العداوة وما أنجر عنها من تنكيل وتعذيب للعلماء المالكية، خاصة وأن الحنفية الذين كانوا يمثلون الطبقة الأرستقراطية تحالفوا مع الشيعة.

لقد استعملت الخلافة الفاطمية مؤسسات لنشر مذهبها وللضغط بكل الأساليب الممكنة على المالكية ([1]) الأمر الذي جعل العديد منهم يتحالفون أثناء ثورة صاحب الحمار مع الخوارج ([2]) وكان على رأس المالكية من المدافعين على القيروان الفقيه العالم أبو الفضل المسمى، وربيع بن سلمان القطان، وأبو العرب بن تميم، وأبو مالك بن مروان بن منصور.

لقد تمكن أبو يزيد بن كيداد اليفرني الخارجي بعد تحالفه مع هذه الطبقة من علماء القيروان، من الدخول إلى المدينة وإنزال هزيمة نكراء بالفاطميين. وقد مكنه تحالفه مع المالكية أيضا من السيطرة على كل أراضي الخلافة الفاطمية، ماعدا مدينة المهدية التي حوصر فيها الخليفة الفاطمي مدة من الزمن، ولكن بعد هذا النصر العظيم الذي حققه أبو يزيد تنكر في النهاية لعلماء القيروان، وطلب من جنده أن لا يحموهم من هجوم الفاطميين في إحدى االمعارك، الأمر الذي جعل العديد منهم يقتلون.

نجد في كتاب الفقيه القاضي عياض كثيرا من المعلومات حول التصفيات التي قامت بها السلطة الفاطمية ضد العلماء المالكية، ورغم هذا فإن الحياة الثقافية بالمدينة كانت تعرف نشاطا كبيرا. فمن جهة، فقد سخرت السلطة أموالا طائلة لنشر مذهبها ([3]) وللوقوف ضد المناوئين لها، أما من ناحية أخرى فإن علماء المالكية لم يقفوا مكتوفي الأيدي بل ضاعفوا من مجهوداتهم للوقوف أمام

---

[1]- H. Djait , A. Dioub et autres, op. cit. p. 250.

[2]- F. Dachraoui , op. cit. , p. 391.

[3] – حسن حسني عبد الوهاب، المرجع السابق، ج1، ص 108

المحاولات الهادفة إلى إدخال أهل القيروان في المذهب الشيعي.

لقد عمد الفاطميون إلى إجراء مناظرات عديدة بين علماء الشيعة، ([1]) وعلماء المالكية محاولين بذلك إقناعهم بأن مذهبهم هو الحق، وأن المذهب السني باطلا، لكن علماء المالكية على حنكتهم وإطلاعهم الغزير تمكنوا من الدفاع عن مذهبهم بالحجج والبراهين الدامغة.

ولم يقف الفاطميون عند هذا الحد بل جعلوا من الجامع الكبير بمدينة صبرة المنصورية مدرسة خاصة لتدريس الاعتقاد الشيعي، وبالمقابل وحفاظا على مذهبهم فلم يجد علماء القيروان أمام الضغط الممارس عليهم من وسيلة إلا اللجوء إلى تدريس مذهب أهل السنة في بيوتهم خفية وجهارا ([2]).

ساهمت مدن منطقة القيروان في هذه الحركة العلمية، وأفضل مثال على هذه المساهمة ما قدمته مدينة صبرة المنصورية، التي كانت تضاهي في نشاطها الفكري مدينة القيروان. تلك المدينة التي كانت مدينة واحة تكثر فيها القصور، والمساحات الخضراء، والمياه. كيف لا وهي صبرة مدينة الطبقة الحاكمة، من عائلة الخليفة ووجوه القوم من المشارقة والكتاميين.

لقد حفز أغنياء المدينة وأمراءها بعطاءاتهم الكثيرة لأهل العلم والأدب، الحياة الأدبية والعلمية. فأدى إلى رفع مستوى النشاط العلمي بها. فكثر الشعراء([3]) والعلماء في قصور الأمراء والأغنياء، وتبارزوا في مناظرات علمية وأدبية رفيعة المستوى، وكان التبادل كبيرا بين علماء مدينة عقبة وعلماء مدينة صبرة المنصورية([4]).

---

[1] – أنظر حول هذا الموضوع المقال الأكاديمي لروبار برا نشفيغ ". الفقه الفاطمي وتاريخ افريقية"والصادر بـــ:

– Mélanges d'histoire et d'archéologie de l'occident Musulman hommage à Georges Marçais, p. 145.

[2] – حسن حسني عبد الوهاب، المرجع السابق،ج1، ص 108

[3] – لقد وصف ابن رشيق القيرواني في ديوانه، أهم معالم مدينتي القيروان وصبرة المنصورية. أنظر: ابن رشيق،العمدة في صناعة الشعر ونقده، القاهرة، 1907.

[4]- C. H. Bouyahia , La Vie culturelle en Afrique sous les Zirides, thèse de Doctorat Es Lettres, Tunis, 1972, p. 233.

أما عن أصول هذه الطبقة المثقفة، فإنها تأتي من جميع نواحي إفريقية. كما يرجع القليل منها إلى بقية العالم الإسلامي. حيث استوطنوا مدينة القيروان للإمكانيات الكبيرة المتوفرة بها، وللحضور الهائل لأصحاب العلم وأهل الاختصاص بها.

كما ساهمت مدينة القيروان في نشر الحضارة العربية الإسلامية ببقاع مختلفة من بلاد المغرب وجنوب الصحراء، حيث هاجر العديد من علماء المدينة، ليستقروا بمدن المغرب المختلفة، وبمدن أفريقية جنوب الصحراء، ليقوموا بدور هام في التعليم والتدريس ونشر الثقافة العربية الإسلامية على المذهب السني المالكي.

لقد ساهمت القيروان مساهمة كبيرة، في تقريب المناطق المستوية من المغرب وفي أسلمة المغرب كله، وكانت القيروان نقطة إشعاع مند تأسيسها إلى عهد وصول الغزو الهلالي إليها

سابعا- القيروان في العهد الزيري: (362-555هـ/972-1160م).

بعد رحيل الفاطميين إلى مصر واستقرارهم بالقاهرة أصبح بلكين بن زيري خليفة لهم ببلاد المغرب الشرقية، ([1]) تلك المنطقة الغنية والمزدهرة والمنظمة اقتصاديا

إن إرادة تأكيد السلطة الفاطمية على غرب أفريقية تلك المنطقة التي أصبحت مسرح مواجهة ما بين القبائل الزناتية والفاطميين، سيؤثر تأثيرا مباشرا على اختيار بلكين بن زيري لموقع المدينة التي ستصبح عاصمة له، ذلك أن هذا القائد الصنهاجي فضل أشير القلعة المنيعة، ([2]) التي يستطيع الدفاع عنها بالقليل من الجنود عن القيروان أو المهدية، التي توجد في العمق الإفريقي بعيدا عن ساحة المواجهة.

[1]- P. Cambuzat, L'évolution, t1. p. 129.

[2]- R. Bourouiba , les Hammadites , E.N.A.L , Alger , 1984 , p. 23 et s.

إن إرادة التوسع نحو الغرب ([1]) جعلت بلكين يحاول تقوية تواجده العسكري في هذه المنطقة، مما جعله يتراخى أحيانا عن إدارة المدن الشمالية المحاذية للتل([2])، ويؤكد هذه السلطة على منطقة الزاب. المنطقة الإستراتيجية نظرا لأهمية المسالك الطبيعية التي تربط أفريقية بغرب بلاد المغرب والتي أصبحت تكتسي أهمية كبيرة.

1_ العلاقات الاقتصادية للمدينة بمنطقتها:

لقد امتازت هذه العلاقة بمجموعة من النشاطات الاقتصادية، يأتي في مقدمتها الزراعة، التي جعلت من المدينة إلى جانب النشاطات الأخرى مدينة اقتصادية نشيطة. ولما كانت منطقة القيروان تعتمد في زراعتها على الأمطار مما يجعل إنتاجها مرتبط بمواسم الأمطار، فقد سعت هذه الأخيرة إلى نسج علاقات طيبة مع مرور الزمن بجاراتها القريبة منها، وباقي مدن أفريقية والمغرب.

فقد أشارت بعض المصادر التاريخية، أن سكان مدينة القيروان كانوا يمتلكون بساتين داخل أسوار المدينة وفي ضواحيها، ومع ذلك فإن محاصيل هذه البساتين لم تكن تكفي حاجيات المدينة، الأمر الذي جعل المدينة تستورد كل ما تحتاجه إليه من مواد من المناطق القريبة منها. فكانت أسواقها تعج بالمحاصيل الزراعية التي يأتي بها المزارعون ليبيعونها بالمدينة ويشترون بالمقابل كل ما يحتاجون إليه من مواد.

والجدير بالذكر أن مدينة القيروان كان لها الفضل منذ تأسيسها في نقل اقتصاد المنطقة من مجرد اقتصادي بدوي تقليدي إلى اقتصاد نشيط يعتمد على التبادل التجاري، ثم إلى مرحلة التخصص في التجارة إلى مرحلة تقسيم العمل. وكان الدافع وراء هذا التطور في النشاط الاقتصادي طبيعة مناخ المنطقة التي أسست بها المدينة، والتي تميزت بقلة تساقط الأمطار مما دفع بحكام المدينة وسكان أريافها أن ينشئوا من أجل ذلك الكثير من المنشآت المائية لتستجيب لمتطلبات الحياة الاقتصادية والاجتماعية للمدينة.

1- L. Golvin , Le Maghreb central à l'époque des Zirides , p. 72 et s.

2- R. Bourouiba , L'Architecture militaire de l'Algérie médiévale, O.P.U,1983,p. 6 et s.

وإقتداء بمن سبقهم، فقد عمل الزيريون الكثير من أجل ربط المدينة بالمناطق المحيطة بها بعلاقات طيبة في شتى جوانب الحياة اليومية من سياسية واقتصادية، وكان لنظام الحسبة ([1]) فيها دور فعال في تنظيم النشاطات الاقتصادية بين المدينة ومختلف المناطق، فكان المحاسب يسهر على ضمان ديمومة وصول مختلف السلع إلى أسواق المدينة، وكان أيضا يحدد أسعارها حماية لسكان المدينة من استغلال التجار لهم.

ورغم أن المنطقة المحيطة بالمدينة كانت تنتج مختلف المحاصيل الزراعية ([2])، ذلك أن المصادر التاريخية تحدثت عن محاصيل وافرة من القمح، والشعير، ([3])والزيتون، والزيت، والفول، والحمص، إلا أنها تعتبر غير كافية سواء كان ذلك خلال السنوات المطيرة أو الجفاف، مما جعل المدينة تستورد من مناطق بعيدة بعض المواد غير المتوفرة بالمنطقة، فكانت تجلب الزيت مثلا من المناطق الساحلية، والتمور من منطقة الجريد، والحبوب من سهول باجة، وأما اللحوم والأصواف ومشتقات الحليب، فكانت توفرها أريافها.

2 _ الصناعات التقليدية:

لقد عرفت القيروان في العصر الزيري ازدهار الصناعات التقليدية، فكانت ورشاتها المختلفة تنتج الرق الجيد الذي كان يباع في أسواق المغرب وحتى في أسواق بلاد الأندلس. كما كانت ورشات دباغة الجلود تقدم إنتاجا وفيرا يغطي حاجة المدينة من الصناعات الجلدية.

كما عرفت المدينة صناعة الورق أيضا، حيث تعد صناعة الورق انطلاقا من نبتة الكتان إحدى الصناعات التي اختصت بها المدينة على غيرها من المدن، كما كان لبعض النقص الناجم عن كثرة الطلب على الورق، يغطى بورق البردي الذي كان يجلب من صقلية.

وقد دلت أفران صناعة الزجاج التي اكتشفت في مدينتي صبرة المنصورية

---

[1] – J. Despois , op. cit. p. 3 et 5.

[2]– لقد ورد عند الإدريسي أن المنطقة عرفت زراعة الفول والحمص. نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (وصف أفريقيا الشمالية والصحراوية)، نشر هنري بيريس، الجزائر، 1957، ص 81

[3]– البكري، المصدر السابق، ص 65.

وزويلة، على أن هذه الصناعة كانت مزدهرة بالمنطقة ([1]) كما أن أجزاء الفخار التي تم العثور عليها بالمدينة الأولى أثناء عمليات الحفر والتنقيب التي قام بها الأستاذ جورج مارسي تدل على أن صناعة الفخار والخزف كانت أيضا هي الأخرى مزدهرة بالمدينة، وقد دلت هذه الشقوف على درجة عالية من التصنيع، مما يدل على أن ورشات صناعة الفخار والخزف كانت متطورة فاقت سمعة منتوجها المنطقة، ولعل هذا ما حدا بالإدريسي إلى الإشارة إليها حيث خص بالذكر قلال تونس الرفيعة. ([2])

ولم تخلو مدينة القيروان أيضا من ورشات النسيج التي كانت تنتج ما يكفي من مختلف المواد النسيجية لتلبية حاجات المدينة، فقد عرفت بها صناعة القطن والصوف والحرير والكتان التي كانت تقوم بها النسوة في منازلها، والتي كانت تنتج بكمية كبيرة لسد حاجات أفريقية، كما كانت مناجم مجانة تزود المدينة بمختلف المعادن التي تحتاج إليها ورشاتها الصناعية. أما الملح فكان يستخرج من السبخة المجاورة للمدينة.

3 _ التجارة:

لقد عرفت أفريقية إعادة تنظيم شامل لمسالكها التجارية بعد الغزو الهلالي لها وسيطرة القبائل العربية على المناطق الداخلية، حيث فرضت على التجارة وأهلها إتاوات مختلفة، بل أن بعض القبائل كانت تغير على هذه القوافل مما جعل عواصم المغرب تنتقل من المناطق الداخلية إلى السواحل، فمن القيروان إلى المهدية، ومن قلعة بني حماد إلى بجاية، الأمر الذي جعل الشريط التلي الساحلي يأخذ مكانا استراتيجيا في اقتصاد المملكة الزيرية والحمادية، الأمر الذي جعل أيضا هاتين الدولتين تضطران إلى إعادة تنشيط التجارة البحرية.

ا _ التجارة الداخلية:

لقد نشطت التجارة الداخلية في القيروان أثناء الفترة الزيرية، حيث كانت تتم التبادلات التجارية بين القيروان ومختلف المدن الخاضعة للحكم الزيري، وكان للوسطاء دور هام في تنشيط هذه التجارة نظرا لأن أهم المحاصيل

---

[1] – G. Yvers , op.cit. p. 687.

[2]– الإدريسي، المصدر السابق، ص 81

الزراعية، وأهم الصناعات التقليدية، التي كان يتولى تسويقها هؤلاء الوسطاء الذين كانوا يقومون بمهمة التبادل التجاري بين مختلف المدن الزيرية.

وقد استعمل الزيريون في تعاملاتهم الدينار الذهبي، والدرهم الفضي على السواء، كما استعملوا موازين خاصة بهم أوردها البكري([1]) في كتابه منها القفيز المستعمل في الحبوب والخضر الجافة والزيت، والقفيز هو ثلاثة أرطال فلفلية، كما استعملوا في القياسات الطولية الذراع والقبضة والأصبع، أما المسافات الطويلة فكانت تقدر بالميل الذي يعادل 1453 مترا، والذي يقدر أيضا بألف قدم.

وقد شهدت التجارة الداخلية في الدولة الزيرية عقب الغزو الهلالي لمدينة القيروان وأحوازها والمناطق المحاذية لها، وتلك المناطق الممتدة بينها وبين باقي مدن الوسع الزيري تدهورا ملحوظا بسبب الشروط الجديدة التي فرضها الهلاليون على المزارعين الذين وجب عليهم دفع إتاوات لهم مقابل ضمان أمنهم، ولم تسلم أيضا القوافل التجارية المارة بالمنطقة من دفع الإتاوات للهلاليين، الأمر الذي خلق نوع من التذمر لدى سكان القيروان مما حدا بأهل العلم من إصدار فتاوى تحرم التعامل التجاري مع الهلاليين نتيجة للابتزاز الذي كان يتعرض له التجار من هؤلاء النازحين الجدد.

---

[1]- البكري، المصدر السابق، ص 26 – 27

ب _ التجارة الخارجية:

لقد عرفت مدينة القيروان نموا كبيرا في إنتاجها الحرفي، واشتهرت منتجاتها المصنعة بتنوعها وبجودتها العالية، مما جعل تصديرها إلى مدن الوسع الإفريقي خاصة وبقية العالم عامة سهلا، ذلك أنها كانت تلقى إقبالا كبيرا عليها من طرف القوافل.

إن الموقع الجغرافي الاقتصادي للمغرب ساهم مساهمة كبيرة في نموه الاقتصادي، ذلك أنه كان يمثل نقطة الوصل بين مناطق ذات مناخ مختلف، أي ذات إنتاج متنوع ومختلف، وكانت هذه المناطق في أغلبها تدين بالإسلام ([1]) الذي وحد بينها من الناحية الفكرية، والاجتماعية، ومن ناحية المؤسسات، علما أن التنقل في أرض الإسلام كان حرا وبدون قيود على الأقل قبل الغزو الهلالي.

لقد تمكنت الأسرة الزيرية من السيطرة على التجارة الخارجية، فأصبحت تدير دفتها لصلاحها ولصالح الدولة، كما انتفع الفاطميون والنورمنديون من حرية التجارة وعملوا على تأمينها مما جعلها تدر عليهم أرباحا معتبرة ومما يجعلنا نخلص إلى أن العديد من المنتجات كانت لا تخضع للضرائب.

ويظهر من خلال بعض المصادر أن الدولة الزيرية كانت تقتص عدد من الإتاوات على إنتاج ورش مدينة القيروان، منها حق الدخول على المنتوج إلى المدينة أو على المادة الخام، وحق الخروج على المنتوج المصنع، وهكذا تمكنت الدولة من تكوين ثروة طائلة، ومن تنظيم جهاز ضرائب قادر، مكنها من ملء خزائنها باستمرار. كما تجدر الإشارة إلى أن الأسرة المالكة والأعيان كانوا في تلك الحقبة من الزمن يستهلكون كميات هائلة من المواد الفاخرة.

لقد عمل الزيريون من أجل تنشيط تجارتهم على مد الطرق وصيانتها، والعمل على تزويد المراحل العديدة التي كانت تنزل فيها القوافل في سيرها بين المشرق والمغرب للاستراحة والتزود بمختلف الوسائل التي تحتاج إليها القوافل في توقفها.

ويبدو أن أغلب هذه المراحل كانت توجد بمواقع بها مياه كافية، كما كانت

---

[1] – D et J. Sourdel, La Civilisation de l'islam classique , les grandes civilisations, Paris, 1983 , p. 284.

تجهز بمخازن بإمكانها تزويدها بما تحتاجه من مواد استهلاكية، ومن مواد تختص بها تجارة القوافل، كالمواد الجلدية والحديدية وما شابهها. والتي توظفها القوافل أثناء سيرها لتعويض بعض المواد والوسائل التالفة، كما توجد بهذه المراحل أماكن مخصصة لراحة المسافرين ومأوى للحيوانات، ومباني مخصصة لحفظ السلع، كما زودت المدن الكبيرة الموجودة في طريق هذه القوافل بعدد من الفنادق.

أما التجارة مع جزيرة صقلية فإنها كانت نشطة جدا حيث كانت الدولة الزيرية تستورد منها كميات معتبرة من الحبوب في سنوات الجفاف.

وقد واجهت تجارة البحر الأبيض المتوسط في العهد الزيري خطرا جديدا تمثل في الهجمة المسيحية في الحوض الغربي منه وخاصة بعد سيطرة الملك روجرس الأول سنة 464 هـ / 1072 م على هذه الجزيرة، وظهور القرصنة بقوة في هذه المنطقة، وقد عمل الزيريون في ميدان الجهاد البحري، وتمكنوا من نيل بعض الغنائم في تلك المرحلة من الزمن، لكن الضغط الهلالي من جهة وضغط القوة المسيحية الصاعدة من جهة ثانية جعل الدولة الزيرية تدخل في مرحلة من الأفول الطويل.

لقد حرمت الكنيسة المسيحية على مسيحيي أوربا التعامل مع أرض الإسلام في المواد الاستراتيجية التي تستعمل في الصناعات الحربية كالحديد، وبعض المعادن، والخشب. فظهر ذلك جليا في نقص هذه المواد في ورشات بناء السفن في مدينة المهدية، كما أن القلاقل وقلة الأمن التي ميزت البلاد داخليا نتيجة للغزو الهلالي، جعلت جلب المعادن والأخشاب من المناطق الغربية أمرا صعبا إن لم يكن مستحيلا. ولابد أن نذكر أن استقرار الهلاليين في مناطق شاسعة كانت تنتج فيما قبل كميات هائلة من الحبوب والفواكه. وكانت من أخصب أراضي المغرب، وانتقال هذه الأراضي من الاقتصاد الزراعي إلى الاقتصاد الرعوي، جعل العديد من سكانها الأصليون يهجرونها ليستقروا في المناطق الساحلية وفي المنطقة التلية.

وقد أدى هذا كله إلى نقص في المنتوج الزراعي نتيجة تقلص الأراضي المخصصة له وتراجعها من سنة إلى أخرى، مما جعل الدولة تلتجئ إلى الاستيراد، ومع هذا كله فقد ظلت الدولة الزيرية تصدر كميات كثيرة من الزيت إلى صقلية، وظلت هذه الدولة تمثل نقطة ربط لا يمكن الاستغناء عنها في التجارة

الدولية، تلك التجارة التي تربط المغرب الأقصى وإفريقيا جنوب الصحراء بالمشرق الإسلامي ومنطقة العالم القديم.

ثامنا- نتائج الغزو الهلالي على أفريقية والمغرب:

ترجع أولى الهجرات العربية إلى بلاد المغرب إلى فترة غزوات الفتح الأولى لبلاد المغرب وتحديدا ابتداء من سنة 23هـ / 643 م، واستمرت مع مرور الزمن إلى غاية الغزو الهلالي سنة 442 هـ / 1050 م.

لقد فضل العرب الفاتحون الاستقرار في المدن والحصون البيزنطية القديمة، التي كانت تشكل الليمس بعد فرار البيزنطيين من بلاد المغرب وتركهم العديد من هذه الحصون والاستحكامات العسكرية شاغرة، حيث بقوا بعيدين عن المناطق الجبلية والريفية والصحراوية التي كان يسكنها البربر، فهم بذلك لم يؤثروا على التركيبة الإثنية للمناطق الريفية المغربية التي حافظت على تركيبتها البشرية نظيفة مكونة من العنصر البربري فقط، على عكس المدن التي شهدت امتزاج الأعراق البشرية بها من عرب وعجم وفرس وبربر وبقايا الروم، وقد وفدت هذه الأجناس إلى بلاد المغرب مع الجيوش العربية الفاتحة واستقروا بأفريقية. ([1])

وفي الوقت الذي كانت فيه قبائل بنو هلال تستوطن الأراضي المستوية الأفريقية في المرحلة الأولى، لتبسط نفوذها فيما بعد على باقي بلاد المغرب في مدة زمنية امتدت من النصف الثاني من القرن الخامس الهجري إلى منتصف القرن السادس الهجري، كانت قبائل بنو سليم قد استقرت ببرقة وعاثت فسادا في المناطق الشمالية مثل أجدابية وأسمرا وسرت([2]).

لقد شهدت أفريقية وبلاد المغرب عقب الغزو الهلالي لها اضطرابا سياسيا واقتصاديا نتيجة الخراب الذي ألحقه الهلاليون بالعمران، فقد دمروا مدن صبرة والقيروان وتونس وطبنة والمسيلة وقلعة بني حماد، وألحقوا أضرار بمنشآتها العمرانية، وخربوا زراعتها وأتوا على نشاطها الاقتصادي والتجاري، فحولوا الأراضي الزراعية التي كان يقوم عليها اقتصاد المدينة إلى مناطق رعوية مما

---

[1]- عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص 329 – 335.

[2]- عبد العزيز سالم،المرجع السابق، ص 582

انعكس سلبا على العلاقة التي كانت تربط هذه الأراضي بالمدينة، حيث أصبح ريف المدينة لا يقدم لها ما تحتاج إليه من محاصيل زراعية ضرورية لحياة سكان المدينة بل أكثر من ذلك أصبحت أرضا جرداء تتقاسم مع المدينة مواردها القليلة.

أما وضع المدن في الداخل، فهو أمر أصبحت لا تحسد عليه، كون أن التجارة والصناعات التقليدية وغيرها من الخدمات والنشاطات أصبحت المتضرر الأول من هذا الوضع الذي فرضه الهلاليون عليها. ([1]) وقد زاد من الأمر تعقيدا الحروب الزيرية الحمادية التي زادت من مخاوف سكان المدن الذين قلصوا من نشاطاتهم الزراعية وتحركاتهم التجارية التي كانت تمثل أساس رخاء المدن وازدهارها منذ القديم. ([2])

ولم تسلم أيضا المدن الساحلية مثل تونس، وعناية، والمهدية، وبجاية، من آثار الغزو الهلالي بعد أن أجبرت هي الأخرى على التفاوض مع العرب الهلاليين لاستمرار حياتها بعد أن انحصر ملك الدولة الصنهاجية فيها نتيجة الضغط الذي مورس على المدن الداخلية ([3]) حيث قدمت الكثير من أجل ذلك، فقد تأثر اقتصادها بالوضع الجديد الذي عرفته الأراضي الزراعية.

وإذا كانت بعض المدن الساحلية، مثل المهدية وبجاية، قد عرفت استمرار نشاطها الاقتصادي على نفس الوتيرة، مستغلة في ذلك فرار الكثير من أغنياء المدن الداخلية إليها لتنمية اقتصادها، فإن هذا الوضع لم يدم طويلا، إذ سرعان ما تعرضت قطعان المواشي للنهب، والأراضي الزراعية وغابات الزيتون للإتلاف، ودور الزراعة للتدمير على يد الغزاة الهلاليين، لتصبح المدينة التي تعتبر قاعدة لكل نشاط حيوي دمارا بعد عين، ولم يكن بإمكانها معاودة نشاطها في غياب الأسباب المحفزة على ذلك من أمن ومياه وعدالة في فرض الإتاوات التي أصبحت غير مقننة مع قدوم العرب الهلاليين ([4]).

وقد قدم الزيريون من أجل استعادة أمنهم ونشاطهم الاقتصادي والزراعي والحفاظ على المنشآت المائية ثمنا باهضا انعكس سلبا على مدنهم، وقد تبنوا من

---

[1]– الإدريسي، المصدر السابق، ص 79– 80 – 81.

[2] – L. Golvin, op. cit , p. 122 et ss.

[3]– ابن خلدون، العبر، ج6، ص 173.

[4] - H. Terrasse, Citadins et grands nomades dans l’histoire de l’islam , in Studia Islamica , n° 29 , 1969 , p. 13 et s.

أجل ذلك سياسة جديدة لإرضاء القبائل الهلالية وإغرائها حتى يتمكنوا من إعادة الأمن إلى مدنهم والاستفادة منه لإعادة بعث نشاطهم الزراعي وترميم منشآتهم المائية وغير ذلك من النشاطات الاقتصادية التي من شأنها المساعدة على ازدهار المدن الزيرية.

وقد دفعوا من أجل ذلك إتاوات ضخمة لهذه القبائل حتى ينعموا بالأمن الضروري لحياتهم اليومية([1])، كما هجروا بعض المناطق بصفة كلية ليستقروا في مناطق هادئة بعيدة عن سيطرة الهلاليين، وإن كانت مناطق جبلية أقل خصوبة من الأولى.

وقد ترتب عن هذا تقلص المحاصيل الزراعية، مما زاد في الأسعار زيادة محسوسة خاصة في المدن، فانتشر الفقر في أوساط المجتمع الزيري حتى وصل في بعض الأحيان إلى ظهور المجاعات، وقد حاولت المدن المغربية في الفترة ما بين القرن (5هـ - 6هـ /11م - 12م) جاهدة لخلق توازن بين الفضاء البدوي والفضاء الحضري، إلا أن هذه المحاولات كانت جزئية وفي فترات متقطعة، حيث لم يستطع الزيريون الوقوف في وجه الهلاليين. الذين مارسوا عليهم ضغوطا جعلت المزارعين يهجرون أراضيهم الخصبة ليستقروا حول المدن المحصنة، أو بداخلها أو قرب بعض القلاع ظنا منهم أنها ستوفر لهم الحماية في حالة الهجمات الهلالية التي قد تستهدفهم.

وقد استطاع يحي بن تميم الذي حكم في الفترة مابين (510-516هـ /1108-1116م) أمام انحصار ملك دولتهم في المدن الساحلية، وأمام ضغط الهلاليين عليهم، إلى توجيه الصنهاجيين إلى الاهتمام بالنشاط البحري، فاستطاع هو ووالده من بناء أسطول بحري بالمهدية استطاع أن يغزو به جزيرة صقلية ويغنم الكثير من غاراته البحرية([2]). وقد نجح في إعادة بعث الإنتاج حسب ما ذهب إليه بعض المؤرخين بتوجيه أنظار القبائل الهلالية عن استعمال القوة ونهب الأراضي الزراعية، مما شجع على العودة إلى النشاط الزراعي الأمر الذي ترتب عنه انخفاض في الأسعار، وقد تمكن الحماديون أيضا بفضل سياسة المهادنة التي

[1] - H. Terrasse, Histoire du Maroc des origines à l'établissement du prétéctorat français, Casablanca, 1950, p. 203 – 205

[2]- عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص 586.

طبقوها مع القبائل الهلالية من ضمان أمنهم وتوفير الغذاء للمجتمعات الحضرية والبدوية وإن كان ذلك قد كلفهم الكثير حيث دفعوا من أجل ذلك نصف محاصيلهم الزراعية للقبائل الهلالية.

1 _ نهاية النظام العمراني الذي ساد أفريقية قبل الغزو الهلالي:

لقد اضطرب اقتصاد أفريقية عموما إثر الغزو الهلالي، وشل اقتصاد منطقة القيروان بالخصوص شللا يكاد أن يكون تاما، فبنو هلال استقروا في المناطق الشاسعة التي استصلحتها السلطات المختلفة التي تداولت على حكم بلاد المغرب منذ الفتح باستعمال إمكانيات بشرية ومادية هامة.

انتقلت هذه المناطق الشاسعة من اقتصاد مستقر، يعتمد على الزراعة المكثفة المسقية وعلى الموارد الضخمة التي توفرها له التجارة الدولية، وعلى المنتوجات الكثيرة المصنعة التي كانت تخرج من ورش القيروان، إلى اقتصاد رعوي استفادت منه بالدرجة الأولى القبائل الهلالية المهاجرة.

لقد عمدت السلطات الحاكمة في بلاد المغرب إلى إكثار الضرائب على ما تبقى من سكان الريف والمدن، الأمر الذي جعلهم يعانون عناء كبيرا من هذا الإجراء كل هذا أدى إلى فقر الريف والمدينة على السواء وإلى فقر السلطة في حد ذاتها.

إن سقوط مناطق واسعة من أفريقية تحت السلطة الهلالية، أدى إلى فوضى إدارية عارمة، فالهلاليون كانوا ينتهجون إستراتيجية عدم بذل جهود كبيرة لفتح المدن، بل الأكثر من هذا كانوا يكتفون بالسيطرة على أريافها المختلفة واستعمالها كوسيلة هجومية لتضييق الحصار على المدينة، الأمر الذي ينجم عنه قطع المسالك التي تمد المدينة بما تحتاجه من ميرة وأشياء أخرى كثيرة وضرورية في الوقت نفسه.

تاسعا_ مـــدن الأمـــراء:

1- مدينة القصر القديم (العباسية):

لقد حدد الجغرافيون العرب مجموعة من الشروط الواجب توفرها في تأسيس المدن الإسلامية وتطورها ويأتي على رأس هؤلاء الجغرافيين ابن الربيع

الذي أشار إلى جملة من العوامل التي تساعد على تطور المدينة حيث حددها بستة شروط أساسية هي: "سعة المياه المستعذبة، وإمكان الميرة المستمدة، واعتدال المكان، وجودة الهواء، والقرب من المرعى والاحتطاب، وتحصين منازلها من الأعداء والذعار، وأن يحيط بها سور يعين أهلها"([1]) وقد تردد ذكر هذه الشروط بصيغ مختلفة، ولكنها تدور حول المحاور نفسها عند الجغرافيين العرب الذين اهتموا بجغرافية المدن ومواقعها كما سبق وأن أشرنا.

وإذا كانت المرحلة الأولى في تأسيس المدن الإسلامية تركزت حول الموقع ومميزاته، فإن القاعدة الثانية التي سارت عليها المدن الإسلامية في تخطيطها هي مواقع المباني الأساسية في المدينة، حيث رأينا كيف أن المدن الإسلامية المبكرة قد اشتملت على المسجد الجامع الذي يتوسط المدينة وبجواره دار الإمارة، وحول هذين المبنيين المهمين توزع القطائع على القبائل العربية. فتنتشر دور العامة والأسواق والدروب والطرقات إلى غير ذلك من المنشآت التي تتكون منها المدينة، دون تفضيل لقبيلة عن أخرى، وانطلاقا من عدالة الإسلام التي لا تميز بين فرد وآخر، فالكل سواسية، وهو ما شاهدته فعلا مدن الهجرة على عهد الخلفاء الراشدين كالكوفة، والبصرة، والفسطاط، غير أنه بمجيء الأمويين إلى الحكم تغيرت الأوضاع بعاصمة الخلافة، حيث انحرف الخلفاء عن سياسة الحكم التي كانت متبعة في عهد الخلفاء الراشدين، وأصبحوا يعيشون حياة ترف بعيدة عن الحياة التي كانت سائدة في الفترة السابقة لهم، وانعكس هذا الأمر على عواصم الأقاليم الإسلامية، حيث تأثرت القيروان أيضا بالحكم في دمشق وبغداد، وقد ولد هذا الأمر معارضة داخلية. مما شجع على ظهور جماعات معارضة للحكم بقيادة مجموعة من العلماء والأئمة التي كانت تمثل همزة وصل بين الشعب ونظام الحكم، زد على هذا كله نشوب الثورات الداخلية التي تزعمها البربر، والتي أصبحت القيروان خلالها مكانا يصعب الدفاع عنه، ذلك أن المدينة تقع في مكان سهلي مفتوح يتطلب الدفاع عنه بذل الكثير من الجهود المادية، وتوفير أعداد بشرية هائلة.

لقد اختلفت الطبقات المكونة للمجتمع القيرواني على كيفية التصدي لهذا

---

[1]– ابن الربيع، المصدر السابق، ص 118، 121، 122

الخطر الداهم المتمثل في ثورات الجند العرب، والثورات الخارجية المهددة لمدينة عقبة، فمنهم من فكر في إنشاء مدينة تكون أكثر تحصينا، تسكنها الطبقات الممثلة للسلطة وتكون ملاذا لرؤوس الأموال، وكان على رأس هؤلاء إبراهيم ابن الأغلب.

لقد عانت السلطة بأفريقية منذ عهد الولاة من الثورات المتكررة للجند العرب وعدم انصياعهم للسلطة المركزية بالقيروان، حيث هدد هؤلاء سلطة إبراهيم ابن الأغلب منذ بدايتها وعملوا على تقليص مناطق نفوذها، وللعلم فأن هذه الطبقة من المحاربين ترجع أصولها إلى الجند الفاتحين الذين تكاثر خلفهم بمنطقة المغرب الإسلامي، فهؤلاء الجند يستنفرون للحرب عند الحاجة نظرا لأنهم ليسوا من الجند النظاميين للدولة، الأمر الذي جعلهم في كثير من الأحيان يخرجون عن طاعة ولاة القيروان.

لقد اجتمعت بدون شك لدى إبراهيم بن الأغلب عدة أمور لتجعله يسرع في إنشاء هذه المدينة الحصن، فزيادة عن ثورات الجند والبربر، فإن الأمير كان يخشى من ثورة أهل القيروان الذين كانوا يرون في حياة الترف والبذخ السائدة في بلاطه عزوفا عن الدين الإسلامي وابتعادا عن مبادئه، لهذه الأمور كلها ابتنى إبراهيم ابن الأغلب له مدينة محصنة على مسافة قريبة من مدينة القيروان، علما أن هذا الوالي كان يقطن قبل ذلك بدار الإمارة في الجنوب الشرقي لمسجد عقبة.

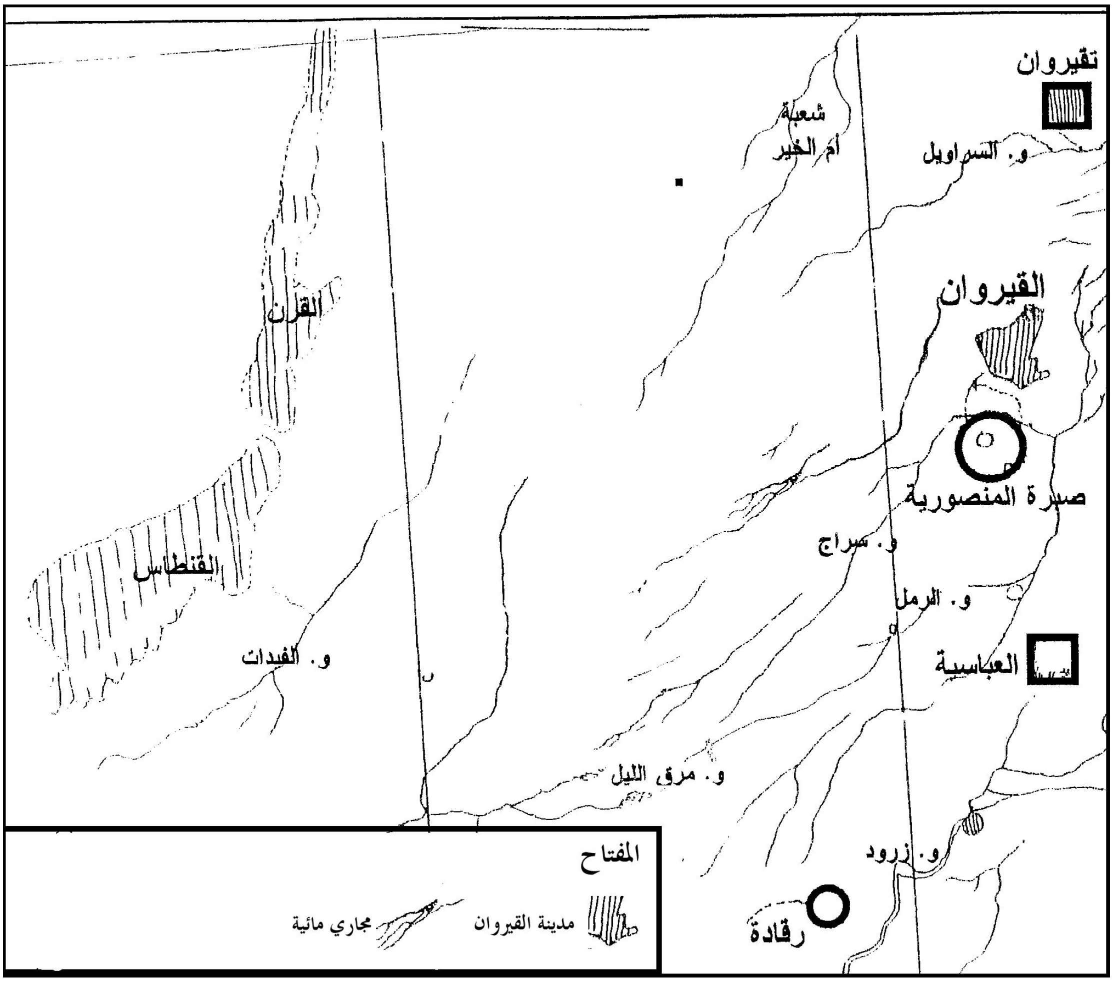
أسست مدينة القصر القديم (العباسية) على بعد ميلين عن مدينة القيروان، **(خريطة رقم22)** وقد عمد إبراهيم بن الأغلب إلى تحديد خطط لكل من رغب في أن يقطن في المدينة الجديدة، وبدأت عملية البناء بسرعة كبيرة، حيث أنشأ إبراهيم بالأغلب([1]) وسط المدينة مسجدا كبيرا، وذلك سيرا على الطريقة المتبعة في تأسيس المدن الإسلامية. وقد خص البكري مدينة القصر القديم بوصف بليغ، فكتب يقول فيها: "وأما مدينة قصر القديم فإن الذي أسسها إبراهيم بن الأغلب بن سالم سنة أربع وثمانين وماية وصارت دار أمراء بني الأغلب وهي بقبلي مدينة القيروان وعلى ثلاثة أميال منها بها جامع له صومعة مستديرة مبنية بالأجر والعمد

---

[1]- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج5، ص 104

سبع طبقات لم يبن أحكم منها ولا أحسن منظرا وحمامات كثيرة وفنادق وأسواق جمة ومواجل للماء وإذا قحطت القيروان وفقد الماء في مواجلها نقلوا الماء من مدينة القصر وكان لها من الأبواب باب الرحمة قبلي وباب الحديد قبلي وباب غلبون شرقي وباب الريح شرقي وباب السعادة غربي يقابل المقبرة الكبيرة، وداخل المدينة رحبة كبيرة واسعة تعرف بالميدان ويجاور مدينة القصر بنية تعرف بالرصافة، ولما أتى إبراهيم مدينة القصر وانتقل إليها خرب دار الإمارة التي كانت بالقيروان بقبلي الجامع "([1]).

[1]- البكري، المصدر السابق، ص 28.



خريطة رقم 22: موقع القصر القديم(العباسية) من القيروان من إعداد الطالب

يمكن للباحث أن يؤكد ما جاء به البكري وخاصة أنه أشتهر بثقته في المادة المغربية ويظهر أنه كان على إطلاع واسع بما كان بالقصر القديم. وأن ما جاء به يقترب من الحقيقة، إن لم تكن كل الحقيقة.

لقد تأثرت عمارة وعمران المدينة بمدن المشرق الإسلامي، فصومعة المسجد يظهر أنها تأثرت تأثرا كبيرا بعمارة بلاد ما بين النهرين، حيث استعملت في بنائها مادة الأجر ([1]) وكانت على شكل مستدير، أما أعمدة هذا المسجد فهي حسب محمد طالبي من المرمر وكان المسجد مغطى بسقف من خشب الأرز، وكان طول هذا السقف مائتي ذراع.

أنشئت هذه المدينة قرب وادي زرود ([2]) فوق تل صغير، كما بني قصر الرصافة ([3]) على جهة من هذا التل وكانت تتبعه حدائق كثيرة وواسعة، أنشئت خارج السور، كما أنشأ إبراهيم بن الأغلب قصرا آخر سمي بالقصر الأبيض ([4]) قطنه هو، كما سكنه بعده ولداه عبد الله، وزيادة الله. وللمدينة أسواق كثيرة وحمامات عديدة. وتخترقها طرق تتعامد وسط ساحات واسعة أكبرها وأشهرها ساحة الميدان ([5]) وبالمدينة عدد كبيرا من المواجل والآبار العميقة، كانت تزودها بما تحتاجه من المياه.

لقد تميز عمران مدينة القصر القديم وعمارتها بالروح العسكرية، فهو مكان غلبت عليه العمارة العسكرية، فأسواره عالية ومزودة بعدد من الأبراج، وهو مكان دفاعي أحيط بخندق عميق. وكانت به حامية عسكرية كثيرة العدد وقفت أمام كل من أراد الدخول إليه، لقد تمكن الأغالبة بفضل هذه المدينة الحصن من مقاومة ثورة الجند بقيادة عمران سنة 195هـ/811م، وبعد التغلب على هذه الثورة توسع القصر القديم، حيث وزع إبراهيم بن الأغلب على عدد من أفراد أسرته حسب ما

---

[1]– G. Marçais, Fouilles à Abassiya prés de Kairouan, revue archéologique, 1925, p. 298.

[2] – حسن حسني عبد الوهاب، المرجع السابق، ج2، ص 354.

[3] – M. Solignac, Recherches sur les installations hydrauliques de Kairouan et des Steppes tunisiennes du VII° au XII° siècle, A. I. E. O, Alger, t X, 1952, p. 218.

[4] – M. Talbi , Op. cit. , p. 36

[5]– البكري، المصدر السابق، ص 28.

ذهب إليه النويري([1]) مساكن وأراضي للبناء، وهكذا امتدت مدينة القصر القديم حول أسوار القصر وظهرت كمدينة واسعة، هذه المدينة التي وصفها لنا البكري في النص الذي أوردناه سلفا. وفي الأخير فإن الأغالبة سكنوا القصر مدة خمسة وسبعين سنة، ففيه كانت تستقبل الوفود الرسمية إذ فيه تم استقبال الوفد الذي أرسله شارلمان إلى الأغالبة سنة 184هـ / 801 م.

أنشئت حول مدينة العباسية ثكنات للجند السود([2]) وهو الجند الذي خصص لحماية إبراهيم بن الأغلب وأولاده فيما بعد، حيث كان هذا الجند مكونا من خمسة آلاف رجل من العبيد السود اشتراهم إبراهيم بن الأغلب ودربهم لهذا الغرض.

وبناء على ما سبق يظهر أن إنشاء القصر القديم كان في البداية علامة أراد بها إبراهيم بن الأغلب تأكيد سلطانه في بلاد المغرب، لكن هذا المكان المحصن سرعان ما أصبح الملاذ الآمن الذي تمكنت فيه السلطة الأغلبية من الوقوف ضد الثورات المتكررة للجند العرب. ورغم أهمية القصر القديم من الناحية السياسية والعسكرية، فإن مدينة القيروان كانت طوال هذه الفترة عاصمة بلاد المغرب الثقافية([3]) والعلمية والدينية، وكانت مقصدا للتجار وطلبة العلم، وهي في الوقت نفسه العاصمة الاقتصادية للوسع الإفريقي.

إن الدارس للعلاقة الموجودة ما بين المدينتين في العهد الأغلبي، يتبين له أن بني الأغلب رغم إنشائهم لهذه المدينة المحصنة خارج القيروان، عملوا كل ما كان في وسعهم لتنشيط الحياة العلمية والاقتصادية بالقيروان، ورغم وجود مسجد بالقصر القديم إلا أن صلاة الجمعة والعيدين كانت تقام بمدينة القيروان، ويحضرها الأمير.

إذن، فما مدينة القصر القديم إلا عبارة عن انتقال للحي الإداري المتمثل في السلطة خارج مدينة القيروان.

---

[1]– النويري(شهاب الدين أحمد)، نهايةالأرب في فنون الأدب، الجزء الخاص بتاريخ المغرب والأندلس، مخطوط محفوظ بمكتبة كلية الآداب، جامعة الأسكندرية، ص 105

[2]– Solignac , op. cit, p 213

[3]– M. Talbi , Op. cit., p. 136.

بعد خروج السلطة من مدينة القيروان عمد زياد الله الأول إلى تحطيم أسوار القيروان التي أنشأها بن الأشعث فأصبحت مدينة عقبة مفتوحة دون تحصين يذكر حيث أشار البكري إلى ذلك قائلا: "وكان للقيروان في القديم سور طوب سعته عشرة أذرع بناه محمد بن الأشعث بن عقبة الخزاعي سنة أربع وأربعين ومايه وهو أول قائد دخل أفريقية للمسودة، وكان في قبليه باب سواء الأربعة وهو بين القبلة والمغرب ... فهدم هذا السور زياد الله بن إبراهيم المعروف بالكبير سنة تسع ومايتين لما قام عليه أهل القيروان مع المنصور المعروف بالطنبدي فلما أنهزم عن القيروان يوم الأربعاء في النصف من جمادى الأولى من هذه السنة وخرج أهل القيروان إلى زياد الله فرغبوا في العفو عنهم والصفح هدم سور القيروان عقوبة لهم " ([1])

وللمدينة أبواب عديدة ذكرها البكري وهي باب الرحمة وباب الحديد وباب جبلون وباب الريح.

بقيت مدينة قصر القديم في نمو مستمر، رغم تأسيس مدينة رقادة التي قطنها أهل السلطة والأغنياء، ورغم هجرة عدد كبير من سكانها إلى مدينة رقادة، هؤلاء المهاجرون تم استخلافهم بعدد من سكان القيروان. ورغم هذه الظروف فقد كان للمدينة نشاط علمي كبير، حيث ولد بها علماء ومؤرخين كبار مثل أبو العرب التميمي المؤرخ الكبير.

هجرت المدينة بعد ذلك من سكانها لأسباب غير معروفة، ولم يبق اليوم في موقعها غير بعض الأطلال. وقد حاول جورج مارسي من خلال قيامه ببعض الحفريات في عين المكان للحصول على بعض المعلومات عنها ولكن نتائج هذا البحث لم تصل إلى الدارسين.

2 _ مدينة رقـــادة:

لقد سكنت العائلة الأغلبية لمدة طويلة في مدينة القصر القديم، التي عرفت ازدهارا كبيرا حتى عهد إبراهيم الثاني([2]) (261–289هـ/875–906 م). وكان هذا

[1]– البكري، المصدر السابق، ص 25

[2]– ابن الأثير، الكامل ج5، ص 104– 175

حسن حسني عبد الوهاب، ورقات، ج1، ص 30.

الأمير حسب ابن الأثير رجلا ثقة حكم بالعدل والإحسان مما جعل طبقات الشعب المختلفة تحترمه وتقدر فيه روح المسئولية، وقد قطن هذا الأمير لمدة طويلة في قصور أجداده بالقصر القديم، وفي صفر من سنة 263 هـ – 773 م قرر هذا الأخير تأسيس مدينة رقادة على أربعة أميال من مدينة القيروان.([1])

وإذا رجعنا إلى البكري، فإننا نجد في كتابه عن تأسيس هذه المدينة ما يلي: " مدينة رقادة وهي من القيروان على أربعة أميال، ودورها أربعة وعشرون ألف ذراع وأربعون ذراعا، وأكثرها بساتين وليس بأفريقية أعدل ولا أرق نسيما ولا أطيب تربة من مدينة رقادة، ويذكر أن من دخلها لم يزل ضاحكا مستبشرا من غير سبب وذكروا أن أحد بني الأغلب أرق وشرد عنه النوم أياما، فعالجه اسحق الذي ينسب إليه أطريقل اسحق فلم ينم فأمر بالخروج والمشي فلما وصل موقع رقادة نام فسميت من يومئذ رقادة واتخذت دارا ومسكنا وموضع فرحة للملوك، والذي بنى مدينة رقادة واتخذها دارا ووطنا إبراهيم بن أحمد وانتقل إليها من مدينة القصر القديم وبنى بها قصورا عجيبة وجامعا وعمرت بالأسواق والحمامات والفنادق ولم تزل بعد ذلك دار ملك لبني الأغلب إلى أن هرب عنها زيادة الله من أبي عبد الله الشيعي وسكنها عبيد الله إلى أن انتقل إلى المهدية سنة ثمان وثلاثماية، وكان ابتداء تأسيس إبراهيم لها سنة ثلاث وستين ومايتين فلما انتقل عنها عبيد الله إلى المهدية دخلها الوهن وانتقل عنها ساكنوها ولم تزل تخرب شيئا بعد شيء إلى أن ولى معد بن إسماعيل فخرب ما بقي منها وعفا أثرها وحرث منازلها ولم يبق منها غير بساتينها ولما بناها إبراهيم بن أحمد وجعلها داره منع بيع النبيذ بمدينة القيروان وأباحه بمدينة رقادة فقال بعض الظرفاء من مدينة القيروان:

يا سيد الناس وبن سيدهم   ومن إليه الرقاب منقادة

ما حرم الشرب في مدينتنا   وهو حلال بأرض رقادة " ([2])

ويكمل البكري حديثه عن تأسيس رقادة، ويقدم لنا ما جاء به محمد بن

---

[1] –Fagnane , L'Afrique septentrionale au XII siècle de notre ère description extraite du kitab el istibsar, traduction Fagnane, revue de la société archéologique de Constantine , n° 33 , 1899 , p. 1- 23

[2] – البكري، المصدر السابق، ص 27 – 28.

يوسف الذي يعتمد عليه البكري كثيرا عند حديثه على بلاد المغرب فيقول: " قال محمد بن يوسف إنما سميت بهذا الاسم لأن أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمع المعافري القائم بدعوة الإباضية بطرابلس لما نهد إلى القيروان لقتال ورفجومة وكانوا قد تغلبوا عليها مع عاصم بن جميل التقى بموضع رقادة وهي إذ ذاك منية فقاتلهم هناك قتالا ذريعا فسميت رقادة لرقاد جثثهم بعضهم فوق بعض " ([1])

ومع هذا كله فإن إبراهيم الثاني كان أميرا محبا للبذخ وكان على رأس دولة امتلأت خزائنها بالأموال الطائلة، فأصبح ينظر إلى مدينة القصر القديم بنوع من الاحتقار وربما أراد أن يؤسس مدينة كما فعل جده إبراهيم الأول، وكما جرت عليه العادة عند الملوك الكبار، فالخليفة العباسي المعتصم كان قد أسس مدينة سر من رأى، وأحمد ابن طولون أيضا أسس مدينة القطائع.

إن أصل مدينة رقادة يبدأ مع تأسيس حصن قصر الفتح ([2]) ورقادة لم تبدأ عند تأسيسها كما هو الحال في القصر القديم كمدينة بل ظهرت كقصر للنزهة والصيد يبعد بأربعة أميال عن مدينة القيروان، وقد أحيط بسور قوامه أربعة وعشرون ألفا وأربعون ذراعا (24040) وقد غطت أغلب هذه المساحة البساتين والحدائق مما جعله متنزها اشتهر بهوائه الصافي العليل. ([3])

إن إبراهيم الثاني هو أول من سكن في هذا المنتزه لمدة طويلة حيث ترك مدينة القصر القديم وبنى فيه قصورا فاخرة، ([4]) ومسجدا كبيرا. ومع مرور الزمن امتلأت المساحات الخضراء وأنشئت عليها الأسوار، والحمامات، والخانات ومن بين هذه القصور الجميلة نذكر قصر الفتح الذي أنشئ على طابع تميز بالعظمة. وتذكر المصادر أيضا قصر الصحن الذي احتوى على ساحة كبيرة. وفي هذا القصر يوجد بيت الحكمة، ([5]) وفي نفس الموقع يوجد قصر كبير أيضا هو قصر البحر الذي يحتوي على حوض طوله 500 ذراعا وعرضه 400 ذراعا كانت تزوده حسب سولينياك([6]) قناة خاصة به، وهذا القصر هو قصر العروس،

---

[1]– البكري، المصدر السابق، ص 27 – 28.

[2]– ابن عذاري، المصدر السابق، ص 116

[3]– البكري، المصدر السابق، ص 28.

[4]– حسن حسني عبد الوهاب، المرجع السابق، ج2، ص 364

[5]– حسن حسني عبد الوهاب، المرجع السابق، ص 194.

[6] – Solignac , op. cit, p 266.

وهو متكون من أربعة طوابق. وحول هذه المدينة الأميرية وقصورها، خصصت مناطق شاسعة للحدائق والمساحات الخضراء، أنشئت فيها العديد من المنشآت المائية من سدود صغيرة، ومواجل، وقنوات، استعملت لتزويد المدينة وساحاتها الخضراء بما تحتاجه من مياه. وكانت حدائق المدينة فيها ما يسر العين وما يطرب الأذن وما يشم الأنف من روائح طيبة، فهي مليئة بالأشجار المثمرة والمزهرة التي تختلف ألوانها وتكثر روائحها الزكية.

لقد ورد في كتاب رياض النفوس للمالكي ([1]) أن القاضي ابن الكوفي دخل يوما على الأمير إبراهيم بن أحمد في أحد حدائقه برقادة فأعجب بكثرة الفواكه الناضجة بهذه الحديقة.

إذن، هذا هو قلب مدينة رقادة الذي احتوته الأسوار والذي أنشئت فيه القصور ودواوين السلطة والدور الفاخرة للطبقات العليا من المجتمع، إن هذا القلب النابض للمدينة ستظهر حوله مناطق واسعة لسكنى الطبقات المتوسطة من المجتمع، والتي ستكون المدينة الحقيقية، كما أن الطريق الرابط بين القيروان ورقادة سيجذب إليه العديد من التجار والحرفيين الذين سيبنون على حافتيه دكاكينهم وورشهم، وكل هذا سيؤدي حتما إلى تغير في المخطط الرئيسي للمدينتين ويوجه نمو مدينة القيروان في اتجاه رقادة.

لقد نمت مدينة رقادة نموا مضطردا، حيث بلغت أوجها في عهد زياد الله الثالث و يظهر أن نمو المدينة كان على مرحلتين، ففي المرحلة الأولى نمت المدينة في فضاء يحيط به سور طوله أربعة عشر ألف ذراع، أما في المرحلة الثانية فقد تطورت المدينة لتشمل المساحة التي بلغت مائتان وأربعين ألف وأربعين ذراع.([2])

عرفت مدينة رقادة مرحلة من الاضمحلال عندما اختار الأمير زياد الله الثاني والد زياد الله الثالث مدينة تونس ([3]) كعاصمة له استقر فيها فترة زمنية

---

[1]– المالكي، رياض النفوس، ج1، ص 382.

[2] – J. Despois, op. cit, p 166.

[3] – M. Vonderheyden, op. cit. T1, p. 113 – 117.

قصيرة. ولم يتمكن زيادة الله الثالث من العودة لسكناها إلا بعد قيامه بترميمات كبيرة ([1]) أعادت للمدينة نظرتها وبهاءها، ولم يكتف بهذا بل أنشأ بعض البنايات الجديدة ليقطن بها.

تمكن زيادة الله الثالث من إعادة النشاط إلى المدينة، ودخلت من جديد في مرحلة من الازدهار،إلا أن خطر الداعي الشيعي كان يتهددها ([2]) خاصة وأن جيش كتامة بدأ يتمكن من مناطق واسعة من الدولة الأغلبية، الأمر الذي جعل زيادة الله الثالث يحصن مدينته ببناء سور من الطابية ([3]) ومع هذا كله فقد استمرت القوات الشيعية في أخذ المدن الأفريقية مدينة بعد مدينة حتى سقطت آخر معاقل الدولة الأغلبية الأمر الذي جعل زيادة الله الثالث يفر إلى المشرق أمام تقدم جيوش الشيعة المنتصرة ويترك مدينة رقادة.

دخل الشيعي المدينة حسب ابن حماد ([4]) بعدما أعطى الأمان للسكان وقطن في قصر الصحن، ومنه توجه الخليفة إلى المهدية التي أصبحت عاصمة الدولة الفاطمية.

لقد أعطى الخليفة الفاطمي لأتباعه من كتامة وأعيان سلطته، العديد من القطائع، والقصور، والمنازل الفاخرة بالمدينة، بعد انتقاله من هذه المدينة ليستقر في المهدية. وبعد الأمطار الطوفانية التي شهدتها المدينة سنة 309 هـ / 921 م، خربت المدينة ودخلت في مرحلة من التدهور الكبير.

لقد أمر الخليفة معد المعز بن إسماعيل المنصور بتخريب المدينة تخريبا كاملا، وبحرث أطلالها، ([5]) لكن ذلك لم يقض تماما على المدينة، بل أن الأمير المنصور بو لكين عاد وسكنها جاعلا منها استراحة من استراحاته العديدة وبنى بها مسجدا، وقد أشار الإدريسي في السادس الهجري الثاني عشرميلادي إلى

[1]– ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 130.

[2]- G. Marçais, Fouilles à Abbassiya, p. 30.

[3] - G. Marçais, La Berberie, p 86.

[4] - Ibn Hammad, histoire les rois oubeidites, édition et traduction, M. Vonderheyden, Alger , 1927, p 8.

[5]– البكري، المصدر السابق، ص 27.

خرابها الكامل.([1])

3 _ مدينة المهدية:

ا _ تأسيس المهدية:

اتفقت آراء بعض المؤرخين ([2])على أن عبد الله المهدي بعدما تولى الخلافة في رقادة يوم الجمعة 21 ربيع الثاني 297هـ الموافق ل 7جانفي 910م ([3]). عمل على أخذ زمام الأمور بيده وتنظيم البلاد بتعيين عدد من العمال على المناطق المختلفة، وقد اعتمد في تعيين عماله على معيار الخبرة والتجربة حتى أنه عين من خدموا الأغالبة ممن توفرت فيهم الشروط السابقة([4]).

لقد كان للخليفة عبد الله المهدي آمال كبيرة حيث أنه كان يحلم في فتح مصر التي هي باب المشرق، لهذا كان عليه أن يجمع أموالا طائلة. ولهذا فرض خراجا وضرائب كثيرة على النشاط الزراعي والتجاري، ليجهز نفسه من أجل الدخول في هذه الحروب بقوة.

وإذا كان عبد الله المهدي بانتهاجه هذه السياسة، ظن أنها سوف تساعده في تحقيق أهدافه، فبالعكس فإنها قد جلبت له الدمار، ذلك أنه بإقدامه على هذا العمل جعل المجتمع يثور ضده ويكون بالتالي قد هيأ كل أسباب الثورة عليه، فالسنة والخوارج بالمغرب لم يكونوا راضين على المهدي لأنه يمثل اتجاها مذهبيا جديدا، زد على ذلك أن الرجل أثقل ظهورهم بالضرائب المختلفة، ثم إن جنده من كتامة كانوا يعاملون طبقات الشعب المختلفة بقسوة، مما جعل الناس تحقد عليهم، الأمر الذي سيساعد أبو يزيد مخلد بن كداد صاحب الحمار([5]) في ثورته علىعبد الله المهدي، والتي أوشكت أن تقضي على الدولة الفاطمية برمتها وأن تمحيها من الوجود نهائيا.

وفي هذا الإطار الزماني والمكاني المتفجر، فهم المهدي أن الأمور تسير

---

[1]– الإدريسي، المصدر السابق، ص80

[2]– ابن عذاري، المصدر السابق، ص 159. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج8، ص 38.

[3]– ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص 96

[4] - M. Talbi, op. Cit. p 687.

[5] - M. Zebiss, Mahdyia et Sabra el Mansouriya, in journal asiatique, 1956, p 80.

لغير صالحه وأن الثورة العارمة قادمة لا رجعة فيها، فعمل على تأسيس مدينة محصنة تكفيه من أي شر آت. فأنشأ مدينة المهدية على لسان من البحر، وبعد أن خرج هو ومجموعة من رفاقه حسب ما ذهب إليه ابن خلدون([1]). للريادة واستكشاف المنطقة، ولاختيار موقع وموضع لعاصمة الدولة الفاطمية الناشئة، وبعد زيارته لتونس وقرطاج انتهى به المطاف في شبه جزيرة على شكل يد ومقبض، وهنالك أسس المدينة التي ستصبح مقر حكومته.

بدأت أعمال البناء سنة 303هـ/916م، حيث أمر عبد الله المهدي أن تبنى دار صناعة للسفن بإمكانها احتواء مائة سفينة، كما أمر أن تحفر في الصخر الصلد مواجل للمياه ومطامر للحبوب، ثم أنشئت الديار والقصور وقد تم كل ذلك سنتي 305ـ 306هـ / 917ـ 918م, وقد جاء في وصف البكري لها:" والبحر قد أحاط بها (المهدية) من ثلاث جهاتها وإنما يدخل إليها من الجانب الغربي ولها ربض كبير يعرف بزويلة فيه الأسواق والحمام ومساكن أهلها...وجميع بنيانها بالصخر ولمدينتها بابا حديد لا خشب فيهما زنة كل باب ألف قنطار وطوله ثلاثون شبرا في كل مسمار من مسامرها ستة أرطال وفي البابين صور الحيوان وفي المهدية من المواجل العظام ثلاث ماية وستون غير ما يجري إليها من القناة التي فيها والماء الجاري بالمهدية أقداس ويصب في محبس يجري منه في تلك القناة، وهي مرفا لسفن الأسكندرية والشام وصقلية والأندلس وغيرها."([2])

لقد تحدث الجغرافيون العرب القدامى مثل المقدسي والإدريسي وصاحب كتاب الاستبصار عن مدينة المهدية باستفاضة ووصفوا موقعها المتميز الذي يحيط به البحر من جميع جيهاته حسب صاحب كتاب الاستبصار([3])، كما وصف لنا المؤرخ الفرنسي قوتيي أيضا موقع هذه المدينة وصفا بليغا (**خريطة رقم 23)** حيث جاء في مضمون كلامه أن خليج سرت فريد من نوعه، فهو بحر غير عميق تنتشر فيه الجزر بكثرة، ويضيف قائلا أن الإنسان المغربي الذي اشتهر بكونه كائن اعتاد على العيش في البر سيصبح بحري في هذا البلد الفريد ([4]). وهنا يتبادر إلى ذهني

---

[1]- ابن خلدون، كتاب العبر، ص 47 – 48.

[2] ــ البكري، المصدر السابق، ص 29ــ 30

[3] – المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 187–188. الإدريسي، نزهة المشتاق، ص 78. الاستبصار، ص 117–118.

[4] - E. F. Gauthier, le passé de l'Afrique du Nord, ses siècles obscurs, collection petite

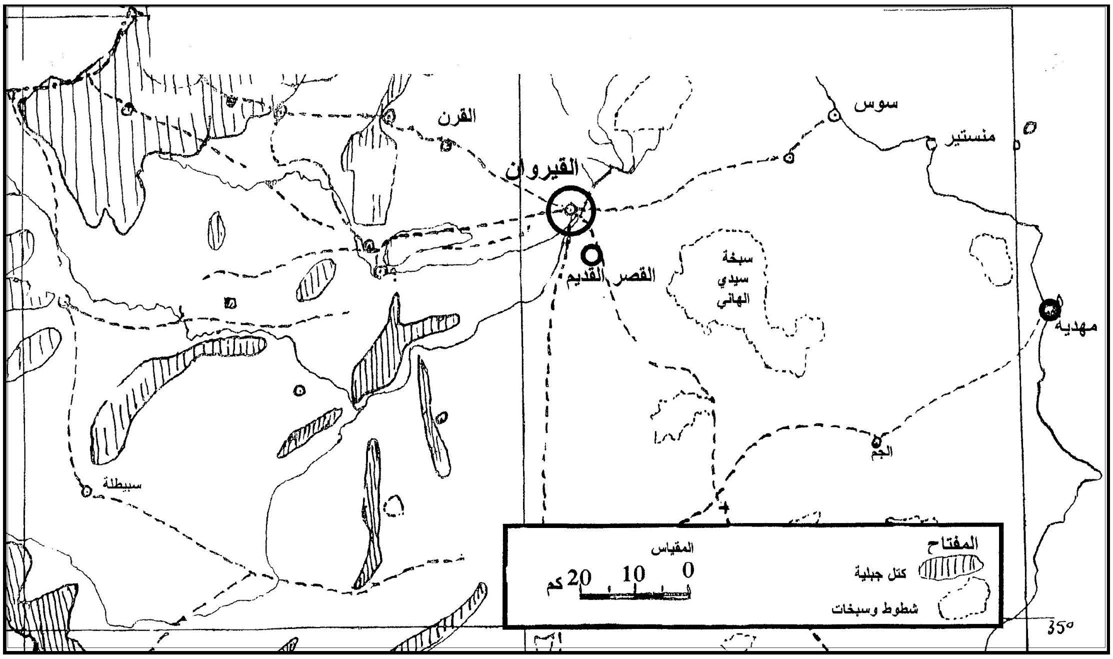
سؤال هام هو لماذا ترك المهدي المناطق الداخلية للبلاد ومدينة القيروان عاصمة المغرب الإسلامي منذ الفتح ليستقر على الساحل؟. هل هذا راجع إلى الخوف من التطورات الداخلية التي بدأت بوادرها تظهر بجلاء أم أن المهدي تيقن أن المناطق السنية والخارجية لن تستسلم دون مقاومة عنيفة، وأنه لم يحضر العدة والعدد للوقوف أمام ثورتها القريبة، أو أن هذا التأسيس إنما هو تأسيس طبيعي لدولة ناشئة أرادت أن تكون لها عاصمة جديدة. أم هو راجع لمخطط محكم محضر يراد منه وضع إستراتيجية لفتح مصر عن طريق البحر، ويبدو أن كل هذه الأسباب اجتمعت لتوجه المهدي في هذا التأسيس، علما أن جيش المهدي كان مكونا في غالبيته من البربر الكتاميين ([1]) الذين كانت لا تعجبهم الحياة في السهوب، والذين لم يكونوا محضرين للحرب في المناطق المستوية. ثم إن القيروان يصعب الدفاع عنها، بسبب موضعها غير المحصن طبيعيا، فهي تقع في مكان منبسط. وقد شعر بذلك الأغالبة وحاولوا عند ثورة الجند عليهم استبدالها بتونس وعمدوا إلى إنشاء مدن أميرية حولها تكون أكثر حصانة وأمنا لهم في ظل الأخطار التي تستهدفهم.

لقد وقف أمام استقرار الأغالبة بتونس حاميات الجند العرب التي استقلت بالمناطق المحصنة في الشمال واستغلت بقايا حصون الليمس للدفاع عن المناطق التي تحكمت فيها، وقد زاد من هذا الأمر تعقيدا ثورتها المستمرة وعصيانها الدائم للأمراء الأغالبة.

---

bibliothèque, Payot, Paris, 1937, p 318 à 349.

[1] - Ibid, p 348.



خريطة رقم 23: موقع المهدية من القيروان من إعداد الطالب

إن موقع مدينة المهدية كانت تشغله حسب المؤرخين المختصين في التاريخ القديم مدينة بونيقية، جاءت بعدها مدينة رومانية.([1]) ويؤكدون فرضياتهم هذه بملاحظاتهم الميدانية، إذ يرى هؤلاء المختصون أن هذا الموقع كان يشغله ميناء داخلي يمكن أن يرجع أصله إلى العهد البونيقي، بالإضافة إلى وجود بقايا مقبرة، هي مقبرة رأس أفريقيا، ووجود مقبرة هيبون (سيدي مروان). ونحن نرى أن هذه الفرضية لا يجب أن نسلم بها بسهولة بل لابد من التأكد منها، ذلك أن هناك من يرى أن موقع المدينة لم يكن عامرا قبل القرن العاشر الميلادي مثل ألكسندر ليزين([2])، وأن المهدي إنما وجده خاليا من السكان، بحيث أنه أمر ببدء البناء فيه.

وإذا رجعنا إلى المصادر العربية([3]) فإن مدينة المهدية تظهر في أوصافهم كمدينة حصن، حيث جلب انتباههم الوجه المحصن لها ولموقعها، بينما سكت أغلبهم عن عمرانها وعمارتها، فلم يشيروا إلى قصر المهدي وقصر ابنه.

والحقيقة أن المهدي اختار موقعا فريدا لمدينته، وأن اختياره كان فيه نوع من الذكاء والفطنة، فداخل شبه الجزيرة هذا المحمي من ناحية البر بسور قوي، مكن المهدية من الدفاع عن نفسها مستعملة البحر الذي كان يمدها بما تحتاج إليه من ميرة. كما أنشئ بالمدينة جامع كبير جاء وصفه عند جورج مارسي حيث يقول: " ففي المهدية، وهي المدينة الوحيدة بالساحل التونسي التي يمكن أن ندرس فيها العمارة الدينية الفاطمية. لقد أسس الجامع على بقعة من الأرض تم ردمها، ورغم شهرته الكبيرة فإن هذا الجامع لم يحض بالكثير من الاهتمام."([4])

أما البكري فيذكر قصور المهدية في قوله:" وقصر عبيد الله سري المباني بابه غربي، وقصر ابنه أبي القاسم بإزائه، بابه شرقي بينهما رحبة فسيحة ودار صناعة بشرق قصر عبيد الله"([5]).

---

[1] - G. Marçais, la berberie musulmane, p375.
- Guérin, voyage archéologique dans la province de Tunis, paris, 1958, p 142.

[2] - A. Lezine, Mahdya, Recherche d'archéologie musulmane. Collection archéologique méditerranéenne, Paris, 1965, p.12

[3] ــ البكري، المصدر السابق، ص 30. الإدريسي، المصدر السابق، ص 78–79. أبو الفداء، المصدر السابق، ص 118.

[4] - G. Marçais, l'Architecture musulmane d'occident, p 210

[5] ــ البكري، المصدر السابق، ص 30.

ويرى جورج مارسي أن قصر عبد الله المهدي([1]) وجد في الموضع الذي يتربع عليه اليوم البرج الكبير أي باتجاه وسط شبه الجزيرة، حيث أن الحفريات التي أجريت في الجهة الغربية من هذا البرج على بعد مائة متر منه، مكنت علماء الآثار من العثور على بقايا قصر كبير يوجد مدخله الرئيسي من جهته الشمالية، أما ألكسندر ليزين([2]) فإنه يبين من خلال مقارنته بين النصوص التاريخية والطبوغرافية الحالية للموقع، أن هذا الاكتشاف ليس هو مقر عبيد الله. ولمعرفة مخطط هذا القصر فقد عمد إلى مقارنته بمخطط قصر زيري بأشير، حيث أن القصرين متشابهان في كثير من الأمور إلا أن قصر عبد الله المهدي كان أوسع بكثير من قصر زيري.

وتحتوي المدينة على عدة ساحات أهمها الساحة الموجودة بين قصري المهدي وابنه أبي القاسم، حيث نجد الوضعية نفسها في القاهرة، إذ تفصل بين قصري الخليفة وابنه ساحة.

والجدير بالذكر أن القصرين يتخذان من وسط المدينة موقعا لهما. ولما كانت مدينة المهدية مركزا للحكومة تدار منه الأقاليم، فإنها جمعت أيضا الكثير من الإدارات بمركزها فزيادة على قصري المهدي وابنه والمسجد الجامع، ودار الصناعة ومخازن العدة والعتاد، كانت هناك العديد من الإدارات منها دار المحاسبة التي كانت تقع في النصف الغربي من شبه الجزيرة.**(مخطط رقم17)**

إن هذا التركيز الذي ميز النسيج العمراني للمدينة لدلالة على أن المدينة الأولية لم تكن شاسعة من حيث الموضع، وأنها كانت مدينة شبه خاصة، اقتصرت على الخليفة وأتباعه، بينما خصص لسكنى عامة الناس الكثير من الأرباض أهمها ربض زويلة الموجود خارج السور. وقد جاء في وصف البكري لهذه الأرباض:" وكان لها أرباض كثيرة عامرة أقربها إليها ربض زويلة فيه الأسواق والحمامات وربض الحمى كان مسكنا لأجناد العرب والبربر

---

[1]- لقد تمكن علماء الآثار تصحيح اسم الخليف في ضوء الوثائق الثرية الرسمية، ومنذ ذلك الاكتشاف اصبح اسم الدولة الفاطمية يعرف ب (الدولة العبدية) نسبة على عبد الله. صالح بن قربة، المسكوكات المغربية من الفتح الاسلامي على سقوط دولة بني حما، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص 267 وما بعدها.

[2]- A. Lezine, Note d'archéologie Ifriqyenne, Mahdiya, quelques précisions, R. E. I, 1967.

وقصر أبي سعيد، وبقة، وقاساس، والغطنة، وربض قفصة وغيرها."([1])

ولعل هذا الأسلوب المتبع في تخطيط مدينة المهدية امتدت تأثيراته إلى القاهرة، التي ظلت هي الأخرى حصنا للحكام الفاطميين، إذ سكن السلطان وجنده المدينة المسورة في حين سكن العامة خارج أسوار المدينة المحصنة، ولم يسمح لهم بالإقامة داخلها إلا في زمن صلاح الدين الأيوبي([2]).

وهكذا فإن سكان هذه الأرباض يقضون نهارهم في العمل في مختلف المصالح الإدارية والورشات المنتشرة بداخل مدينة المهدية، وعند الغروب يرجعون إلى أرباضهم حيث مساكنهم.([3]) هذا دون أن تفوتنا الإشارة إلى أن هناك ساحة كبيرة وشاسعة كانت تفصل بين المدينة الأميرية والأرباض الشعبية، هذه الساحة هي مجال فاصل يفصل بين مدينة السلطة وباقي أراضي الخلافة، وهي منطقة استراتيجية لتأمين المدينة، فالمهدية كما هو معروف كانت مدينة بلا أسواق ولاحمامات ولا مساكن للطبقات الشعبية، فهل هذه المدينة مدينة بالمعنى التقليدي للكلمة أم هي النواة التي ستصبح في العهد الموحدي القصبة أي مدينة الحكم، كما هو الحال في مراكش، وبجاية، وتونس. ونعتقد أن النمط العمراني والتنظيمي للقصبة، إنما هو نمط محلي فإننا نلاحظ أن مدينة المهدية كانت مستقلة استقلالا تاما عن أرباضها.

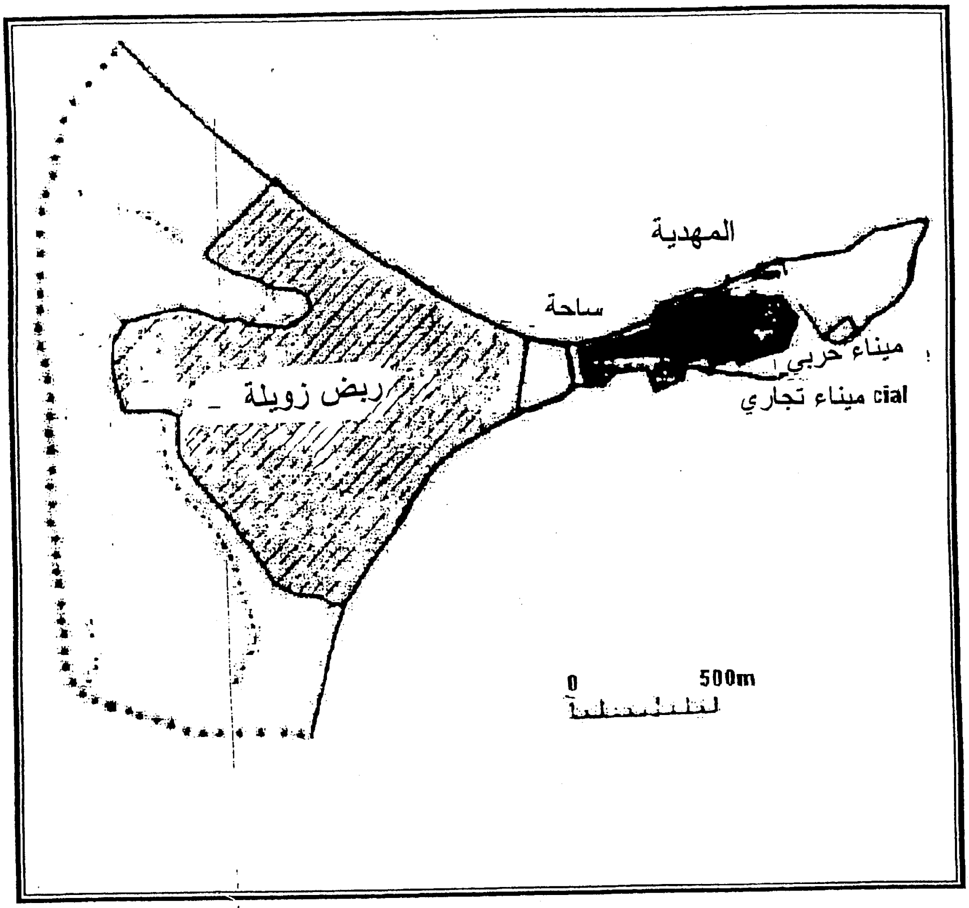
---

[1] ـــ البكري، المصدر السابق، ص 30.

[2] ـــ عبد العال عبد المنعم الشامي، جغرافية المدن عند العرب، مجلة عالم الفكر، الكويت، 1978، ص 141

[3] ـــ البكري، المصدر السابق، ص 30.

ـــ عبد العال عبد المنعم الشامي، المرجع السابق، ص 140.



مخطط رقم 17 : يبين مدينة الأمير وربض زويلة عن: (خلف محمد نجيب)

تمكنت المهدية بواسطة موقعها الاستراتيجي الهام من الصمود أمام الحصار الطويل الذي فرضته عليها جيوش صاحب الحمار.([1]) ففي سنة 335هـ/ 945م وصل صاحب الحمار إلى مشارف المهدية على رأس جيش عرمرم، ولم يبق من ملك الفاطميين آنذاك في أفريقية إلا ما يوجد داخل أسوار المهدية، فمن جهة البر كانت جيوش صاحب الحمار تشد الخناق عليها، ومن الجهات المتبقية كانت المدينة محاطة بالبحر.

لقد أوشكت الخلافة الفاطمية في بلاد المغرب على الانقضاء لولا الحصانة التي كانت تتمتع بها المدينة، فعلى الرغم من العدد الهائل لجيوش صاحب الحمار، إلا أن المدينة بقيت صامدة لم يتمكن منها، ولولا نجدة زيري بن مناد الذي أغاث المدينة بمائتي حمل من القمح لما تمكنت المدينة من الصمود في وجه الغزاة. هذه النجدة جعلت أصحاب يزيد بن كداد ينفضون من حوله، مما خفف الحصار على المدينة. وكانت تلك بداية النهاية له إلى أن قتل في جبال كيانة تلك المنطقة التي عرفت فيما بعد إنشاء قلعة بني حماد.

لقد بقيت المهدية من أهم مدن المغرب الإسلامي، حتى بعد عودة الإدارة إلى مدينة صبرة المنصورية، ورغم تربع هذه الأخيرة على الهرم العمراني لمدن المغرب الإسلامي، إلا أن المهدية بقيت المدينة الثانية، تمثل مركز تجميع القوة الفاطمية، ففيها كانت تصنع السفن، وبها تجمع الأسلحة، ومنها ستنطلق الجيوش لفتح مصر.

إن الأخبار عن مدينة المهدية أواخر الفترة الفاطمية نادرة جدا، ومع ذلك فمن المؤكد أن هذه المدينة بقيت مركز جذب للجهات المحاذية لها. كما بقيت ميناء عسكريا وتجاريا مهما في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط.

---

[1] – ابن خلدون، كتاب العبر، ج 4، ص 49 – 51

- Le Tourneau, la révolte d'Abu yazid au Xè siècle, les cahiers de Tunisie, n°2, 2ème trimestre, 1953, p. 16

4_ مدينة صبرة المنصورية:

ا _ تأسيس المدينة:

عمل المنصور بعد القضاء على ثورة صاحب الحمار ([1])على العودة إلى منطقة القيروان وترك المهدية، وذلك لأهمية هذه المدينة للسيطرة على بلاد أفريقية، ولأهمية بلاد أفريقية أيضا في السيطرة على بلاد المغرب، ولأهمية تـــأمين هذه المنطقة من العالم الإسلامي لجعلها قاعدة لفتح المشرق الإسلامي. زد على ذلك أن المهدي كان يعي كل الوعي، أن مدينة القيروان مازال أهلها غاضبون عليه، وأنه إن لم يستدرك الموقف ويتمكن من السيطرة عليها ستكون مهدا للثورات القادمة.

لقد أسس أبو طاهر إسماعيل المنصور حفيد المهدي سنة337هـــ/ 938م مدينة صبرة المنصورية على مرتفع من الأرض لا يبعد الكثير عن مدينة القيروان (1.5كم)، وكانت هذه المدينة على حسب وصف الجغرافيين العرب لها ذات شكل مدور، فهي تشبه الكأس حسب ما ذهب إليه المقدسي في وصفه لها حيث يقول:" صبرة: بناها الفاطمي أول ما ملك الإقليم، واشتق اسمها من صبر معسكره في الحرب، وهي مدورة مثل الكأس لا ترى مثلها، ودار السلطان وسطها على عمل مدينة السلام والماء يجري وسطها، شديدة العمارة حسنة الأسواق، بها جامع السلطان، وعرض سورها إثنا عشر ذراعا منفصلة عن العمارة بينها، وبين المصر عرض الطريق، وتجارها يغدون ويروحون إليها من المصر على حمير مصرية، والأبواب: باب الفتوح باب زويلة باب وادي القصارين كلها محددة، والحيطان آجر مكحل بالجيل." ([2]) كما قال عنها ابن حوقل:" انه اختط أحسن بلد في أسرع أمد".([3])

يظهر بوضوح من هذا الوصف أن مدينة صبرة المنصورية كانت تشبه في شكلها الهندسي بغداد مدينة السلام ([4])، حيث أنهما مشكلتين من دائرتين هندسيتين،

---

[1]_ R. Brunschvig, Initiation à la Tunisie, p 85.
H. Djait, histoire générale de la Tunisie, p 228.

[2] ــ المقدسي، احسن التقاسيم، ص 187

[3]– ابن حوقل، المصدر السابق، ص 74.

[4] ــ أنظر حول مدينة بغداد: طاهر مظفر العميد، بغداد مدينة المنصور المدورة، المكتبة الأهلية،

وأن المدينتين كانتا محصنتين، فصبرة كانت محصنة بسور وربما زودت أيضا بخندق، وبغداد كانت أيضا محصنة بخندق وثلاثة أسوار حسب بعض الروايات، والمدينتان يخترق أسوارهما مجموعة من الأبواب، فأبواب صبرة عددها ثلاثة، وأما أبواب بغداد فأربعة. كما يوجد بالمدينتين فيصل. علما أن المركز الهندسي للمدينتين يوجد فيه القصر والمسجد. أما عرض سور المدينة فقد قدر باثني عشر ذراعا.

أما ابن حماد فقد ذكر أن مدينة صبرة المنصورية لها أربعة أبواب هي: باب القبلي، وباب زويلة، ويقع هذان البابان في الجهة الشرقية للمدينة. وباب كتامة، وباب الفتوح، وهما في الجهة الغربية من المدينة. ([1])

وقد أضاف البكري إلى هذه الأبواب بابا أخرى تسمى بالباب الشرقي، وهي باب خاصة يدخل منها الأمير عند عودته من فتوحاته، ويمكن القول أنها كانت بابا معلمية، أو أنها كانت ذات مقاسات تسمح بدخول جيش المنصور.

أما بخصوص تاريخ تأسيس سور المدينة، فإن المؤرخين العرب لم يتفقوا على تاريخ محدد أو موحد لها. فبينما يعيد صاحب كتاب البيان المغرب تأسيس السور إلى سنة 437هـ /1045م([2])، فإن هناك من المؤرخين من أرجع تأسيسه إلى تواريخ أخرى.

لقد نمت المدينة بسرعة كبيرة، وأصبحت مقر السلطة الفاطمية بعد أن تخلت هذه الأخيرة عن مدينة المهدية. وتجدر الإشارة هنا إلى أن خليفتين من الخلفاء الفاطميين اتخذا منها مقرا لهما، وأن المدينة بقيت عاصمة لبلاد المغرب حتى بعد فتح الفاطميين لمصر وتأسيسهم مدينة القاهرة وانتقالهم إليها.

لقد أدت مدينة صبرة المنصورية، دور العاصمة في عهد الزيريين خلفاء الفاطميين بالمغرب. ذلك أن مؤسس المدينة عمل كل ما في وسعه على أن تكون السلطة الفعلية في الناحية لمدينة صبرة المنصورية، وأراد لها أن تكون عاصمة سياسية واقتصادية وعلمية لبلاد المغرب قاطبة، فقام بمحاصرة القيروان بمدينته

بغداد،1967، ص 52 وما بعدها.

- D. Sourdel, Bagdad, Arabica, t9, 1962, p 254 et

[1] - Ibn Hammad, op. cit. p 23.

[2] ـ ابن عذاري، البيان المغرب، ج 1، ص 276.

الجديدة صبرة المنصورية بشتى الوسائل المتاحة له.

عمد الفاطميون إلى تحويل كل النشاطات الاقتصادية والتجارية التي كانت بسماط القيروان إلى المدينة الجديدة، وهكذا خسرت مدينة عقبة بن نافع قوتها السياسية ودورها الريادي بشطريه الإداري، والاقتصادي لصالح مدينة صبرة المنصورية، وهذا الأمر يعتبر شيئا جديدا حيث أن المدينة لم تعرف مثل هذا التحويل للنشاطات عدا في عهد الأغالبة عندما أنشئوا مدينة القصر القديم (العباسية)، ومدينة رقادة، وحتى عندما أنشأ الفاطميون مدينة المهدية. والظاهر أن الفاطميين عملوا ما في مقدورهم للتضييق على مدينة عقبة، حيث أسسوا مدينة صبرة المنصورية على مقربة منها، فهي لا تبعد عن مدينة القيروان من ناحية الجنوب إلا بنحو واحد كيلومتر ونصف، ذلك أنها تعد أقرب المدن التي أنشأها الخلفاء الفاطميون قرب القيروان ليسكنوا فيها هم ورعيتهم الخاصة، ثم إنهم ربطوا ما بين المدينتين بسورين متوازيين، بحيث لا تسمح بدخول التجارة إلى المدينة إلا بعد أن تمر بمدينة صبرة المنصورية، فكأنهم أرادوا أن يعيدوا ما صمموه في المهدية، فصبرة المنصورية أصبحت مدينة ملوكية، ومدينة السلطة هي تلك الأرباض التي كانت تقابل المهدية من جهة البر، كربض زويلة، وربض الغيطة وهلم جر، وبينهما مسافة شاغرة من البناء.

يقول البكري في هذا الصدد:" وجعل الصور مما يلي صبرة كالفيصل حايطان يتصلان إلى مدينة صبرة وبينهما نحو نصف ميل ولا سبيل لتاجر ولا وارد أن يدخل مدينة القيروان ما يجب عليه فيه المكس إلا بعد جوازه على مدينة صبرة. وللمدينة اليوم أربعة عشر بابا منها المذكورة وباب النخيل وباب الحديث وللفيصل بابان وباب الطراز وباب الحديث وباب القلالين وباب أبي ربيع وباب سحنون الفقيه ومدينة صبرة متصلة بالقيروان بناها إسماعيل سنة سبع وثلاثين وثلاث مايه واستوطنها وسماها صبرة وهي منزل الولاة إلى حين خرابها ونقل إليها معد بن إسماعيل أسواق القيروان كلها وجميع الصناعات ولها خمسة أبواب الباب القبلي والباب الشرقي وباب زويلة وباب كتامة وهو جوفي وباب الفتوح ومنه كان يخرج بالجيوش ويذكر أنه كان يدخل واحد أبوابها كل يوم ستة وعشرون ألف درهم وكان سماط سوق القيروان قبل نقله إلى المنصورية متصلا من القبلة إلى الجوف وطوله من باب أبي الربيع إلى الجامع ميلان غير ثلث ومن

الجامع إلى باب تونس ثلاث ميل وكان سطحا متصلا فيه جميع المتاجر والصناعات."([1])

ورغم المحاصرة، والمضايقة، والضيم الذي عرفته مدينة القيروان في جميع نواحي الحياة اليومية، أيام الدولة الشيعية الفاطمية كما يبدو من كلام البكري، إلا أنها بقيت مزدحمة كثيرة السكان، وحافظت على مكانتها العلمية، حيث بقيت مدينة العلوم السنية، ومركز الدفاع عن المذهب المالكي في بلاد المغرب.

لقد سكن المنصور الزيري بمدينة صبرة المنصورية، حيث بنى بها قصورا جميلة سنة 376هـ / 986م، فكانت للمدينة حسب البكري في ذلك الزمان أكثر من ثلاثمائة حمام عام دون حساب الحمامات الخاصة. فقد زود الفاطميون المدينة بالمياه إذ حفروا لها القنوات لإيصالها، وهيئوا لها المواجل أول الأمر، وبعد ذلك عمدوا إلى إنشاء حنايا معلقة تزود المدينة بالمياه جالبة أياها من أماكن بعيدة، وكان طول هذه الحنايا المعلقة ستة وثلاثون كيلومترا([2]).

وبهذا أكون قد انتهيت من دراسة نشوء العمران الإسلامي وتطوره في بلاد المغرب إلى القول أن مدينة القيروان تعد من الرعيل الأول من المدن التي أسسها قادة الفتح، فهي مدينة هجرة حالها في ذلك حال البصرة، والكوفه، والفسسطاط، وهي في الوقت نفسه أول مدينة إسلامية أسست في بلاد المغرب. بدأت كمعسكر جهادي استغلته القوات الإسلامية للتمركز والراحة وتخزين المئونة والسلاح، وتطورت لتصبح أهم مدينة في بلاد المغرب، ومنارة للعلم ومقصد الطلاب والعلماء.

أنشئت المدينة بعد مرحلة الغارات الأولى لتأكد الفتح الإسلامي، ولتكون رمزا للسياسة الجهادية الجديدة التي اعتمدت إستراتجية الاستقرار في البلاد المفتوحة كأحد أهم ميكنيزماتها، ورغم أن موضع المدينة وموقعها لم تتوفر فيهما الشروط الواجب توفرها في قيام المدن، نظرا إلى أن القيروان أسست في مرحلة مبكرة لم يكتمل فيها بعد فتح بلاد أفريقية بصفة كاملة، ذلك أن المناطق

[1] ــ البكري، المصدر السابق، ص 25 ــ 26

[2] - M. Solignac, op. cit. p 520 et s.
G. Marçais, l'Architecture musulmane d'occident, p 38.

الشمالية الداخلية والساحلية كانت تحت السيطرة البيزنطية، بينما كانت المناطق الغربية تحت السيطرة البربرية. فإن هذا المعسكر المبارك كتب له أن يصبح مدينة، وهذه المدينة ستصبح أم قرى المغرب كله، وعاصمة لأغلب الدول التي تعاقبت على حكمه كاملا أو حكمت أجزاءه الشرقية.

لقد جاء موقع القيروان مشابها لمواقع الكوفة، والبصرة، والفسطاط، وقد نجسد هذا التشابه في نقاط عديدة نذكر منها: أن أرضيته مستوية مع بعض الارتفاع، وأن بيئته صحراوية، كما أنه قريب من المحطب والمرعى، مفتوح على الريف، صحي الهواء، وغير موبوء، وهي شروط توفرت في المدن السالفة الذكر. لكنه قليل الماء والمطر، مما جعل حكام المدينة لا يدخرون جهدا في سبيل تنمية مصادرها المائية، فعملوا على إنشاء العديد من المنشآت المائية التي انتشرت في ريف المدينة لتزويد حقوله بمياه الري، وسهروا على تزويد أحوازها بالماء الشروب لتلبية حاجة سكانها من هذه المادة الحيوية، مما دفع بالجغرافيين العرب إلى تسمية القيروان بمدينة المواجل.

ورغم أن المدينة أسست في الشريط السهبي الذي لم تعمر منه إلا أجزاء قليلة أثناء العهد البيزنطي الروماني، إلا أنها استفادت استفادة كبيرة من التبادل التجاري الدولي الذي كان يتم ما بين المشرق والمغرب لأنها كانت تمثل إحدى أهم ملتقيات طرقه. وقد ساعد هذا أهل القيروان على تطوير الكثير من الحرف التي جعلوا منها رافدا من روافد اقتصاد المدينة وعملوا على توفير الخدمات بها.

لقد سار مؤسسو القيروان على خطى الرسول صلى الله عليه وسلم في تخطيطه للمدينة المنورة، واستأنسوا بوصايا الخلفاء الراشدين من بعده، فخصص مركزها للجامع ودار الإمارة، وجاءت الأحياء والخطط ملتفة حول هذا المركز تاركة بينها مكانا وسطيا خصص للأسواق.

لم تحصن المدينة في أول أمرها، ولم تعرف بناء سور لها إلا في عهد القائد ابن الأشعث شأنها في ذلك شأن بقية مدن الهجرة.

لعبت القيروان دور منارة أشاع في شتى ميادين الحياة اليومية ومجالاتها، فانعكست تأثيراتها على مختلف مناطق بلاد المغرب، فأصبحت بذلك المثال العمراني والتعميري الذي ستنشأ على غراره العديد من المدن التي ستؤسس في

هذه المنطقة كفاس، وسجلماسه، وتيهرت، إلخ....

الفصل الخامس

عمران سجلماسة (الفترة المدرارية)

تمهيد

أولا : اختيار الموقع

ثانيا : تأسيس مدينة سجلماسة

ثالثا : مواد البناء

رابعا: اليد العاملة

خامسا: تغطية احتياجات المدينة بالمياه

سادسا: الموارد الزراعية والرعوية

سابعا : الاقتصاد البدوي

ثامنا : التجارة

تاسعا : الإشعاع الثقافي

تمهـــيد:

من المهم جدا الإشارة قبل الدخول في موضوع دراسة العمران الخارجي الزناتي الصفري، القول أن تاريخ بنو مدرار وتاريخ عمران مدينة سجلماسة، لم يحظــيا إلا بالقليل من الدراسات الحديثة، حيث لا تزيد عن كونها إشارات بسيطة تناولت بعض الجوانب من المدينة وعمرانها. نشرت هذه الدراسات في بعض المجلات العلمية، وقد امتازت بكونها في أغلب الأحيان ناقصة التحليل، لكن اعتمادا على ما جاء في المصادر العربية يمكن القول أن المذهب الخارجي انتشر أول أمره خارج مدن بلاد المغرب، وقد أشارت بعض المصادر والدراسات الحديثة إلى انتشاره انتشارا واسعا في المناطق الريفية منه ([1])، ومن الثابت أن المناطق الجبلية الوعرة، والسهوب، والصحاري، كانت دائما وأبدا في أغلب أوقات تلك الحقبة من الزمن خاضعة للنفوذ الخارجي.

يرجع المؤرخون ظهور الخوارج في بلاد المغرب إلى بداية القرن الثـــاني الهجري، عندما أوفد الإمام أبو عبيدة مسلم أحد أبرز طلبته إلى هذه المنطقة لنشر المذهب الإباضي بعدما أدرك صعوبة نشره في بلاد المشرق لإحكـــام الـــدولتين الأموية والعباسية قبضتهما على الحكم. وقد لاقى هذا المذهب إقبالا كبيـــرا مـــن طرف القبائل البربرية، مما شجع دعاة الإباضية في المشرق على الهجرة إلى بلاد المغرب لنشر مذهبهم ومحاولة الاستيلاء على الحكم فيها. وقـــد تـــوج نشـــاطهم السري بمبايعة أبي الخطاب إمامـــا، وإعـــلان قيـــام الدولـــة الإباضـــية ســـنة 140هــ/757م قرب طرابلس واستيلائهم عليها. وقد تزامن مع هـــذا الإعـــلان، تأسيس فرقة الخوارج الصفرية لعاصمتهم سجلماسة في أقصى منطقة من الجنوب الغربي لبلاد المغرب.([2])

لقد كان الخوارج يتحكمون في أغلب المناطق الإستراتيجية ببلاد المغرب، فهم متمكنين من مسالك المرور الطبيعية التي تربط بين مناطق المغرب المختلفة،

---

[1]- ابن عذاري، البيان، ج1، ص 53. أبو زكريا، كتاب سيرالأئمة، ص176. عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب، ص449.

L. Golvin, le Maghreb central à l'époque des Zirides, Recherches d'Archéologie et d'Histoire, Paris, p 31.

[2]- سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب، ص 253.

أي المناطق السهلية والمستوية ([1]) ذات النسيج العمراني المركز، والتي كانت في أغلبها على المذهب السني([2])، والمناطق الشاسعة التي يتحكم فيها الخوارج علـــى اختلاف فرقهم، علما أن الخوارج ينقسمون إلى فرقتين رئيسيتين هما:

– **الإباضية:** وقد تميزت بكونها الفرقة الغالبة على سكان المغرب لكونها متسامحة. انتشرت هذه الفرقة في مناطق الهضاب العليا الغربية، وفي المناطق الجبلية كجبال نفوسة والجبل الأخضر بليبيا، ومنطقة نفزاوة والجريد بتونس، والأوراس بالجزائر([3])...الخ.

– **الصفــرية:** وهي تمثل أكثر المذاهب تطرفا من الناحية الفكرية، إلا أنها سرعان ما عدلت عن هذا الموقف لتصبح هي الأخرى متسامحة عندما تمكنت من تكوين دولتها. وقد انتشر هذا المذهب عموما، في بلاد المغرب الأوسط والأقصى، وتحديدا في المناطق النائية كالصحاري والجبال، ونحن في هذا الفصل سنحاول دراسة عمران الخوارج الصفرية، الذي تمثله عاصمة بني مدرار مدينة سجلماسة.

أولا - اختيار الموقع وأسبابه:

لقد كانت الإمارات الصغيرة، التي برزت إلى الوجود في بلاد المغرب، نتيجة مباشرة للسياسة الجائرة التي انتهجها خلفاء بني أمية بدمشق، الأمر الذي جعل الكثير من أتقياء المسلمين، يعتبرونهم منحرفين عن تعاليم الإسلام ومبادئه القائمة على العدل والمساواة والشورى. كل هذا أدى إلى ظهور جماعة تبنت مذهبا جديدا عرف فيما بعد بمذهب الخوارج. لم تجد هذه الجماعة أمامها وسيلة للجهر بدعوتها إلا الانطلاق بها إلى بلاد المغرب، بعد أن أدركت صعوبة نشره في بلاد المشرق الإسلامي.

تمركز البربر الذين أقبلوا على مذهب الخوارج في مواقع أقل ما يمكن أن يقال عنها أنها: غنية بالثروات الطبيعية مثل نكور وتلمسان على سواحل البحر الأبيض المتوسط، وكذلك الموقع الذي اختاره البرغواتيون لأنفسهم في السهول الأطلسية، وإذا كانت التجمعات البشرية السالفة الذكر قد استقرت في مواضع

---

[1]- Chikh Bekri, le Harigisme berbère, quelques aspects du royaume Rustumide, A. I. E.O, t XV, 1957, p 64 et s.

[2]- B. Zerouki, l'Emirat de Tähert, premier Etat musulman du Maghreb, Histoire et perspectives méditerranéennes, 1987, p 4.

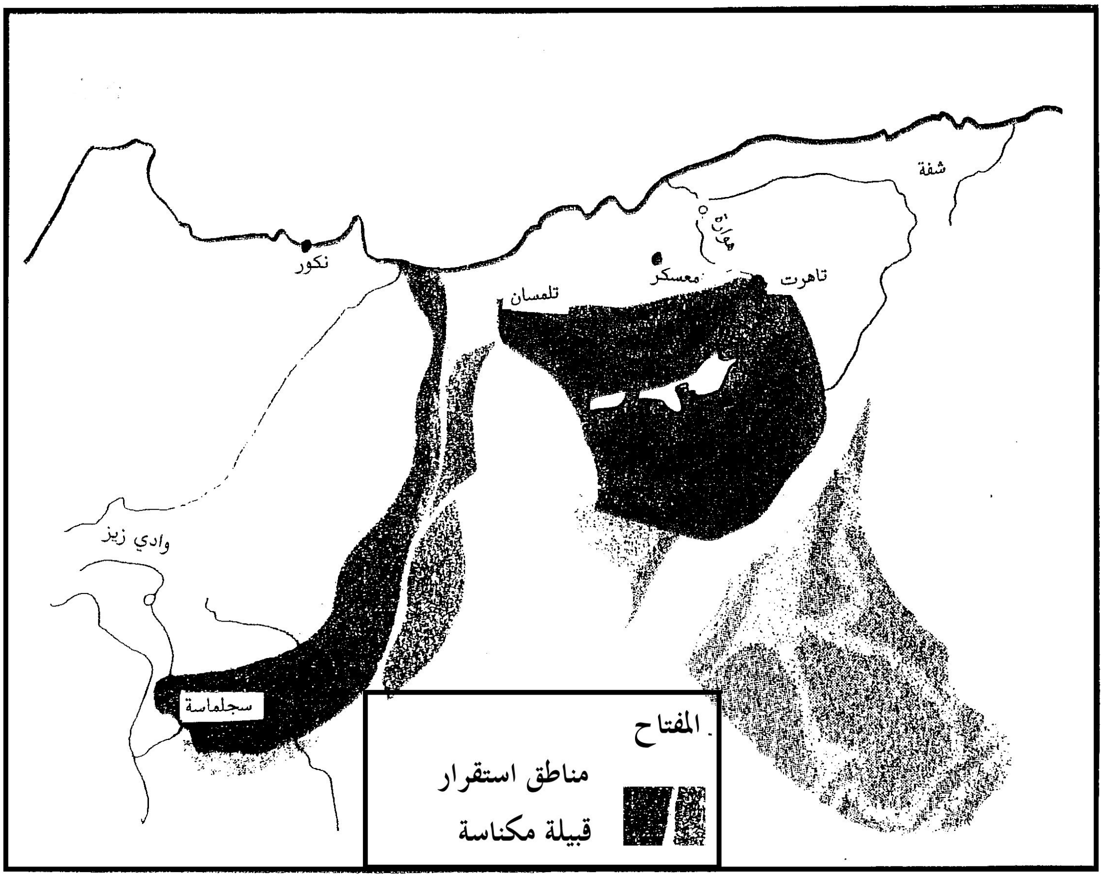
[3]- M. Vonderheyden, la Berbérie orientale sous la dynastie des Banou'l-Arlab 800- 909, Paris, 1927, p.46

قريبة من البحر، فإن قبيلة مكناسة بقيادة أميرها أبو القاسم سمغو، لجأت إلى المناطق البعيدة الواقعة خلف سلسلة جبال الأطلس، لتؤسس إمارتها ابتداء من سنة 140هـ/757م. هذه الإمارة التي تداول على حكمها بنو واسول إلى أن ظهر الفاطميون بالمنطقة. **(خريطة رقم24)** وقد استطاعت هذه الإمارة الخارجية، رغم قساوة مناخ المنطقة من الصمود والتوسع والتطور أيضا.

وإذا كان اختيار الموضع، كما جرت العادة في المدن الإسلامية، يخضع لشروط معينة [1]، تلتقي كلها حول هدف واحد هو أهمية الموضع من جميع نواحي الحياة اليومية، فإننا نعتقد منذ الوهلة الأولى، أن اختيار قبيلة مكناسة لهذا الموقع يكون قد جاء عن طريق المصادفة، إذا أخذنا بعين الاعتبار الطبيعة الجغرافية المحيطة به، ولكن إذا نظرنا إلى طبيعة الحياة التي أعادتها القبائل المؤسسة لسجلماسة، فربما يعود اختيارها لموقع المدينة إلى وجود الماء، والظروف الملائمة التي تتماشى وحياتها اليومية. الأمر الذي دفعها إلى الاستقرار به. كما لا يمكن أيضا، أن نغفل ما للموقع من أهمية تجارية ومكانة إستراتيجية، بحيث كان يوجد على الطريق التجاري الرابط بين الصحراء وشمال بلاد المغرب، والذي بدأ يعرف منذ تلك الفترة نشاطا اقتصاديا هاما، حتى أصبح يمثل أهم نقطة عبور للقوافل التجارية بين المغرب وبلاد السودان.

---

[1] – جاء عند ابن الربيع حول الشروط الواجب توفرها في اختيار موضع المدينة الإسلامية،"سعة المياه المستعذبة، وإمكان الميرة المستمدة، واعتدال المكان وجودة الهواء، والقرب من المرعى والاحتطاب، وتحصين منازلها من الأعداء والذعار، وأن يحيط بها سور يعين أهلها". المصدر السابق، ص 118



خريطة رقم 24: مناطق استقرار قبيلة مكناسة عن(إبراهيم زروقي بتصرف)

1 – العوامل السياسية:

لقد عرف الجزء الشمالي من المغرب، ظهور مجموعة من الإمارات الصغيرة التي استقرت في المجال الجغرافي الممتد ما بين البحر وسلسلة جبال الأطلس. في حين بقي المجال الجغرافي (الشبه الصحراوي) الممتد جنوبا وراء سلسلة جبال الأطلس خاليا من التجمعات السكانية إلى غاية قيام إمارة بني مدرار. ونعتقد أن هذا الأمر سمح لقبيلة مكناسة من الاستقرار به وإنشاء إمارتها، ذلك أن هذا المجال الجغرافي الواسع، الذي تحده من الجهة الشمالية سلسلة جبال الأطلس، ومن الجهة الجنوبية الصحراء الكبرى ([1])، ولا تقصده إلا القبائل البدوية التي لا تستقر في موضع معين. كان محميا طبيعيا، بحيث لا يمكن الوصول إليه من الجهة الشمالية إلا عبر الممرات الضيقة والصعبة في نفس الوقت، التي تخترق سلسلة جبال الأطلس، أما من الجهة الجنوبية فتمثل الرمال الصحراوية حاجزا طبيعيا، يحول دون وصول الغزاة إلى الموضع بسهولة، وقد جاء هذا الموقع في منطقة بعيدة عن الاضطرابات، التي كانت تعرفها إفريقية بين الخوارج والجيوش العربية مما جعل المدينة الناشئة في مأمن من كل الأخطار التي قد تستهدفها ([2]).

إذن من خلال العرض السابق، يظهر أن هذه الجهة لها مكانة إستراتيجية تسمح لقبائل مكناسة بالنشاط السياسي فيها بعيدا عن النفوذ الأموي. هذا النشاط الذي يهدف أساسا إلى إنشاء دولة خارجية لها عاصمة، تكون بمثابة القاعدة الأولى لنشر مذهب الخوارج الصفرية في بلاد المغرب، وضمان ديمومته، بحكم بعدها عن مراكز التنافس المذهبي، بين القبائل التي كانت تتخذ من المناطق الشمالية خاصة مواقع لها، تتبادل فيها الأدوار وفقا للمذاهب الدينية المسيطرة أو مسايرة لامتداد نفوذ الدول الإسلامية.

2 – العوامل الاقتصادية:

---

[1] – البكري، المصدر السابق، ص 39، 116

اليعقوبي، البلدان، ص 150.

[2] – الاصطخري، المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال الحين، القاهرة، 1961، ص 34

إذا كان النشاط السياسي ضرورة حتمية لقيام الدول، فهو وحده لا يعتبر كافيا لنشأة المدن، بل ربما يعتبر عاملا مكملا لعوامل أخرى تعد ضرورية، إن لم نقل أساسية مثل العوامل الاقتصادية التي يقوم عليها النشاط التجاري للمدينة. وإذا كان موقع مدينة سجلماسة قد ارتبط كما رأينا بالجانب الأمني، فهو أيضا يخضع لمتطلبات المعيشة اليومية للقبائل البدوية التي تعتبر أن الماء والمراعي الخصبة شغلها الشاغل.

لقد اعتاد هؤلاء الرحل وعلى رأسهم أبو القاسم سمغو، إلى رعي مواشيهم في ناحية سجلماسة، ([1]) كما كان هذا الموقع والمواقع المحيطة به، مقصدا لبعض القبائل السودانية التي كانت أيضا تمتلك مواشي كثيرة، حيث وجدت في هذه المناطق المراعي الكافية التي تلبي حاجيات قطعانها من المواشي مما دعاهم إلى الاستقرار بهذه الجهة.

وإذا كانت طبيعة الموقع قاسية مقارنة ببعض المناطق الأخرى مثل سهول السوس، فإن وفرة المياه التي تعتبر ضرورة ملحة للحياة البشرية والحيوانية والنباتية على السواء، قد جعلت من الموقع مكانا مؤهلا في نظر قبائل مكناسة للاستقرار فيه، ولتأسيس مدينة، سرعان ما دفعتها العوامل الطبيعية التي يتوفر عليها الموقع إلى النمو والتطور السريع في شتى جوانب الحياة اليومية.

ولا يمكن ونحن نتكلم عن العوامل الاقتصادية، أن نغفل ما للتجارة من دور لا يستهان به في نشأة المدينة وتطورها. ذلك أن موقع مدينة سجلماسة كان يتوسط طريق التجارة الرابط بين الشمال والجنوب (أي بلاد السودان). وإن كان من الصعب الخوض في هذا الموضوع، والخروج بفكرة واضحة حول وضعية التجارة الصحراوية في تلك المنطقة وفي تلك الفترة بالذات، نظرا للصمت الذي ميز المصادر التاريخية والجغرافية الوسيطية حول هذه النقطة، إذ أن ما كتب حولها لا يزيد عن إشارات بسيطة مستقلة، كتبت على هامش بعض الأحداث التاريخية. فأبن عبد الحكم مثلا أشار إلى قافلة تجارية ناجحة قادتها شخصية تدعى

---

[1] – البكري، المصدر السابق، ص149

عبيد الله حبيب الفهري إلى كل من منطقة السوس وأرض السودان وعادت من هذه المناطق محملة بكميات كبيرة من الذهب والعبيد ([1]).

وقد تحدث البكري أيضا عن الأعمال التي قام بها حاكم إفريقية عبد الرحمن بن حبيب الفهري أثناء ولايته(127-137هـ/ 744-754م)، حيث أشار إلى سلسلة الآبار التي حفرها عبر الطريق التجارية الصحراوية المؤدية إلى بلاد السودان ليجعلها أكثر أمنا ويسرا على سالكيها، منها بئر الجمالين التي تفصل بينها وبين تامدلت مرحلة من السير، أما البئر الثانية فتقع هي بدورها أيضا على بعد مرحلة من السير من تازجي، أما البئر الثالثة فتسمى ويطونان([2])، ولم يشر البكري إلى موقعها بالضبط مثل البئرين السابقتين،وإن كان قد أشار إلى أن هذه الآبار حفرت في خط موازي لخط شاطئ المحيط الأطلسي.

أما في القرن الثاني الهجري (التاسع الميلادي)، فقد أشار اليعقوبي إلى العلاقات التجارية التي كانت تربط سجلماسة بأرض السودان، حيث جاء على حد تعبيره: " ومن سجلماسة لمن سلك متوجها إلى القبلة يسير في مفازة وصحراء مقدار خمسين رحلة ثم يلقاه قوم يقال لهم أنبية من صنهاجة في صحراء ليس لهم قرار شأنهم كلهم أن يتلثموا بعمائمهم سنة فيهم ولا يلبسون قمصا إنما يتشحون بثيابهم ومعاشهم من الإبل ليس لهم زرع ولا طعام ثم يصير إلى بلد يقال له غسط وهو واد عامر فيه المنازل وفيه ملك لهم لا دين له ولا شريعة يغزو بلاد السودان وممالكهم كثيرة " ([3]).

وقد أشار الجغرافيون العرب القدماء مثل ابن خرداذبة ([4])، والبكري([5])، والإدريسي ([6]) إلى وجود منجم نحاس قرب مدينة سجلماسة، وتحدثوا عن التبادل التجاري الذي كان يتم بين سجلماسة ومدن الساحل السوداني، التي كانت تستقبل

---

[1] - ابن عبد الحكم، فتوح أفريقية والأندلس، بيروت، 1964، ص94

[2] - البكري، المصدر السابق،ص ص 156- 157

[3] - اليعقوبي، المصدر السابق، ص 115

[4] - ابن خرداذبه، المسالك والممالك، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1988،ص 82

[5] - البكري ، المصدر السابق، ص156

[6] - الإدريسي، كتاب نزهة المشتاق، ص 38

المنتوجات المعدنية القادمة من سجلماسة وتصدر إليها بعض المنتجات المحلية.

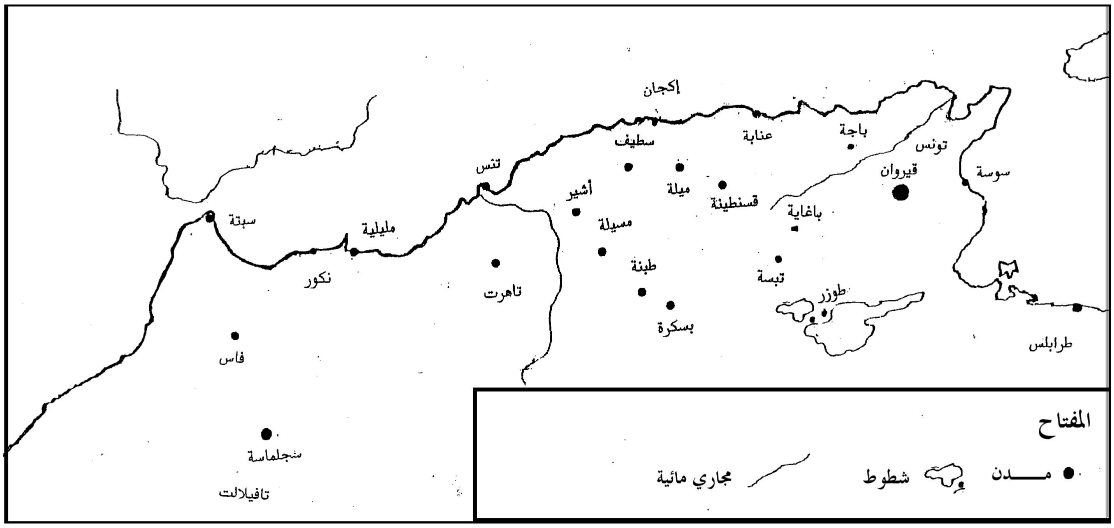
وإذا كانت هذه الإشارات التي تعيدنا إلى بداية القرن الثاني الهجري، تدل على عدم إغفال سكان منطقة سجلماسة ما في باطن الأرض من خيرات تزخر بها المنطقة، فإن الاستغلال الفعلي لهذه المناجم المعدنية تزامن وقيام دولة الأدارسة والإمارات الخارجية على الأقل. ([1])

يبدو مما سبق أن اختيار موقع مدينة سجلماسة في هذه المنطقة الخاضعة لقبيلة مكناسة، لم يأت اعتباطا أو عن طريق المصادفة كما يبدو للدارس منذ الوهلة الأولى، وإنما جاء عن قصد وذلك للأسباب التالية:

- إن منطقة تافيلالت كانت من الوجهة السياسية أرضا بكرا لم تخضع لنفوذ الدول الإسلامية، ولم تعرف استقرار أي قبيلة مغربية، أضف إلى هذا أنها كانت بعيدة عن القيروان مقر الحكام الممثلين للخلافة الإسلامية، مما يوفر كل شروط الأمن والاستقرار لقبيلة مكناسة. **(خريطة رقم25)** وقد زاد من أهمية هذا الموقع ما يحتويه من الموارد الطبيعية كالماء والأرض الخصبة والمراعي الواسعة، مما شجع على القيام بالنشاطات الاقتصادية الأولى المعتمدة على تربية المواشي وزراعة الأرض، وهي عادة ما كانت تمثل الموارد الاقتصادية الأولى التي يبني عليها اقتصاد المدن الناشئة. هذا دون أن تفوتنا الإشارة إلى ما للموقع أيضا من مكانة إستراتيجية بالنظر إلى وقوعه في مفترق طرق بين منطقتين شاسعتين، الأولى صحراوية والثـــانية تلية. مما أهله ليكون نقطة عبور مختلف القوافل التجارية المحملة بمختلف السلع والبضائع فيزيد المدينة أهمية ويرفع من شأنها بين بقية المدن المغربية الأخرى، ويجعلها مقصدا لمختلف طبقات المجتمع على اختلاف اهتماماتهم من المدن الأخرى، قصد تلبية حاجاتهم المادية والمعنوية.

---

[1] - ابن خرداذبه، المصدر السابق، ص82



خريطة رقم 25: موقع سجلماسة البعيد عن القيروان   من إعداد الطالب

3- الموقع:

توجد مدينة سجلماسة في مركز سهل تافيلالت الكبير([1]) تحيط بها الجبال، وهي على ارتفاع يتراوح ما بين 500 و 1000متر فوق سطح البحر، قريبة من سلسة جبال الأطلس([2])، وهذه المنطقة توجد بها العديد من المدن والخربات نلاحظها على الطريق الرابط بين مدينتي مكناس وريساني، والذي يحاذي وادي زيز الذي ينحدر في اتجاه الصحراء.

هذه الطريق التي تحدث عنها الجغرافيون العرب والتي كانت تربط بين فاس وسجلماسة اللتان تقعان في منطقتين مختلفتين من حيث المناخ والإنتاج الزراعي.

لقد كانت مدينة سجلماسة نقطة ربط، ما بين المنتوجات الزراعية لمناخ البحر الأبيض المتوسط، الممطر شتاء، والجاف صيفا، والمناخ الصحراوي الجاف عموما، وهي تمثل أيضا نقطة وصل بين إنتاج المزارعين المقيمين، وإنتاج البدو الرحل المتنقلين.

فالمدينة مفتاح للطرق الرابطة ما بين الشمال بمناطقه الجبلية المتداخلة كجبال الأطلس، وبهضابه العليا، وحمادته كحمادة الكامكام والطاوس، والمناطق السهبية والصحراوية، هذا الأمر يجعلها تسيطر على أهم المسالك الطبيعية الرابطة ما بين المناطق الشمالية الشرقية والجنوبية الغربية من المغرب الأقصى. وقد أعجب الكثير من الجغرافيين العرب بموقع المدينة المتحكم في طرق الناحية، فهذا ابن فضل الله العمري يقول عنها أنها مدينة تقع في آخر البلاد المسكونة لا يوجد جنوبها مدينة، فهي باب الصحراء المؤدي إلى بلاد السودان الغنية بالذهب([3]). وقد أجمعت المصادر على وصف مدينة سجلماسة بكونها نقطة التقاء وربط، ما بين العالم الإسلامي عموما، والمغرب الإسلامي خصوصا، بالعالم الإفريقي عموما وبالممالك جنوب الصحراء على وجه التحديد. (**خريطة رقم 26**) فإلى هذه المدينة يمتد الطريق الهام الذي اشتهر بطريق الذهب، والذي كانت تقطعه القوافل

---

[1]-E.Mercier, Sijilmassa selon les auteurs musulmans, in <u>revue Africaine</u>, 1963, p 234.
[2] - L. Golvin, op. cit. p 337.
[3]- البكري، المصدر السابق، ص 148. وأنظر أيضا ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، المجلد الأول، معهد تاريخ العلوم العربية، فرانكفورت، مطبعة شتراوس، هيرشبرج، 1989، ص 350

الكبيرة المحملة بالمواد المغربية المصنعة، والملح، والعائدة بالمواد الإفريقية المختلفة من ريش النعام، وبخور، وعاج، وتبر، إلى غير ذلك من المواد.

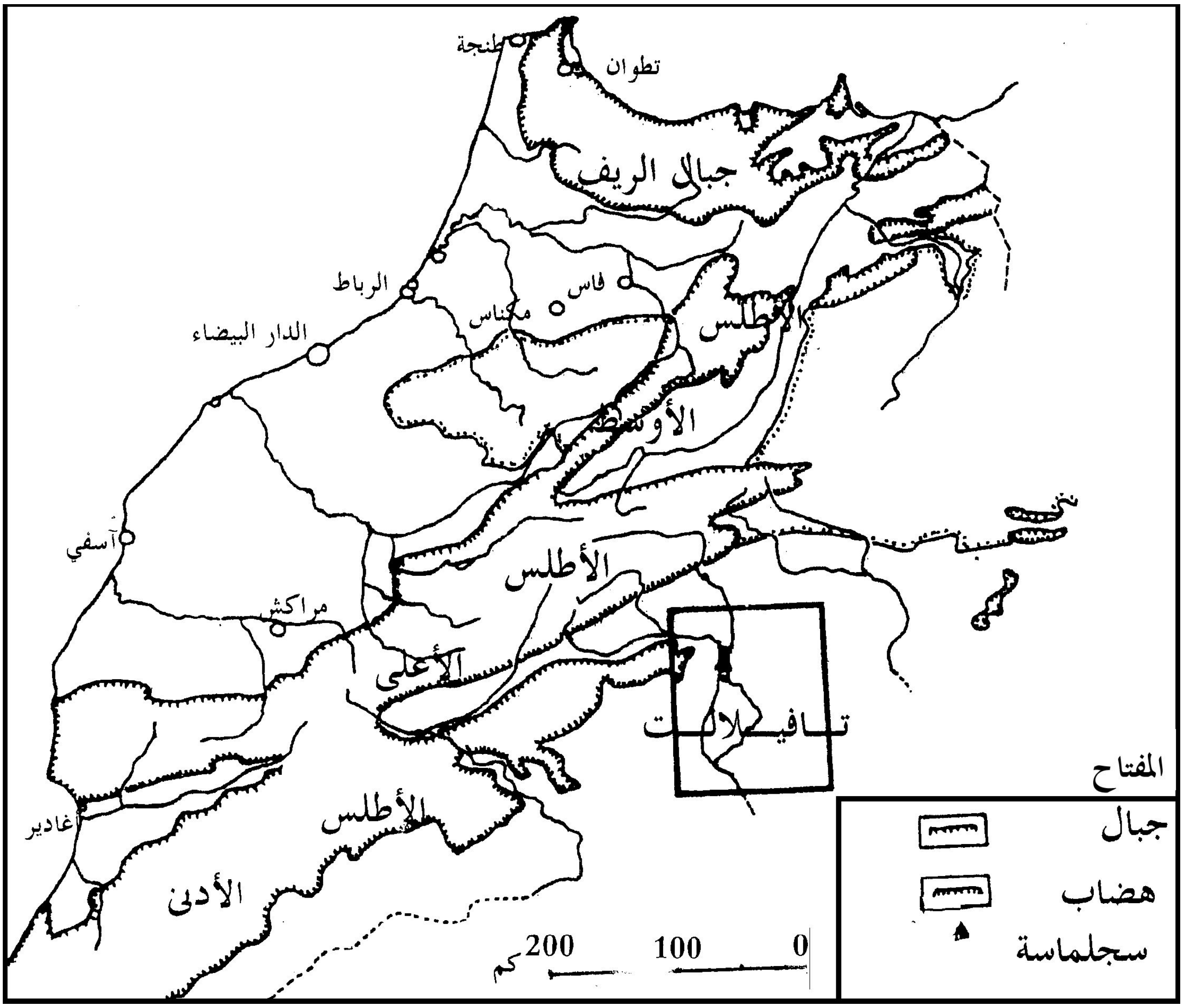
تستقبل مدينة سجلماسة هذه المواد الإفريقية لتصدرها إلى فاس، وتلمسان، وتيهرت، والقيروان، في المرحلة الأولى. وقد توسعت دائرة تصدير هذه البضائع لتشمل في القرن العاشر مدينة أشير، وقلعة بني حماد، وامتدت فيما بعد لتشمل أيضا، مدينة بجاية. وكانت هذه المدن بدورها تعيد تصديرها إلى مختلف مدن العالم عبر موانئها، أي إلى مدن أوربا والمشرق الإسلامي والمسيحي. وكانت هذه القوافل عادة ما تستغرق في طريقها من خمسة أيام إلى ستة أيام للوصول من سجلماسة إلى مطماطة عبر أمسكور، وورزازات. أما الطريق إلى فاس فكانت مدته ثمانية أيام في أحسن الأحوال، وللوصول إلى أغمات كانت القافلة تقضي في طريقها من إحدى عشر إلى أثني عشر يوما، ولابد للقافلة من قضاء تسعة وأربعين يوما للوصول إلى مدينة القيروان.

ثانيا- تأسيس مدينة سجلماسة:

لقد كونت القبائل الصفرية إمارة بني مدرار، وأسسوا مدينة سجلماسة عاصمة لدولتهم، ورغم قلة المعلومات حول الشخصيات التي أسست المدينة، وحول المدينة نفسها، وتضارب المعلومات أحيانا([1])، فإن العديد من المصادر الجغرافية والتاريخية العربية تؤكد أن هذا التأسيس جاء نتيجة لكون المنطقة التي أسست فيها المدينة منطقة بعيدة، تفصلها الحواجز الطبيعية ([2]) عن مدينة القيروان عاصمة بلاد المغرب آنذاك، والتي كانت تمثل مركز الخلافة الإسلامية ببلاد المغرب.

[1]- Ch. André Julien, histoire de l'Afrique du nord, Tunisie - Algérie- Maroc tII, de la conquête arabe à 1830, 2) éd. Paris, 1964, p.39

[2] – السلاوي، الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى، ج2، الدار البيضاء، 1950، ص 111



خريطة رقم 26: موقع سجلماسة من المغرب الأقصى من إعداد الطالب

إن بعد هذه المدينة عن المجال الجغرافي الذي يسيطر عليه الأغالبة جعلهم لا يفكرون في الوقوف ضد مؤسسيها، بل أن الدولة الرستمية ستصبح في مرحلة لاحقة حاجزا بين دولة بني مدرار، والدولة الأغلبية، تحول دون وصول قوات هذه الأخيرة إلى منطقة الجنوب الغربي من المغرب.

ثم إن الخوارج الصفرية بتآلفهم وتماسكهم وتوحد قبائلهم تحت المذهب الصفري تمكنوا من تأسيس هيئة اجتماعية أدت إلى ظهور دولتهم سياسيا على الساحة المغربية بالدرجة الأولى، ثم تجسيدها في الواقع بتأسيس مدينة سجلماسة كعاصمة لها([1]).

وقبل الحديث عن تأسيس هذه الدولة وعن عاصمتها، لابد من التطرق إلى أهم القبائل البدوية التي ساهمت مساهمة فعالة في إنشاء مدينة سجلماسة وإلى أهم الشخصيات التي أدت دورا مهما أيضا في إرساء قواعد مدينة سجلماسة.

1- القبائـــل:

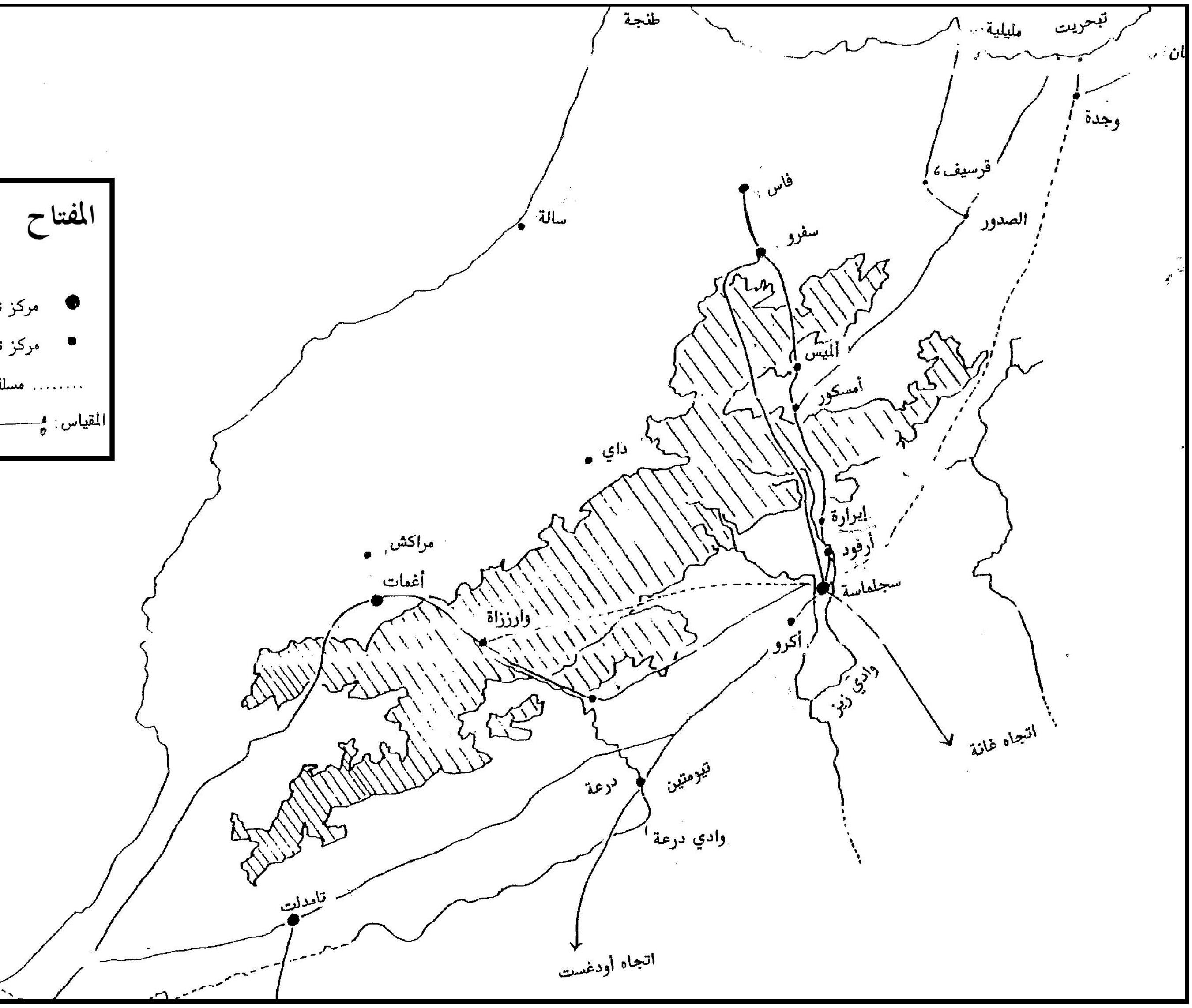
لقد دخلت العديد من القبائل البربرية في المذهب الصفري لأسباب مختلفة وقد اتفقت المصادر العربية على أن تأسيس هذه الدولة جاء عن طريق هذه القبائل البدوية التي وطدت مبادئ الدين الإسلامي بهذه المنطقة([2]). كان على رأس هذه القبائل، قبيلة مكناسة التي أدت دورا بالغ الأهمية([3]) في تجسيد حلم الخوارج الصفرية في تأسيس دولتهم. **(خريطة رقم27)** ونحن هنا لسنا بحاجة إلى الحديث بالتفصيل حول المجال الحيوي الذي كانت تنشط فيه هذه القبيلة، ولا عن أصلها، ولكن يمكن القول في عجالة أنها قبيلة بترية زناتية، وأن قبيلة زناتة انتشرت فروعها في العديد من مناطق المغرب بدءا من منطقة جبال الأوراس إلى الهضاب العليا والمناطق السهبية إلى المغرب الأقصى، وقد أسست هذه القبيلة العديد من المدن.

---

[1]- L. Mezzine, sur l étymologie du toponyme (Sijilmassa), in Hesperis, 1984, tome XXII, p19 à 25

[2]– البكري، المصدر السابق، ص 143

[3]– ابن خلدون، كتاب العبر، ص 123 – 124



خريطة رقم 27: موقع سجلماسة كنقطة التقاء بين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء عن(مخلوفي

لقد إستوطن فرع مكناسة في المناطق الجنوبية الشرقية من بلاد المغرب الأقصى، ولعب دورا هاما في الثورات الخارجية، وخاصة ثورة ميسرة السقاء([1]) سنة **120هـ/737م**، وبعد هذه الثورة الدامية التي أتت على الأخضر واليابس توحدت هذه القبائل تحت لواء مذهب الخوارج الصفرية واستقرت بالموضع الذي أسست فيه المدينة، كما سنبينه في هذه الدراسة.

ساهمت طبوغرافية المنطقة بدورها مساهمة إيجابية في تأسيس هذه المدينة، حيث أن سلسلة جبال الأطلس، ونهر الملوية لم يقفا حاجزا طبيعيا منيعا أمام انتشار هذه القبيلة نحو الشمال والجنوب، ذلك أن مضيق تيزي تلغمت كان يمثل المنفذ الأساسي الذي يربط بين المناطق الشمالية ذات الطبيعة الجبلية، والمناطق الجنوبية الصحراوية([2]).

2 – أبوالقاسم سمغو وعيسى بن يزيد الأسود:

لقد لعب أبو القاسم سمغو دورا رئيسيا في تأسيس هذه المدينة، ويبدو أنه من شيوخ المذهب الصفري، وقد تحدث عنه البكري، وابن خلدون بنوع من التفصيل، وفي هذا الصدد يقول البكري:" ومدينة سجلماسة بنيت سنة أربعين وماية وبعمارتها خلت.مدينة ترغة وبينهما يومان وبعمارتها خلت زيز أيضا. ومدينة سجلماسة مدينة سهلية أرضها سبخة حولها أرباض كثيرة وفيها دور رفيعة ومباني سرية ولها بساتين كثيرة وسورها أسفله مبني بالحجارة وأعلاها بالطوب بناه اليسع أبو منصور بن أبى القاسم من ماله لم يشركه في الإنفاق عليه أحد([3])... وملك بنو مدرار سجلماسة ماية وستين سنة وكان فيه أبو القاسم سمغو بن واسول المكناسي أبو اليسع المذكور وجد مدرار لقي بأفريقيه عكرمة([4]) مولى ابن عباس وسمع منه وكان صاحب ماشية وكثيرا ما ينتجع موضع سجلماسة فاجتمع إليه قوم من الصفرية فلما بلغوا أربعين رجلا قدموا على أنفسهم عيسى بن يزيد الأسود

---

[1]– أبن خلدون، المصدر السابق، ص 154– 155

[2]- M. Melloukhi, Sijilmassa, etude d'histoire et d'urbanisme, thèse de doctorat 3è cycle,université de Provence, 1985, p 60

[3]– البكري، المصدر السابق، ص 148

[4]– كان أول من أنطلق بالدعوة لمذهب الخوارج إلى بلاد المغرب حسب أبي زكرياء سلمة بن سعد، وعكرمة بن عبد الله، الذي يرجع إليه الفضل في نشر مذهب الخوارج الصفرية في أوائل القرن الثاني الهجري. أبو زكرياء، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984، ص 15

وولوه أمرهم فشرعوا في بنيان سجلماسة وذلك سنة أربع ومااية وذكر آخرون أن مدرارا كان حدادا من ربضية الأندلس فخرج عند وقعة الربض فنزل منزلا بقرب سجلماسة وموضع سجلماسة إذ ذاك براح يجتمع فيه البربر وقتا ما من السنة يتسوقون لقرب فكان مدرار يحضر سوقهم بما يعده من آلات الحديد ثم ابتنى بها خيمة وسكنها وسكن البربر حوله فكان ذلك أصل عمارتها ثم تمدنت"([1]).

يظهر من نص البكري أن تأسيس المدينة كان من قبل عائلة بنو واسول المكناسية، وهو ما تؤكده بعض المصادر العربية مثل ابن عذاري([2])، وابن خلدون([3])، حيث يؤكد هذا الأخير أن قبيلة مكناسة توحدت حول أبو القاسم بن سمغو بن واسول بن يزيد بن أبي يزول الملقب بمدرار والذي كان حدادا من جالية الربض بقرطبة حسب ما أشار إليه صاحب كتاب الاستبصار([4])، ورغم زعامة هذه الشخصية الفذة وتواترها في المصادر. إلا أن المؤسس الحقيقيي الذي اجتمعت عليه شيوخ الصفرية، كان عيسى بن يزيد الأسود الذي تولى أمر فرقة الخوارج الصفرية لمدة خمسة عشرة سنة، كما يؤكد ذلك البكري([5]).

فعيسى بن يزيد هذا، كان بالفعل أول شيخ لفرقة الخوارج الصفرية، عندما توحدت لتكوين الدولة وتأسيس المدينة، ويبدو أن هذا الرجل غريب عن بلاد المغرب، ذلك أن الصفة التي نعتها به المؤلف (الأسود) تدل على أنه من بلاد السودان تمييزا له عن قبيلة مكناسة ذات البشرة البيضاء، وأنه لو لم يكن أسودا لأرجعه النسابة العرب إلى قبيلته مثلما فعلوا مع أبو القاسم سمغو الذي نعتوه بالمكناسي. أضف إلى هذا أن أغلب دول بلاد المغرب في تلك الفترة التي استقلت عن الخلافة الإسلامية بالمشرق، أسست من طرف شخصيات دينية مرموقة جاءت من بلاد الشرق الإسلامي، فالدولة الرستمية أسست من طرف عبد الرحمان بن رستم، الذي يرجع نسبه إلى بلاد فارس. أما الدولة الإدريسية فقد أسسها إدريس

---

[1]- البكري،المصدر السابق، ص 149

[2]-ابن عذاري المراكشي،البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج1،تحقيق ج. س. كولان و إ. ليفي بروفنسال، الطبعة الثانية، 1980، ص 156

[3]- ابن خلدون، المصدر السابق، ص 155

[4] - الاستبصار، ص 201

[5] - البكري، المصدر السابق، ص 149

الأول وهو علوي قرشي، فليس من الغريب إذا أن تؤسس دولة بني مدرار من طرف شخصية مرموقة سودانية الأصل([1])، خاصة وأن هذا لا يتنافى والشروط الواجب توفرها، في من يتبوء منصب الخلافة عند الخوارج، ذلك أنهم متفقون في مذهبهم على أن يكون الخليفة من عامة المسلمين، وليس من قريش كما يريده أهل السنة، ولا من نسل سيدنا علي كما تراه الشيعة.

عرفت المنطقة الغربية من المغرب، تأسيس أول مدينة إسلامية في منطقة شبه صحراوية على يد الخوارج الصفرية، وإذا كان تاريخ تأسيسها ما زال يشوبه بعض الغموض، لتضارب آراء المؤرخين والجغرافيين حوله، فإن تطور عمرانها ما زال غير واضح المعالم بسبب ندرة المعلومات حولها في المصادر التاريخية والجغرافية عموما وعدم دقتها أحيانا، وقلة الدراسات العمرانية الحديثة التي تناولت نمو هذه المدينة.

تشير أغلب المصادر التاريخية الوسيطية، والدراسات الحديثة، إلى أن تاريخ تأسيس مدينة سجلماسة يرجع إلى سنة **140هـ/ 757-758** م، وإذا استثنينا مدينة نكور حاضرة بني صالح، واعتبرنا أن التاريخ المشار إليه سلفا هو التاريخ الفعلي لتأسيس المدينة، فإن مدينة سجلماسة تعد أول مدينة إسلامية أنشئت في العصر الوسيط في منطقة المغرب الأقصى، ذلك أن أهم مدن هذه المنطقة من المغرب الكبير مثل فاس ووجدة ومراكش أسست في مراحل لاحقة.

وإذا كانت أغلب المصادر التي أوردت خبر تأسيس مدينة سجلماسة، تتفق على تاريخ واحد لتأسيس هذه المدينة، إلا أن هناك تباين في وجهات النظر بين المؤرخين في تحديد تاريخ تعمير هذه المدينة، فهذا البكري مثلا الذي يعد كتابه من المصادر الجغرافية المهمة للقرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) يورد ثلاثة تواريخ مختلفة لتأسيس المدينة:

التاريخ الأول يرجع فيه تأسيس المدينة إلى سنة **140هـ/ 757** م.

أما الثاني فيعيدها إلى سنة **104 هـ/ 722** م.

أما التاريخ الثالث فيرجع فيها تاريخ التأسيس إلى فترة نزوح الثوار

---

[1] - يتفق البكري، وابن عذاري، وابن خلدون، وصاحب كتاب الاستبصار،على أن هذا الشيخ كان أسود البشرة.

القرطبيين عقب وقعة الربض من الأندلس واستقرارهم ببعض مناطق المغرب، أي إلى سنة **202 هـ/ 818 م**.([1])

أما ابن الخطيب الغرناطي ([2])فإنه يرى أن مؤسس المدينة هو عيسى بن يزيد الأسود الذي استقر في سهل سجلماسة وأحاطت به العديد من القبائل التي بايعته أميرا لها.

ويذهب القلقشندي أيضا إلى أن تاريخ تأسيس مدينة سجلماسة يرجع إلى سنة **140هـ/ 757م**([3])، والحقيقة أنه إذا أمعنا النظرفي التواريخ السالفة الذكر، فإننا نميل إلى التاريخ الأول الذي ذكره البكري للأسباب التالية:

- إن جل المصادر التاريخية القديمة والدراسات الحديثة تجمع على أن تاريخ **140هـ / 757 م** هو السنة التي أسست فيها المدينة.

إن هذا التاريخ يتناسب وانتفاضة الخوارج الصفرية من جهة، ومن جهة ثانية، يسبق بقليل تاريخ تأسيس مدينة تيهرت، التي تعتبر الحاضرة الثانية للخوارج والتي يرجع تاريخ تأسيسها إلى سنة **144 هـ/761م**، عقب فرار عبد الرحمن بن رستم من القيروان وتنظيم جماعته واستقراره في تيهرت مؤسسا بها مدينة تيهرت الجديدة.

لقد تمكن هذا الرجل من جمع فروع هذه القبائل وتوحيدها، واستبدال عصبياتها التي كانت ترى فيها كل قبيلة هدفها الأسمى، إلى أخوة جمعت شمل هذه القبائل في إطار المذهب الصفري. الأمر الذي مكنه من تأسيس هذه المدينة لتكون حاضرة صفرية بالمغرب سنة **140هـ/757 م**.

أما ما ورد من نصوص في المصادر الشرقية حول مدينة سجلماسة، فإنها لم تتحدث عن هذا الموضوع بالتفصيل بل اكتفت بإشارات بسيطة، ربما بلغتها عن طريق الرواية أو نقلا عن بعض المصادر المغربية، ذلك أن هذه المدينة أسست في أقصى القسم الجنوبي الغربي من المغرب الإسلامي. وأول الجغرافيين الذين تحدثوا عن سجلماسة ابن خرداذبه، وابن الفقيه، الذين وصفا منطقة تافيلالت وصفا

---

[1] – البكري، المصدر السابق، ص 148، 149.

[2] – ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج 3، الدار البيضاء، 1964، ص 139، 140

[3] – القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج 5، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1913، ص 163

مختصرا. أما اليعقوبي فإنه لم يتحدث عن تاريخ تأسيس المدينة، وكذلك الحال بالنسبة لابن حوقل، وياقوت الحموي، وأبو الفداء، ومع هذا كله فإننا نجد بعض التفاصيل عن موضوع تأسيس المدينة عند القلقشندي، والحميري، اللذان اتفقا على تاريخ التأسيس، واختلفا في ذكر اسم المؤسس، فالأول يرجع تأسيس المدينة إلى عيسى بن يزيد الأسود، أما الثاني فإنه يرى أن مؤسس المدينة هو مدرار بن عبد الله. هذا عن الجغرافيين العرب القدامى، أما عن المؤرخين المغاربة، فقد وردت في كتبهم أخبارا مفيدة تدعونا إلى الوقوف عندها. فهذا الحسن الوزان – الذي ولد في غرناطة([1]) وهاجر إلى فاس وزار مدينة سجلماسة ومكث بها فترة من الزمن– يشير إلى المدينة بنوع من التفصيل حيث وصفها بقوله:"إن مؤسس هذه المدينة –حسب بعض مؤلفينا– قائد روماني ذهب من موريطانيا فاحتل نوميديا بأسرها، ثم زحف شطر الغرب حتى ماسة، فبنى المدينة وسماها "سجلوم ميسي" لأنها كانت آخر مدن دولة ماسة. ولأنها كانت كالخاتم الذي يسجل نهاية فتوحاته، فحرف الرسم بعد ذلك وتحول إلى سجلماسة.

وحسب رواية أخرى هي في الواقع رواية الشعب ورواية جغرافينا البكري، فان المدينة أسسها الإسكندر الكبير لفائدة المرضى والمعطوبين من جنوده([2]).

بنيت المدينة في سهل على وادي زيز، وأحيطت بسور عال مازالت بعض أجزائه باقية. ولما فتح المسلمون افريقيا خضعت سجلماسة لملوك زناتة إلى أن طردهم يوسف بن تاشفين اللمتوني.كانت سجلماسة مدينة متحضرة جدا، دورها جميلة، وسكانها أثرياء بسبب تجارتهم مع بلاد السودان. وكان فيها مساجد جميلة، ومدارس ذات سقايات عديدة يجلب ماؤها من النهر، تأخذه ناعورات من واد زيز وتقذف به في قنوات تحمله إلى المدينة. وكان هواؤها طيبا، إلا أن فصل الشتاء بها كان شديد الرطوبة، كثيرا ما يسبب النزلة للناس، وتمرض عيونهم في الصيف، لكنهم سرعان مايشفون. سجلماسة الآن خربة تماما كما ذكرنا آنفا، تجمع سكانها في القصور، وتفرقوا هنا وهناك في الإقليم كله. أقمت بهذه المدينة

---

[1] – الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج1، ترجمة د. محمد حجي، ود. محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1983، ص 7

[2] – لم يرد هذا الخبر عند البكري.

وإقليمها، وعقدت علاقات مع أهلها، لأن البلاد كثيرة السكان. وبقيت مدة سبعة أشهر بقصر المامون."([1])

يظهر من خلال دراسة نص حسن الوزان، الذي أشرنا إليه سلفا أنه أقام في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) مدة زمنية معتبرة في أحد قصور المدينة فاقت السبعة أشهر، وقد أورد لنا العديد من التواريخ الشفوية، التي تمكن من جمعها عن وجوه المدينة وأعيانها. ومما ورد ذكره عنده معلومات تبدو غريبة فهو يعيد إنشاء المدينة إلى عهد الإسكندر الأكبر، أو العهد الروماني حسب زعمه.

إذا أخذنا بكلام حسن الوزان، يمكن القول أن المنطقة التي أنشئت فيها المدينة، ونظرا لوفرة المياه فيها وخصوبة أرضها السهلية، بالإضافة إلى كونها نقطة ربط بين المسالك الطبيعية الكبرى الرابطة بين مختلف أنحاء العالم القديم، ربما تكون قد جلبت انتباه المعمرين الرومان الذين أسسوا فيها حصونا بمادة اللبن، اندثرت ولم يبق لها أثر يذكرعند تأسيس مدينة سجلماسة سنة **140هـ/757م**.

لقد شرع عيسى ابن يزيد الأسود الصفري في بناء المدينة سنة **140هـ/757م** مباشرة بعد مبايعته من طرف القبائل الصفرية، وإذا استثنينا من المؤرخين ابن الخطيب الذي أشار إلى بناء المدينة، فإن جل المصادر التاريخية الوسيطية لم تتحدث عن أهم الأعمال التي بادر إليها هذا الأخير في تعمير مدينته.

لقد ذكر ابن الخطيب أن عيسى بن يزيد الأسود،ركز جهوده أول الأمر حول تخطيط المدينة وبنائها،ثم تحصينها بسور، ثم وزع الماء فيها بطريقة عادلة عبر قنوات المياه التي مدها بها، حيث جاء في وصفه لها: " اختط مدينة سجلماسة سنة أربعين ومايةفأكمل بناءها وأتقن أسوارها وقسم مياهها في خلجان بقدر موزون، وصرف إلى كل ناحية قدرها من مائه، وأمر بغرس النخل والاستكثار منه "([2]). لكن السؤال المطروح هو ما هي الأعمال التي قام بها فعلا عيسى بن يزيد ؟ ذلك أن ابن الخطيب نفسه ينسب في موضع آخر بناء السورإلى

[1] – الحسن الوزان، المصدر السابق، ص 127، 128

[2] – ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 139، 140

أبي القاسم سنة **199هـ/814م**([1]).

إن ما ورد من أعمال قام بها عيسى ابن يزيد في نص ابن الخطيب يقتضي منا الوقوف عنده محاولين تحليل ما ورد فيه.

إن عيسى ابن يزيد بدء بناء المدينة سنة **140هـ/757م**، ووافته المنية سنة **155هـ/772م**. وبالتالي فهل يمكن لهذا الأمير أن يتم أعمال بناء المدينة خلال مدة زمنية لا تتعدى خمسة عشرة سنة، أعتقد أن مثل هذا العمل الضخم لا يمكن إنجازه في هذه المدة القصيرة لاعتبارات عديدة منها ما يتعلق بالجانب السياسي الذي سعى هذا الأمير إلى إتمامه كتثبيت إمارته مما يصرفه بعض الوقت عن متابعة أعمال بناء المدينة. أو أن مدينة سجلماسة لم تعرف في أيامها الأولى توسعا عمرانيا كبيرا مقارنة مع فترة حكم أميرها الثالث اليسع **(174هـ/790م-208هـ/823م)** حيث تشير المصادر الجغرافية والتاريخية إلى أنه خلال فترة حكم هذا الأخير عرفت مدينة سجلماسة في الميدان السياسي تمتين عرى المحبة بين أقوامها، كما شهدت المدينة أيضا تطورا عمرانيا مهما نقلها من مجرد مركز عمراني صغير لا أهمية له في منطقة شبه صحراوية، إلى حاضرة إسلامية كبيرة تسيطر على الجزء الكبير من المناطق الشبه الصحراوية المغربية.

وقد تميزت نهاية حكم هذا الأمير بإتمام أعمال بناء المدينة([2])، حيث برزت مدينة سجلماسة كمجمع عمراني متكامل محصن بأسوار فتحت بها مجموعة من الأبواب، ويتوسطه المسجد الجامع وقصر الإمارة، وتشتمل أيضا على حمامات وأسواق تمتد بينها طرق طويلة ودروب تحيط بها مجموعات من المساكن والقصور على حسب قول ابن خلدون:" وعلى عهده استفحل ملكهم بسجلماسة وهو الذي أتم بناءها وتشييدها، واختط بها المصانع والقصور وانتقل إليها آخر المائة الثانية"([3]).

وقد أشار ابن حوقل إلى أن مباني هذه المدينة، تشبه مباني مدينة الكوفة، فأبوابها عالية وقصورها تتميز بالضخامة والارتفاع. وهواءها ملوث مثل هواء مدينة القيروان مرد ذلك إلى قربهما من الصحراء وعواصفها الرملية، وللنشاطات

---

[1] - المصدر نفسه، ص 140، 141

[2] - ابن خلدون، المصدر السابق، ص 154، 155

[3] - المصدر نفسه، ص 155

التجارية الكثيفة.([1])

3 – تحصين المدينة:

تقع المدينة في قلب سهل تافيلات المنبسط والواسع في الوقت نفسه، مما يجعلها هدفا سهل المنال من طرف الغزاة في ظل التنافس السياسي الذي ميز هذه الفترة من التاريخ، الأمر الذي يعرقل نموها وتطورها بسرعة، إذا لم تحصن بوسائل دفاعية تكفيها شر الغزاة.

أعتقد أن مثل هذه الأمور هي التي دفعت باليسع بن أبي القاسم الملقب بالمنصور في نهاية حكمه،إلى بناء سور كبير يحيط بالمدينة من جميع جهاتها.حيث لا يمكن للداخل إليها أو الخارج منها إلا أن يمر عبر أبواب يمكن مراقبتها في الأوقات الحرجة. ولا شك أن مثل هذا البناء يكون قد كلفه أموالا طائلة خاصة وأنه استعمل فيه بعض مواد البناء القليلة الوفرة بالمنطقة، وقد جاء في وصف البكري لهذا السور ما يلي: "...وسورها أسفله مبني بالحجارة وأعلاه بالطوب بناه اليسع أبو منصور بن أبي القاسم من ماله لم يشركه في الإنفاق عليه أحد أنفق فيه ألف مدى من طعام وله اثنا عشر بابا، الثمانية منها حديد وكان بناء اليسع له سنة تسع وتسعين وماية"([2]).

ويشير ابن خلدون أيضا إلى أن هذا السور من بناء اليسع بن أبي القاسم الذي يلقب بالمنصور([3]). والسؤال الذي يفرض نفسه هنا هو لماذا لم تحصن المدينة منذ تأسيسها سنة **140هـ/757م ؟**.

إن المصادر التاريخية التي تمكنا من الإطلاع عليها لم يرد فيها ذكر لسور مدينة سجلماسة قبل ولاية اليسع، باستثناء نص ابن الخطيب، الذي أشار فيه إلى تحصين المدينة من طرف أميرها أبو القاسم سمغو. وإذا قمنا بمقارنة سيرورة الحوادث التاريخية بين المؤرخين، فإننا نجدها متطابقة ما عدا بعض الخلط الذي لاحظناه عند ابن الخطيب في ترتيب فترات الحكم، والأمراء الذين تعاقبوا على الحكم في مدينة سجلماسة في أيامها الأولى، وهذا يجرنا إلى القول أن ابن الخطيب

---

[1]– ابن حوقل، المصدر السابق، ص 90، 91

[2]– البكري، المصدر السابق، ص 148

[3]– ابن خلدون، المصدر السابق، ص 155

ربما استقى معلوماته من مصادر غير مطلعة وهذا ما جعله يقع في هذا الخلط، فهو يشير إلى أن الأمير أبو القاسم سمغو خلف أحد الأمراء المسمى أبو الخطاب سنة **191هـ/806م**([1]). وإليه يعود فضل بناء السور الخارجي للمدينة سنة **199هـ/815م** حيث توفي في السنة نفسها بعد فراغه من بناء السور، ثم تولى الحكم بعده ابنه أبو الوزير، الذي عزله أخوه أبو القاسم بعد فترة زمنية قصيرة قدرت بستة أشهر، أمضاها هذا الأخير في الحكم، أما الأمير اليسع فقد تولى الحكم حسبه بعد أبيه، وأنشأ سورا جديدا قبل وفاته سنة **208هـ/823م**.

وإذا رجعنا إلى المصادر التاريخية التي تحدثت عن تاريخ مدينة سجلماسة، لوجدنا أن شخصية أبي الخطاب هذه، لم تدرجها ضمن قائمة الأمراء الذين تعاقبوا عليها منذ المحاولات الأولى لتأسيسها وإلى غاية سقوطها.

وبعيدا عن هذه المنطقة، فقد أشار ابن عذاري إلى شخصية أبي الخطاب في حوادث سنة **144هـ/761م** ([2])، وهي السنة التي توفي فيها بعد أن قاد حملة من طرابلس إلى القيروان فأخضعها وولى عليها عبد الرحمن بن رستم ثم قفل راجعا إلى طرابلس،([3]) غير أن سيطرة الخوارج على القيروان لم تدم طويلا إذ سرعان ما فر منها حاكمها عبد الرحمن بن رستم بعدما تناهى إلى مسامعه، نبأ مقتل أبي الخطاب على يد ابن الأشعث والي العباسيين على إفريقية، فتوجه إلى تيهرت حيث باشر بناء مدينته الجديدة ([4]).

يبدو مما ورد ذكره عند ابن عذاري أن أبا الخطاب لم تطأ قدماه أرض سجلماسة، وبالتالي يستبعد أن يكون قد تولى الحكم بها بعد تاريخ وفاته بمدة زمنية طويلة قاربت الربع قرن (**191هـ/806م**) هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن أغلب المؤرخين يتفقون على أن أبا القاسم خلف عيسى بن يزيد الأسود سنة **155هـ/771م** ومات فجأة سنة **168هـ/784م** أثناء أدائه صلاة العشاء.

ومما سبق نخلص إلى القول أن رواية ابن الخطيب، جاءت معلوماتها

---

[1]- ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 141- 143

[2] – ابن عذاري، المصدر السابق، ص 71- 72

[3] – حول شخصية أبي الخطاب راجع، أبي زكرياء، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984، ص 57- 70

[4] – عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1982، ص 253- 259

متضاربة ولا تتماشى مع ما ورد ذكره عند أغلب المؤرخين، بالإضافة إلى هذا يمكننا التساؤل، هل بإمكان الأمير أبو القاسم بناء هذا السور الضخم، الذي يمتد على مسافة طويلة قدرها ابن الخطيب نفسه بمسيرة يوم على جمل؟([1])، وهو ما لا يمكن تحقيقه في ظل الظروف السياسة التي مرت بها المدينة، وبعد المنطقة أيضا عن مصادر مواد البناء الضرورية.

ولكن يجب أن لا نضرب بعرض الحائط ما أورده ابن الخطيب خاصة وأنه زار منطقة المغرب ومكث فيها مدة طويلة، أخذ فيها عن المؤرخين المتأخرين([2])، وبالتالي فإن إشارته إلى بناء السور على يد أبو القاسم سمغو يستشف منها، أن هذا الأخير ربما يكون قد بني سورا صغيرا بغرض حماية معسكره الناشئ وأن الظروف الجديدة التي عرفتها المدينة من زيادة عدد الوافدين إليها مما ترتب عنه توسع عمران المدينة ونموه خارج أسوار المعسكر القديم، اقتضى إعادة تحصين المدينة من جديد في ولاية اليسع، خاصة بعد الرخاء الذي عرفته المدينة من مناجم الذهب التي مد عليها اليسع نفوذه، ومن التجارة مع المدن الصحراوية.

وفي ختام هذا العرض نشير إلى أن الآثار المادية لهذين السورين والتي يمكن من خلالها معرفة الحقيقة اندثرت نهائيا، وأن أساساتها التي بنيت بالحجارة حسب ما ذهب إليه البكري لم تعد هي الأخرى موجودة بسبب الفيضانات التي أتلفتها نهائيا([3]).

ا- طول السور:

إن المعلومات التي ورد ذكرها في المصادر التاريخية حول طول سور مدينة سجلماسة، فهي على قلتها جاءت متباينة من مصدر إلى آخر. ففي القرن الثاني الهجري التاسع الميلادي كتب الفزاري يقول أن محيط المدينة المسكونة يقدر بـــ **960** فرسخا **(Parasanges)** ([4]). وإذا اعتبرنا أن القطعة الواحدة تساوي

---

[1] – ابن الخطيب، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، مطبعة شعبان، المحمدية، المغرب، 1976، ص 180- 181

[2] – عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص 20

[3] - H, Terrasse, Notes sur les ruines de Sigilmassa, in revue africaine, Alger, 1936, pp 581-589.

[4]- Al fazari, texte dans les muruj de Massoudi, cité par J. Cuoq dans recueil des sources arabes, Paris, 1975,P. 42

6 كلم فمعناه أن محيط المدينة حسب ما ذكره الفزاري يساوي **5760** كيلومتر، وهذا العدد يبدو من الوهلة الأولى أن فيه نوعا من المبالغة.

ويذهب المسعودي الذي تحدث عنه في القرن الرابع الهجري إلى القول أن ساحل مدينة سجلماسة يقدر بأربعمائة فرسخ في مائة وعشرين فرسخا.([1])

أما القزويني الذي عاش في القرن السابع الهجري الثالث عشر ميلادي، فقد أشار إلى أن محيط المدينة يتكون من عشرة فراسخ طولا وعشرة فراسخ أخرى عرضا([2]) وبعملية حسابية بسيطة (**10**قطع x **6** كلم x **4** أضلاع) نستنتج أن محيط المدينة يساوي **240** كيلومتر. وإذا كان هذا الرقم فيه أيضا نوعا من المبالغة إلا أنه في حقيقة الأمر يقترب من الواقع.

وقد قدر أبو الفداء في القرن السابع الهجري الثالث عشر ميلادي، محيط المدينة بأربعين ميلا([3]) ثم جاء بعده القلقشندي مؤكدا العدد نفسه مع الإشارة إلى احتوائه على غابات النخيل والبساتين بداخله([4]). أما حسن الوزان فقد رفع هذا العدد إلى ثمانين ميلا([5]).

لقد جاءت إشارات المؤرخين حول سور المدينة مقتضبة متباينة في الأرقام التي قدرت بها طول سور المدينة، وإذا كان بعضهم قد قدم لنا أرقاما مبالغا فيها، إلا أن تقدير أبو الفداء والقلقشندي يعتبر أقرب إلى الواقع من كل التقديرات الأخرى، كما أن المدينة يمكن أن تكون قد عرفت تطورا عمرانيا على عهد حسن الوزان مما جعله يقدر طول سورها بثمانين ميلا، وهو تقدير معقول إذا اعتبرنا أن السور يحيط بالمنشآت العمرانية وغابات النخيل والبساتين وربما بعض الأراضي الرعوية القريبة من المدينة.

ب- طريقة بناء السور:

---

[1]- المسعودي، مروج الذهب، ص 234

[2]- القزويني، نص مقتبس من كتاب عجائب البلدان، نشره(J. Cuoq) في:
-Recueil des sources arabes, Paris, 1975,P. 200. p.200

[3]- ابو الفداء،المختصر في أخبار البشر، بيروت، 1956، ص 137

[4]- القلقشندي، المصدر السابق، ص164

[5]- الحسن الوزان، المصدر السابق، ص 126

لقد أشار الجغرافي البكري إلى طريقة بناء السور والمواد المستعملة فيه، وقد ورد هذا الوصف مطابقا لما كتبه هذا الأخير عند ابن عذاري، الذي يبدو أنه أخذ عن البكري حيث يتفقان على أن الجزء السفلي من السور مبني بالحجارة أما الجزء العلوي فقد بني بالطوب، وقد أرجع بناء هذا السور إلى الأمير اليسع أبو منصور بن أبي القاسم الذي تحمل نفقات بنائه من ماله الخاص دون أن يشركه في ذلك أحد، وإذا كان البكري لم يتحدث عن سمك السور، ولا عن ارتفاعه، ولم يتطرق إلى الأسباب التي دفعت الأمير اليسع إلى استعمال الحجر في بناء الأجزاء السفلية منه، ومادة الطوب في بناء الأجزاء العلوية، إلا أن ما دونه لنا من إشارات، على بساطتها تعد كافية لفهم ظروف بناء هذا السور.

فإذا انطلقنا من الطبيعة الجغرافية الصحراوية التي بنيت فيها مدينة سجلماسة، فهذا يدعونا إلى الاعتقاد أن الاقتصار على بناء الجزء السفلي فقط من السور بالحجارة مرده ربما إلى ندرة هذه المادة بمنطقة تافيلالت، كما سبق وأن أشرنا إلى ذلك عند الحديث عن العوامل الجغرافية، الأمر الذي جعل البناءين يقتصرون على بناء الجزء السفلي فقط من السور بالحجارة، هذه الحجارة التي تطلب جلبها من مناطق بعيدة – من جبال الأطلس_ بذل جهد كبير ومدة زمنية أطول وصرف أموال أكثر من لو بنيت هذه الأجزاء بمادة الطوب المتوفرة بالمنطقة. ولكن ما الدافع إلى بناء هذه الأجزاء السفلية بالحجارة ؟، في حين أن باقي الأجزاء العلوية من السور قد بنيت بالطوب؟.

إن الإجابة عن هذا السؤال تعيدنا مرة ثانية إلى الطبيعة الجغرافية للمنطقة وبالضبط إلى الطبيعة السهلية لموقع المدينة. ذلك أن الهدف من بناء السور حول المدينة هو تحصينها بطريقة جيدة، وبحاجز متين يحول دون وصول الغزاة إلى داخل المدينة، وهو لا محالة الأمر الذي قصده اليسع، غير أن هناك أمرا مهما يجب أن لا نغفله، لعلاقته المباشرة بموضوع تحصين السور، هو وقوع المدينة بجوار وادي زيز مما يجعلها عرضة للفيضانات الناجمة عن الأمطار الفجائية التي يتأثر بها السور، ناهيك عن تأثر أساسات السور بفعل الرطوبة المتسربة من الأرض مما يؤدي إلى تآكل أجزائه السفلية، فتضعف أساساته ويصبح عرضة للانهيار. وبهذه الطريقة المتبعة في البناء يكون اليسع قد ضمن عدم وصول الرطوبة الأرضية إلى السور، وقد ضمن أيضا عدم تلف السور بسبب فيضانات وادي زيز.

أما عن سمك السور وارتفاعه الذين لم تشر إليهما المصادر التاريخية، فنعتقد أنه في مثل هذه الأحوال، وسيرا على طريقة بناء الأسوار في المدن الإسلامية، فإن متانة السور تقتضي أن يكون أكثر عرضا خاصة في طبيعة جغرافية سهلية مثل طبيعة مدينة سجلماسة حتى يتسنى للبناء من بلوغ ارتفاعات عالية قدر المستطاع، تحول دون تمكن الأعداء من الدخول إلى المدينة من أي نقطة كانت بالسور. وبالتالي ما دامت الفكرة الأولى هي تأمين المدينة من الأخطار المختلفة بإنشاء سور يحيط بها، فإنه يجب أن تراعى في بنائه جميع الشروط التحصينية الضرورية في مثل هذا البناء. وهو ما حاول اليسع فعلا تجسيده في طريقة بناء سور مدينته والذي دفع من أجله أموالا طائلة.

ج – تاريخ بناء السور:

إذا كانت أغلب المصادر التاريخية التي تطرقت بالحديث إلى مدينة سجلماسة قد أشارت إلى تاريخ إنشاء السور. إلا أنها اختلفت في ذكر تاريخ الانتهاء من أعمال بنائه. فالبكري يحدد تاريخ الانتهاء منه بسنة **199هـ/814م** حيث جاء في هذا الصدد: " وكان بناء اليسع له سنة تسع وتسعين ومائة "([1]). وقد أشار ابن خلدون إلى أن تاريخ الانتهاء من بناء السور يصادف السنة الرابعة والثلاثين من حكم اليسع بن أبي القاسم([2])، وهو ما ذهب إليه أيضا القلقشندي([3]).

ولما كان تاريخ تولي اليسع بن أبي القاسم الحكم حسب ما أجمعت عليه المصادر التاريخية، يرجع إلى سنة **174هـ /790**م. فإنه إذا أضفنا عدد سنوات حكم اليسع إلى تاريخ بداية حكمه، حصلنا على تاريخ **208هـ/823 م** وهو تاريخ الانتهاء من عملية بناء السور حسب ما قصده ابن خلدون.

وحسب ابن عذاري، فإن اليسع ابن أبي القاسم لما تولى الحكم، كان موضع سجلماسة قد عمر بالديار دون سور، ثم توسعت المدينة في عهده وأمر ببناء سورها([4]).

يلاحظ من خلال ما سبق، أن روايات المؤرخين لم تستقر على تاريخ واحد لبناء السور. وأمام هذا الاختلاف حاول بعض المؤرخين المعاصرين جاهدين تفسير هذا التضارب في أقوال المؤرخين القدامى، وإعطاء تاريخ دقيق لإنشاء السور معتمدين في ذلك على مقارنة المعلومات الواردة في المصادر التاريخية والجغرافية. فهناك من خلص إلى القول أن تاريخ بناء السور يعود إلى سنة **199هـ/ 814 م** وهو ما ذهب إليه الأستاذ هنري تيراس([5]).

أما الأستاذ سعد زغلول عبد الحميد فيقدم لنا تفسيرين:

---

[1] – البكري ، المصدر السابق، ص148

[2] – ابن خلدون، المصدر السابق، ص155

[3] – القلقشندي ، المصدر السابق، ص 163 – 164

[4] – ابن عذاري، المصدر السابق، ص 157

[5] – H.Terrasse, op. cit. P 583 .

- التفسير الأول: يؤكد فيه كلام هنري تيراس ويرى أن السور قد بني في سنة **199هـ/ 814 م**.
- أما الرأي الثاني: فيقول فيه أن بناء سور مدينة سجلماسة قد مر بمرحلتين، الأولى بناها اليسع ابن أبي القاسم والثانية أكملها ابنه مدرار بعد وفاته([1]).

إن القراءة المتأنية، لما ورد في كتب المؤرخين حول هذه النقطة بالذات تدعونا إلى الاعتقاد أن اليسع ابن أبي القاسم بن سمغو عندما بويع أميرا على سجلماسة كانت هذه الأخيرة مدينة صغيرة، وأن حماسة هذا الحاكم ونزعته المذهبية جعلته يهتم أول الأمر بإخضاع القبائل البربرية المنتشرة بالمنطقة لنفوذه، ويجتهد في تأمين المناطق القريبة من مدينته، وذلك انتصارا لمذهب الخوارج الصفرية الذي تمكن من إظهاره، وقد تطلب منه هذا الأمر مدة زمنية معتبرة، أمضاها في محاربة قبائل مكناسة البربرية وإخضاعهم له، فاستطاع في نهاية الأمر أن يوسع ملكه وأن ينمي خيراته بإمداد نفــوذه على المناجم المعدنية القريبة منها، حيث استطاع أن يأخذ خمس معادن درعة، ويفرض سيطرته على الطريق التجارية الرابطة بين المغرب الإسلامي وبلاد السودان، ليعود بعد ذلك ويستقر في حاضرته، بعد إن استتب له الأمن بالمنطقة. وكانت سجلماسة آنذاك دون سور،([2]) فيتفرغ لها لإتمام بناء ما تبقى من المنشآت العمرانية، بعد أن شيد بها القصور ووسع عمرانها. وتأمينا لمدينته الناشئة وحفاظا على كيان إمارته أمر ببناء سور لها يكون حاجزا واقيا لها من عاديات الدهر بعد أن توسع عمرانها وأصبح الدفاع عنها أمرا صعبا.

ولما كان محيط المدينة كما رأينا سابقا ذا مسافة طويلة، فإن بناء السور قد يتطلب فترة زمنية معتبرة، وعليه نميل إلى القول أن سنة **199هـ/ 814 م** التي ورد ذكرها عند البكري، ربما تكون هي السنة التي شرع فيها اليسع في بناء سور المدينة أما سنة **208هـ/823** م وهو التاريخ الذي يتفق مع ما ذهب إليه ابن خلدون، يرجح أن يكون سنة إتمام أعمال بناء السور، وأن فترة تسع سنوات تعتبر كافية لإنجاز أعمال البناء خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار طول المسافة وصعوبة

---

[1] – سعد زغلول عبدالحميد، تاريخ المغرب العربي، دار المعارف، القاهرة، 1965، ص 403- 404

[2] – البكري، المصدر السابق، ص 157

الحصول على مواد البناء (الحجارة) التي تطلب جلبها من مواقع بعيدة – من سلسلة جبال الأطلس– وعلى وسائل بدائية وقتا طويلا.

4- أبواب المدينة:

لقد تضاربت آراء المؤرخين حول عدد أبواب مدينة سجلماسة، فهناك من ذكر أن مدينة سجلماسة بها أثني عشر بابا ويأتي على رأس هؤلاء البكري([1]) ثم الحميري ([2]) وصاحب كتاب الاستبصار([3]) وفي هذا الصدد يقول البكري: "... وله اثنا عشر بابا الثمانية منها حديد"([4]).

وقد أشار آخرون أن عدد أبواب المدينة لا تتعدى ثمانية أبواب، حيث أشار أبو الفداء ([5]) أن عدد أبواب المدينة ثمانية، أما المقدسي فقد ذكر أن المدينة بها أربعة أبواب، ذكرها بأسمائها مع استعماله للفظ "غيرها" الدال على وجود أبواب أخرى([6]). أما القلقشندي([7]) فقد ورد عنده ذكر لعدد أبواب المدينة في موضعين:

- الأول أشار فيه إلى اثني عشر بابا، وهو في ذلك يتفق مع ما ذهب إليه البكري سابقا.

- أما الموضع الثاني فقد أشار فيه إلى ثمانية أبواب، وهو ما ورد أيضا عند أبي الفداء.

لقد اقتصرت روايات أغلب المؤرخين والجغرافيين على ذكر عدد الأبواب، وإذا استثنينا البكري الذي تحدث بنوع من التفصيل حول طبيعة المادة التي صنعت منها الأبواب، حيث أشار إلى أن ثمانية أبواب من بين اثني عشر بابا مصنوعة من مادة الحديد، فإن بقية المصادر التاريخية لم تقدم لنا وصفا مفصلا لعمارة هذه الأبواب وطريقة بنائها وأماكن تواجدها.

يبدو مما سبق أنه من الصعب تحديد العدد الحقيقي لأبواب المدينة، ذلك أنه

---

[1] – البكري، المصدر السابق، ص 148

[2] – الحميـــري، الروض المعطار في خبر الأقطار، بيروت، 1975، ص 305 – 306

[3] – الإستبصار، ص201

[4] – البكري، المصدر السابق، ص 148

[5]– أبو الفداء، المصدر السابق، ص 137

[6]– المقدسي، المصدر السابق، ص191

[7]– القلقشندي، المصدر السابق، ص 163 – 164

إذا رجعنا إلى الحواضر المغربية الأخرى مثل القيروان، وفاس، وتيهرت، نجد أن عدد الأبواب فيها متباين بين حاضرة وأخرى، فمن أربعة عشر بابا بالقيروان، إلى أثني عشر بابا بمدينة فاس. أما مدينة تيهرت في عهد الرستميين فقد حوت أسوارها أربعة أبواب فقط. من خلال هذه المقارنة التي بينت لنا العدد المعتبر لأبواب هذه الحواضر المغربية، والتي إن دلت على شيء فإنما تدل على مدى اتساع رقعة هذه المدن، فإن مدينة سجلماسة ونظرا إلى أنها أسست على مساحة معتبرة كما تبين من خلال امتداد سورها على مسافة طويلة، -كما رأينا ذلك فيما سبق- فإننا نميل إلى القول أن ما ورد عند البكري أقرب إلى الحقيقة من غيره للاعتبارات السابقة.

أما بخصوص الأسماء التي اشتهرت بها هذه الأبواب، فلم تشر المصادر التاريخية إلا إلى خمسة أبواب لعلها كانت تمثل أهم أبواب المدينة، منها أربعة ورد ذكرها عند المقدسي، وهي الباب القبلي، والباب الغربي، وباب غدير الجزارين، وباب موقف زناتة، وقد أضاف أبو محلي إلى هذه الأبواب الأربعة اسما خامسا هو باب الزعفران.([1])

وقد ارتبطت أسماء هذه الأبواب إما بالاتجاهات الجغرافية (القبلي، الغربي) أو بالنشاط الفلاحي الذي يغلب عليه طابع الواحات النخيلية (باب الجزارين، باب موقف زناتة) أو نسبة إلى النشاط التجاري الذي كان يتم بالقرب منه، وبهذا الصدد أشار أبو محلي أن عشرة أطنان من الزعفران استجلبت من منطقة السوس تم بيعها في يوم واحد أمام هذا الباب الذي أصبح يعرف فيما بعد بباب الزعفران.([2])

5 - المسجد الجامع:

من بين المباني الأولى التي اعتاد المسلمون على إنشائها عند تأسيس مدنهم المسجد الجامع، تلك المؤسسة الدينية والعلمية والسياسية في نفس الوقت التي أدت دورا مهما في التاريخ الإسلامي، فهي مكان العبادة، وتعليم القرآن الكريم، وتدريس مختلف العلوم الشرعية اللغوية، ومقر الحكم والقضاء، فهو يمثل قلب المدينة الإسلامية. لكل هذه الأسباب فقد أعطى مؤسسو مدينة سجلماسة أهمية

---

[1]- Melloukhi, Op. Cit, p 94.
[2] - Ibid. p. 95.

بالغة للمسجد، حيث أنشأ اليسع مسجدا جامعا بالمدينة واتخذ له موقعا في وسطها، وقد وصلتنا الأخبار الأولى عن هذا المسجد، عن طريق البكري الذي أشار إلى عظمته وإتقان بنائه حيث وصفه قائلا : " وجامعها متقن البناء بناه اليسع فأجاد " ([1]).

أما المقدسي الذي حدد موقعه في قلب الواحة بجانب قصر الإمارة، وقد جاء في معرض كلامه عنها: " سجلماسة قصبة جليلة على نهر بمعزل عنها يفرغ في قبليها، وهي طولانية نحو القبلة، عليها سور من طين وسطها حصن يسمى العسكر فيه الجامع ودار الإمارة، شديدة الحر والبرد جمعيا صحيحة الهواء كثيرة التمور والأعناب والزبيب والفواكه والحبوب والرمان والخيرات، كثيرة الغرباء موافقة لهم يقصدونها من كل بلد، ومع ذلك ثغر فاضل برستاقها([2]) معادن الذهب والفضة وهم أهل سنة وقوم جياد، بها علماء وعقلاء، لها باب القبلي باب الغربي، باب غدير الجزارين، باب موقف زناتة وغيرها. وهي في رمال ولهم مياه " ([3]).

يفهم من كلام المقدسي أن المسجد الجامع، يقع داخل حصن يتوسط المدينة، بجوار دار الإمارة، ولكن المقدسي لم يشر بالضبط إلى موقع المسجد داخل هذا الحصن، الذي كان النواة الأولى لتأسيس المدينة، قبل أن تتطور أثناء فترة حكم اليسع. ولم يتكلم المقدسي أيضا على المساكن ودروب الحصن الذي أطلق عليه اسم العسكر، ولكن من خلال إشارته إلى وجود المسجد الجامع فهذا يعني ربما أن هناك مساجد أخرى بالمدينة، كما يستدل أيضا من مصطلح الجامع على وجود عدد كبير من السكان بالمدينة، وإذا أخذنا بكلام المؤرخين في تحديد موقع المسجد فهذا يعني أن اليسع أعطى أهمية كبيرة لهذا المسجد، من حيث أنه اهتم ببنائه إلى درجة فاقت الطريقة التي بنيت بها الحمامات، وكذلك تكمن هذه الأهمية في موقع المسجد الذي يتوسط المدينة شأنه في ذلك شأن بقية الحواضر الإسلامية الأخرى التي كان الجامع بها يتوسط المدينة لتسهيل الوصول إليه بسرعة من طرف عامة الناس، كونه المؤسسة الأولى في المدينة الإسلامية التي

---

[1] – البكري، المصدر السابق، ص 148

[2]– الرستاق، جاء عند ابن منظور، أن الرستاق لفظ مفرد جمعها رساتيق،وهي كلمة فارسية معربة يقصد بها السواد. ابن منظور، لسان العرب، المجلد الثالث، دار صادر، بيروت، ط1، 1997، ص 69

[3] – المقدسي، المصدر السابق، ص 190

يتجمع فيها سكان المدينة كل جمعة لأداء صلاة الجمعة. ومنها يتم تسيير الكثير من شؤون المسلمين.

وتيسيرا على سكان المدينة في ممارسة شعائرهم الدينية، بعد تطور عمرانها واتساع رقعتها، فقد أنشئت مساجد جديدة مع مرور الزمن، حيث أشار المسعودي في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي إلى أن مدينة سجلماسة كانت تشمل على أربعة مساجد.([1]) وهو ما أكدته ضمنيا كتب المؤرخين والجغرافيين، الذين اتفقت آراؤهم على أن مدينة سجلماسة استقطبت عددا هائلا من السكان والتجار، وفدوا إليها من مختلف البلاد الإسلامية آنذاك، من العراق وحتى الأندلس ومن بلاد السودان إلى البحر الأبيض المتوسط على مختلف الفترات. الأمر الذي جعل مدينة سجلماسة تعرف توسعا عمرانيا كبيرا تمثل في بناء أحياء سكنية جديدة، وسوف يساير هذا التطور العمراني بناء مرافق عامة ومساجد جديدة، تستجيب لمتطلبات الأعداد الهائلة من السكان الجدد. ويكون هذا التطور قد حدث في الفترات المتأخرة من تاريخ سجلماسة الأمر الذي جعل المسعودي يتطرق إليه ويغفله المؤرخون والجغرافيون القدامى أمثال البكري وابن خلدون.

---

[1] - Al Mas'udi, Akhbar Al-Zaman, J. le cuoq, in recueil des sources Arabes et l'Afrique occidentale du VIIIè au XVIè siecle, p.p. 59 – 62.

6- حمامات المدينة:

عرفت مدينة سجلماسة شأنها في ذلك شأن بقية الحواضر الإسلامية، بناء الحمامات العامة التي أنشئت بغرض الاستجابة لضرورة الطهارة التي يقتضي الشرع أن يلتزم بها كل فرد مسلم، وقد ذكر البكري([1]) أن المدينة كانت بها حمامات، وقد وردت الكلمة عنده بصيغة الجمع، ولم يتطرق إلى هذه الحمامات بالتفصيل، اللهم طريقة بنائها التي أشار بخصوصها إلى أنها متوسطة البناء لا ترقى إلى درجة الإتقان التي روعيت في بناء مسجدها الجامع، ورغم أن البكري لم يشر إلى عدد هذه الحمامات بالمدينة، إلا أن هذا يدعونا إلى الاعتقاد أن مثل هذه المنشآت العمرانية يمكن أن تكون أكثر من واحدة نظرا لكبر المدينة وكثرة سكانها الأمر الذي يجعل توزيعها على بعض دروب المدينة أمرا ضروريا، تقتضيه الطبيعة الجغرافية الصحراوية والمناخية الحارة للمدينة.

7- القصور والمصانع:

أشارت المصادر التاريخية إلى أن مدينة سجلماسة كانت تعج بالمصانع والقصور وقد جاء ذكر هذين المصطلحين عند ابن خلدون والقلقشندي بصيغة الجمع. فابن خلدون يقول فيها: "وهو الذي أتم بنائها وتشييدها واختط بها المصانع والقصور ".([2])

أما القلقشندي فقد جاء وصفه مطابقا لما ورد عند ابن خلدون حيث أشار إلى بناء سور المدينة من طرف اليسع كما بنى بها أيضا القصور والمصانع،([3]) أما ابن حوقل فقد شبه قصور سجلماسة بقصور الكوفة.([4])

كانت هذه أهم المعلومات التي أوردتها لنا المصادر الجغرافية والتاريخية بخصوص قصور ومصانع المدينة، يبقى علينا الآن محاولة معرفة أهمية هذه القصور ومعرفة النشاطات الصناعية التي كانت معروفة بالمدينة.

إن الخوض في هذا الموضوع يفرض علينا العودة دائما إلى المصادر

---

[1] - البكري، المصدر السابق، ص 148.

[2]- ابن خلدون، المصدر السابق، ص 155

[3]- القلقشندي، المصدر السابق، ص 165

[4]- ابن حوقل، المصدر السابق، ص 90

الجغرافية والتاريخية نظرا لقلة الدراسات الحديثة، واندثار هذه المعالم، إذ أن محاولة تحليل مضمون ما جاء بها من معلومات ومقارنتها ببعضها البعض سوف يقودنا إلى الخروج ببعض النتائج التي تخدم موضوع بحثنا هذا، فهذه الأخيرة أشارت إلى أن منطقة سجلماسة - كما سبق سبقت الإشارة إلى ذلك-، كانت تزخر بالمناجم التي تحتوي على المعادن الثمينة، هذا من جهة، ومن جهة ثانية أشارت أيضا إلى أن مدينة سجلماسة كانت نقطة التقاء القوافل التجارية القادمة من بلاد السودان باتجاه المغرب، وبالعكس من المغرب نحو بلاد السودان محملة بمختلف البضائع، وقد تضاعف هذا النشاط التجاري خاصة بعد أن عدلت القوافل التجارية التي كانت تسلك طريق طرابلس إلى بلاد السودان عن أخذه، بسبب صعوبة هذا المسلك مما زاد في عدد القوافل التجارية التي تمر بمدينة سجلماسة مفضلة بذلك طريق ساحل المحيط الأطلسي لسهولته من الناحيتين الأمنية والمناخية. كل هذا سيؤدي حتما إلى تضاعف النشاط الاقتصادي بالمدينة، فتنشط مصانع تحويل المعادن وتصنيعها، فيؤدي هذا إلى الزيادة في رخاء المدينة بسبب الجباية التي يجنيها حكامها من هذه النشاطات التجارية، الشيء الذي ينعكس بالإيجاب على عمران المدينة فيزداد في تطوره، فتشيد بها القصور الفخمة، وتمد بها الطرقات، وتوزع المياه على أحيائها بعدل عن طريق توصيل شبكات المياه، فتزيد كل هذه الأمور في تطور المدينة وتوسعها وإقبال الوافدين عليها على اختلاف طبقاتهم الاجتماعية وتباين اهتماماتهم من مختلف المدن الإسلامية.

وإذا كانت المصادر التاريخية لم تتطرق بالتفصيل إلى التوسع العمراني للمدينة، فإنه من المؤكد وبناءا على ما جاء بشأنه من معلومات في المصادر السابقة الذكر. فإن المدينة أسسها عيسى ابن يزيد الأسود سنة **140 هـ/ 757 م**، وزاد تطورها العمراني وتوسعها في عهد اليسع بن أبي القاسم **(174 - 208 هـ/ 790- 823 م)**، بل ربما إذا أخذنا بالمعطيات الجغرافية والاقتصادية التي كانت تتمتع بها المدينة، فإن هذا التوسع لم يتوقف في عهد اليسع بل ابتداء من فترته وإلى غاية تاريخ انتهائها عرفت المدينة توسعا وتطورا عمرانيا تدريجيا، الشيء الذي نأسف لعدم تمكننا من تتبعه بالتفصيل لقلة المادة العلمية المدونة في المصادر، ولاندثار معالم هذه المدينة، مما حال دون معرفة بعض مراحل تطورها المتأخرة.

من الثابت، وحسبما أجمعت عليه المصادر التاريخية، أنه بعد وفاة اليسع سنة **208 هـ/823 م**، كانت المدينة محصنة بسور كبير به اثني عشر بابا، وكان يتوسط هذه المساحة قلعة تحوي بداخلها مسجدا جامعا متقن البناء وبجواره أنشئ قصر الإمارة، كما شيدت بجوار هذه القلعة لا محالة منشآت عمرانية أخرى كونت مع القلعة النسيج العمراني الأول لمدينة سجلماسة، وهو يشبه بذلك الخط المتبع في إنشاء القصور الصحراوية الحديثة، مما يجعلنا نستنتج أن مدينة سجلماسة ربما كانت نشأتها الأولى عبارة عن قصر ثم تطور ليصبح مدينة كبيرة. ولكن السؤال المطروح هو من أين أتى اليسع بهذه الوسائل المادية التي سمحت له ببناء هذه المدينة الكبيرة؟.

إذا رجعنا إلى المعلومات التي وردت في المصادر الجغرافية الوسيطية، نجد فيها أن أراضي منطقة سجلماسة كانت غنية بالمعادن، وربما يكون المدراريون قد لجئوا منذ عهد اليسع إلى استغلال هذه المناجم لتغطية المصاريف المترتبة عن أعمال البناء، ضف إلى هذا أن اليسع بعد أن تمكن من إخضاع القبائل المحيطة به فرض عليها دفع الضرائب له حسب ما أشار إلي ذلك البكري الذي قال: " فظفر بمن عانده من البربر وذللهم وأخذ خمس معادن درعة "([1]). هذا يعني أن استغلال مناجم منطقة سجلماسة أصبح يخضع لرقابة مدينة سجلماسة فساهمت بذلك عائداتها المادية في تعمير المدينة وتطورها ورخائها.

وإذا أخذنا أيضا بالرواية الثانية التي أوردها البكري بخصوص تأسيس المدينة والتي ذكر فيها أن المدينة أقيمت على موضع كان يتجمع فيه البربر فترة من الزمن كل سنة يتسوقون فيه. ([2]) فهذا يجرنا إلى القول أن سجلماسة أنشئت أول الأمر كمدينة تجارية، في موقع يسمح لها بمراقبة الطريق التجاري الرابط بين بلاد الإسلام والأقطار الأخرى، ويكون أمراؤها بالتالي قد ضمنوا جميع الوسائل المادية الضرورية لإكمال تعمير المدينة وتطويرها، وذلك عن طريق التبادل التجاري الذي كان يتم بالمدينة، خاصة إذا علمنا ما كان يمر عبر هذا المسلك من قوافل تجارية كثيرة العدد آتية من بلاد السودان أو غادية إليها، فكانت مدينة سجلماسة بذلك محطة تجارية مهمة بالمنطقة تمثل نقطة التقاء

---

[1]– البكري، المصدر السابق، ص 150

[2]– االبكري، المصدر السابق، ص 149

جميع القوافل التجارية التي تؤمها من كل حدب وصوب، قصد تبادل التجارة معها، وهذا مازاد في رخائها الاقتصادي الذي انعكس بدوره بالإيجاب على الجانب العمراني فأدى إلى الزيادة في تطور المدينة.

ثالثا- مواد البناء:

لقد ذكرنا فيما سبق أن الطبيعة الجغرافية لمنطقة سجلماسة طبيعة شبه صحراوية يندر بها وجود الأحجار التي تعتبر وسيلة البناء الأولى في تلك الفترة من التاريخ الإسلامي([1])، وحتى في الفترات السابقة لها أيضا، وإن الحصول على هذه المادة الحيوية بكميات وفيرة تستجيب ومتطلبات عملية تحصين المدينة تقتضي من سكان المنطقة جلبها من مناطق بعيدة، مثل منطقة سلسلة جبال الأطلس. وإن صعوبة الحصول على هذه المادة بالقدر الذي يكفي لبناء المدينة ككل، بسبب بعد المسافة، وعدم توفر وسائل النقل الكافية، جعل البناءون يستغنون عنها ولا يستعملونها إلا في بعض المناطق الحساسة من البناء، واستعاضوا عنها بمادة الطوب لوفرة التربة الصالحة لصناعته بالدرجة الأولى،ثم أضف إلى هذا أنه مادة ملطفة للجو شتاءا وصيفا. ولكن لا شك أن بنائي سجلماسة لم يستعملوا الطوب والحجارة فقط كما بلغنا ذلك من خلال إشارات بعض جغرافيي العصور الوسيطة، ذلك أنهم استعملوا أيضا الخشب والمعادن بمختلف أنواعها في تعمير المدينة.

1- الخشب:

يعتبر الخشب المادة الرئيسية الثانية بعد الحجارة التي أدت دورا مهما في تاريخ العمارة منذ أقدم العصور، ومازالت إلى يومنا كذلك تؤدي دورها، إذ لا يمكن الاستغناء عنها في عملية البناء والتعمير، ولم يسبق لنا أن عرفنا بناء منشآت عمرانية دون استخدام الخشب فيها. وهذا يقودنا إلى القول أن عملية بناء مدينة سجلماسة التي شرع فيها منذ سنة **140 هـ/757** م تطلبت إدخال هذه المادة الحيوية كوسيلة دعم للبناء في بعض الأجزاء المعمارية للمباني، وكوسيلة لصنع بعض الحليات التزيينية في بعض المباني الدينية، ناهيك عن أبواب السور الكبير

---

[1] - Melloukhi, op. cit, p 99

الذي يحيط بالمدينة وأبواب المباني، وكذلك الشبابيك التي تتطلب توفير كمية معتبرة من الخشب لصناعتها،هذا دون أن تفوتنا الإشارة إلى الكمية الواجب توفيرها لصنع قوالب البناء. ولكن السؤال الذي يفرض نفسه هنا هل بإمكان غابات المنطقة توفير الكمية اللازمة من الأخشاب لتلبية حاجات المدينة الناشئة؟.

إن أي محاولة لتحديد طبيعة الغابات التي تتوفر عليها منطقة سجلماسة، تقودنا إلى القول وحسب ما ذهبت إليه بعض المصادر الجغرافية، أنه باستثناء شجرة النخيل الموجودة بكثرة في تلك المنطقة، وإلى جانب بعض الأشجار الأخرى القليلة التي يمكن استعمالها في صباغة الجلود، فإن غابات المنطقة ليس بإمكانها توفير المادة الخشبية الضرورية للمدينة بالقدر الكافي، خاصة أثناء فترة البناء والتعمير التي تقتضي توفير كميات كبيرة من مادة الخشب.

إن شجرة النخيل سبق وأن استعملت في العمارة الإسلامية، حيث كانت هي الوسيلة التي لجأ إليها المهاجرون والأنصار في رفع سقف مسجد الرسول "صلعم" بالمدينة المنورة. وعليه فإن استخدامها في مدينة سجلماسة أمر وارد، وذلك لكثرتها وطول جذوعها مما يسمح باستعمالها في بعض الجوانب المعمارية. ومع هذا كله فإن هذه المادة الحيوية رغم وفرتها، لا نعتقد أنها كانت كافية لسد جميع حاجات المدينة، خاصة وأن الطبيعة الجغرافية للمنطقة الغنية بمناجم المعادن كما سبق وأن رأينا، وما يترتب عن هذه الأخيرة من عمليات صهر وتحويل وتصنيع يقتضي من حرفيي سجلماسة استخدام كميات كبيرة من الأخشاب في صناعتهم. وهو ما لا يمكن أن توفره غابات التخيل وحدها، ضف إلى هذا أن هذه الغابات ما دامت مصدر رزقهم، فاعتقد أن سكان المدينة سيولون لها أهمية خاصة، وسيحافظون عليها قدر المستطاع.

إذن يترتب عن الظروف السابقة الذكر، أن يبحث سكان المدينة عن الكمية الناقصة من الخشب لاستكمال أعمال البناء، وهو ما توصلوا إليه من خلال استقدام ما يكفي حاجة المدينة من الخشب من مناطق أخرى غنية بهذه المادة مثل منطقة الأطلس. حيث أورد البكري في أكثر من موضع، إشارات تدل على مواقع توفر الخشب بالمنطقة أو على أسواق للتبادل التجاري. ففي معرض حديثه عن الطريق من سجلماسة إلى فاس، تطرق بالحديث إلى جبل درن الذي تكثر به غابات

الصنوبر، والأرز، والبلوط، وهو يقع على مسيرة يوم واحد من سجلماسة([1])، وفي موضع آخر جاء في حديثه عن الطريق من مدينة أغمات إلى مدينة فاس: "...ومنه إلى بلد زواغة مرحلة ومنها إلى حصن داي وهو في وسط غيضة كبيرة من أجناس الشجر وله سوق حافلة يجتمع فيها رفاق فاس والبصرة وسجلماسة لضروب الأمتعة والمتاجر مرحلة "([2]).

يشير البكري في هذه الأسطر إلى سوق غير بعيدة عن مدينة سجلماسة سماها حصن داي، وهي سوق يقصدها التجار من كل حدب وصوب يتبادلون فيها البضائع، ولعل تجار سجلماسة كانوا يأتون إليها محملين بمختلف الصناعات المعدنية نظرا لشهرة المنطقة بصناعة هذه المواد، ويعودون منها محملين بما تحتاج إليه المدينة من مواد أولية، ولعل ما ورد من إشارات ضمن هذا النص تدل على وجود هذا السوق وسط غيضة مليئة بأنواع الشجر، دلالة على أن تجار سجلماسة كانوا يقصدون هذه السوق من أجل شراء ما يحتاجون إليه من الأخشاب، خاصة إذا علمنا أن هذه المادة الخشبية تتقسم إلى عدة أنواع حسب طبيعة الأشجار التي يختلف تواجدها من منطقة جغرافية إلى أخرى. مما يقتضي البحث عن الأنواع المختلفة حسب أماكن تواجدها واستقدامها إلى سجلماسة لاستعمالها في صناعات معينة.

---

[1]- البكري، المصدر السابق، ص 147

[2]- المصدر نفســه، ص154

2 – المعـــادن :

يبدو من خلال المصادر الجغرافية والتاريخية، أن مدينة سجلماسة عرفت استخدام مادة الحديد فقد أشار البكري ([1])، كما سبق وأن رأينا، إلى ثمانية أبواب من بين اثني عشر بابا شملهم سور المدينة كانوا مصنوعين من الحديد. و أشار أيضا إلى أن مدرار جد اليسع كان رجلا أندلسيا يمتهن الحدادة قرب موقع سجلماسة([2])، وكان موضع سجلماسة آنذاك مكانا يجتمع فيه البربر عدة أيام كل سنة يتسوقون فيها، وكان من بين السكان البربر الذين يحضرون هذه السوق مدرارا الذي كان يأتي بما صنعه من آلات حديدية، يبيعها في هذه السوق إلى أن استقر بالموضع نفسه، لسنا ندري مدى صحة هذه الرواية الثانية حول تأسيس مدينة سجلماسة،وإن كان البكري نفسه شكك في صحتها، ولكن الذي يهمنا هنا أن منطقة سجلماسة عرفت استخراج الحديد من باطن الأرض، وصناعته قبل تعمير المدينة نفسها مما يدل على أن هذه المادة تكون حتما قد استخدمت بكيفية واسعة في بناء المدينة بحكم قربها من موقع المدينة بالدرجة الأولى، ثم تحكم بربر المنطقة في طرق صهر الحديد وصناعته.

لقد أشارت المصادر التاريخية والجغرافية، إلى أن إقليم سجلماسة كان أيضا غنيا بمناجم النحاس والرصاص والذهب ([3]). مما لا يستبعد أن تكون هذه المواد قد عرفت استخداما واسعا بالمدينة ليس في بناء المدينة فحسب وإنما كمواد ومصنوعات تجارية كانت تصدر إلى مناطق أخرى وتستجلب بدلها مواد أخرى يندر وجودها بالمنطقة.

وخلاصة القول أنه إذا كان موقع سجلماسة قد اختير لأسباب سبق وأن أشرنا إليها، وأن أقل ما يمكن القول عنها أنها استجابت لطموحات المؤسسين. فإن عدم وفرة بعض مواد البناء مثل الحجر والحديد والخشب بكميات كافية، يمكن من خلالها سد حاجيات المدينة، جعل مؤسسوها يلجأون إلى استيرادها من مناطق أخرى قريبة،

---

[1]– البكري،المصدر السابق، ص 148

[2]– المصدر نفسه، ص149

[3]– يشير الإصطخري إلى ذلك في قوله،" وهي قريبة من معدن الذهب بينها وبين أرض السودان وأرض زويلة، ويقال إنه لا يعرف معدن للذهب أوسع ذهبا ولا أصفى منه، إلا أن المسلك إليه صعب، والاستعداد شاق." المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال الحين، القاهرة، 1961، ص 34.. كما يؤكد ذلك أيضا اليعقوبي في كتاب البلدان (ص 114)، والمسعودي في مروج الذهب(ج2، ص 261).

غالبا ما كان المؤرخون والجغرافيون في العصر الوسيط ينسبوها إلى إقليم سجلماسة.

رابعا- اليد العاملة:

إن الشروع في تخطيط مدينة سجلماسة وإكمال أعمال بنائها وما تبعها من تطور عمراني خاصة في عهد اليسع، كان لا محالة قد تطلب توفير يد عاملة كثيرة، زيادة على ضرورة وجود اليد العاملة الماهرة بين هذا العدد الهائل من العمال. وإذا أخذنا بما ورد في كتب المؤرخين والجغرافيين، فإن الموقع الذي أسست فيه المدينة آنذاك كان بعيدا عن كل تجمع عمراني بالمنطقة، اللهم تلك الأربعين نفرا من الخوارج الصفرية التي أشار إليها البكري، والتي تجمعت حول عيسى ابن زيد الأسود مبايعين له كأمير لهم ليشرعوا بعد ذلك في تأسيس المدينة([1]). فمن أين جاءت هذه اليد العاملة التي استطاعت أن تبني مدينة سجلماسة وأن تبرزها إلى الوجود، من مجرد قرية صغيرة إلى مدينة كبيرة أصبحت يحسب لها حسابها بين المدن الإسلامية المغربية الأخرى ؟

لقد جاءتنا الإجابة عن هذا السؤال من عند ابن خلدون،([2]) فحسب ما ذهب إليه، فإن أولى الجماعات التي التحقت بعيسى بن يزيد الأسود، هي جماعة من قبائل مكناسة التي تبنت مذهب الخوارج الصفرية، ومن المحتمل جدا أن تكون هذه الأخيرة قد ساهمت في بناء المدينة، ومن المرجح أن يكون المهندسين المعماريين الأوائل والبنائين وكل الحرفيين في الأيام الأولى من قيام المدينة قد تشكلوا من هذه الجماعة الأولى من المجتمع الصفري والذي مثل في نفس الوقت السكان الأوائل لمدينة سجلماسة. ثم انضمت إلى هذه المجموعات السكانية الأولى تدريجيا مجموعات أخرى استقرت بالمدينة جاءت من بلاد السودان ومن قبائل صهناجة. مما أدى إلى ازدياد عدد سكان المدينة، فنجم عن هذه الزيادة المعتبرة تطور النسيج العمراني للمدينة وربما كان ضمن هذه المجموعات البشرية الوافدة إلى سجلماسة واستقرت بها بعض البنائين والحرفيين الذين شاركوا في بناء المدينة وساهموا في تطورها العمراني.

---

[1]- البكري، المصدر السابق، ص 149

[2]- ابن خلدون، المصدر السابق، ص 155

ولقد كان أيضا للثورة التي نشبت سنة **202 هـ/818** م ببلاد الأندلس، والتي عرفت في التاريخ بحوادث الربض التي أدت بأمير الأندلس آنذاك بن هشام إلى طرد الكثير من سكان حي الربض بقرطبة وتخريبه، أثرها على مدينة سجلماسة، إذ شهدت بلاد الأندلس هجرة الكثير من القرطبيين إلى بلاد المغرب، حيث فضل بعضهم الاستقرار في مدينة فاس التي كانت تنشأ آنذاك في حين واصل بعضهم السير ليستقر بهم المقام في مدينة سجلماسة. ولنا في قصة مدرار الربضي التي وردت في المصادر التاريخية([1]) دليل ملموس على إقامة هؤلاء بالمدينة. وعلى هذا الأساس لا يمكن تجاهل ما حمله هؤلاء المهاجرين الجدد معهم من ملامح الحضارة الإسلامية الأندلسية، فساهموا بدون شك أيضا في تطور المدينة في مختلف الجوانب العمرانية والمعمارية بتوظيف مهاراتهم الفكرية والحرفية. وبالتالي يكون هؤلاء المهاجرون قد أضافوا أشياء جديدة إلى المدينة لم تكن معروفة فيما سبق منذ تاريخ تأسيس المدينة وإلى غاية وصولهم إليها، ومع كل هذه الهجرات إلا أننا نعتقد أن الخوارج الصفرية في أول الأمر، وهم بصدد إنشاء مدينتهم، وتثبيت مذهبهم، لم يسمحوا لأي كان لا يتبع مذهبهم أن يتسلل بينهم حتى لا يثير بعض النعرات والفوضى في صفوف مجتمعهم، ولا يكون بينهم مكان إلا للذي تبنى مذهبهم حتى يحافظوا على نقاوة المجتمع الصفري فيكون متماسكا. وبالتالي فإن الظروف التاريخية التي مر بها مذهبهم إلى أن استقر بهم المقام بسجلماسة، تقتضي منهم اتخاذ كل وسائل الحيطة والحذر حتى يتمكنوا من ترسيخ قواعد مدينتهم. وعليه فلن يكون المعماري والبناء إلا من المجتمع الذي تبنى مذهب الخوارج الصفرية.

وعندما تمر هذه المرحلة الحرجة، يمكن بعد ذلك أن يسمحوا بمساهمة الجميع في عملية توسيع النسيج العمراني للمدينة، وهو ما عرفته المرحلة الثانية من تاريخ سجلماسة التي شهدت مساهمة بعض القبائل العربية التي جاءت إلى سجلماسة عن طريق التجارة، حيث كانت تجد نفسها مضطرة أثناء حركتها الدءوبة بين بلاد السودان والمشرق الإسلامي أو بلاد السودان والمغرب الإسلامي أن تسلك الطريق الذي يمر بمدينة سجلماسة. الأمر الذي جعل الكثير من هؤلاء التجار يستقرون بالمدينة، فكونوا مع مرور الوقت جالية مشرقية كثيرة العدد كان لها نصيبها في

---

[1]- البكري، المصدر السابق، ص 149.
- الاستبصار، ص 201.

عملية البناء والتطور العمراني لمدينة سجلماسة، بل الأكثر من هذا وفي فترات متأخرة، أصبحت حرفة البناء حكرا على طوائف دينية غير إسلامية حيث عرفت المنطقة استقرار الجالية اليهودية بها حسب بعض المصادر التاريخية والدراسات الحديثة منذ فترات سابقة لانتشار الإسلام بالمنطقة([1])، وقد أشار إلى هذه النقطة البكري،([2]) كما تطرق إليها أيضا بنوع من التفصيل صاحب كتاب الاستبصار الذي قال فيهم: "...والبناءون عندهم يهود لا يتجاوزون بهم هذه الصناعة وكذلك كانوا ببلاد بني الناصر "،([3]) ويقول في موضع آخر: "...والسبب في تسخير أهل سجلماسة لليهود في هاتين الحرفتين الرذيلتين كونهم محبين في سكنى بلادهم للاكتساب لما علموا أن التبر بها أمكن منه لغيرها من بلاد المغرب لكونها بابا لمعدنه فهم يعاملون التجار به يخدعونهم بالسرقة وأنواع الخدائع ولما علم منهم أبو عبد الله الداعي ما هم عليه من ذلك عند استخراج عبيد الله من سجن اليسع بن مدرار بها وكان الذي نص عليه ونـــم به لليسع يهودي وحكى عبيد الله لأبي عبد الله ما جرى له معه، قتل منهم الأغنياء وأخذ أموالهم بالعذاب وأمر من شاء أن يقيم منهم بالبلد أن يتصرف في هاتين الخليتين فمن دخل في الكنافين من أصناف الناس سموهم المجرمين لاجترامهم على حرفة موقوفة على اليهود وقصروا البناء عليهم خاصة لأنهم خائفون أبدا من أن يخون أحدهم المسلم فيهلكه، فهم ينصحونهم في البناء فيلازمون الخدمة دون خروج لفرائض الصلوات ولا لغير ذلك من ملازم العبادات، فتأتي خدمتهم موفرة سريعة".([4])

يستخلص من النصين السابقين لصاحب كتاب الاستبصار، أن اليهود لم يساهموا في بناء مدينة سجلماسة فحسب بل ارتبط وجودهم بالمدينة بممارسة حرفة البناء، وقد خيروا بين البقاء في المدينة والعمل في مجال البناء وإلا الرحيل عنها لما شاع عنهم من كثرة احتيالهم على الناس في تجارة الذهب، ذلك أن وجود تجارة الذهب بالمدينة، كونها بوابة بلاد المغرب مع أفريقيا جنوب الصحراء، موطن الذهب، وانتشارها أيضا بإقليم سجلماسة، دفعهم منذ القدم إلى الإقامة بها، بل لقد لفتت هذه المناجم القريبة منها انتباه بعض تجار المشرق الذين لم يجدوا

---

[1] - Melloukhi, op. cit, p. 104.

[2]- البكري، المصدر السابق، ص 149

[3]- الاستبصار، ص 202

[4]- الإستبصار، ص 202

أمامهم طريقا يسلكونها في تجارتهم مع بلاد السودان إلا المرور عبر مدينة سجلماسة. مما أدى بالكثير منهم إلى الاستقرار بالمدينة كما سبق الإشارة إلى ذلك، وكان لكثرة توافد هؤلاء التجار على المدينة أثر بالغ في تطور عمران المدينة وعمارتها مما تطلب توفير يد عاملة مؤهلة كثيرة العدد في مجال البناء لتلبية حاجة المدينة في هذا المجال من بناء القصور ومنازل هؤلاء القادمون الجدد من المشرق الذين حملوا معهم إلى سجلماسة بعض الطرز المعمارية والفنية الشرقية وقد جاء عند ابن حوقل أن قصور سجلماسة شبيهة بقصور الكوفة والبصرة([1]) مما يفسر بانتقال التأثيرات الشرقية إلى سجلماسة عن طريق هؤلاء التجار الوافدين إليها.

وقد أوكلت مهمة البناء للجالية اليهودية الموجودة بالمدينة لعدة اعتبارات منها عملهم المتواصل طوال اليوم دون توقف لأداء فريضة الصلاة، ولا غيرها من الفرائض الإسلامية الأخرى مما يعود بالفائدة على المدينة في سرعة إنجاز البناء وربح الوقت حسب ما أورده صاحب كتاب الاستبصار، وحتى يتجنبوا الوقوع في أخطاء تضر بالمسلمين فيعاقبونهم لما شاع عنهم من تحايل في تجارة الذهب، وخداع للتجار.

خلاصة القول أن اليد العاملة التي قامت على أكتافها مدينة سجلماسة كانت في البداية مقتصرة على البربر الذين تبنوا المذهب الخارجي الصفري ثم توسع الأمر فيما بعد ليشمل العناصر الأخرى من المشارقة والأندلسيين واليهود وأن مشاركة هذه العناصر في بناء سجلماسة لم يكن عقبة أمام حكام سجلماسة في تعمير مدينتهم، بل أن تنوع هذه اليد العاملة أثرت عمران المدينة بمختلف الطرز العمرانية التي حملها معهم هؤلاء البناءين والحرفيين في مختلف مجالات البناء، الأمر الذي جعل من المدينة حاضرة إسلامية تضاهي بقية الحواضر الشرقية السابقة لها رغم ما سجلته المدينة من بطء في الأشغال نتيجة بعد المدينة عن مصادر مواد البناء من حجر وخشب. ومع ذلك فقد استطاع مؤسسو المدينة وعلى رأسهم اليسع بن أبي القاسم خلال مدة زمنية قصيرة **(140 هـ - 208 هـ/ 757 م - 823 م)** من تعمير مدينتهم، فشيدوا بها القصور والمساجد والحمامات ونشطوا التجارة مما ساهم في تطور المدينة عمرانيا واجتماعيا.

---

[1]- ابن حوقل، المصدر السابق، ص 90

خامسا – تغطية احتياجات المدينة بالمياه:

على الرغم من أن المدينة تقع في منطقة جافة صحراوية، إلا أن هذا الموضع كان يحتوي على كميات هائلة من المياه، فالمياه الجوفية متوفرة بكثرة على الرغم من ملوحتها، أما المياه السطحية فيأتي بها وادي زيز، ووادي الغريس.

نجد في نصوص الجغرافيين العرب على قلتها شهادات محددة عن الإمكانيات المائية، والكيفيات التي استعملت بها هذه المياه لتغذية المدينة، ولري واحتها الواسعة، فالبكري مثلا يتحدث عن المدينة ذاكرا أنها تقع في منطقة سهلية، وأن أرضها مالحة، وأنها تسقى من نهرين، وقد جاء في وصفه لها:" ومدينة سجلماسة مدينة سهلية أرضها سبخة حولها أرباض كثيرة وفيها دور رفيعة ومباني سرية ولها بساتين كثيرة... وهي على نهرين عنصرهما من موضع يقال له أجلف تمده عيون كثيرة، فإذا قرب من سجلماسة تشعب نهرين يسلك شرقيها وغربيها... وماؤها زعاق ([1]) وكذلك جميع ماينبط من الماء بسجلماسة وشرب زروعهم من النهر في حياض كحياض البساتين وهي كثيرة النخل والأعناب" ([2]).

أما ياقوت الحموي فيحدد لنا موضع المدينة بقوله أنها توجد جنوب المغرب في اتجاه السودان قرب نهر.

وقد جاء في وصف ابن حوقل لها:"... وسجلماسة مدينة حسنة الموضع جليلة الأهل فاخرة العمل على نهر يزيد في الصيف كزيادة النيل في وقت كون الشمس في الجوزاء والسرطان والأسد، فيزرع بمائه أحسن زروع مصر في الفلاحة وربما زرعوا سنة عن بذر وحصدوا ما راع من زرعه وتواترت السنون بالمياه، فكلما أغدقت تلك الأرض سنة في عقب أخرى حصدوه إلى سبع سنين، بسنبل لا يشبه الحنطة ولا الشعير، ولها نخيل وبساتين حسنة وأجنة ولهم رطب اخضر من السلق في غاية الحلاوة، وأهلها قوم سراة مياسير يباينون أهل المغرب في المنظر والمخبر، مع علم وستر وصيانة وجمال واستعمال للمروءة وسماحة

---

[1]– الماء الزعاق، ويقصد به الماء المر. أنظر ابن منظور، المصدر السابق، ص 183

[2]– البكري، المصدر السابق، ص 148

ورجاحة وأبنيتها كأبنية الكوفة إلى أبواب رفيعة على قصورها مشيدة عالية"([1]).

ويبقى نص الحسن الوزان أكثر النصوص وفرة من حيث المعلومات حيث يتحدث عن موقع المدينة وغزارة مياهها قائلا:" بنيت المدينة في سهل على واد زيز، وأحيطت بسور عال مازالت بعض أجزائه باقية ولما فتح المسلمون أفريقية خضعت سجلماسة لملوك زناته إلى أن طردهم يوسف بن تاشفين اللمتوني.

كانت سجلماسة مدينة متحضرة دورها جميلة... وكان فيها مساجد جميلة ومدارس ذات سقايات عديدة يجلب ماؤها من النهر، تأخذه ناعورات من وادي زيز وتقذف به في قنوات تحمله إلى المدينة."([2])

وكانت هذه المدينة حسب ماورد في المصدر نفسه مدينة واحة تمتد جنائنها محاذية لوادي زيز([3])،على الجانبين الأيسر والأيمن لمجراه، و على مسافة قدرها بعشرين ميلا. كما يذكر الحسن الوزان أن رستاقها يتكون من ثلاثمائة وخمسين قصرا ([4]) كبيرا، ومتوسطا، وصغيرا.([5])

أما من الأثريين المحدثين فقد زارها هنري تيراس سنة 1936م، ووصف أطلالها قائلا: تمتد أطلال هذه المدينة من الشمال الغربي للواحة شرق مجرى واد زيزعلى طول ثلاثة كيلومترات وعرض يقدر من 500إلى 600 متر([6])."علما أن طبيعة منطقة المدينة صحراوية، وأن واد زيز بالنسبة لسجلماسة ورستاقها يضاهي نهر النيل بالنسبة لمصر. أما الواديان الذان كانا يسقيان الواحة ويزودان المدينة بما تحتاجه من المياه فهما:

1- وادي زيز: وهو واد تغذيه مياه ذوبان الثلوج المتراكمة على أعالي قمم سلسلة جبال الأطلس، ومنبعه في هذه الجبال الشاهقة يقع على ارتفاع ثلاثة آلاف متر، وهذا الوادي تسقي مياهه منطقة تافيلالت كلها وينتهي مجراه في رمال

---

[1]- ابن حوقل، المصدر السابق، ص 90

[2]- الحسن الوزان، المصدر السابق، ص 127. وانظر الطبعة الفرنسية.
Léon L'Africain, op.cit. p.428

[3] - يبلغ طول وادي زيز 270 كلم.

[4]- لقد جاء عند ابن منظور في معنى لفظ القصر بفتح الصاد أصول النخل والشجر وسائر الخشب، ما القصر بصاد ساكنة فمعناه البناء. ابن منظور، المصدر السابق، ص 268

[5]- الحسن الوزان، المصدر السابق، ص 125

[6]- H. Terrasse, op. cit. p 581.

الصحراء.

ومن نص ابن حوقل ([1]) يظهر جليا أن هذا الوادي كان منسوب المياه فيه غزيرا، وأن فيضاناته كانت تغطي مساحات واسعة.

أما ابن الخطيب ([2])، فإنه يشير إلى غزارة مياه هذا الوادي، وإلى المنشآت المائية التي أنجزت في عهد عيسى بن يزيد الأسود الذي قام ببناء العديد من المنشآت المائية المختلفة لتزويد المدينة بالمياه الصالحة للشرب، ذلك أن المياه الجوفية كانت مياها مالحة يصعب على الإنسان شربها.

لقد قام عيسى بن يزيد الأسود بحفر القنوات وإنشائها لتوزيع مياه واد زيز على حدائق وبساتين واحة سجلماسة، كما عمل على إنشاء العديد من القنوات لتصريف المياه المالحة خارج الواحة، وذلك بحفر هذه القنوات داخل المناطق الزراعية ومدها إلى أن تلتقي بمجرى الوادي في نقطة تقع خارج الواحة. أما اليسع بن أبي القاسم فقد أكمل العمل الضخم الذي بدأه يزيد.

2- وادي الغريس: ينحدر هذا الوادي من سلسلة جبال الأطلس أيضا، حيث يصل إلى منطقة تافيلالت وهو في أقصى منسوبه من المياه. وفي هذه المنطقة يكون مجراه محاذيا لمجرى وادي زيز لمسافة معتبرة، حيث يلتقي بعد ذلك الواديان ليكونا وادي الدرة الذي ينتهي مجراه في رمال الصحراء.

ونظرا إلى أن هذان الواديان يقل منسوب المياه فيهما أثناء فصل الحرارة، وأحيانا يجفان نهائيا خاصة في فصل الصيف فيلجأ سكان المنطقة إلى إستعمال مياه الآبار رغم ملوحتها لقضاء العديد من حوائجهم، وقد يصل بهم الأمر إلى ري نخيلهم بها عندما تشتد الحرارة ويزداد الجفاف. ([3])

سادسا - الموارد الزراعية والرعوية:

تزخر منطقة سجلماسة بزراعة تميزت بكثافتها وكثرة إنتاجها، فهي من

---

[1]- ابن حوقل، المصدر السابق، ص 90

[2]- ابن الخطيب، أعمال الأعلام،ج 3، ص 139

[3]- علما أن شجرة النخيل من أكثر الأشجار تحملا للملوحة، حيث لاحظت في زياراتي الاستكشافية التي قادتني إلى منطقة تمنطيط في إطار هذه الدراسة العديد من غابات النخيل المزروعة في السبخة، وكذلك الحال في منطقتي بسكرة، وورقلة.

نوع الزراعة الكثيفة المسقية التي تعطي أكلها كل عام، ونجد في المصادر التاريخية، والجغرافية الوسيطية العديد من الإشارات التي تدل على وفرة إنتاج أراضي المنطقة([1]) على الرغم من ملوحتها. ذلك أنها كانت تسقى بمياه جيدة محملة بالطمي الذي يشكل سمادا طبيعيا مما يجعلها تعطي إنتاجا وافرا.

لقد أجمعت النصوص الجغرافية على وصف واحة سجلماسة بالخضرة، وبالامتداد، والشساعة، واختلاف الزراعات فيها من حبوب، ونخيل، وكروم، وفواكه على اختلاف أنواعها. فياقوت الحموي مثلا في حديثه عنها يشير إلى أن المدينة تقع على ضفتي وادي زيز الذي يخترقها، وقد وصفه بالعظمة، وغزارة المياه، حيث زرعت على جوانبه جنائن كثيرة من النخيل تمتد على مرأى البصر([2]). أما ابن حوقل فقد أعجب بغنى المنطقة من الناحية الزراعية ([3])، وكذلك الحال بالنسبة للبكري([4])، واليعقوبي ([5]) والإدريسي ([6])، والحميري ([7])، الذين تتفق نصوصهم على أن إنتاج المنطقة الوافر كان يكفي لسد احتياجات العدد الهائل من سكان مدينة سجلماسة.

لقد تمكن فلاحو سجلماسة على الرغم من الصعوبات الطبيعية ــ من حرارة، جفاف، ملوحة الأرض، عواصف رملية، آفة الجراد ــ من اختراع تقنيات زراعية تتلاءم وطبيعة أراضي المنطقة من الناحيتين المناخية وتكوين التربة، فتمكنوا بذلك من إنشاء واحة واسعة المساحة في محيط صحراوي يتميز مناخه بالجفاف ([8]).

لقد تعاون فلاحو منطقة سجلماسة وبدوها، على تزويد المدينة بما تحتاج

---

[1]– الإدريسي، نزهة المشتاق، ص 38.
– ابن فضل الله العمري، المصدر السابق، ج1،، ص 350 – 351.
– محمود مقديش، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق علي الزواوي ومحمد محفوظ، ج1، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1988، ص 56. المقدسي، المصدر السابق، ص 190–191.
[2] – ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، ص 229
[3] – ابن حوقل، المصدر السابق، ص 90
[4] – البكري، المصدر السابق، ص 148
[5] – اليعقوبي، المصدر السابق، ص 114
[6] – الإدريسي، المصدر السابق، ص 37–38

[7]- Melloukhi, op. cit. P 243.
[8]- H. Terrasse, op. cit. P 583.

إليه من مواد استهلاكية، مما أهلها للاضطلاع بدور هام، بل وأساسي في التجارة الدولية التي عرفت نشاطا كبيرا بين البلاد الإسلامية، ممثلة في مدينة سجلماسة، وممالك بلاد السودان الغربي.

وإذا حاولنا البحث في المصادر التاريخية عن الإرهاصات الأولى، التي أدت إلى قيام هذه الواحة التي نتجت عنها حياة استقرار بالمنطقة، أدت بدورها إلى إنشاء مدينة سرعان ما أصبحت عاصمة من عواصم بلاد المغرب في القرون الأولى من التاريخ الهجري. نجد عند ابن الخطيب مثلا، أن عيسى بن يزيد الأسود الذي يعتبر المؤسس الفعلي للمدينة، قد أنشأ منذ الفترة الأولى من تاريخ تأسيس هذه المدينة العديد من السواقي التي تأتي بمياه وادي زيز الغنية بالطمي لتصبها على الأراضي الشاسعة التي استصلحت على جانبي وادي زيز. ([1])

وقد أكد البكري أن زراعة الواحة كانت تقوم على الري بمياه وادي زيز، ووادي الغريس([2]). فمياه هذين الواديين بعد قطعهما منطقة جبال الأطلس الأطلس حيث منبعهما، يمران في مجريهما عبر سهل تافيلالت الذي تمتاز أراضيه بالملوحة لتصل في النهاية إلى المدينة بنسبة ملوحة أقل بكثير من نسبة ملوحة المياه الباطنية للواحة، الأمر الذي يمكن هذه الأراضي أثناء فترات فيضان الواديان من التخلص من نسبة هامة من ملوحتها، خاصة وأن فلاحي المنطقة كانوا قد وضعوا قنوات لصرف المياه المالحة وهيئوها لتستجيب لهذا الظرف، كما أشرنا آنفا، فتغمر المياه العذبة أراضي الواحة المالحة، وأثناء تدفقها تحمل معها نسبة كبيرة من الأملاح فتلقي بها بعيدا عن الأراضي الزراعية مما يعطيها نوعا من التوازن، ويكسبها الخصوبة من جديد.

وقد لاحظت في زياراتي لواحات منطقة الساورة القريبة من منطقة سجلماسة كمنطقة لحمر، وبوقايس، وتاغيت، والعبادلة، وإيقلي. مدى معاناة هذا المزارع الصحراوي في هذه المناطق التي تتميز بجفاف مناخها، وشدة حرارتها، والفروق الكبيرة في مستويات الحرارة بين الليل والنهار، وكذا المتاعب التي تسببها له العواصف الرملية، التي قد تغطي مساحات زراعية شاسعة بما تحمله من أتربة أثناء هبوبها. كل هذا يعكس مدى معاناة المزارع ومدى حرصه

---

[1]- ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج3، ص139

[2]- البكري، المصدر السابق، ص 148

واجتهاده في مقاومة هذه الظواهر الطبيعية ومحاولة تدجينها. ولنا أن نتصور حياة المزارعين السجلماسيين في تلك الفترة من الزمن على قلة عتادهم وبدائيته.

إن هذا الإنسان معاند ونشيط لا يهاب الصعاب، ولا يضنيه التعب والأعمال الشاقة. ذلك أن كلا من هذه المصاعب الطبيعية، أو آفة الجراد قد تقضي على تعب حياة إنسان كلها، وتعيد الطبيعة إلى ما كانت عليه في الأول لو أنه توقف عن ممارسة نشاطه بطريقة عادية لفترة قصيرة من الزمن، أضف إلى هذا أن الأراضي الرملية كثيرة الامتصاص للماء فلا تبقى فيها الرطوبة إلا لمدة قصيرة من الزمن مما يستدعي المداومة على الري خاصة في فصل الصيف.

إن السياسة المائية التي اتبعها الأمراء الكبار في الأسرة المدرارية، مكنتهم من سد احتياجات سكان المدينة المتزايدة من الماء الشروب، وسقي الواحة على اتساعها. إن العمل بسياسة رشيدة ونشيطة في استصلاح الأراضي، جعلت الواحة تمتد مساحتها على مر العصور، فمن الستة أميال الطولية للواحة التي ورد ذكرها عند البكري، ([1]) نجد الحسن الوزان ([2]) بعد ذلك بقرون طويلة يتحدث عن واحة مساحتها أضعاف المساحة التي أشار إليها البكري. وتجدر الإشارة هنا إلى أن الزراعة المعتمدة في الواحة من النوع المكثف، والتي تقوم على ثلاثة طوابق، السفلي منها مخصص لزراعة الخضار والحبوب وهي زراعة موسمية، أما الطابق الثاني فتمثله الأشجار المثمرة كالرمان، والكروم، والعنب إلى غير ذلك من أنواع الأشجار المثمرة، ثم يأتي بعد ذلك الطابق الأخير الذي يتشكل من شجرة النخيل الباسقة، التي تمكن مختلف المحاصيل الزراعية للطابقين السفليين من النمو في جو لطيف ومناسب، بما توفره هذه الأخيرة من ظلال تساعد على توفير المناخ المناسب لنمو المحاصيل بطريقة جيدة، بينما تكتفي هي بما تمتصه عروقها من الماء لاستمرار نموها رغم تعرض قمتها لأشعة الشمس المحرقة، مصداقا للمثل العربي الذي يقول:" النخلة شجرة عروقها في الماء وقمتها في النار".

كل هذا يؤكد ما جاء في النصوص الجغرافية، التي تتحدث عن هذا الازدهار الزراعي في ناحية سجلماسة، وتتحدث عن الشريط الأخضر الذي يمتد على ضفتي وادي زيز والغريس لمسافة طويلة تتفاوت من مصدر لآخر،

---

[1] - البكري، المصدر السابق، ص 148

[2] - الحسن الوزان، المصدر السابق، ص 125- 126

فالمقدسي ([1]) مثلا تحدث لنا عن انتاج الواحة المتنوع وذكر لنا نباتات صناعية كانت تغرس في ناحيتها كالقطن والحنة والكمون والكروية. والملاحظ أيضا من خلال المصادر أن عملية الاستصلاح المعتمدة على الري كانت تتميز بنمو مستمر نشط للغاية ففي نص اليعقوبي ([2]) الذي كتب عن مدينة سجلماسة في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)، نجد ما مفاده أن هذه المدينة وواحتها تعتمد اعتمادا أساسيا على مياه وادي زيز والغريس، ذلك أنه يقول أن المدينة لا عيون لها ولا آبار، بينما نجد في نص البكري ـــ الذي وصف المدينة في القرن الرابع الهجري (الحادي عشر ميلادي) ـــ أنها كانت تحتوي على العديد من الآبار، وأن عبد الرحمن بن حبيب الذي ذاع صيته في تهيئة المسالك الصحراوية قد زود منطقة سجلماسة بالعديد من الآبار التي تقوم عليها تجارة القوافل. ([3])

وإذا ما قارنا ازدهار الحياة الفلاحية بمنطقة سجلماسة، بما كانت عليه بمنطقة القيروان وهي عاصمة الغرب الإسلامي، فيمكن القول أن المدينتين تميزتا بكونهما أسستا في منطقة شبه صحراوية جافة مياههما الجوفية تغلب عليها الملوحة، إلا أن مدينة القيروان كانت قليلة المياه السائلة، فنهر السراويل، ونهر زرود كانا من الأنهر السهبية القليلة الفيضان. بينما امتاز نهري زيز والغريس بوفرة منسوبهما من المياه الذي تغذيه مياه الأمطار أثناء الفصول المطيرة، ومياه الثلوج المتراكمة عند ذوبانها في فصل الحرارة. لكل هذه الأسباب عانت مدينة القيروان على مدى تاريخها من قلة المياه الصالحة للشرب، ونقص المياه الموجهة للري، وعلى العكس من ذلك، فإن مدينة سجلماسة كانت تعد من المدن التي تتوفر على كمية المياه بكثرة.

سابعا – الاقتصاد البدوي (تربية المواشي):

أما إذا انتقلنا للحديث عن المجال الجغرافي لإقليم سجلماسة خارج الأراضي الزراعية، فيوجد مجال واسع، تنبت فيه الكثير من الأعشاب والأشجار

---

[1] – المقدسي، المصدر السابق، ص190– 191.
– ابن فضل الله العمري، المصدر السابق، ص 350
– محمود مقديش، المصدر السابق، ص 56.

[2] – اليعقوبي، المصدر السابق، ص114

[3] – البكري، المصدر السابق، ص 156– 157

الصحراوية، التي تستطيع النمو في مناخ قليل الأمطار. وهو مجال يحيط بالمدينة من جميع الجهات، وتقطنه العديد من القبائل البدوية التي تعيش حياة تنقل، من مكان إلى آخر ومن منطقة إلى أخرى تتبعا لمصادر المياه والمراعي الخصبة.

وقد اهتم سكان هذه المنطقة الزراعية، اهتماما كبيرا بتربية المواشي من خرفان، وماعز، وإبل، وأحصنة، وبغال. ونجد في النصوص العربية بعض من وصف المنطقة بكونها أراضي رعوية من الدرجة الأولى، ويؤكد الكثير من المؤرخين أن منطقة سجلماسة كانت قبل تأسيس المدينة، وقبل أن تعرف استقرار الناس في الموضع الذي أنشئت فيه المدينة فيما بعد، مكانا تلتقي فيه القبائل المتنقلة عدة أيام في السنة ([1])، فأصبح هذا الموضع سوقا تتبادل فيه إنتاجها بإنتاج مناطق الشمال.

وقد جلبت شهرة المنطقة بهذه السوق، ووفرة المياه بها، ناهيك عن وجود الأراضي الصالحة للزراعة، القبائل إلى استقرار بها في أول الأمر، وسرعان ما أدت هذه العوامل إلى تأسيس المدينة، وإنشاء الواحة.

ولما كان لكل سكان قرار حاجة كبيرة للإنتاج الحيواني، من حليب ومشتقاته، ولحوم على اختلاف أنواعها، وصوف، ووبر. فقد اهتمت القبائل البدوية بتنشيط التجارة بينها وبين المدينة فكانت تمدها بما تحتاجه من هذه المواد، وقد شجع هذا النشاط سكان المدينة، وحثهم على امتلاك قطعان كبيرة من الإبل والأغنام كانت ترعى خارجها. والجدير بالذكر أن الأمير مسعود بن واندين كان يمتلك عددا لا يحصى من الإبل التي كانت تمتد مراعيها إلى بلاد درعة، ([2]) وقد ورد في المصادر التاريخية أن المرابطين عندما تمكنوا من فتح مدينة سجلماسة غنموا أكثر من خمسين ألف رأس من الإبل كانت ملك مسعود بن واندين. ([3])

ويبدو أن سكان سجلماسة اعتنوا بصفة خاصة بتربية الإبل، لما لهذا الحيوان الصبور من قوة صبر على المشاق، وعلى قطع المسافات الطويلة في

---

[1]- البكري، المصدر السابق، ص 149

- ابن عذاري، المصدر السابق، ص 156

[2]- الناصري أبوالعباس، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج2، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدارالبيضاء، المغرب، 1954، ص 12

[3] - المصدر نفسه، ص 11 – 12

الصحراء دون حاجته إلى كميات هامة من المياه لسد حاجياته.

وبما أن سجلماسة كانت مدينة يعتمد اقتصادها على التجارة بصفة أساسية،وأن تجارتها كانت تجارة برية، وأن الجمل قد اعتمد فيها كوسيلة النقل الأولى، لنقل البضائع والإنسان على السواء، فإن الاعتناء بهذا الحيوان، كان من العناصر التي ساهمت في غنى المدينة، وفي تطور نشاطها التجاري. ومع ذلك فقد اعتنى سكان سجلماسة بتربية الأحصنة التي استعملوها أيضا للتنقل وفي المعارك. وكانت الأغنام تربى للاستفادة من لحومها وألبانها، ولتلبية احتياجات مصانع الدباغة والنسيج المنتشرة بكثرة في المدينة. فياقوت الحموي يتكلم عن أهمية الصوف في الصناعة بمنطقة سجلماسة حيث أشار إلى إجادة نسائها لصناعة الصوف، فكن ينسجن أقمشة جميلة ومتقنة الصنع فاقت جودتها ما كان يصنع من الأقمشة بمصر. وكان سعر القطعة منها يتعدى خمسة وثلاثون دينارا ([1]). وقد أشار البكري في حديثه عن الطريق من مدينة فاس إلى سجلماسة، عن أثواب تصنع في سجلماسة من أجود الأصواف التي كانت تستورد من حصن يدعى يرارة والتي يبلغ سعر القطعة منها أزيد من عشرين مثقالا ([2]).

ويظهر من هذا كله أن منطقة سجلماسة، كانت منطقة تعددت فيها أسباب الغنى والازدهار، فالأراضي الزراعية واسعة تعطي إنتاجا وافرا، والمياه كثيرة سائلة وباطنية، والأراضي الرعوية لا تقدر مساحتها، توفر للمدينة احتياجاتها من الحليب واللحوم والأصواف والجلود بكميات وافرة وبأسعار معقولة، علما أن المدينة كانت نقطة التقاء. تلتقي فيها القوافل الآتية من مختلف مناطق العالم القديم كلها والعابرة لبلاد السودان الغربي، وأن المدينة كانت أيضا سوقا محلية تقصدها قبائل المنطقة لتبادل إنتاجها، حيث يلتقي فيه ساكن الصحراء بساكن التل، وقاطن السهل بقاطن الجبل، مما جعلها مركزا سياسيا واقتصاديا من الدرجة الأولى في الفترة الزمنية الممتدة من تاريخ تأسيسها إلى أن أكتشف الغربيون الطريق البحري المؤدي إلى بلاد السودان الغربي.

---

[1] – ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج2، ص 192

[2] – البكري، المصدر السابق، ص 147

1- الصناعات التقليدية:

لقد لعبت الصناعات التقليدية دورا هاما في اقتصاد إمارة بني مدرار عامة، ومدينة سجلماسة وواحتها على وجه الخصوص، ورغم أن المصادر الإسلامية، ونتائج الحفريات الحديثة والدراسات المنشورة في المجلات بناء على الاستكشافات العلمية لم تقدم لنا إلى اليوم إلا القليل من المعلومات على النشاط الاقتصادي عموما والحرف على الخصوص، إلا أنه بإمكاننا إذا غربلنا هذه النصوص الوصول إلى بعض النشاطات الحرفية التي انتشرت في منطقة سجلماسة.

نجد عند ابن حوقل بعض الأرقام التي تدخل في النشاط الاقتصادي بالمدينة حيث يقول أن خراجها في العهد الفاطمي يصل إلى أربعة مائة ألف دينار، إن هذا الرقم الكبير يقدم لنا فكرة على أهمية النشاط الاقتصادي في المرحلة الفاطمية، ومن المعروف أن أهل سجلماسة قد اشتهروا بكونهم يدفعون قيمة سلعهم التي يقتنونها من أسواق بلاد المغرب المختلفة بدينار ذهبي ذا نوعية جيدة ([1]) ضرب بسجلماسة، والجدير بالذكر أن بنو مدرار ضربوا السكة ([2]) قبل القرن العاشر، ففي عهد الشاكر لله سكت أول الدنانير التي يظهر عليها اسم سجلماسة، ([3]) ونحن نعلم إن المدينة بقيت من مراكز الضرب النشطة حتى العهد الموحدي.

وقد اشتهرت المدينة بصناعات كثيرة ومختلفة أهمها:

أ- صناعة النسيج:

لقد أدت صناعة النسيج دورا بالغ الأهمية في اقتصاد المدينة، وقد كثرت الورشات التي تعمل في هذه الصناعة على اختلاف مراحلها، فهناك ورشات الغزل، وورشات الصباغة، وورشات النسيج، وورشات الخياطة، إلى غير ذلك من الورش.

وقد اشتهرت مدينة سجلماسة بنوعية أنسجتها الصوفية واستطاعت بذلك تصدير كميات كبيرة من هذه المنسوجات إلى مختلف أنحاء العالم في تلك الفترة. ويرجع ازدهار هذه الصناعة لكون المدينة تقع وسط منطقة رعوية شاسعة يكثر

---

[1]- Melloukhi, op. cit. P 397.

[2] – أما الأدارسة فيبدو انهم لم يضربوا سكة ذهبية بل اكتفوا بالسكة الفضية والنحاسية.

[3] – البكري، المصدر السابق، ص 151

فيها إنتاج الصوف ذو النوعية الرفيعة.

تشير النصوص الواردة في المصادر العربية أن صوف **إيراره** ([1]) كانت تباع بكميات كبيرة في أسواق سجلماسة، وقد خصص لهذا النشاط التجاري سوق بالمدينة ([2])، وكانت النسوة هن اللواتي يقمن ببيع هذه الصوف، بل أن هذه الصوف كانت تصدر بعد تنظيفها إلى مناطق كثيرة من العالم الإسلامي، والى أفريقيا جنوب الصحراء.

لقد تطرقت كتب كثيرة إلى أهمية الصناعة النسيجية بسجلماسة، وتحدثت عن النوعية الراقية من الأنسجة، فمثلا يقول صاحب كتاب الاستبصار الذي يعد من كتاب القرن الثاني عشر ميلادي أن نوعية أنسجة سجلماسة تضاهي نوعية أنسجة بلاد الجريد، ويظهر من كل هذا أن أهل سجلماسة اجتهدوا في صناعة الأنسجة الفاخرة ذات القيمة العالية مما ضمن لهم دخولا لا بأس بها من هذه الصناعة.

أما عن القطن، وعن الصناعات المرتبطة به فيلاحظ الإدريسي([3])أن المنطقة كانت تنتج كميات لا بأس بها من هذه المادة الحيوية ومن الممكن جدا أن تكون قد دخلت في بعض الصناعات النسيجية.

ب - صناعة الخشب:

رغم جفاف منطقة سجلماسة، وقلة ثروتها الغابيـــة إلا أن الواحـــة وجهتهـــا، وخاصة المناطق التي تنتشر فيها فيضانات وادي زيز، احتوت على بعض المنـــاطق الغابية التي كانت تنتج إنتاجا لا بأس به من الخشب الذي استعمل في ورشات البنـــاء عموما وفي ورشات النجارة على وجه الخصوص. ([4])

لقد ارتبطت صناعة الخشب بسجلماسة ارتباطا وثيقا بما تحتاجـــه القوافـــل التجارية من معدات خشبية، كأوتاد الخيم والكثير مـــن الأدوات التـــي ارتبطـــت باحتياجات التجار وابلهم من مواد مصنعة بهذه المادة. أما الأخشاب ذات النوعيـــة

---

[1] – تقع منطقة إيرارة على بعد مرحلة من سجلماسة.

[2] – البكري، المصدر السابق، ص 152

[3] – الإدريسي، المصدر السابق، ص 69

[4] - Melloukhi, op. cit. P 100-102

الرفيعة التي عادة ما تصنع في ورشات مختصة، وتباع بأثمان باهضة لمن له الجاه والمال فقد استوردت من جبال الأطلس التي اشتهرت بكثافة غاباتها بل أن بعضها كان يستورد من منطقة درعة ليعاد تصديره بعد تصنيعه إلى بلاد أفريقيا جنوب الصحراء حتى غانا.

أما جذوع النخيل فقد كانت كثيرة الاستعمال في الورشات البنائية في سجلماسة، كمااستعمل أيضا الجريد، والكرناف، والليف، إلى غير ذلك من النباتات، لكثرة إنتاج الواحة منها، ودناءة أسعارها في الأسواق. ومازالت جذوع النخيل تستعمل في مباني المنطقة إلى يومنا هذا.

ج – **صناعة المعادن:**

أما عن صناعة المعادن فقد انتشرت بالمدينة، وكانت تصنع بها بعض الآلات والأدوات التي يستعملها الفلاح والحرفي السجلماسي في حياته اليومية،علما أن منطقة المدينة كانت تنتشر بها المناجم المختلفة من مناجم الذهب والفضة والنحاس والحديد.

وقد استمر أغنياء المدينة في استخراج هذه المواد الأولية حيث أن بعضها كان يحول تحويلا نصفيا قرب المناجم، والبعض الآخر كان ينقل إلى المدينة ليتم تحويله في ورشات مخصصة لهذا الغرض.

لقد تمكن سكان سجلماسة من تصدير إنتاج الورشات المعدنية السجلماسية إلى مدن المغرب المختلفة وإلى بلاد أفريقيا جنوب الصحراء.

د – صناعة الجلود:

أما الصناعات الجلدية فقد انتشرت انتشارا واسعا ([1]) لأسباب أهمها، كثرة الإنتاج الحيواني للدولة المدرارية من جهة، فهي دولة تكثر فيها الأراضي الرعوية، ولتلبية الاحتياجات الكبيرة لهذه المادة الإستراتيجية من جهة ثانية، بعد أن زاد الطلب عليها من طرف القوافل التجارية التي نشطت كثيرا في هذا

---

[1] – البكري، المصدر السابق، ص 152

– الإدريسي، المصدر السابق، ص3

الميدان من التجارة آنذاك.

ثامـــنا – التـــجارة:

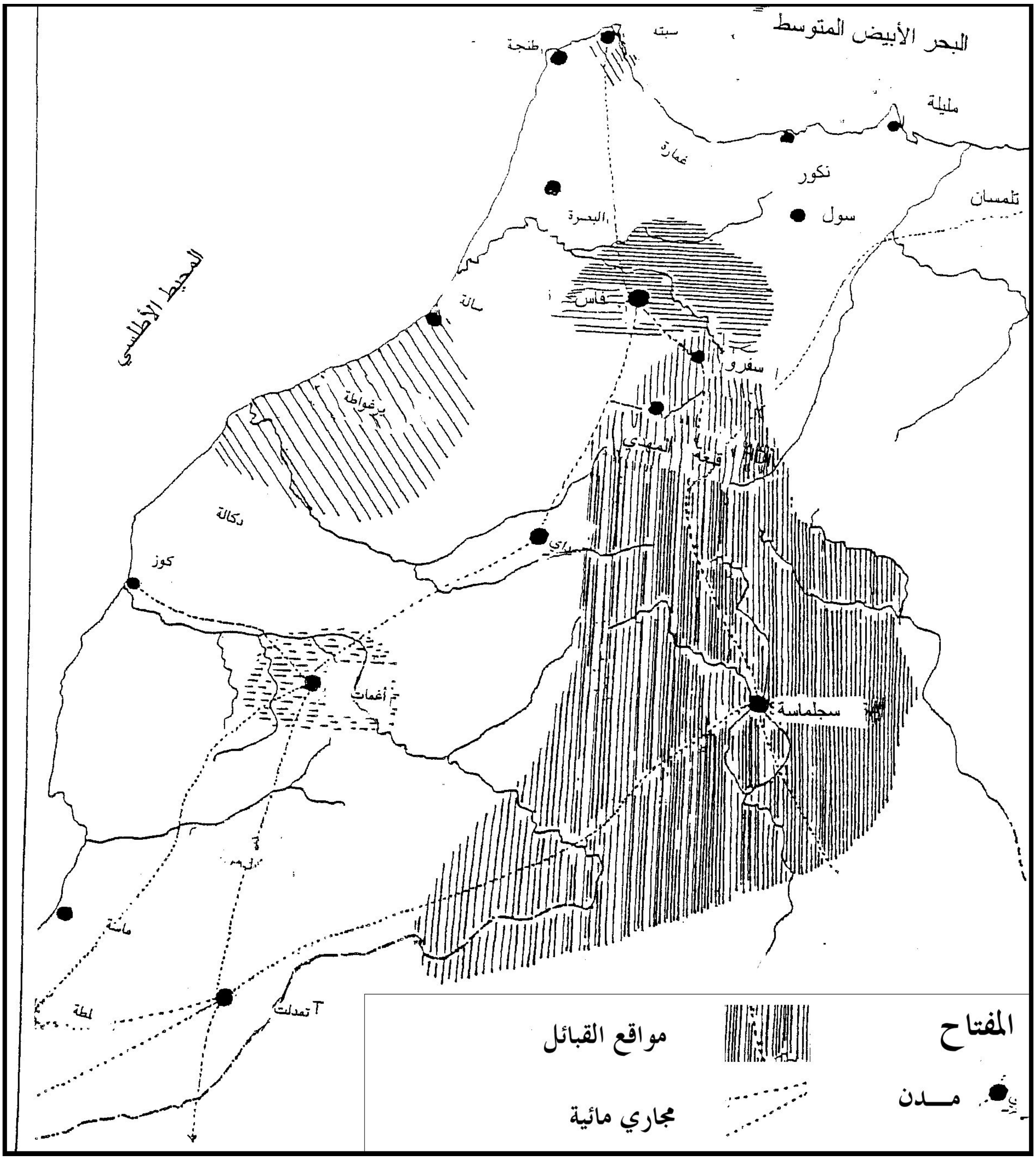
لن أطيل في دراسة أهمية التجارة مع أفريقيا جنوب الصحراء ومدى مساهمتها في ازدهار اقتصاد المغرب الإسلامي على العموم والإمارة المدرارية على وجه الخصوص بل سأحاول في هذا المقطع من البحث العمل على إظهار أهمية التجارة مع أفريقيا جنوب الصحراء في ازدهار النسيج العمراني لمدينة سجلماسة ودور هذه المدينة في تطوير وتنظيم اقتصاديات جهتها.

لقد تميزت مدينة سجلماسة بدورها المهيمن في اقتصاديات ناحيتها، كما أدت دورا بارزا في اقتصاد المغرب الإسلامي آنذاك.

1 – دور سجلماسة في التجارة الجهوية:

لقد كانت سجلماسة سوقا محلية لعبت دورا رئيسيا في تنشيط الحياة التجارية والاقتصادية في ناحيتها، ودور لا يستهان به في اقتصاد المغرب الإسلامي وأفريقيا جنوب الصحراء عموما. حيث عمل سكان المدينة على تنشيط اقتصاد الناحية باستثمار جميع إمكانياتها المعدنية والزراعية والبشرية للوصول إلى إنتاج كثيف ذا نوعية جيدة. (**خريطة رقم 28**)

لقد اجتهد أهل المدينة في استغلال كل الفرص المتاحة لهم في المنطقة، فتمكنوا من إدخال هذه الناحية(أي إمارة بنو مدرار) في اقتصاديات العالم القديم بربط إنتاجها بإمكانياتها المادية التي تزخر بها المنطقة وكذا استـــغلال الإمكانـــيات البشرية الهائلة التي تتوفر عليها. وقد زاد من شأنها كون سجلماسة كانت موضعا وسطا بين إنتاج المناطق التلية والمناطق الجبلية من جهة والمناطق السهبية والمناطق الصحراوية من جهة ثانية، وأن موضعها أدى دور السوق الموسمي الذي كانت تلتقي فيه القبائل البدوية المختلفة قبل أن تؤسس فيه المدينة بوقت طويل.



خريطة رقم 28: مواقع القبائل التي ساهمت في تأسيس الدولة المدرارية

من إعداد الطالب

وتذكر المصادر التاريخية أن مدرار نفسه كان حرفي ماهر في صناعة الأدوات الحديدية، وأنه كان يبيع إنتاجه في هذا السوق الذي كانت تباع فيه سلع مختلفة كالتمور بمختلف أنواعها، والخضر الجافة وأنواع من الفواكه الجافة والقمح والشعير والسمن والعسل والأصواف وغيرها من إنتاج المنطقة ([1]).

ويبدو أن المدينة كانت تحتوي على مخازن كبيرة كانت تكدس فيها السلع التي يراد تصديرها أو إعادة تصديرها، وكانت لها أسواق في قصورها الهامة، وساحات كبيرة تستعمل لاستقبال القوافل ([2]).

لقد كانت مدينة سجلماسة من المدن الكبيرة، وإذا كانت مكانتها أقل أهمية من مدينة تيهرت، إلا أنها كانت مركزا تجاريا هاما وميناء صحراويا بارزا، ومرحلة أساسية في التجارة مع بلاد السودان الغربي. حيث اختص أهلها في هذه التجارة، وتميزوا عن غيرهم في معرفة مسالك الصحراء المقفرة، ونقاط مياهها، وأماكن رعيها، وتمكنوا من وضع تحالفات كثيرة مع الرحل قاطني المنطقة لتمكين قوافلهم من المرور في أمن وسلام([3]).

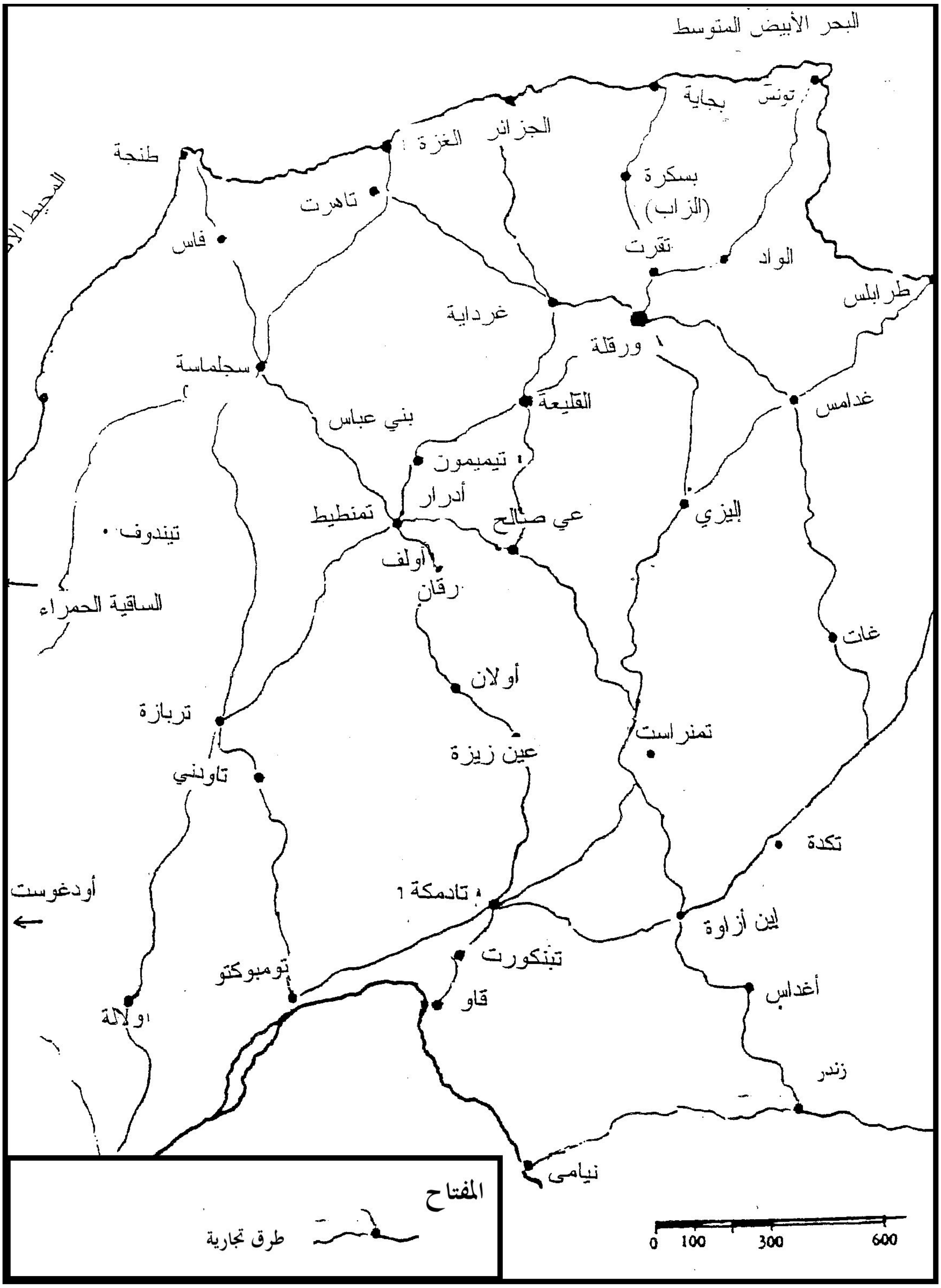
2 – التجارة مع أفريقيا جنوب الصحراء:

يمكن من خلال النصوص القليلة التي تتحدث عن هذه التجارة (**خريطة رقم29**) أن نقسمها إلى ثلاث مراحل:

[1]– نذكر من بين أهم أسواق منطقة سجلماسة سوق إيرارة الذي اشتهر بصوفه، وسوق حميس، وسق درعة، وسوق أغمات، وسوق رفيس.

[2]- Melloukhi, op. Cit. P 292.

[3]– لقد أصبحت طريق القوافل المؤدية إلى بلاد السودان عبر الصحراء الشرقية، غير آمنة مما جعل التجار يفضلون طريق سجلماسة. وفي هذا الصدد يقول ابن حوقل،"... وفيها الطريق من مصر إلى غانه فتواترت الرياح على قوافلهم ومفرد تهم، فأهلكت غير قافلة وأتت على غير مفردة، وقصدهم أيضا العدو فأهلكهم غير دفعة، فانتقلوا عن ذلك الطريق وتركوه إلى سجلماسة. وكانت القوافل تجتاز بالمغرب إلى سجلماسة وسكنها أهل العراق وتجار البصرة والكوفة والبغداديون الذين كانوا يقطعون ذلك الطريق فهم وأولادهم وتجاراتهم دائرة ومفرد تهم دائمة وقوافلهم غير منقطعة إلى أرباح عظيمة وفوائد جسيمة ونعم سابغة قلما يدانيها التجار في بلاد الإسلام سعة حال". المصدر السابق، ص 65.



خريطة رقم 29: الطرق التجارية مع إفريقيا جنوب الصحراء من إعداد الطالب

أ- **المرحلة الأولى:** وتمتد من القرن الثاني إلى الخامس الهجري، حيث يذكر ابن عبد الحكم ([1]) أن عقبة بن نافع الفهري بعد تمكنه من فتح بلاد السوس الأقصى حاول التوغل إلى بلاد السودان ولم يتمكن من اختراقها حسب الكاتب نفسه لأسباب منها قلة المياه، كما يذكر ابن عبد الحكم أيضا أن عبيد الله بن حبيب الفهري تمكن من دخول هذه البلاد وعاد منها محملا بالذهب. وحسب ما أورده كل من ابن عبد الحكم، وابن خرداذبه، واليعقوبي ([2]) أن هناك تجارة مثمرة كانت موجودة بين شطي الصحراء الكبرى. كل هذا يؤدي بنا إلى القول بأن الفاتحين الأوائل تمكنوا من تحديد مسالك معينة، حددوا مراحلها وحفروا آبارها، وكانت هذه المسالك تربط منطقة سجلماسة التي لم تنشأ بعد بأفريقيا جنوب الصحراء.

إن روح التسامح الديني التي سادت بالمدينة جعلت العديد من اليهود يقيمون بها ([3]) وينشطون في الحقل التجاري، إذ يذكر صاحب كتاب الاستبصار([4]) أنهم كانوا من أغنياء تجارها.

ب - **المرحلة الثانية:** وتمتد من القرن الثالث إلى القرن الخامس الهجري، حيث تجمع المصادر التاريخية والجغرافية أن هذه الفترة كانت من أنشط الفترات الاقتصادية حيث أصبحت المدينة من أهم المراكز المغربية إن لم تكن الثاني في التجارة ببلاد المغرب مع أفريقيا جنوب الصحراء.

لقد اعتمدت هذه التجارة على منتوجين هامين واستراتيجيين هما الملح من الناحية المغربية، ذلك أن الملح مادة استراتيجية وحيوية لايستطيع الإنسان الاستغناء عنها في غذائه، وأنها كانت لاتنتج بتاتا في بلاد السودان([5]) لرطوبة مناخه وكثرة أمطاره. أما في بلاد المغرب فهي متواجدة بكثرة في الملاحات والسباخ المنتشرة في صحرائه ([6]) والذهب من الناحية السودانية خاصة وهي

---

[1]- ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص 51-60

[2]- اليعقوبي، المصدر السابق، ص 169

[3] - البكري، المصدر السابق، ص149. وانظر أيضا Melloukhi, op. cit. p 299.

[4]- الاستبصار، ص202

[5]- ابن حوقل، المصدر السابق، ص 96 إلى 99

[6]- تعد ملاحات أوليل من أهم الملاحات في منطقة الجنوب الغربي للمغرب، تبعد عن سجلماسة بمسيرة

بلاد مشهورة به حيث وصفها الإصطخري قائلا: "... وهي قريبة من معدن الذهب بينها وبين أرض السودان وأرض زويلة، ويقال أنّه لا يعرف معدن للذهب أوسع ذهبا ولا أصفى منه، إلا أن المسلك إليه أصعب والاستعداد شاق جدا " . ([1])

يذكر ابن حوقل أن حمل البعير منه يباع ما بين مائتين إلى ثلاث مائة دينار في أفريقيا جنوب الصحراء، أما طادزيف لويكي فيتحدث عن الملح كمادة ذات قيمة كبيرة ([2]) في التجارة الصحراوية، كما يؤكد البكري على أن أهل كوكو كانت تجارتهم تعتمد على الملح وأن الملح هو عملتهم ([3]). كما أدخلت سلع كثيرة أخرى في هذا التجارة كالنحاس الأحمر والثياب والزجاج والحلي والتمر والحنطة ([4]).

أما التبر المستورد من بلاد السودان فيدخل جزء منه في ضرب العملة في بلاد المغرب وجزء آخر يصنع كحلي للزينة وأدوات مختلفة تستعملها الطبقات العليا من المجتمع. وقد استورد تجار المغرب مع مادة الذهب عدد كبير من العبيد كما جلبوا بعض الجلود كجلود النمر وريش النعام والعاج.

ج – **المرحلة الثالثة:** وتمتد من القرن السادس إلى القرن السابع الهجري، وهي المرحلة التي عرفت فيها المدينة حكم المرابطين والموحدين. وإذا رجعنا إلى المصادر التاريخية التي تحدثت عن التجارة في هذه الفترة نجدها قليلة، ومع ذلك فهي على ندرتها تشير إلى أن الموحدين عندما تمكنوا من المدينة وبسطوا نفوذهم عليها أصبحت إضافة جديدة إلى دولتهم التي استطاعت أن توحد المغرب من طرابلس إلى المحيط الأطلسي. وقد مكن هذا الوسع الجغرافي الجديد، وهذه السوق التجارية الموحدة ضمن إطار الدولة الموحدية مدينة سجلماسة من الازدهار بشكل كبير في أنشطتها الاقتصادية المختلفة. وقد أجمعت المصادر أن الملح، وبعض المواد المصنعة، كانت هي

شهر، وكان إنتاجها من الملح يصدر إلى غانه. ابن حوقل، المصدر السابق، ص 98.

[1]– الاصطخري، المسالك والممالك، تحقيق جابر عبد العال الحين، القاهرة، 1961، ص 34

[2]- T. Lewicki, l'Etat nord africain de Tahert et ses relations avec le Soudan occidental à la fin du VIII siècle et au IXè siècle, in cahiers des études africaines, T II, 1965, p 531

[3]– البكري، المصدر السابق، ص183.

[4]– الادريسي، المصدر السابق، ص 66.

أهم المواد المصدرة من المغرب إلى إفريقيا جنوب الصحراء في عهد الموحدين. وأن الذهب والعبيد والعاج وريش النعام وبعض المواد الأخرى هي أهم المواد المصدرة من ناحية إفريقيا وقد زاد الطلب على هذه المواد وتضاعفت كمياتها خاصة في المرحلة الموحدية.

تاسعا – الإشعاع الثقافي للمدينة:

من المؤكد أن الدولة المدرارية كانت تربطها بالدولة الرستمية علاقات ثقافية واجتماعية مكثفة، والحقيقة أن هذه العلاقات يرجع تاريخها إلى أيام الثورات الخارجية قبل تأسيس الدولتين المدرارية والرستمية، وكان العامل الأساسي لتوطيد هذه العلاقات بالدرجة الأولى هو المذهب الخارجي الذي يمثل مذهب الدولتين، زيادة على كرههما للخلافة السنية هذا من جانب، أما من جانب آخر فقد كانت تجارة الإمارتين مع أفريقيا جنوب الصحراء عامل جذب بين الإمارتين، أضف إلى هذا أن علاقة المصاهرة التي ربطتهما في عهد اليسع بن إلياس الذي زوج ابنه مدرارا بأروى بنت عبد الرحمن بن رستم، التي أنجبت له ولدا تولى الحكم بعد أبيه، أثر بالغ على العلاقات الطيبة التي ميزت الدولتين. ورغم هذا كله فقد كانت هناك مراحل امتازت فيها العلاقة بين الدولتين بنوع من البرودة.

لقد كانت سجلماسة عاصمة المذهب الخارجي الصفري ([1])، ورغم ذلك فقد كانت تقطن بها جالية إباضية نشطة، حيث ورد في المصادر الإسلامية أن الكثير من أمراء العائلة المدرارية كانوا أمراء صفريي إباضيي المذهب بمعنى أنهم كانوا من الصفرية المعتدلة ([2])، وربما يرجع السبب في هذا الاعتدال إلى المواقع التي كانوا يشغلونها في المجتمع، وهي مواقع القيادة وتسيير أمور الأمة والمجتمع التي تتطلب مرونة وحنكة أكبر.

ونذكر من الأمراء الكبار لهذه الدولة أبو القاسم سمغو، وابنه اليسع، حيث عاشت المدينة في عهديهما نشاطا ثقافيا ودينيا منقطع النظير تميز

---

[1]– السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص 497

[2]– المرجع نفسه، ص498

بالمحاورات الكلامية والنقاش الواسع الذي كان يجري عادة بين علماء المذهب الإباضي، وعلماء المذهب الصفري.

لقد تميزت هذه المحاورات بالتسامح المذهبي الكبير المعتمد على الحجة والإقناع، بعيدا عن كل أنواع التعصب المذهبي، مما يدل على المستوى العالي الذي بلغته هذه المناظرات، التي أن دلت على شيء فإنما تدل على المستوى الثقافي الذي بلغته المدينة.

جلبت القوافل التجارية التي كانت تصل إلى المدينة من جميع أنحاء العالم الإسلامي معها العديد من العلماء، والمفكرين، والطلبة، والحرفيين، وبعض الأجانب الذين اثروا الحياة الثقافية والفنية إثراء كبيرا كل في مجال تخصصه. فالبناء أثراها في مختلف تقنيات البناء، والحرفي حمل إليها تقنيات جديدة في عالم الصناعة، بينما أثراها العلماء في مختلف العلوم العقلية والنقلية، وفي المجالات الأخرى من الحياة.

لقد لبث بالمدينة عدد كبير من العلماء لفترات زمنية متفاوتة، وهم في طريقهم إما إلى بلاد السودان الغربي لنشر العلم، أو عائدين منها في اتجاه مختلف أنحاء العالم الإسلامي، وقد تمكن هؤلاء أثناء إقامتهم بالمدينة إلى إضافة أشياء جديدة إليها من خلال إسهاماتهم العلمية والفكرية كل في مجال تخصصه، فاهتم بعضهم بتدريس مختلف العلوم النقلية والعقلية، بينما انغمس الطلبة في تلقي الجديد من العلوم عن هؤلاء العلماء، وهناك من تفرغ للبحث والتأليف، والكل ساهم في رفع مكانة سجلماسة من كونها مجرد عاصمة دولة بني مدرار، إلى حاضرة ثقافية إسلامية من الدرجة الأولى.

وبناء على ماسبق يمكن تقسيم تاريخ الحركة الفكرية في سجلماسة إلى مرحلتين مهمتين هما:

- مرحلة بنو مدرار ومغراوة.
- مرحلة الدولتين المرابطية والموحدية

أما المرحلة الأولى التي تمتد من القرن الثاني الهجري إلى القرن الخامس الهجري أي من تاريخ تأسيس المدينة إلى سقوط مغراوة. فقد ميز هذه

المرحلة غموض شديد انعكس على الحياة الفكرية والعلمية بالمدينة، فبينما تتحدث المصادر التاريخية بكثرة عن جوانب الحياة الثقافية والعلمية في مدينة تيهرت، إلا أننا لم نجد بها ذكر لهذه الأنشطة في مدينة سجلماسة اللهم بعض الإشارات النادرة جدا. فمثلا حملت إلينا المصادر التاريخية أخبار إحراق الفاطميين للمدينة وتخريبها([1])، ومن الممكن جدا أن تكون الكثير من المراكز العلمية والثقافية بها كالمدارس والمكتبات قد امتدت إليها أيضا يد التخريب.

ومن المعلومات القليلة التي أوردتها المصادر التاريخية عن الحياة العلمية في المدينة أثناء مرحلة تأسيسها، ذكرها لجماعة من العلماء قدرت بأربعين عالما من بينهم الإمام الذي حكم المدينة ومؤسسها عيسى بن يزيد الأسود، هذا الرجل الذي قام بدور محوري في نشر التعاليم الدينية الصفرية.

وقد جاء على لسان البكري في هذا الصدد: " وملك بنو مدرار ماية وستين سنة وكان فيه أبو القاسم سمغو بنو واسول المكناسي أبو اليسع المذكور وجد مدرار لقي بأفريقية عكرمة مولى ابن عباس وسمع منه وكان صاحب ماشية وكثيرا ما ينتجع موضع سجلماسة فلما بلغوا أربعين رجلا قدموا على أنفسهم عيسى بن يزيد الأسود وولوه أمرهم فشرعوا في بنيان سجلماسة وذلك سنة أربع وماية."([2])

وقد أكد ابن حوقل ([3]) والمقدسي ([4]) مدى انتشار سوق العلم والمعرفة بسجلماسة ومدى حب أهلها للعلم والعلماء، ويمكن القول أن أعيان المدينة وخاصتهم قد ساهموا مساهمة كبيرة في تنشيط الحياة العلمية والثقافية بالمدينة، علما أن العديد من سكان سجلماسة كانوا من المشارقة الصفرية الذين جاءوا إلى بلاد المغرب هروبا من اضطهاد الخلافة الأموية لهم، وللعيش في

---

[1]– ابن عذاري، المصدر السابق، ص 153

[2] - البكري، المصدر السابق، ص149

ويقول صاحب كتاب الاستبصار في هذا الصدد،"... ومدينة سجلماسة محدثة بنيت سنة 140 أسسها مدرار بن عبد الله وكان رجلا من أهل الحديث يقال أنه لقي بأفريقية عكرمة مولى بن عباس وسمع منه."الاستبصار، ص 201.

[3]– ابن حوقل، المصدر السابق، ص96.

[4]– المقدسي، المصدر السابق، ص 23.

طمأنينة واستقرار في موطن بعيد عن الخلافة الأموية وتحت إمرة إمام خارجي صفري.

لقد جذبت مدينة سجلماسة العديد من طلبة العلم من مختلف الواحات الصحراوية ومناطق التجمعات الصفرية، وكانت مدارسها عامرة بالعلماء والمتعلمين، فحسب أبو زكريا، فإن بعض العلماء تخرجوا من سجلماسة كأبي الربيع سليمان ابن زكون النفوسي الذي درس عن ابن الغام، وكان رفيق الدراسة لأبي يزيد مخلد بن كداد صاحب الحمار الذي اشتهر بثورته على الفاطميين حتى أنه كاد أن يقضي على دولتهم ببلاد المغرب ([1]).

أما اليهود فرغم اشتغالهم بالتجارة إلا أن بعضهم كان يمتهن مهنا يبتعد عنها أهل المدينة كالبناء وصناعة الجلود والحديد، وقد كانت لهم ثقافة يهودية ظهر صداها في بعض المصادر التاريخية. هذا ما كان بتيهرت وان كنا لم نتطرق إليها بالتفصيل اللهم محاولة الاستشهاد بما ورد بصددها في المصادر التاريخية، وهكذا كانت الحياة العلمية في مدينة سجلماسة رغم قلة الشهادات حولها في المصادر التاريخية.

وخلاصة القول أننا إذا طبقنا المعايير التي يراها الجغرافيون والبلدانيون العرب ضرورية لتأسيس المدن، لوجدنا أن بعضها غير متوفر في الموقع الذي أسست فيه مدينة سجلماسة، ذلك أنها أنشئت في منطقة شبه صحراوية لا تساعد على الحياة من وجهة نظر هؤلاء الجغرافيين، ولكننا إذا رجعنا إلى مؤسسيها لوجدنا أن الغاية التي كانوا ينشدونها من وراء إنشاء هذه المدينة كانت سياسية بالدرجة الأولى، القصد منها إنشاء كيان سياسي لنشر مذهبهم الخارجي الصفري، حيث يبدو من المعطيات التي يتوفر عليها هذا الموقع أنهم لم يولوا أهمية كبيرة لبعض العوامل المساعدة على تأسيس المدن، بقدر الأهمية التي منحوها للعامل السياسي. فقد كان لبطش الخلفاء الأمويين بدمشق وإحكام قبضتهم على المجتمع الإسلامي آنذاك إلى بروز تيارات دينية جديدة مناوئة لهم. جعلت أئمتها وأتباعهم يهاجرون إلى بلاد المغرب نشرا لأفكارهم الدينية وبحثا عن مناطق جغرافية بعيدة عن النفوذ الأموي، حيث يمكن لهم ممارسة

---

[1]- Masqueray, chronique d'Abou Zakaryya, Alger, 1978, p 200- 270.

شعائرهم ونشر مذهبهم بكل حرية.

كان ذلك حال مؤسسي مدينة سجلماسة الذين اختاروا منطقة السوس البعيدة عن النفوذ الأموي بصفة خاصة، وعن التنافس الذي ساد منطقة شمال بلاد المغرب بين بعض القبائل من أجل الظفر بإحكام السلطة على هذه المنطقة بصفة عامة، فجاء موضع سجلماسة البعيد عن كل هذه الصراعات مجسدا لكل الطموحات التي كان يهدف إليها أئمة الخوارج الصفرية.

لقد أسست مدينة سجلماسة في موقع أقل ما يقال عنه، أنه يتميز ببيئة صحراوية، تقل فيها مصادر المياه والميرة، فهو بصفة عامة يمثل بيئة طاردة لا تشجع على الاستقرار، حاله في ذلك حال موقع مدينة القيروان، ومع ذلك فإن مدينة سجلماسة التي كانت بداية نشوئها في شكل قصر صغير، نمت وتوسع عمرانها مع مرور الزمن ليشمل مساحات كبيرة، وإن كان عمرانها لا يشبه نمط التطور العمراني الذي عرفته المدن الإسلامية بدءا بالتعمير الذي شهدته كلا من المدينة المنورة ومكة، ومرورا بمدن الهجرة بالشرق، وانتهاء بمدينة القيروان التي تمثل أول تجربة عمرانية إسلامية ببلاد المغرب. ذلك أنها وإن كانت المصادر الجغرافية قد تحدثت عن مسجد جامع يتوسط هذا العمران، وإلى جانبه أسست دار الإمارة، ثم أنشئت حول هذين المعلمين دور العامة والأسواق، تمتد بينها الشوارع الواسعة، والدروب الضيقة، إلا أن عمران سجلماسة غلب عليه طابع العمران البربري الصحراوي الذي يجسده القصر، فجاء عمرانها عبارة عن قصور صغيرة متقاربة ارتبطت بوجود الواحة النخيلية تفصل بينها مسافات قصيرة، وقد استعمل في بنائها مواد إنشائية محلية كالطوب وجذوع النخل، وهم في ذلك لم يخرجوا عن الإطار المألوف، وعن التقليد المتبع في استخدام مواد البناء في غالب المدن الإسلامية المشرقية منها أو المغربية، ورغم بساطة هذه المواد إلا أن الجغرافيين وصفوا مبانيها بالإتقان وشبهوها بمباني الكوفة.

اعتمدت الزراعة في منطقة سجلماسة على مياه الأمطار وعلى فيضان وادي زيز شأنه في ذلك شأن وادي النيل، الأمر الذي سمح لمزارعي هذه الناحية بزراعة محاصيل مختلفة. كما أن لبعض مناجم الذهب والفضة

والنحاس التي كانت تزخر بها المنطقة أثرها على نمو المدينة، فكانت الشريان الحيوي الذي قام عليه اقتصاد المدينة، وقد زادها شأنا وتطورا كونها أصبحت محطة مهمة للقوافل التجارية التي كانت تربط العالم الإسلامي آنذاك ببلاد السودان. فقد أدت هذه النشاطات التجارية مجتمعة دورا بالغ الأهمية في نمو عمران سجلماسة، وأصبحت مقصدا للتجار بفضل موقعها الذي أهلها لتكون محطة تجارية مهمة، استطاعت أن تجلب إليها العلماء والطلاب والحرفيين من مختلف بلاد المغرب والمشرق الإسلاميين.

الخــــاتـــــمة

خـــاتمة:

عمدنا من خلال هذه الدراسة إلى ربط التطور العمراني للعالم الإســـلامي بماضيه البعيد، وبالأسباب التي مكنت سكان هذه المنطقة من العالم القديم إلى البدء في التعمير، ذلك أن المدينة كما هو معروف هي نتاج لسكان الشـــرق الأوســـط، فالمنطقة اجتمعت فيها الأسباب الدافعة للاستقرار والتعمير، كونها تحتوي علـــى سهول كبيرة قادرة على تحمل الجماعات والأعداد الهائلة من البشر، والماء فيهـــا متوفر بكثرة من خلال الأنهار الكبيرة التي تعبرها كنهر دجلة والفـــرات والنيـــل، وأرضها غنية بالطمي اشتهرت بخصبها الكبير منذ أول الأزمنة.

لقد ظهر العمران في بلاد المشرق القديم موازيا لظهور التنظيم الاجتماعي والسياسي الذي أفضى إلى ظهور الدول المركزية.

لا شك أن معالجة موضوع العمران الإسلامي، يتطلب من الباحث الإلمام بكمية هائلة من المعارف والمعلومات المختلفة الاختصاص، من جغرافيا وتاريخ، وعمران، وعمارة، وفنون، إلى غير ذلك من العلوم المساعدة علـــى مثـــل هـــذه الدراسات. لذا عمدنا من خلال بحثنا هذا الوصول إلى لب الحضارات المختلفـــة التي سادت مختلف مناطق بلاد الإسلام في المرحلة القديمـــة (أي قبـــل ظهـــور الإسلام). هذه الرقعة الجغرافية الشاسعة التي تميزت بتباينها من حيث التضاريس الجغرافية، والأحوال المناخية، والإنتاج الحضاري، والتي ستتوحد في إطار الدولة الإسلامية الجديدة، لتصبح المهد الذي سيرى ميلاد ما يسمى بالعمران الإسلامي.

والجدير بالتذكير به أن عمران منطقة الشرق الأوسط، يعد أقـــدم عمـــران عرفته الإنسانية حيث مازال المؤرخون حتى الآن يحاولون معرفة تاريخ ومكان ظهوره. فمنهم من يرى، أن دمشق هي أقدم مدن الشرق الأوســـط، ومـــنهم مـــن يقول، أن نور بزوغه كان بفلسطين، وآخرون يؤكدون أن بلاد ما بين النهرين هي المكان الأنسب لظهوره.

المهم أنه ظهر في هذه المنطقة من العالم القديم، وإن اختلفت آراء الباحثين حول المكان الأول لظهوره، وامتد تأثيره ليشمل مناطق العالم الأخرى.

لقد توصلنا من خلال بحثنا هذا إلى تحديد أهم المصادر المؤثرة في العمران الإسلامي، ذلك أن المنطقة التي سينتشر فيها الإسلام عرفت عبر التاريخ ظهور حضارات مختلفة ومتنوعة كحضارة بلاد ما بين النهرين، وحضارة الفراعنة بمصر، والقرطاجيين بشمال أفريقيا، والرومان والبيزنطيين الذين انتشروا في مناطق واسعة من هذه البلاد، كل منها ساهم مساهمة فعلية في تكوين ما يسمى بالعمران الإسلامي. فالإنسان العراقي القديم، والقبطي، والشامي، والبربري، دخلوا الإسلام وهم متمكنين من تقنيات البناء والتعمير، وكانت لهم تجربة كبيرة في ميدان الإنشاء والعمارة والفنون. كل هذا سيكون بدون أدنى شك الأرضية الخصبة التي ستؤدي إلى بروز عمران متميز هو العمران الذي عملنا على دراسته خلال هذه الأطروحة.

يظهر جليا أن عمران بلاد ما بين النهرين ارتبط ارتباطا وثيقا بما وفرته المنطقة من أسباب استقرار مختلفة جغرافية وسياسية وأمنية، حيث ظهرت في هذه المنطقة في مرحلة مبكرة مدن عديدة تميزت بعمرانها الخاص، حيث كانت تنشأ هذه المدن فوق تلال اصطناعية لتجنب فيضانات نهري دجلة والفرات. ولتكون أحصن من الناحية الدفاعية حيث يتمكن سكانها من مراقبة المناطق المحيطة بها بسهولة.

قسمت الأراضي الإنشائية في المدينة المشرقية القديمة وفق الأهمية الوظيفة للمباني، بحيث خصصت الأراضي المركزية بالتل وهي بذلك تعد أعلى المناطق في المدينة للحي الديني، بمعابده العديدة وزقورته التي تنشأ عادة فوق مصطبة لتكون أعلى مبنى في المدينة.

إذن ظهرت منذ هذه الوهلة مركزية المؤسسة السياسية والدينية بقلب المدينة، وتركت مناطق واسعة لأحياء الطبقات العليا من المجتمع تميزت بعمارتها

المتقنة البناء وعمرانها المنظم. بينما جاءت أحياء العبيد مكتظة بالمباني وغير مريحة.

لقد عكس عمران بلاد ما بين النهرين التنظيم الاجتماعي الذي عرفته هذه المدن. وقد ترتب عن هذا التنظيم، ظهور مجتمع منظم في إطار هذه الدولة، أدى مع مرور الزمن إلى التنافس ما بين المدن والمناطق المختلفة، وانتهى هذا الاحتكاك إلى نشوب حروب وتدهور الأوضاع الأمنية، الأمر الذي جعل مدن بلاد مابين النهرين تلجأ منذ فترة مبكرة إلى العديد من المنشآت الدفاعية كالخندق والسور والأبراج وما شابه ذلك من التحصينات.

تمكنا من خلال الدراسات العديدة ، ومن نتائج بعض الحفريات التي قمنا بدراستها من الوصول إلى نتائج هامة لعل أبرزها أن عمران المنطقة في مرحلته الأولى جاء بسيطا وظيفيا، ارتبط بالاحتياجات البسيطة لسكان المنطقة ، فتعددت فيها القرى والمدن الصغيرة حسبما أكدته نتائج الحفائر، لكن سرعان ما انتقل هذا العمران إلى مرحلة ظهرت فيها مدن أكثر نشاط، عمل سكانها بالعديد من الحرف ، وحفروا الكثير من القنوات المائية لربط نهر دجلة بالفرات، وصنعوا العديد من المراكب، فأنشؤوا بذلك شبكة من الطرق النهرية التي ربطت هذه المدن بعضها ببعض، كما ربطتها بالعالم الخارجي البعيد.

برزت هذه المدن كتجمعات سكانية كبيرة الحجم، احتوت على عدد هائل من السكان، حيث بلغت نسبة السكان في بعضها إلى عشرين ألف نسمة أو يزيدون. وبمرور الزمن ، وموازاة مع مركزية الحكم، ظهرت مدن عواصم لمناطق مختلفة من بلاد ما بين النهرين، أو لهذه البلاد كلها، استفادت بدون شك من مداخيل الدولة الكبيرة لتنمو نموا كبيرا.

أما المنطقة الثانية التي حاولنا الوصول من خلال هذه الدراسة إلى معرفة خبايا عمرانها المتميز، فهي بلاد مصر التي ظن العديد من المؤرخين والأثريين أنها منطقة ظهور الحضارة، ومكان ميلادها الأول، ذلك أنهم اهتموا بحضارة مصر منذ أقدم العصور لكونها دولة محورية تربط العالم الشرقي بالعالم الغربي.

والحقيقة أن مصر قد توفرت فيها جملة من الشروط جعلت من أرضها كما يقول عمر بن العاص أرض ذهب. فوادي النيل بفيضانه المتعدد مكن المصريين منذ أقدم العصور من الاستقرار والاشتغال بالزراعة لسد حاجاتهم اليومية، فاستطاعوا أن يوفروا غذاءهم، بل بلغ بهم الأمر في هذا المجال إلى تصدير ما زاد عن حاجتهم.

لقد عرفت مصر منذ القدم حضارة نشطة أنتجت عمرانا وعمارة كثيرة، فلا يكاد الباحث اليوم يزور منطقة من مناطق مصر إلا وتبهره آثارها الكثيرة.

إن الدارس لعمران مصر بطريقة شاملة ومتأنية، سيخرج لا محالة بنتيجة هي: أن هذا العمران كرس لخدمة الملك الإله فرعون، ذلك أن كل شرائح المجتمع مجندة لخدمته تحت قيادة واحدة مكونة من آلاف الكهنة الذين يسهرون على تسيير كل مظاهر الحياة في المجتمع المصري كي لا تتنافى وخدمة الملك الإله.

ظهرت بمصر عدة مدن أنشئت غالبيتها في إطار التمجيد الدائم لفرعون، كما عمل المصريون على إنشاء العديد من المقابر الفاخرة لتحوي جثمان الملك وحاشيته، وما أهرام الجيزة إلا مثال حي على هذه المدافن الفخمة.

جاءت المدينة المصرية القديمة مشابهة في كثير من أوجهها لمدينة بلاد ما بين النهرين، فهي تتمركز حول المعبد، وتحوي أحياء راقية خصصت للطبقة الحاكمة وللكهنوت ولأعيان المجتمع، تكثر فيها الحدائق ووسائل الراحة، وتشقها شوارع واسعة ومستقيمة لتتماشى مع مرور المواكب الاستعراضية في المناسبات المختلفة مما يجعل المدينة منتظمة، بينما أنشئت أحياء كبيرة مزدحمة لسكنى آلاف العمال والعبيد.

لقد انتفعت مدن مصر في تطورها من خيرات البلاد الكثيرة ومن الأمن الذي وفرته الصحاري المحيطة بمصر، أو المناطق المتخلفة حضاريا والتي لم يكن بإمكانها منافسة القوة الهادئة والزاحفة في الوقت نفسه نحو التقدم، والتي كانت مصر رمزا لها.

وللعلم فإن بلاد ما بين النهرين ومصر عرفتا حكما استبداديا، وضـع يـده على كل صغيرة وكبيرة، فنظم المجتمع في إطار ديني لم يتـرك فيـه للفنـانين والمعماريين والعمرانيين الحرية الكافية للإبداع. فاغلب مـا أنشـئ فـي هـاتين المنطقتين من معالم جاء استجابة لطلبات الكهنة التي كانوا فـي غالـب الأحيـان يحددون سماتها المختلفة مسبقا.

أما العمران اليوناني ، فرغم أنه لم يظهر في البلاد التـي سينتشـر فيهـا الإسلام، إلا أنه أثر تأثيرا كبيرا في المناطق التي ستشملها الدولة الإسلامية، ذلك أن اليونان تمكنوا بواسطة حروبهم العديدة من الانتشار في مناطق شاسـعة مـن حوض البحر الأبيض المتوسط، بل إنهم استولوا على بلاد واسعة تصل إلى حدود الصين.

لقد كانت العمارة اليونانية هي السمة الغالبة على سواحل البحـر الأبـيض المتوسط. تميز فيها العمران اليوناني بحرية مطلقة وببساطة متناهيـة، فالمدينـة اليونانية الأولى كانت مدينة الطبقات الاجتماعية المختلفة، ذلك أن المجتمع اليوناني عرف الديمقراطية أكثر من غيره من مجتمعات العالم القديم.

يغلب على المدن اليونانية التطور المرحلي، حيث تمكنت من الظهور فـي إطار جغرافي متفكك (بلاد اليونان أرخبيل فيه المئات من الجزر) في شكل مدن دول عرفت نموها وتطورها ارتباطا بما توفره المنطقة التابعة لها مـن خيـرات وثروات زراعية وتجارية مختلفة.

اتسمت المدينة اليونانية بمخطط شطرنجي وبتقاطع طريقين واسـعين فـي مركزها، وكانت أحياؤها مقسمة تقسيما طبقيا، فمركز المدينة كانت تسكنه طبقات الحكام والكهنة، بينما وزعت الأحياء الأخرى على مختلف شرائح المجتمـع مـن جند وطبقات السكان المختلفة.

إن ما قيل على العمران اليوناني يمكن أن يقـال أيضـا علـى العمـران الروماني، فرغم أنه الأوسع انتشارا في البلاد الإسلامية اليوم، إلا أنه كان يشـبه

إلى حد كبير العمران اليوناني، في طريقة الحكم وفي التخطيط العمراني للمدينـــة، فهو يظهر كأنه الوريث الشرعي للعمران اليوناني.

أما القرطاجيون فانطلاقا من تقاليدهم التجارية التي تعتمد البحـــر كوســـيلة للتنقل، فقد جاء عمرانهم على شواطئ البحر الأبيض المتوسط، فهو بذلك عمران منفتح على البحر أكثر منه بري، مرده إلى تمكنهم من ركوب البحر، واعتمـــادهم التجارة كوسيلة أساسية للتعمير، وهكذا بعد هجرتهم من شواطئ البحر الأبـــيض المتوسط الشرقية، استقر بهم الأمر في موقع قرطاج المطل على البحر، وكانـــت الإستراتيجية المتبعة عندهم في تحديد مواقع مدنهم هو البحث عن مواقع بحريـــة محصنة طبيعيا كأن تكون على رأس داخل بحر أو خليج.

أسس الفينيقيون مدينة قرطاج التي كانت مدينتهم الأولـــى علـــى ســـاحل الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، لتستجيب لحاجاتهم التجارية لأنهـــم لـــم يكونوا مزارعين، ولو كان الأمر كذلك لأنشؤوا مدينتهم في الداخل. ونظرا لهـــذا الدور التجاري للمدينة الذي يتطلع إليه القرطاجيون، فقد واصلوا تأسيس محطاتهم التجارية على طول الساحل الغربي للبحر الأبيض المتوسط لتكون همزة وصـــل بين المدن الداخلية لبلاد المغرب، والعاصمة قرطاجة التي كانت تستقبل هذه السلع وتتولى تصديرها إلى مختلف مدن العالم القديم.

لم يتوغل القرطاجيون في عمق بلاد المغرب بل اكتفوا بالســـيطرة علـــى الشريط الساحلي، فأنشؤوا الكثير من المحطات التجارية الصغيرة التي كانت الغاية منها تجميع خيرات بلاد المغرب، فكانت بالتالي مدنا تجارية محضة.

أما العمران البيزنطي فكان منتشرا في بلاد الشام ومصر وبلاد المغـــرب، وهو العمران الذي سيجده المسلمون أمامهم عند فتحهم لهذه المناطق الشاسعة من الأرض، وهذا العمران هو النتيجة الحتمية لتجاوز العمران اليوناني والرومـــاني بتجربة أهل هذه المناطق من العالم القديم.

لقد تمكن البيزنطيون من السيطرة على مناطق واسعة من العـــالم القـــديم، لكنهم لم يتمكنوا من إنتاج عمارة وعمران يضاهيان ما تركه الفراعنة أو ســـكان العراق القديم، أو حتى الإغريق والرومان.

كانت هذه أهم النتائج التي توصلنا إليها من العرض الذي خصصناه لمـــدن بلاد الشرق القديمة، خاصة وأن أجزاء كبيرة من رقعتها الجغرافية ستشهد قيـــام عمران إسلامي في مرحلة لاحقة.

وبالموازاة مع عمران بلاد ما بين النهرين ومصر، فقد كانت بوادر عمران آخر هو عمران شبه الجزيرة العربية الذي بدأ ينشأ وينمو ويتطور. ورغم ما أشيع حول العرب أنهم سكان خيام، ومحاولات بعض المستشرقين طمس الحقيقة، إلا أن الكتب القديمة تحوي في طياتها الكثير من أسماء مدن نشأت في بلاد شبه الجزيرة العربية، تميزت بطابعها العمراني الذي لا يشبه مدن بلاد ما بين النهرين ولا مدن مصر ولا مدن اليونان والرومان، فهو طراز مميز لها عن غيره من عمران بلاد الشرق القديم. اشتق من حضارتهم التي توارثوها أبا عن جد منذ أقدم العصور إلى ظهور الإسلام.

وكانت أهم مدينة جسدت العمران العربي قبل الإسلام، هي مدينة مكة التي اقتضت الحكمة الإلهية أن تنشأ في واد غير ذي زرع، وســـط صـــحراء جافـــة وحارة، وقد ساهم بئر زمزم مساهمة كبيرة في إخراج هذه المدينة من كونها قرية صغيرة إلى مدينة كبيرة بسبب تجمع الناس حول الماء، وقد زاد من هـــذا الأمـــر أهمية ، قدسية المكان، وحركة تجارة القوافل التي اشتهر بها العرب، مما جعـــل عمرانها ينمو ويتسع بفضل العوامل السابقة. وهكذا فإن مخطط مكة فيه كثير من الشبه بمخططات مدن بلاد ما بين النهرين ومصر وبلاد اليونان، فهي مدينة دولة، نشأت حول مساحة كبيرة تتوسطها الكعبة ، وحول الساحة أنشـــئت دور أعيـــان العرب من قريش، ثم استقرت القبائل العربية الوافدة على المدينة فـــي أطرافهـــا وبين شعاب وديانها.

وإذا كانت المدينة تتشابه مع غيرها من المدن القديمة في الهيكل العام للعمران ، وفي الفكرة الدينية التي أنشئت حولها، إلا أن اقتصادها لم يقم على الزراعة كما كان الحال في بلاد ما بين النهرين ومصر، ذلك أن طبيعة الموقع والمناخ السائد وقلة المياه، جعل سكان المدينة يبحثون عن مصدر رزق آخر يكون الدعامة الأولى لقيام اقتصاد مدينتهم، فحلت القوافل التجارية محل الزراعة خاصة وأن موقعها الإستراتيجي الذي كان يربط جنوب شبه الجزيرة العربية بشمالها، وتحويل وجهة طريق التجارة الرابط ما بين أقصى بلاد الشرق وغربها، والذي كان يمر ببلاد ما بين النهرين، ليصبح يمر بها بعد أن أمسى الطريق السابق غير آمن بسبب الحروب التي ميزت هذه المنطقة الجغرافية. بالإضافة إلى هذا، فقد كان لقدسية المكان دور لا يستهان به منذ عهد سيدنا إبراهيم حيث أضحى محجا للناس، فكانت تقصده من كل مناطق شبه الجزيرة العربية. الأمر الذي ساعد على نمو عمران مكة، وتوسعه، وتنظيمه اقتصاديا واجتماعيا، لتتمكن المدينة من استقبال الوفود الزائرة وتوفر لهم كل أسباب الراحة أثناء إقامتهم بها. وهكذا فقد برزت مكة كقطب كبير جلب إليه المثقفين والتجار، وأصبحت لهم مواسم اقتصادية وأخرى ثقافية يتبارى فيها الشعراء والمثقفون العرب.

استمرت مكة على هذا الوضع حتى ظهر بها الإسلام وهي مرحلة أخرى من تاريخ عمران هذه المدينة، ونظرا إلى المضايقات التي شهدها الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه من أعيان مكة ووجهائها، ومن قريش عامة حالت دون السماح لهم بالجهر بدينهم الجديد ونشره، فقد اضطر المسلمون أمام هذا الضغط إلى الهجرة إلى يثرب التي كانت يومها عبارة عن قرية صغيرة يتكون نسيجها العمراني من مجموعة من آطام اليهود وبعض قرى قبيلتي الأوس والخزرج متناثرة على مساحة كبيرة تفصل بينها غابات النخيل وبعض الحقول.

إن الطبيعة الجغرافية لموقع يثرب تختلف عن مكة، فهي أرض منبسطة تتوفر بها المياه ويعتمد سكانها على الزراعة.

هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى يثرب، ووجدها على تلك الحالة العمرانية التي ذكرناها، فاستغل الأراضي الواقعة بين الآطام والأراضي الموات التي لا تصلح للزراعة وأنشأ عليها مدينته الجديدة، فكان أول ما قام به هو إنشاء مسجده بالمدينة، وغير أسمها من يثرب ليصبح المدينة المنورة، كما وزع بقية الأراضي على المهاجرين الأوائل لبناء مساكن لهم.

أصبح النسيج العمراني للمدينة المنورة بعد أن كان متباعدا قبل الهجرة، مركزا وموحدا لينقل يثرب من مجموعة قرى صغيرة إلى مدينة كبيرة، يمثل المسجد مركزها لكونه مكانا للعبادة وتسيير شؤون المسلمين السياسية والحربية والاقتصادية، وقد أنشأ الرسول صلى الله عليه وسلم بجوار المسجد سوقا للمسلمين لأنه يمثل في نظره الشريان الاقتصادي للمدينة.

لقد أنشئت المدينة في طريق التجارة الواصلة بين الشمال والجنوب، وعلى أرض خصبة ذاع صيتها منذ قديم الأزمان، مما جعل قبيلتي الأوس والخزرج تهاجران إليها عقب تهدم سد مأرب، وقد زادها التسيير الراشد، والنظم الاجتماعية والاقتصادية التي سنها الرسول صلى الله عليه وسلم رفعة، فما لبثت أن أصبحت مدينة كبيرة وعاصمة للدولة الإسلامية الناشئة، خضعت لها الجيوش الكبيرة وهابتها الدول العظمى آنذاك، كل ذلك لم يأت من مجتمعات أعجمية، وإنما جاء بفضل فكر وسواعد عربية إسلامية.

وختاما لما قلناه، فإذا كانت مكة قد جسدت عمرانا سابقا للإسلام، فإن المدينة المنورة وإن لم تنشأ على أرض بكر، فهي في نظرنا تجسد مرحلة عمرانية انتقالية بين الجاهلية والإسلام. وسوف يبرز طراز العمران الإسلامي في المرحلة التالية التي تعرف بعمران مدن الهجرة.

إن أهم ما يمكن أن نخرج به من هذه الدراسة في مجال العمران الإسلامي، في هذه المرحلة التي تمثل أولى المدن التي أنشأها المسلمون على أرض بكر وعلى جبهات القتال، أن المسلمين لم يهتموا ببناء مدن بحرية، وإنما كان همهم بناء مدن برية. وكان هذا هو وجه الاختلاف بين العمران الإسلامي المبكر

وعمران الدول التي سبقتهم من فينيقيين ويونان ورومان التي كانت قوى بحرية، فجاءت معظم مدنهم على سواحل البحر الأبيض المتوسط مثل الإسكندرية وقرطاج، الأمر الذي لم يكن في متناول المسلمين في القرن الأول للهجرة لجهلهم بخبايا البحر ولإيلافهم للطبيعة الصحراوية البدوية، فجاءت أغلب مدن المرحلة الإسلامية المبكرة بعيدا عن سواحل البحار، وما مدن البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان إلا أحسن دليل على ما نقوله.

لقد كان الأسلوب المتبع في تعمير البصرة والكوفة والفسطاط مسايرا لعمران المدينة المنورة، وقد جاءت مواقعها على أطراف الصحراء وقرب مصادر المياه والمراعي، وقد اعتمد مؤسسوها في اختيار مواقعها على وصايا الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فكانت بداياتها عبارة عن معسكرات من القصب أنشئت للجند الفاتحين، فاقتضت ظروف الغزو أن تجمع وترزم كلما تطلب الأمر ذلك، ثم مرت هذه المعسكرات بمرحلة البناء بالطوب ثم الآجر. وكان يتوسط المدينة المسجد والسوق ودار الإمارة، وحول هذه المنشآت الحيوية تقطع الخطط للقبائل العربية من أجل بناء مساكنها. وحرصا على أن تبقى العلاقات طيبة بين مختلف القبائل العربية، كانت تقطع لكل قبيلة خطة أو خطتين حسب حجم القبيلة التي كان يتولى شؤونها شيخ القبيلة. وقد نظم عمران هذه المدن حول المسجد تمتد بينه طرق ودروب حدد عرضها الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه لتسهل عملية جمع الجند في أسرع وقت ممكن.

لم تشهد المدن المعسكرات الأولى قيام سور يحميها، وربما هذا مرده إلى طبيعة المدينة التي كانت مهمتها الأولى قتالية، ومع ذلك فقد أشارت المصادر فيما بعد إلى تزويد بعض هذه المدن بأسوار تحميها بعد أن بدأت بوادر الخلافات تظهر في أوساط المسلمين.

هكذا كان الحال في البصرة والكوفة والفسطاط، والتي كانت أحسن مثال على العمران الإسلامي الناشئ وسط عمران دول عرفت بقوتها وحضارتها، ومع ذلك لم يرض المسلمون بالإقامة في بعض المدن التي سيطروا عليها، وفضلوا

إنشاء عمران يتماشى وطبيعتهم البدوية ومسايرا لسنن الرسول صلى الله عليه وسلم التي سنها في المدينة المنورة.

وإذا كان العمران الإسلامي قد اتسم في بدايته بالبساطة، فقد استوحى هذه البساطة من تعاليم الدين الإسلامي الحنيف التي تحث على العدل والمساواة بين أفراد المجتمع، ولكن سرعان ما نما عمران هذه المدن وأصبحت تضاهي عواصم الإمبراطوريات القديمة، ورغم اختلاف المواضع فإن المدن الإسلامية التي أنشئت في مختلف المناطق التي بلغها الإسلام ورثت مكان المدن القديمة ، فقد ورثت البصرة مكان بابل، وورثت الفسطاط موقع مدينتي ممفيس والإسكندرية، والقيروان موقع قرطاج. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على إستراتيجية كل دولة، فإذا كانت الدول القديمة تعتمد البحر في إنماء مدنها وتوسيع عمرانها، فإن العمران الإسلامي اعتمد إستراتيجية تجارة القوافل التي ساهمت بقسط كبير إلى جانب عامل الماء وخصوبة الأرض في نماء عمرانه، فما أن ظهرت هذه المدن الإسلامية حتى صار مصيرها مرتبط بطرق التجارة العابرة لها. فكان ذلك حال المدينة المنورة والبصرة والفسطاط، والقيروان، وسجلماسة، وغيرها من المدن الإسلامية.

كان هذا أهم ما استخلصناه من دراسة العمران الإسلامي في المشرق. أما في بلاد المغرب فإن أول مدينة أسست بهذه الناحية من بلاد الإسلام هي مدينة القيروان، التي لم تخرج من حيث شروط إنشائها عن مدن البصرة، والكوفة، والفسطاط، حيث كان الغرض من إنشائها تثبيت الفتح الإسلامي في بلاد المغرب عقب ما لاحظه الخلفاء المسلمون من عدم جدوى الفتح ثم العودة إلى المشرق.

لقد أسست هذه المدينة على يد القائد عقبة بن نافع الفهري، في موقع تشبه طبيعته طبيعة شبه الجزيرة العربية. فجاءت بعيدة عن البحر لأن البحر في تلك المرحلة كان يسيطر عليه البيزنطيون، وعلى حافة الصحراء. أنشئت المدينة على أرض بكر فخطها المسلمون كما شاءوا، متبعين في ذلك طراز التخطيط الإسلامي

الذي سنه الرسول صلى الله عليه وسلم. كان المسجد فيها أول معلم معماري أنشئ بالمدينة، ثم تبعته بقية العناصر المعمارية الأخرى المشكلة لعمران المدينة.

تطور عمران المدينة مع مرور الزمن، وقد ظهرت بعض المشاكل التي نجمت عن الكثافة السكانية، تمثلت في ندرة المياه التي تفاقمت مع مرور الوقت مما جعل حكام المدينة يبذلون أموالا كبيرة في سبيل توفير هذه المادة الحيوية، فأنشؤوا من أجل ذلك المواجل وربطوها بقنوات المياه.

إن هذا الأمر حسب اعتقادنا لم يكن غائبا عن أذهان مؤسسيها، وإنما اقتضت الضرورة والإستراتيجية المعتمدة في إنشاء المدن الإسلامية آنذاك الابتعاد عن البحر. وبذلك منح المسلمون الأولوية للمكان البعيد عن البحر عن وفرة المياه. ومع ذلك فقد برزت القيروان كحاضرة إسلامية كبيرة في بلاد المغرب، استطاعت أن تؤثر في أغلب مدنه التي ستنشأ فيما بعد، كما كانت تمثل خزانها الاقتصادي، وخزانتها العلمية والثقافية، إلى أن عرف المغرب الغزو الهلالي وأحكم سيطرته على أهم مدنه. فأخذت القيروان من تلك اللحظة في التدهور والانحطاط اقتصاديا وثقافيا.

أما مدينة سجلماسة فقد نقلتنا من عمران إسلامي كلاسيكي إلى عمران جديد، يقوم أساسا على مجموعة من القصور الصغيرة المتناثرة على ضفتي وادي زيز، حيث اقتضت الضرورة إتباع المذهب الصفري الخارجي إلى الابتعاد عن الأراضي التي تسكنها القبائل البربرية، فأسست هي بدورها على أرض عذراء وفي منطقة صحراوية، بعيدا عن كل التيارات الفكرية والدينية التي كانت تنشط في بلاد المغرب آنذاك.

وقد كان لموقعها الاستراتيجي الذي يمثل مرحلة مهمة في التجارة الرابطة بين الشمال وبلاد السودان الغربي، دورا كبيرا في توسع عمرانها، ونمو اقتصادها، بفضل النشاط التجاري الذي كانت تمثله القوافل التجارية المارة بها. وبفضل خصوبة أرض موقعها وبما يحتويه من مناجم معدنية فقد ساهم هذا كله في نشاطها الزراعي والصناعي الأمر الذي جعلها تتبوء مكانة رفيعة في ظرف

زمني قصير، فأصبحت مدينة كبيرة وحاضرة ثقافية وعاصمة جهوية استقطبت التجار، والمثقفين، والطلاب من كل البلاد الإسلامية، مما رفع من نسبة كثافة سكانها وازدهار اقتصادها ونمو عمرانها.

وفي الأخير يجب التأكيد على أن الكثير من العمران الإسلامي مازال مغمورا، لم يعرف دراسات علمية أكاديمية ولا حفائر أثرية، وخير مثال على هذا الأمر أن بلاد المغرب على اتساعها ، وعلى كثرة مثقفيها ، لم تنتج إلى يومنا هذا إلا العشرات من الدراسات والبحوث الأكاديمية التي هي في جلها دراسات وصفية قليلة العمق والتحليل. إنه من المفيد القول أن المجال مازال مفتوحا على مصراعيه والمئات بل والآلاف من المواقع الأثرية الإسلامية ما زالت تحتاج إلى دراسات معمقة.

لقد حاولت أثناء فترة إنجاز بحثي هذا زيارة العديد من المناطق الأثرية، فزرت بلاد الحجاز ووقفت على آثار مكة المكرمة والمدينة المنورة. كما زرت بلاد الشام ومصر وقضيت وقتا طويلا في مكتباتها ومتاحفها وزيارة آثارها الإسلامية. لقد كان لي الشرف أيضا أن أزور مسجد عقبة بن نافع بالقيروان، وأن أقف على آثار تطور عمران مدينته. وكان لي الحظ أن أزور المناطق المحاذية للحدود مع منطقة التافيلالت، حيث وقفت على عمران يشابه في كثير من أوجهه عمران مدينة سجلماسة، أي عمران القصور الذي لم يدرسه إلا القليل من الباحثين والمختصين أبرزهم أستاذي الفاضل الدكتور صالح بن قربة والدكتور محمد نجيب خلف. هذا وأنهي هذه الخلاصة بتوجيه الشكر الجزيل للأستاذ المشرف، وأحمد الله على أن وفقني لإتمام هذا العمل المتواضع.

ثبت
المصادر والمراجع

المصادر والمراجع العربية

أولا: المصــــادر:

- **القرآن الكريم**
- **ابن الأثير:** علي بن أحمد بن أبي الكرم (ت 630هـ):
- • أسد الغابة في معرفة الصحابة، الجزء الثالث، دار المعارف، القاهرة، 1358هـ.
- • كتاب الكامل في التاريخ ، الجزء السادس، القاهرة، 1357هـ.
- **ابن الأزرق:** كتاب بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق محمد عبد الكريم، نشر الدار العربية للكتاب، 1977.
- **ابن أبي دينار** محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني: كتاب المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، تونس، 1280هـ.
- **ابن بطوطة** محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي (ت: 779هـ): الرحلة، المسماة " تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، تحقيق طلال حرب، نشر محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دون تاريخ.
- **ابن تغري بردي** جمال الدين ابو المحاسن الآتابكي (ت 874هـ): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1936.
- **ابن جبير** أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير(ت 614هـ): رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك المعروف برحلة ابن جبير، دار ومكتبة الهلال، بيروت، الطبعة الثانية، 1986.

- **ابن حزم** الإمام أبي محمد علي بن احمد المعروف بان حـزم **(ت: 456هـ): الفصل في الملل والأهواء والنحل، الجزء الثاني، تحقيق د. محمد إبراهيم نصر، د. عبد الـرحمن عميـرة، دار الجيـل، بيروت، دون تاريخ.

- **ابن حوقل** أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادي(توفي أواخر القرن الرابع الهجري): كتاب صورة الأرض، منشـورات دار مكتبـة الحياة، بيروت، 1992.

- **ابن الخطيب** لسان الدين محمد(ت 776هـ):

• أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، الجزء الثالث، تحقيق أحمد مختـار العبـادي ومحمـد إبـراهيم الكتاني، الدار البيضاء، 1964.

• معيار الاختبار في ذكر المعاهد والديار، مطبعة شـعبان، المحمدية، المغرب، 1976.

- **ابن خرداذبة** أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله(ت: حوالي 300هـ): المسالك والممالك، تحقيق محمد مخـزوم، دار إحيـاء التـراث العربي، بيروت، 1988.

- **ابن خلدون** عبد الرحمن بن محمد(ت 808هـ):

• كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، الجـزء الأول المعروف بمقدمة ابن خلدون، طبعة دار الجيـل، بيـروت، دون تاريخ.

• كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجـم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبـر، منشـورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعـة الأولى، 1992.

- **ابن رشيق** أبو علي الحسن بن علي بن رشيق القيرواني(ت 463هـ): العمدة في صناعة الشعر ونقده، القاهرة، 1907.

- **ابن سعد** أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي(ت 230هـ): الطبقات الكبرى، 6 أجزاء، راجعه سهيل كيالي، دار الفكر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1994.

- **ابن شبة** أبو زيد عمر بن شبة النميري البصري(ت 262هـ): كتاب تاريخ المدينة المنورة، علق عليه محمد دندل وياسين سعد الدين بيان، الجزء الأول، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1996.

- **ابن الضياء** الإمام أبي البقاء محمد بن أحمد بن محمد ابن الضياء المكي الحنفي(ت 854هـ): تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف، تحقيق علاء إبراهيم الأزهري وأيمن نصرا الأزهري، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1997.

- **ابن عبد ربه** أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه: العقد الفريد، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، دون تاريخ.

- **ابن عبد الحكم** أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم القرشي المصري(ت 257 هـ): فتوح مصر والمغرب والأندلس، المكتبة العربية الفرنسية، الجزائر، 1948.

- **ابن عذاري المراكشي** أبو عبد الله محمد(توفي أواخر القرن السابع الهجري): البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، الجزء الأول، تحقيق ج. س. كولان و إ. ليفي بروفنسال، مكتبة الأندلس، الطبعة الثانية، 1980.

- **ابن الفقيه الهمذاني** أبو بكر احمد بن محمد: مختصر كتاب البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1988.

- **ابن فضل الله العمري** (ت 479هـ): مسالك المصار في ممالك الأمصار، معهد تاريخ العلوم العربية، فرانكفورت، مطبعة شتراوس، هيرشبيرج، 1989.
- **ابن قتيبة الدينوري** أبو محمد عبد الله بن مسلم(ت: 276هـ):
  - كتاب المعارف، نشر وستنفلد جونتجن، 1850.
  - الأخبار الطوال، القاهرة، 1960.
- **ابن هشام** أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري البصري(ت 213هـ) : السيرة النبوية، الجزء الثالث، تحقيق طه عبد الرءوف سعد، دار الجيل، بيروت، 1998.
- **ابن الوردي** زين الدين عمر بن مظفر الشهير بابن الوردي (ت 749هـ): تاريخ ابن الوردي، الجزء الأول، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1996 .
- **أبو زكرياء** يحي بن أبي بكر(ت 500هـ): كتاب سير الأئمة وأخبارهم، تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984.
- **أبو العرب** محمد بن أحمد بن الحارث بن تميم التميمي(ت 323هـ): طبقات علماء إفريقية، نشر الشيخ محمد بن أبي شنب، الجزائر، 1914.
- **أبو الفداء** إسماعيل بن علي عماد الدين صاحب حماة(ت 732هـ): المختصر في أخبار البشر، بيروت، 1956.
- **السلاوي** أبو العباس شهاب الدين أحمد بن خالد بن حماد الناصري(ت 1315هـ) : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء الثاني، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء،المغرب، 1954.

- **الصنهاجي** أبو عبد الله محمد بن علي بن حماد بن عيسى بن أبـــي بكر(ت 626هــ): أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تحقيق جلول أحمد البدوي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.
- **العبدري** محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن مســـعود البلنســـي(توفي أواخر القرن السابع الهجري): الرحلـــة المغربيـــة، تحقيـــق الأستاذ أحمد بن جدو، نشر كلية الآداب الجزائرية، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، دون تاريخ.
- **القزويني** زكريا بن محمد(683هــ): آثار البلاد وأخبار العبـــاد، نشر جوتنجن، 1848.
- **المقدسي** شمس الدين أبو عبد الله محمد بـــن أحمـــد المعـــروف بالبشاري (ت 380هــ): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق محمد مخزوم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1987.
- **المقدسي** مطر بن طاهر: كتاب البدء والتاريخ، نشر كلمان هوار، باريس، 1899.
- **المقريزي** تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر(ت 845هـــــ): المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، جزءان، طبعة بولاق، القاهرة، 1270هــ.
- **النويري** شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب(ت 733هــ): نهايـــة الإرب في فنون الأدب، الجزء الخاص بتاريخ المغرب والأندلس، مخطوط محفوظ بمكتبة كلية الآداب، جامعـــة الأســـكندرية، دون تاريخ.
- **أرسطو** (أرسطو طاليس): السياسات، ترجمـــة الأب أوغســـطين بربارة البولسي، اللجنة الدولية لترجمة الروائع الإنسانية، بيروت، 1957.
- **الإدريسي**الشريف أبو عبد الله محمد بن محمد بـــن عبـــد الله بـــن إدريس(ت 564هــ): نزهة المشتاق في اختراق الآفـــاق(صـــفة

المغرب وارض السودان ومصر والأندلس) ، تحقيــق دي غويــه ودوزي، ليدن، 1866.

- **الأزرقي** أبو الوليد محمد بن عبد الله: أخبار مكــة، الجــزء الأول، تحقيق رشيد ملحس، دار الأندلس، 1385 .

- **الإصطخري** أبو إسحاق إبراهيم بن محمد (ت. ق 4هــ): المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال الحين، القاهرة، 1961.

- **الأصفهاني** أبو الفرج علي بــن الحســين بــن محمــد القرشــي الأصفهاني: الأغاني، الجزء الثاني عشر، دار الثقافة، بيــروت، لبنان، الطبعة الثامنة، 1990 .

- **الألوسي** محمود شكري: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العــرب، الجزء الثاني، بغداد، 1311 هــ.

- **البكري** أبو عبيد الله بن عبد العزيز(ت 487 هــ): كتاب المغرب في ذكر أفريقية والمغرب، طبعة باريس، 1965 .

- **الــبلاذري** أحمد بن يحي بن جابر أبو بكر بن داود البغــدادي، (ت 279 هــ): فتوح البلدان، دار الكتب العلميــة، بيــروت، لبنــان، 1978.

- **الــبلخي** أبو زيد أحمد بن سهل البلخي(ت 322هــ) : كتاب البدء والتاريخ، الجزء الأول والثاني، دار الكتــب العلميــة، بيــروت، لبنان، 1997.

- **الجاحظ** أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الملقب بالجاحظ (ت 255هــ): كتاب الحيوان، الجزء الثاني شرح وتحقيــق الــدكتور يحي الشامي، منشورات دار ومكتبــة الهــلال، الطبعــة الثانيــة، 1997.

- **الحسن الوزان** الحسن بن محمد الوزان المعروف بليون الأفريقي(توفي بعد 957هــ): وصف أفريقيا، الجــزء الأول، ترجمــة د.

محمد حجي، ود. محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، 1983.

- **الحميـــري** أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم : الروض المعطـــار في خبر الأقطار، طبعة بيروت، 1975.

- **الدباغ** عبد الرحمن بـــن محمـــد بـــن عبـــد الله الأنصـــاري(ت 797هــ): معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تونس، 1901.

- **الطبري** أبو جعفر محمد بن جرير(ت 310هــ):

- • تاريخ الأمم والملوك المعروف بتاريخ الطبري، الجزء الأول، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ، 1997.

- • تاريخ الأمم والملوك المعروف بتاريخ الطبري، الجزء الثالث، طبعة القاهرة، 1960 1969.

- **العمـــري** شهاب الدين بن فضل الله : مسالك الأبصار في ممالـــك الأمصار، المجلد الأول، معهد تاريخ العلوم العربية، فرانكفورت، مطبعة شتراوس، هيرشبرج، 1989.

- **القلقشندي** أبو العباس أحمد(ت 821هــ): صبح الأعشـــى فـــي صناعة الإنشا، الجزء الخامس، دار الكتب المصـــرية، القـــاهرة، 1913

- **المالكي** أبو بكر عبد الله بن أبي عبد الله (توفي حـــوالي منتصـــف القرن الخامس الهجري): كتاب رياض النفوس في طبقات علمـــاء القيروان وافريقية، مكتبة النهضة، القاهرة، 1951.

- **المسعودي** أبو الحسن علي بن الحسين بن علـــي المســـعودي(ت 346هــ): مروج الذهب ومعادن الجوهر، الجزء الثاني، تحقيـــق محمد محي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، دون تاريخ.

- **مؤلف مجهول:** كتاب الاستبصار في عجائـــب الأمصـــار لكاتـــب مراكشي من كتاب القرن السادس الهجري، نشره وعلـــق عليـــه

الدكتور سعد زغلول عبد الحميد، مطبعة جامعة الأسكندرية، 1958.

- **بطليموس:** الكتاب السابع نقلا عن دائرة المعارف الإسلامية، مادة مكة.
- **محمود مقـد يش:** نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق علي الزواوي ومحمد محفوظ، ج1، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1988.
- **الاصطخري** أبو إسحق إبراهيم بن محمد: كتاب المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال الحين، القاهرة، 1961.
- **اليعقوبي** أحمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب(ت284هـ):

• تاريخ الرسل والملوك المعروف بتاريخ اليعقوبي، الجزء الأول، تحقيق عبد الأمير مهنا، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، الطبعة الأولى، 1993.

• كتاب البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1988.

– **الواقدي** محمد بن عمر: كتاب المغازي، تحقيق مارسدند جونس، دار المعارف، مصر، 1964 .

ثانيا – المراجـع:

- **أحمد السباعي :** تاريخ مكة، دراسات في السياسة والعلم والاجتماع، الجزء الأول، العبيكان، الرياض، 1999.
- **أحمد شلبي:** مكة المكرمة من التهيؤ لاستقبال دين جديد إلى التنكيل بمن تبعه، مكتبة النهضة المصرية، 1987.

- **الحبيب الجنحاني:** القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية في المغرب العربي، الدار التونسية للنشر، تونس، 1968.
- **جمال الدين الرمادي:** الإسلام في المشارق والمغارب، سلسلة كتاب الشعب، مطابع الشعب، القاهرة، 1960.
- **حسين الشيخ:**
  - الرومان، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، دون تاريخ.
  - العصر الهلنيستي (مصر)، دراسات في تاريخ الحضارات القديمة، دار المعرفة الجامعية، الأسكندرية، 1999..
- **حسين مؤنس:** فتح العرب للمغرب، القاهرة، 1947.
- **حسين عبد الرزاق عباس:** نشأة مدن العراق وتطورها، معهد البحوث والدراسات العربية، المطبعة الفنية الحديثة، 1973.
- **حسن حسني عبد الوهاب:** ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية،القسم الأول ، مكتبة المنار، تونس الطبعة الثانية، 1972.
- **خالص الأشعث:** المدينة العربية، التطور والوظائف البيئة والتخطيط، المنظمة العربية للتربية والتعليم والثقافة، دار العلوم، بغداد، 1982
- **رشيد الناضوري:** المغرب الكبير، العصور القديمة،الجزء الأول، دار النهضة العربية، بيروت، 1981.
- **سامي سعيد الأحمد:** السومريون وتراثهم الحضاري، بغداد، 1975

- **سالم الألوسي** : موجز دليل آثار الكوفة، وزار ة الثقافة والإرشاد، سلسلة الكتب الحديثة، بغداد1965 .
- **سعد زغلول عبد الحميد**: تاريخ المغرب العربي،(ليبيا وتونس والجزائر والمغرب) من الفتح العربي حتى قيام دول الأغالبة والرستميين والأدارسة، دار المعارف، القاهرة، 1965 .
- **سلوى سقال:** نظريات تخطيط المدن، منشورات جامعة حلب، 1993.
- **شكري فيصل:** المجتمعات الإسلامية في القرن الأول، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثالثة، 1973.
- **صالح باجيه:** الإباضية بالجريد في العصور الإسلامية الأولى، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع، تونس، الطبعة الأولى، 1976.
- **صالح أحمد العلي:** محاضرات في تاريخ العرب، الجزء الأول، الدولة العربية قبل الإسلام، والنظم البدوية، حياة الرسول والدعوة الإسلامية في مكة، دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، الطبعة الأولى، 1981.
- **صالح بن قربة**، المسكوكات المغربية من الفتح الإسلامي إلى سقوط دولة بني حماد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.
- **طه باقر**، **فاضل عبد الواحد علي**، **عامر سليمان**، تاريخ العراق القديم، بغداد، الجزء الثاني، 1980 .
- **عاطف عيد:** قصة تاريخ الحضارات العربية بين الأمس واليوم، الجزائر تونس، مجلد 21-22، بيروت، 1988-1999.
- **عبد الجبار ناجي:** دراسات في تاريخ المدن الإسلامية، شركة المطبوعات والتوزيع والنشر، بيروت، الطبعة الأولى،2001 .
- **عبد الباسط بدر**:التاريخ الشامل للمدينة المنورة، الجزء الأول، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، 1993.

- **عبد الغني عبد الرحمن محمـــد:** مكة أم القرى...لماذا؟، دار الفكـــر العربي، الطبعة الأولى، 1990.

- **عبد العزيز سالم:**

•تاريخ المغرب في العصر الإســـلامي، مؤسســـة شـــباب الجامعة، الإسكندرية، 1982 .

•المغرب الإسلامي، سلسلة كتاب الشعب، مطابع الشـــعب، القاهرة، 1960.

- **عبد الفتاح محمد وهيبة:** في جغرافية المدن، دار النهضة العربيـــة للطباعة والنشر، بيروت، 1980.

- **عبد الوهاب حسين،** تاريخ المساجد الأثرية في القاهرة، ج1، مكتبة الدار العربية للكتاب، 1993 .

- **عدون جهلان:** الفكر السياسي عند الاباضية من خلال آراء الشـــيخ محمد بن يوسف أطفـــيش 1236- 1332هـــــ: 1818-1914م، نشر جمعية التراث، القرارة، الجزائر، دون تاريخ.

- **عثمان الكعاك :** الحضارة العربية في حوض البحـــر المتوســـط ، طبعة معهد الدراسات العربية ، تونس، 1965.

- **عصام السعيد:** تاريخ العرب في العصورالقديمة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 2000.

- **فوزي رشيد:** الشرائع العراقية القديمة، بغداد، 1987.

- **لقبال موسى :**
  - الحسبة المذهبية في بلاد المغرب، نشـــأتها وتطورهـــا، الجزائر، 1971 .
  - الموسوعة الوطنية للكتاب، وزارة الثقافة، 1984.
- **لطفي عبد الوهاب يحي:** العرب في العصور القديمة، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1979 .
- **مبارك بن محمد الميلي:** تاريخ الجزائر في القديم والحديث، تقديم وتصحيح محمد الميلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1976
- **محمد حماد :** تخطيط المدن وتاريخه ، مطبعة المعرفة ، القاهرة ، 1965.
- **محمد عبد الستار عثمان،** الإعلان بأحكام البنيان لغـــبن الرامـــي، دراسة أثرية معمارية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1988.
- **محمد محمد زيتون:** القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية، دار المنار، القاهرة، 1988.
- **محمود مطلق:** تاريخ العمارة: العمارة الإسلامية والأوربيـــة فـــي العصور الوسطى، مراجعة د. عبد المعطـــي إســـماعيل، جامعـــة حلب، حلب، 1982.
- **مصعب الزبيري:** كتاب نسب قريش، تحقيق ليفي بروفنسال، سلسلة ذخائر العرب، القاهرة، 1954 .
- **مصطفى العبادي:** محاضرات في تاريخ العـــرب قبـــل الإســـلام، بيروت، دون تاريخ.
- **مصطفى الموسوي:** العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن الإسلامية، دار الرشيد للنشر، 1982.

- **ممدوح درويش، إبراهيم السايح:** مقدمة في تاريخ الحضارة الرومانية واليونانية، ج1، تاريخ اليونان، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، 1998/ 1999.
- **محمد أبو المحاسن عصفور:** المدن الفينيقية، دار النهضة العربية، بيروت، 1981.
- **محمد رشدي**، مدينة العرب في الجاهلية والإسلام، مطبعة السعادة، القاهرة، 1911 .
- **محمد الصغيرغانم:** التوسع الفينيقي في البحر الأبيض المتوسط، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1992.
- **هشام جعيط:** الكوفة نشأة المدينة العربية الإسلامية، دار الطباعة، بيروت، الطبعة الثانية، 1993.

ثالثا- المراجع المترجمة إلى العربية:

- **إرنست آر ألكسندر**، المدخل إلى التخطيط، مدخل إلى نظريات التخطيط المتداولة، ترجمة فيصل عبد العزيز مبارك، جامعة الملك سعود، الرياض، 2001.
- **جان مازيل:** تاريخ الحضارة الفنيقية الكنعانية، ترجمة ربا بخش، دار الحوار، اللاذقية، 1998.
- **دي بورج:** تراث العالم القديم، ترجمة زكي سوس، الجزء الأول، دار الكرنك، القاهرة ، دون تاريخ.
- **لويس ممفورد:** المدينة على مر العصور، ترجمة إبراهيم نصحي، الجزء الأول، دون تاريخ.

- **مارغريت روتن:** تاريخ بـــابل، ترجمة، زينة عـــازار وميشـــال أبـــي فضل، بيروت، دون تاريخ.
- **ماتغيف.ك، سازنوف.ا :** فنيقيا بلد الأرجوان، ترجمة يوسف الجهماني، دار الحوار، اللاذقية، 2001.
- **نكيتا أليسيف:** التخطيط المادي، ترجمة أحمد محمد تعلب، أعمال ندوة المدينة الإسلامية، اليونسكو، باريس، 1983.
- **هنري فرانكفورد:** فجر الحضارة في الشرق الأدنى، ترجمة ميخائيل حوري، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1965.

رابعا – المقالات في المجلات والدوريات العربية :

- **ألبير نصري نادر:** المدينة الكلاسيكية (مدن اليونان والرومان)، مجلة_عالم الفكر، عدد29، 1982.
- **خالد محمد عزب:** تخطيط وعمارة المـــدن الإســـلامية، الدوحـــة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية،1977 ، سلسلة كتاب الأمـــة، العدد 57.
- **محمد البشير شنيتي:** " نظرة على الوضع الديمغرافي والاجتماعي في المغرب أثناء الاحتلال الروماني "، مجلة الدراسات التاريخية . رقم 1 ، 1966.
- **محمد السرياني:** الأسواق في المدينة الإسلامية، مجلة البلديات، عدد 21، 1990.
- **محمد عبد الستار عثمان:**
  - المدينة الإسلامية، مجلة عالم المعرفـــة ، الكويـــت، 1988.

• في شوارع المدينة الإسلامية، مجلة العصور، المجلد الثاني، العدد2، الرياض، 1987.

- **نقولا زيادة:** المدينة الكلاسيكية في المغرب والمشرق، مجلة الفكر العربـــي، عدد29 ، 1982.

- **دولت خنافر:** "المدينة الإغريقية بـــين الواقـــع والمثـــال"، مجلـــة الفكـــر العربي،عدد 29، 1982.

- **سليم عادل عبد الحق:** تشييد بغداد وأثره في فن العمارة والعمران العربي والعالمي"، الحوليات الثرية السورية، المجلد13، 1963.

- **صالح الهذلول:** التحكم في استعمالات الأراضـــي فـــي المدينـــة العربية، ندوة أنقرة، تركيا حول الإسكان في المدينة الإســـلامية،(من 16 إلى 25 يوليو1984)، إعداد مركز الدراسات التخطيطية والمعمارية، القاهرة، الطبعة الأولى، 1986.

- **صالح أحمد العلي:**

• خطط البصرة، مجلة سومر، بغداد، 1952 .

• دراسات أولية مستمرة في المصادر الأوربية، مجلة سومر، بغداد، المجلد الثامن، 1952.

- **عزيز حسن الدليمي:** حفريات البصرة القديمـــة، مجلـــة ســـومر، المجلد الثامن والأربعون، 1996.

- **عبد العال عبد المنعم الشامي:** جغرافية المدن عند العرب، مجلة عالم الفكر، الكويت، 1978 .

خامسا: المعاجم العربية:

- **ابن منظور** أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظـــور الإفريقي المصري(ت 711هـــ): لسان العرب، المجلد الثالـــث، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، 1997.

- **ياقوت الحموي** شهاب الدين أبو عبـــد الله يـــاقوت بـــن عبـــد الله الحموي الرومي البغدادي(ت 626هـــــ): معجـــم البلـــدان، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، 1996.
- **أبو عمران الشيخ وآخرون**: معجم مشـــاهير المغاربـــة، جامعـــة الجزائر، 1995

المراجع باللغة الأجنبية:

أولا: المراجـــع:

- **Aldred Cyril**, Les Egyptiens, et l'empire des pharaons, Armand Colin, 1985.
- **Al fazari**, texte dans les muruj de Massoudi, cité par J. Cuoq dans recueil des sources arabes, paris, 1975.
- **Bancel Serge**, Carthage, Librairie Foyard, 1992.
- **Baradez, J**, Fossatum Africae, vue aérienne de l'organisation romaine dans le sud Algérien, Gouvernement général de l'Algérie, 1949.
- **Barrow, R.H,** Les Romains, Payot, Paris, 1962.
- **Bernard, A**, les capitales de la bérbérie, recueil de mémoires et textes 0publies en l'honneur du 15ème congres des orientalistes, Alger, 1905.
- **Bourouiba, R**, L'Architecture militaire de l'Algérie médiévale, O.P.U, Alger, 1983.
- **Bourouiba, R**, les Hammadites, E.N.A.L, Alger, 1984.
- **Brangan**, Keith, Michael Vichers, La Grèce antique, Paris, s.d.
- **Brunschvig, R**, initiation à la Tunisie, publie sous la direction de J. Despois, Paris, 1950.
- **Brunschvig, R**, La Berbèrie orientale sous les Hafsides, Tome 1, Paris, 1940.
- **Brunschvig, R**, la Tunisie dans le moyen age sa place dans l'histoire, conférence de l'institut d'archéologie orientale, Le Caire, 1948.

- **Brunschvig, et Cavet, M**, et autres, initiation à la Tunisie, publie sous la direction de J. Despois, Paris 1950.

- **Cambuzat,P. L**, L'evolution des cites du tell en Ifrikya du VII° au XI° siecle, o. p. u, Alger, tome 1, 1986.

- **Camps, G**, les Numides et la civilisation punique, in berbères.

- **Camps,G,** Maghreb et Sahara, études géographiques, offertes à Jean Despois, une frontiere inexpliquée la limite de la Berbèrie orientale de la protohistoire au moyen age, extrait à part.

- **Caudel M,** les invasions arabes dans l'Afrique du nord 641-697jc / 78h, Paris, 1900.

- **Cerfraux, L. et Tondriau .J** , du concurrent du christianisme, le culte des souverains dans la civilisation Greco_ romaine, Desclée et lu éditeurs, New york. Rome, 1956.

- **Cintas, P**, Contribution à l'étude de l'expansion Carthaginoise au Maroc, publication de l'Institut des Hautes Etudes Marocaines, Paris, 1954.

- **Coltz,G**, La cité grècque, Paris, 1928.

- **Colin, G.S et. Provençal, E. L**, un manuel hispanique de hisba d'Abu - Abdellah Mohamed Ben Abi Mohamed Assakati de Malaga sur la surveillance des corporations de la répression des fraudeurs en Espagne musulmane, paris , 1931..

- **Courtois, CH**, à la conquête arabe, IIe édition, revue et mise à jour par, Ch, Courtois, Paris, 1942.

- **Courtois, CH**, les vandales en afrique, Paris, 1951.

- **Dachraoui, F**, Le califat fa timide au maghreb296 – 362h / 909 – 973 j. c, histoire politique et institutions, société tunisienne d'édition, Tunis, 1971 .

- **Daumas François**, la civilisation de l'Egypte pharaonique, Arthaut, Paris, 1987.

- **De Grece**, Grèce, M, Ferdinand Nathan, Espagne, s, d.

- **Despois**, J, une frontière inexpliquée, la limite de la Berbérie orientale, de la protohistoire au moyen Age.

- **Despois J**, la Tunisie orientale Sahel et basses steppes, étude géographique, Paris, 1955.

- **Diehl CH** , L'Afrique Byzantine, histoire de la domination byzantine en Afrique, Paris, 1896.

- **Diehl, CH, Marçais,G,** histoire générale, histoire du moyen age, Tome III, le monde oriental de 395 à 1081 j c, P. U. F, Paris, 1896.

- **Djait, H** , Dachraoui. F, Talbi.A, Douib. M, M'rabet. A, histoire de laTunisie, le moyen age, société tunisienne d'édition, Tunis, s.d.

- **Edment Pauty**, villes spontanées et villes crées en Islam, communication faite à l'Institut des Hautes Etudes Marocaine, 1947.

- **Festugiere, A. J**, de l essence de la tragédie grecque, Aubier Montaigne, Paris, 1967.

- **Fustal de Coulanges**, the ancient city, a study of the religion laws instutitions of Greece and Rome, (New york), s. d.

- **Gauthier E. F**, le passé de l'Afrique du Nord, les siècles obscurs, collection petite bibliothèque, Payot, Paris, 1937.

- **Guérin,** voyage archéologique dans la province de Tunis, paris, 1958.

- **Golvin, L,** le Maghreb central à l'époque des Zirides, recherches d'archéologie, Paris, 1957.

- **Golvin L**, le Maghreb central à l'époque des Zirides, Recherches d'Archéologie et d'Histoire, Paris, 1957.

- **Huboc, P**, Carthage, Paris, 1952.

- **Hugo Fisher,** l'aube de la civilisation en Egypte et en Mésopotamie, Paris, 1964.

- **Ibn Hammad**, histoire des rois oubeidites , édition et traduction M. Vanderheyden , Alger , 1927.

- **Julien, C.H.A**, Histoire de l'Afrique du nord, Tunisie, Algérie, Maroc, T2, de la conquête arabe à 1830, 2è édition, Paris, 1964 .

- **Kreswell, K A G** , architecture musulmane primitive, encyclopédie de l'Islam, architecture, N. E, tome 1.

- **Lamens, H**, L'Arabie occidentale avant l'hégire, université St Joseph, Beyrouth, 1928.

- **Lewicki,T**, l'état nord africain de Tahert et ses relations avec le Soudan occidental à la fin du vIIIé siècle, in cahiers études africaines, TII, 1965..

- **Louise Brint Zaidman, Pouline Schmitt Pantel**, La religion grecque dans la cité classique, Armant colin, Paris, 1991.

- **Malet, A**, Histoire de l'antiquité l'Orient - la Grèce- Rome, Hachette, Paris, 1929.

- **Mansour S**, Kairouan d'hier et D'aujourd'hui, Paris VII, 1976.

- **Marçais.G**, Considération sur les villes musulmanes et notamment sur le rôle du muhtassib, recueil art musulman et histoire maghrebine, Alger, 1956.

- **Marçais, G**, Tunis et kairaouan, ville d'art et d'histoire, Paris, 1917.

- **Marçais**, **G**, la bèrbérie musulmane et l'orient au moyen age, Paris, 1946.

- **Marçais G**, l'Architecture musulmane d'occident, Tunisie, Algérie, Maroc, Espagne et Sicile, Arts et Métiers Graphiques, France, 1954.

- **Marçais, G**, manuel d'art musulman, 2 tomes, édition Auguste Paris, 1926.

- **Marçais .G**, L'art en Algérie, imprimerie Algérienne, Alger, 1906.

- **Margueron J.Cl, Pfirch**, L, Le proche Orient et l'Egypte antique, Hachette, Paris,1996.

- **Monet. c**, Rome et la conquête du monde méditerranéen, t II, genèse d'un Empire , P.V.P, 1978.

- **Masqueray**, chronique d'Abou Zakaryya, Alger, 1978.

- **Mercier, F,** Histoire de l'Afrique septentrionale (Berbérie depuis les temps les plus reculés jusqu'à la Conquête française plus reculés), Paris, 1888.

- **Moret, A**, le Nil et la civilisation Egyptienne, Paris, 1926.

- **Nicolet C** : Rome et la conquête du monde medeterranien, genèse d'un empire, sous la direction de Nicolet, c.p. u. f, Paris, 1978.

- **Paul Petit, André Laronde,** Précis d'histoire ancienne, P.U.F, Paris, 1991.

- **Perrin Yves, Bauzou Thomas**, La cité à l'empire : histoire de Rome, ellipses, édition marketing s.a, 1977

- **Picard, CH,** Carthage, S. E. d'édition, 1951.

- **Picard, CH**, la civilisation de l'Afrique romaine, S. E. d'édition, 1952.

- **Ragon M**, L'homme et les villes, Albin Michel, Paris, 1975.

- **Robert Mec Adams**, the evolution of urban society, early Mesopotamia and Prehipanie, (Chicago 1960).

- **Salmon. G**, Introduction topographique à l'histoire de Bagdad, Paris, 1904.

- **Sartre, M, Tranoy, A,** la méditerranée antique_IVè siècle Av. J – c / IIIè siècle ap, J – c, Armand Colin, Paris, 1991.

- **Sauvaget. J**, Esquiss d'une histoire de la ville de Damas, Paris, 1941.

- **Sayous, A**, Le Commerce des européens à Tunis depuis le XIIè siècle jusqu'a la fin du XVI siècle, exposé et document, Paris 1929.

- **Sourdel D et J**, La Civilisation de l'islam classique, les grandes civilisations, Paris, 1983.

-**Sourdel D et J**, "Initiation au Maroc", institut des hautes études marocaines.

- **Talbi, M**, L'Emirat aghlabitde, histoire politique, Paris, 1968.

- **Tlatli S**, la Carthage punique, étude urbaine : la ville, ses fonctions, son rayonnement, Paris, 1978.

-**Terrasse.H**, Histoire du Maroc des origines à l'établissement du prétéctorat français, Casablanca,1950

- **Toynbee Arnold**, cities on the move,(Oxford 1970).

- **Toynbee Arnold**, L'histoire, les grands moments de l histoire à travers le temps, les civilisations, les religions. Paris/ Bruxelles. 1975.

- **Vonderhyden**, la Berbérie orientale sous la dynastie des Banou'l-Arlab 800-909, Paris, 1927.

- **Zerouki,B,** l'Emirat de Tähert, premier Etat musulman du Maghreb,histoire et prospectives méditerranéennes, 1987.

-**Xavier et Planhol**, les fondements géographiques de l'histoire de l'islam , Paris , 1968 .

ثانيا – المقالات في المجلات:

- **Arnoulet, D. F**, notes sur l'histoire de l'agriculture en Tunisie, IBLA, 1965, n 112.

- **Basset, H**, Influences puniques chez les berbères, in revue africaine, 1921.

- **Camps, C**, Réflexions sur la pénétration de la civilisation punique en Numidie, extrait des travaux de l'A.P.E.M.O, 1975.

- **Camps, G**, et p.r. Geot, un poignard chalcolithique au cap Chenoua, in libyca, 1960.

- **Chikh Bekri,** le Harigisme berbère, quelques aspects du royaume Rustumide, A. I. E. O, t XV, 1957.

- **Courtois. CH**, de Rome à l'Islam, in revue africaine, 1942.

- **Despois J,** Kairouan, origine et évolution d'une ancienne capitale musulmane, annales de géographie, 1939 .

- **Fagnan, E** , L'Afrique septentrionale au XII siècle de notre ère description extraite du kitab el istibsar, traduction Fagnane, revue de la société archéologique de Constantine , n° 33 , 1899.

- **Fontar, M Decret, F**, l'Afrique du nord dans l'antiquité des origines au XIIème siécle, in revue africaine, 1981.

- **Gaid, M** , Aguelleds et Romains, in Berbères, Alger , 1972.

- **Hannezo,C**, Notes historiques de Sousse, nécropole, anciens cimetières, suites et fin de la deuxième partie,, Bulletin de la société archéologique de Sousse, 1903.

- **IBN Al- Athir**, Annales du Maghreb et de l'Espagne, Extrait traduit par E. Fagnane, Alger, 1901.

- **Idris,H. R**, examen critique des récits d'Al Maliki et d'Ibn Idari sur la conquête de l'Ifriqiya, arabica, institut français de Damas, 1957.

- **Idris, H. R** , le récit d'Al-Maliki sur la conquête de l Ifriqiya, R. E. I ,Paris,1969.

- **La ville neuve une idée de l'antiquité**. Les cahiers du groupe scientifique, terrains et théories en archéologie C.N.R.S,Université de Paris, Edition Errance, Paris,1988.

- **Le Tourneau**, la révolte d'Abu yazid au Xè siècle, les cahiers de Tunisie, n°2, 2ème trimestre, 1953.

- **Lezine, A,** note d'archéologie Ifriqyenne, Mahdiya, quelques précisions , R. E. I, 1967.
- **Lezine,A,** Mahdya, Recherche d'archéologie musulmane. Collection

archéologique méditerranéenne, Paris, 1965
- **Maitrot, C**, les fortifications nord africaines, les archives berbères publications du comité d'études berbères de Rabat, Fac , N° 3, 1915-1916.
- **Marçais.G**, les villes de la côte Algérienne, et la piraterie au moyen age, A. I. E. O, fac de lettres Alger, tXIII, 1955.
- **Marçais. G**, si Okba, Abu el Muhadjer et Kossaila, les cahiers de **la** Tunisie, 1er trimestre, 1953.
- **Marçais,G**, Sousse et l'architecture musulmane du IXè siècle, A. I. E. O, Alger.
- **Marçais, G** , Fouilles à Abbassiya prés de Kairouan, revue archéologique , 1925.
- **Marçais, G**, et l. poinssot, avec le concours de Gaillard, objets Kairouanais IX au XIII siècle , reliures verrerie , cuivre et bronze , bijoux , notes et documents, n°11, fascul 2 , Direction des antiquités et arts, Tunis, 1952.
- **Marcais, w,** comment l' Afrique du nord à été arabisée, A. I. E. O, Alger, 1938.
- **Massignon** , explication du plan de kufa ,in opéra minora , t 33, t111.
- **Mercier. M**, Sijilmassa selon les auteurs musulmans, in revue africaine, 1963.
- **Mélanges D'Histoire** et d'Archéologie de l'Occident Musulman Hommage à Georges Marçais.
- **Mezzine L,** sur l étymologie du toponyme (Sijilmassa),in Hesperis, 1984, tome XXII.
- **Moessara, P**, " M'sila du Xeme au XVeme siècle",bulletin de la société historique de la région de Sétif, t2 , 1941.
- **Rudhort, J**, du mythe de la religion grecque et de la comphrennon dautrui, Revue européenne des sciences sociales, t 19,Geneve, 1981.
- **Sourdel. D**, Bagdad, in Arabica, t9, 1962.
- **Terrasse H,** Notes sur les ruines de Sigilmassa, in revue africaine, Alger,1936.
- **Terrasse, H** , Citadins et grands nomades dans l'histoire de l'islam ,in studia islamica , n° 29 , 1969 ,.
- **Solignac,M**, Recherches sur les installations hydrauliques de Kairouan et des steppes Tunisiennes, du VII ème au XIIème siècle, A. I. E. O, Alger, tome X, 1952.

- **Zebiss, M**, Mahdyia et Sabra el Mansouriya, journal asiatique, 1956.

.

ثالثا– الرسائل الجامعية:

- **Bouyahia ,C. H**, La Vie culturelle en Afrique sous les Zirides, thèse de Doctorat Es Lettres, Tunis, 1972.

- **Khalef Mohamed Nadjib,** L'Evolution de la ville Maghrébine de la conquête Islamique à la fin des Almohades, doctorat d'état en archéologie islamique, université d'Alger, 2001/2002.

-**Mansour**,**S**, Kairaouan, ville musulmane d'hier et d'aujourd'hui, thèse 3ème cycle de géographie, Paris VII, 1973.

الفهارس

فهرس الخرائــط

فهرس المخططات

فهرس المدن والأماكن

أ

ت

ر

ز

س

غ

ف

ق

ل

م

ن

هـــ

و

ي

فهرس الشخصيات والقبائل

أ

ب

ت

ج

ز

س

ص

ط

ع

م

فهرس الموضوعات

الفصل الثالث

بداية نشوء العمران الإسلامي في المشرق

الفصل الرابع

ظهور العمران الإسلامي وتطوره في بلاد المغرب

الفصل الخامس

عمران سجلماسة(الفترة المدرارية)